المجلـــد العاشـــر

بعـــدديه

١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م

١٠

مطبعة الحكومة ـ بغـداد
١٩٦٢

اللجنة المشرفة

على تحرير المجلة واصدارها

الفهرست

الصفحة

سيادة الزعيم الامين عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد
العام للقوات المسلحة يلقي خطابه التاريخي
في حفلة تخرج طلبة جامعة بغداد
لعام ١٩٦٠ - ١٩٦١

نص الخطاب التاريخى

الذى تفضل بالقائه سيادة الزعيم الامين
فى حفلة تخرج طلبة جامعة بغداد
لعام ١٩٦٠ ـ ١٩٦١(*)

أيتها الطالبات ايها الطلاب .. اسرة الجامعة جامعة بغداد من الاساتذة والعمداء والطلاب والطالبات وكل من عمل جاهدا مخلصا فى سبيل هذه الجامعة ورفع مكانة العلم فى بلادنا .

اننى احييكم واهنىء من تخرج هذا العام وهم جيش جرار من المخلصين الذين سيندمجون مع ابناء الشعب لخدمتهم ولخدمة هذا الوطن الغالى (تصفيق) .

ايها الضيوف الكرام أبناء الشعب فى كل مكان اننا فى هذا اليوم نحتفل باخواننا وأخواتنا الذين تخرجوا من جامعة بغداد وقد احتفلنا باخوانهم فى العام الماضى فى مثل هذا اليوم اذ كان احتفالنا فى يوم ١٥ حزيران سنة ١٩٦٠ وكان عددهم حوالى ١٠٠٠ طالبة وطالب تخرجوا فى هذه الجامعة فى كلياتها ومعاهدها اما فى هذا اليوم فان عدد الخريجين والخريجات قد تجاوز الالف والثلثمائة وسوف يتخرج فى نهاية هذا الصيف حوالي ٣٠٠ آخرون .

ان هذا العدد للمتخرجين والمتخرجات مما يبشر بالخير ومما يجعل اخواننا ابناء الشعب يفرحون معكم ويبتهلون الى البارى عز وجل ان يأخذ بيدكم ويأخذ بيد اساتذتكم وبيد العلماء والمخلصين لرفع شأن هذا البلد عاليا بين الامم (تصفيق) .

وانه لمما يسرنى حقا ان اخواتكم المتخرجات فى هذا العام قد قاربن الربع بين المتخرجين والمتخرجات وانى آمل فى السنة القادمة ان يزاحمنكم مزاحمة عنيفة

(*) جرت مراسيم هذا الاحتفال فى الساعة السادسة من مساء يوم الخميس ١٥ حزيران ١٩٦١ على ملعب المنصور للادارة المحلية فى بغداد .

- ٢ -

ويكون العدد لهن ما يقارب النصف وانا اعددنا العدة لفتح الاقسام الداخلية لاخواتنا اللواتى يفدن الى بغداد من الالوية الاخرى فيكثر عددهن ويزاحمنكم انتم اخواننا يزاحمنكم على تلقى العلم من المناهل العذبة الصافية •

اننى اهنىء الخريجات هذا العام وارجو لهن الخير والتوفيق واننى اذ اهنىء الخريجات والمتخرجين هذا العام فانما اهنىء بهم وبهن جميع الطالبات والطلاب فى انحاء جمهوريتنا الخالدة (تصفيق) •

ايتها الاخوات ايها الاخوان

اننى اذ اتكلم معكم فاننى اقف بكل فخر واعتزاز لاعلن اننا رصدنا الى اهل المعارف والعلم لهذا العام ما ينوف على ٣٠ مليون دينار خصصت لخدمة الثقافة والعلم فى بلادنا (تصفيق) • وهذا المبلغ الجسيم الذى خصص لاهل المعارف والعلم هو اعظم مبلغ خصص فى الشرق الاوسط لاعلاء شأن العلوم واعلاء شأن المدارس والجامعات والكليات والمعاهد •

ان عدد الكليات فى بلدنا فى الوقت الحاضر بلغ ١٣ كلية ولدينا من المعاهد ذات البحوث والتدريس والخبرة ٧ معاهد ولدينا معهدان آخران للبحث فقد بلغ عدد المعاهد ٩ وبلغ عدد الكليات ١٣ كلية ولدينا كلية اخرى هى كلية الطب فى الموصل • اننى آمل ان يزيد عدد الكليات والمعاهد فى السنين القادمة وهذه الزيادة تتوقف عليكم انتم أبناء الشعب تتوقف عليكم أنتم أسرة التعليم أسرة المدارس أسرة الكليات اسرة الجامعات اسرة المعاهد ، تتوقف على مقدار جهودكم واخلاصكم ومثابرتكم من اجل العلم ورفع مكانته •

ان الشعب فد خصص اليكم هذه المبالغ الطائلة خدمة للعلم فعليكم ان تجدوا وعليكم ان تكافحوا وتؤدوا من الخدمات الجلى الى ابناء الشعب ما يوازى هذه المصاريف التى تصرف عليكم عن طيبة خاطر •

اننى اقف بكل فخر واعتزاز عندما اعلن اليكم اننا صنا القضاء فى بلادنا فالقضاء فى بلادنا مستقل ولم يتدخل فى شؤونه أحد غير القضاة وغير أهل الشريعة والعلم (تصميق) •

انا قد صنا القضاء وحميناه من التدخل فى شؤنه منذ انبثاق ثورتنا حتى هذه اللحظة وان الجامعة سوف نصونها من التدخل ونحميها • ان الجامعة ترتبط بالوطن وتنظم امورها على اسس من التعاون ما بينها وما بين المسؤولين خدمة للوطن ولابناء الشعب (تصفيق) •

فما على الاساتذة والعمداء والمعلمين واهل الشرائع والقانون الا ان يدرسوا ويقدموا الينا ثمرة دراساتهم وجهودهم فنمحصها ونتعاون معهم والله يوفق المخلصين العاملين فى سبيل الشعب والوطن (تصفيق) •

انني ادكركم ان البلاد تعتمد اولا واخرا على العلم والاخلاص وعلى الصبر • ان جمهوريتنا لم تقهر الاستعمار وتحطمه فحسب انما اثبتت وجودها وكيانها الى العالم واصبح العالم يشعر بكيانها ويقدرها حق تقديرها واصبحت لها مكانتها فى الخارج والداخل •

انا قد قضينا على الاستعمار وانا نريد ان نقضى على جذوره وعلى العناصر التى تندس فى صفوفه وما القضاء على الاستعمار بأرباب الجهل ان القضاء على الاستعمار يكون بالعلم والمعارف والثقافة والجهود والخبرة وان البلاد ايتها الاخوات ايها الاخوان تنتظر منكم جهودكم واخلاصكم •

ان بعد الثورات وفى كل ثورة ترون عدة ملابسات وظروفا غامضة عويصة تؤخر سير الركب ولكننا قد صمدنا بصبرنا وقوتنا وجهودنا واخلاص المخلصين الذين التفوا حول جمهوريتكم وانا والحمد لله فى هذا اليوم نعلن للعالم ان جمهوريتنا قد رسخ كيانها وانتم ابناؤها انتم شعب الثورة الظافرة المظفرة باشرتم بجيوش جرارة من اهل العلم لحمايتها وصيانتها فالله ينصركم ويأخذ بيدكم ويأخذ بيد المخلصين العاملين الذين يعملون لخير الوطن وصيانة هذه الجمهورية واستقلالها وسيادتها والحفاظ على كيانها من كيد الكائدين ومن دس المستعمرين (تصفيق) •

انا قبل ان نصمم خطط الثورة حسبنا الحساب الى المستقبل وصممنا الخطط ونفذناها بكل جلادة وجد واخلاص وسوف نذود عن هذه الجمهورية التى انبثقت فى صبيحة ١٤ تموز نذود عنها بالغالى والرخيص وبدمائنا ونفوسنا (تصفيق) •

وانا قد حسبنا الحساب الى المستقبل وحساب المستقبل هو الاخذ بيد اهل المعارف والعلم وتخرج الجيوش الجرارة من الطالبات والطلاب الذين سهروا الليالى الطوال لتلقى المعارف وتنمية المدارك ••

ان الذى تعلمتموه هو ليس لشخصكم بالذات ان الذى تعلمتموه هو لابناء شعبكم ووطنكم ان الوطن يتطلب منكم الاخلاص والجهود والمثابرة على تعليم غيركم والاخذ بيد اخوانكم الفقراء •

واننى اؤكد عليكم مرة اخرى الاخذ بيد اخوانكم الفقراء وان مساعدة الفقراء والأخذ بيدهم وبيد المحتاجين لا يكون عن طريق التبرع بأمور مادية لا تستحق الذكر انما يكون بالمعارف والعلم والسهر المتوالى وسهر الليالى الطوال فى تعليمهم والاخذ بيدهم ومناصرتهم ، هذا هو السبيل لخدمة الفقراء والمحتاجين فى بلادنا (تصفيق) •

اننى اهنئكم مرة اخرى وارجو البارى عز وجل ان ينصركم ويأخذ بيد المخلصين من ابناء الشعب دائما وابدا ويرعاهم حتى تعلو كلمة الشعب فاننا قد جئنا فى هذه الثورة بمبادىء واضحة للعيان جئنا لخدمة الفقراء والمحتاجين والاخذ بيدهم وصيانة كرامتهم وحرياتهم ومنع استغلال الفرد فيهم ، اننا جئنا لصيانتهم ورفع مكانتهم واعلاء شأنهم الى مصاف الاغنياء المرفهين العادل •

واننا جئنا للقضاء على الحكم الفردى ومناصرة الحكم الجماعى واننا ماضون فى هذا العزم واننا ماضون بخطوات متزنة حتى نصل الى اهدافنا ، اننا جئنا فانقذنا ابناء الشعب من الوحوش الكواسر ولا نريد ان نلقى ابناء الشعب تحت نير ضوارى كواسر اخرى •

اننا نريد ان نعمل من اجل الشعب وسوف نخطو خطوات متزنة حكيمة حتى نتوصل الى اهدافنا والله ينصر المخلصين ، واننا نعتمد عليكم اننا نعتمد عليكم ايتها الاخوات ايها الاخوان اننا نعتمد على اهل المعارف والعلم كما نعتمد على العمال وعلى الفلاحين والمواطنين الاخرين المخلصين • يسرنى فى هذه اللحظة ان اوزع الجوائز عليكم وارجو ان يزيد عددكم فى العام القادم والله الموفق والسلام عليكم (تصفيق) •

خطاب سيادة الدكتور عبدالجبار عبدالله

رئيس جامعة بغداد فى حفلة تخرج طلبة الجامعة لعام ١٩٦٠ ـ ١٩٦١

سيادة الزعيم الامين

ايها السيدات والسادة :

تحتفل اليوم بمرور السنة الدراسية الثالثة على ميلاد جامعة بغداد • هذه الجامعة التى كانت من أهم مكاسبنا الشعبية التى تحققت بفضل ثورتنا المجيدة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، والتى كان انشاؤها فى هذا الوقت المبكر من عهد جمهوريتنا العزيزة ، وعلى شكلها الحاضر ، من أقوى الدعائم التى ترتكز عليها الجمهورية فى تقدمها من أجل بلوغ أهدافها السامية •

ولهذه المناسبة أهمية خاصة تتميز بها عن سابقتيها ، وددت أن أحصر جل حديثى بها ، فأبرزها واضحة ما تيسر لى ضمن مجال هذه الفرصة السعيدة •

فلقد كان عند تشريع قانون الجامعة أن قصد المشرع اعتبار السنوات الثلاث الاولى سنوات تأسيس وانشاء ، فميزها ببعض الشروط الخاصة واستثناها من بعض الشروط العامة • ولاشك فى أن فترة تأسيس مثل هذا المشروع الجليل حرية بما خصها به القانون من مميزات ، وجديرة بما استثناها منه من أحكام • ثم لاشك فى أن المشرع قد قرن فترة تأسيس الجامعة بفترة تأسيس الجمهورية الفتية ، فاراد أن تكون فترة الانتقال فى الجامعة مسايرة لفترة الانتقال فى الجمهورية نفسها ، ومنسجمة واياها بالاجمال والتفصيل • فمتى اتضح خط الثورة المباركة وتبينت أهداف الجمهورية الخالدة ، وبلغت حياة الناس فيها حالة الاستقرار ، وخفت صوت الرجعية والمغرضين ، وانتهت فترة الانتقال فى الجمهورية ، فلابد من أن تكون الجامعة قد بلغت سن رشدها ووصلت ايام نضجها • وعند ذلك فلابد من أن تفرض لها احكام جديدة ، وأن تثبت فيها قواعد خاصة •

وللاشراف على هذه الفترة ، تم تأليف مجلس الجامعة الحالى ، الذى هو مصدر السلطات فى الجامعة ومنبع الاراء فى توجيهها وتنظيمها •

ولقد أقدمنا جميعا نعمل على قدر ما أصبناه من علم ، وعلى قدر ما تراءى لنا من مصلحة ، يشد من عضدنا اسناد سيادة زعيمنا الامين لنا وثقته بنا . فهو قد آمن برسالة الجامعة فانزلها منزلة خاصة من نفسه واولاها الاولية فى عنايته .

ولقد حددنا واجباتنا ، منذ أن بدأنا فسلمنا بأنها ذات شقين متميزين ، يكمل أحدهما الآخر ، ولا يستقيم أولهما بغير الثانى وليس له أن يستقل عنه .

فالاول : انجاز تنظيم الجامعة تنظيما ماديا وتنسيقها تنسيقا علميا بما ينسجم واهداف الجامعة وبما ينطوى تحتها ، وفق الخطوط العامة التى رسمها القانون . وأحسب أننا قطعنا فى ذلك شوطا ، وأحسب أننا جزنا فيه مرحلة . ولست أقول أننا قد بلغنا الغاية فى هذه الفترة ، فقد بقى الكثير مما يتطلب الانجاز . غير أن معالم العمل واضحة والخطوات من أجله بينه لا اخال فيها التباسا . وقد سبق لى أن تحدثت عن الفلسفة العامة التى سرنا على هديها ، عند قيامنا بهذا الواجب ، فى المناسبتين السابقتين اللتين كانت هذه ثالثتهما ، فلا أجد مناصا من أن أعدى عنها دون الدخول فى تفاصيلها .

فأما الشق الثانى من واجباتنا كما حددناها ، فقد كان اقامة العرف الجامعى الصحيح ، وانشاء التقاليد الجامعية السليمة . فكل مجتمع ، كما تعلمون ، خاضع لاحكام قوانينه المدونة والى احكام قوانين متعارف عليها لا تحتاج الى تدوين أو تشريع . وكذلك الامر فى الجامعة فهى لابد خاضعة الى احكام ما نسميه بالعرف الجامعى ، ذلك الشيء الذى يمتنع على التعريف وانما يتحدد بتكامل صفاته وآثاره . فهو منها كالطاقة من المادة . فالجامعة تظل جامدة حتى يدخلها العرف الجامعى الصحيح فتستحيل مخلوقا يتمتع بصفة الحياة ..

ويتحدد بحكم العرف الجامعى السلوك العام لاعضاء الجامعة والمنتسبين اليها ، واسلوب تعاملهم وعلاقاتهم بعضهم بالبعض الآخر ، وعلاقاتهم بمحيطهم الخارجى ، وما يعلنونه من تصرفاتهم واحوال سلوكهم وما يخفون . كما تتحدد بموجبه سائر مظاهر الحياة ، ومختلف اوجه النشاط البادية فى هذا الكائن الحى الذى نسميه الجامعة .

والعرف الجامعى ، شأنه شأن سائر الصفات . منه ما يورث وراثة ، ومنه ما يكتسب اكتسابا ثم ينمو نموا تدريجيا . فأما ما يورث فلا بد من تقبله كما يأتى ثم

تناوله بالتوجيه والارشاد ، ليجرى فى المجرى الذى فيه للناس نفع ، وفيه للمجتمع فائدة . واما ما هو مكتسب فمرده فى العادة الى عوامل كثيرة كل يضيف اليه على قدر ما يتعلق الامر به . والغالب عليه انه أطوع الى التغيير والابدال ، وايسر فى عملية التوجيه والارشاد . وكل خطأ فى عملية التكوين والارشاد والتوجيه ربما ادى الى وأد الجامعة كرسالة وقتلها كفكرة أو تشويهها كهدف ومثال . وكل ضرر يلحق بالجامعة كفكرة او كرسالة او كهدف يعود بدوره على الجمهورية بأسرها بعواقب ربما فاقت التخمين والحسبان . ومن هنا يتبين مدى خطورة هذا الامر وضرورة التظافر على تثقيفه وتقويمه .

وعندى ان نوعية العرف الجامعى ، وما يتحصل منه معتمدة على ثلاثة عوامل رئيسية ومرتبطة بها ارتباطا واضحا : (١) الهدف الذى تسعى الجامعة من اجله و (٢) المواد الاولية التى تتكون الجامعة منها و (٣) المحيط الخارجى الذى تعيش الجامعة فى وسطه .

فأما هدف جامعة بغداد فربما استطعنا اجماله بأن تكون جامعة تخدم العلم عن طريق ممارسة العلم ، وتعد الشباب للقيام بواجباتهم فى خدمة الجمهورية العزيزة ، وفى اداء ما يترتب عليهم من خدمة للعالم بوصفهم جزءا من هذا المجتمع الانسانى العام . وبالتحرى عن المثل الفاضلة وتبنيها ، وقيادة المجتمع نحوها بالدعوة اليها والعمل من اجلها .

واما المواد التى تكون الجامعة فمؤلفة من طلابها ومن هيئتها التدريسية وسائر المنتسبين الى اسرتها الكبرى . ثم من كافة ما تنتظمه من اسباب ووسائل . وبديهى أن هؤلاء جميعا بما يتميزون به من خواص وصفات ، يحددون نوعية العرف الجامعى واسلوب تكوينه ، كما تتحدد متانة البناء بمواده الانشائية .

ثم ان الجامعة مخلوق يعيش وسط هذا المجتمع العظيم ، فلابد لها من أن تستجيب لاحكامه ومن ان تتأثر بها كما أنها لابد لها من ان تؤثر فيه على قدر ما فيها من زخم . واذن فلابد للعرف الجامعى من أن يجد اصوله فى العرف العام ، ولابد للتقاليد الجامعية من أن تأتى منسجمة مع تقاليد المجتمع الخارجى القريب على الاخص والبعيد على قدر ما يتصل بها . فما بدا منها مناقضا لتلك التقاليد او نابيا عنها ، فقد

حكم عليه بالانحلال قبل ان يتركز ، ولا يعيش من التقاليد الا ما كان صالحا بذاته ، ومنسجما مع التقاليد العامة قادرا على التفاعل معها والنمو فى جوها •

وبلدنا الطيب هذا أعرق موطن لانبل تقاليد جامعية • فما يتجدد لدينا ربما ترسمنا جذوره فى تلك التقاليد القديمة ، وربما بعث بعض ما كمن بعثا عصريا فكان ما استجد •

كما ان بلدنا هذا جزء من هذا العالم الواحد المتقلص فى ابعاده ، والمتمدد فيما يكتشف عنه من حقائق وآراء • واذن فما يستحدث من عرف فى جامعتنا ينبغى ان ينسجم مع الدارج فى سائر جامعات العالم الراقية وان يكون مسايرا له ومنافسا لتقدمه •

وعلى ذلك فنحن فى جامعتنا نختص بميزتين رئيستين : الاولى اتصالنا بماض عريق فى التقدم والابتكار • والثانية وقوع خبرات العالم تحت تصرفنا ننتخب منها على قدر ما يوائمنا وبما يتفق وبيئتنا ويعمل لتحقيق اهدافنا •

الا اننا لابد لنا من ان نعترف بأن هذه البلاد قد مرت عليها قرون طوال رزحت فيها تحت نير الاستعباد ، وغرقت خلالها فى ظلمات الجهل والتأخر • وهى حين استيقظت مع من استيقظ من الشعوب الحية ، تسلمت قيادتها زمر أمرت بغير رشادها • فهى لم تستكمل استقلالها وتبعد المستعمرين عنها الا قبل ثلاث سنوات قصيرات ملئت لها بشتى الأشواك والعقبات •

ومن هنا نشأ ما طفا فوق ذلك التيار النقى الاصيل ، الذى هو تيار الشعب بجوهره، وبما يتصف به من نبل وصفاء • ومن هنا انبعث ما نبا من نغمات تستخف بمبدأ التفرغ للبحث العلمى مثلا ، وتتنكر لسجايا العلم اجمالا ، وتستهجن ما يستجد من تقاليد او ما ينبعث منها ، مما ينتظم فى عرفنا الجامعى الناشىء ، وتحارب ما يتم من تنظيم عام فى محيط اسرة الجامعة ، او تنسيق فى علاقات اعضاء هذه الاسرة بعضهم بالبعض الآخر أو ما الى ذلك مما يكون الصورة من هذه الهيولى الجامعية •

ثم اننى لأرى ان تأسيس العرف الصحيح وانمـــاءه وارساءه كل ذلك ينبغى ان يتم بأسلوب منسجم مع العرف نفسه متفق واياه • بل ان اسلوب الانشاء جزء من العرف ذاته يتعذر فصله عنه أو تمييزه عن سائر أجزائه •

ونحن في الجامعة قد اخذنا بمدأ اطلاق الحرية الاكاديمية دون ان نقر طبع التهافت ، وحرصنا على مبدأ الاستقرار دون أن نؤيد طبيعة الاستفزاز ، وسعينا نحو استكمال الاستقلال من غير ان نتجاهل مبدأ احترام الاسس المرعية والعلاقات العامة بما ينبغي لها من احترام • الا ان لكل تلك احكاما وجوانب لست اريد الدخول فيها ، بل اردت ان اضيف اليسير عما سبق لي ان ذكرته في مناسبات سابقة عن استقلال الجامعة للتأكيد على أهميته ولتوجيه الرأى اليه •

فللاستقلال الجامعي جانبان : استقلال من التدخل الخارجي فيما يتعلق بالمراجع الرسمية والدوائر المعينة • واملنا وطيد بأن حكومة الثورة ، وعلى رأسها الزعيم المدرك الموهوب ، ستتلافى ما انتقص من ذلك وستحققه بالتشريع المناسب في فرصة مواتية •

وشعور بالاستقلال ينمو داخل افراد اسرة الجامعة ، فيؤمنون به ويسعون لتعزيزه ويعملون بموجبه • يقول الاب كولكر المعلم الافريقي العظيم : « نحن في سيراليون نجابه صعوبة كبيرة في سبيل استكمال استقلالنا بعد ان تركنا الانكليز واعترفوا بسيادتنا، تلك هي ان نقنع انفسنا بأننا اناس مستقلون لا دخل للانكليز أو لغير الانكليز بأعمالنا • ونحن لا نأمل ان تجدى المساعدات الاجنبية نفعا في سبيل التغلب على هذه الصعوبة ، فلا بد لنا من أن نتروض حتى يصبح الاستقلال طبعا من طباعنا وحتى يستقر الشعور به في قرارة أنفسنا » واذن فاقامة العرف الجامعي الصحيح لا تستقيم الا عندما ينبعث الشعور بالطمأنينة والاستقلال من داخل المحيط الجامعي نفسه ، والا اذا عاون المحيط الخارجي على انماء ذلك الشعور • وذلك يتطلب بالطبع أن يؤمن المعنيون في ذلك المحيط الخارجي بمبدأ الاستقلال الجامعي وان يدعموه ويعملوا من أجله • فالاعتراف بالاستقلال الجامعي جزء من اعترافنا الذاتي باستقلالنا الناجز العام •

ايها السيدات والسادة :

لقد أدرك المجلس الاول لجامعة بغداد أهمية هذا الجانب في تأسيس الجامعة ، جانب تأسيس العرف الجامعي الصحيح ، وانمائه والتمسك به كما ادرك انه اصعب الشقين في مهمته وهو لم يدخر جهدا في الحرص على سلامة تكوينه والدفاع عنه •

ونحن وقد اشرفنا على نهاية المرحلة التى كلفنا بالاشراف عليها ، لا يفوتنا الا ان ننبه الى أهمية هذا الجانب غير المدون من واجباتنا ، ليتدبره الذين سوف يقع الثقل عليهم من بعدنا فيتعهدوه بما ينبغى ، وبما يتناسب مع أهميته وخطورته •

يقول رالف امرسن : « من الناس من يحسبون هذه الحيـاة مسيرة كبرى يتهيأ لهم فيها عرض انفسهم على المتفرجين • أما انا فلم انتفع بأن اكترث بنقد جاهل او بقول حاقد او حاسد ، بل اننى قد آمنت بمثل واضحة واستهدفت غايات معينة ، فأنفقت الحياة اعرضها على ذاتى وافحص ما انجز بميزان ضميرى المتجرد » •

ابنائى الطلبة الاعزاء :

ذلك ما اوصيكم به وانتم تفارقون جامعتكم اليوم ، واوصيكم فوق ذلك ان تعاهدوا الله على ان تنفقوا حياتكم فى خدمة شعبكم بما تميزتم به من عزة واباء وبما استقر فى وعيكم من اسـتقلال ذاتى ، ووفق ما يتبين لكـم من مثل عليـا ، وبما تعلمتموه فى جامعتكم ، وبالاسلوب الذى يتفق مع العرف الجامعى الصحيح الذى عشتم فيه معنا هذه السنوات • وعلى هدى اهداف الجمهورية السامية على النحو الذى سطره لكم زعيمكم العظيم • والسلام عليكم • •

———— :o: ————

بحث
فى كتاب «كليلة ودمنة» (*)
مآخذ على الكتاب

للاستاذ كمال ابراهيم
عميد كلية التربية
ورئيس قسم الآداب الموحد بجامعة بغداد

ان مما لا مراء فيه ان كتاب « كليلة ودمنة » كان أجل كتاب بلغة العرب وضع منذ بدأت حركة التدوين والتأليف الى عصرنا هذا فى موضوعه وخياله وطريقته واسلوبه وبما ضم من الحكم والعبر والامثال والمغازى التى اجتمعت فيه ، مما لم تجتمع على هذه الشاكلة فى كتاب سواه ، وقد كان ذلك سر بقائه وخلوده ونقله الى معظم لغات العالم قديمها وحديثها ، والى اهتمام الناس به واتخاذهم اياه معلما ومؤدبا على تقادم الايام ومر العصور ، وذلك هو ايضا ما دعا كثرة من أهل الادب وكتاب العرب الى تقليده ومجاراته ، او منافسته ومباراته ، فقصر كل ما وضعوا عن شأوه ، فأخملها او عفى عليها . وظل هو السابق المجلى الى ايامنا هذه ..

على ان الكتاب وان حظى باجماع النقاد من العرب وغيرهم على مكانته التى لا يطا له اليها كتاب آخر ، فانه لم يسلم كأي عمل أو مؤلف من بعض المآخذ التى لا تعد الا شيئا تافها لا تغض في الحقيقة من قدر الكتاب وقيمته وعظيم احسانه .

هذا الى ان منظار النقد مختلف باختلاف الناظر ، وباختلاف الاحكام التي يعتقدها والمقاييس التى يركن اليها ، وهى ليست ثابتة لا تتبدل فى كل عصر ، فقد تخضع فى الغالب الى عوامل البيئة والثقافة والعرف والوجدان والدين ومؤثرات الزمن ، والى الاجتهاد والرأى وغيرها ، فليست الاحكام التى تقرر فى عصر ما من ناقد او أديب يصح ان تتخذ حكما ثابتا مقررا على الكتاب لا يرقى اليه الشك فى نظر علم النقد او فى نظر الاخرين من الناس .

واننا فى طول وقوفنا ازاء سطور الكتاب ، قد وجدنا فى انفسنا اشياء لا يعد فى الحقيقة ايرادها غاضاً من شأنه ، أو قادحاً فى تجويده واحسانه ، ولربما عدها غيرنا من وجوه هذا الاحسان وجمال الطريقة التى اختص بها هذا الكتاب الفذ .

(*) هذا هو الفصل الرابع الاخير من هذه الدراسة وقد نشرت الفصول الثلاثة الاولى منها فى المجلدات السادس والسابع والثامن من مجلة « الاستاذ » على التوالى .
— التحرير —

واليك ذلك :

١ - فى طريقة العرض :

وهى على الغالب طريقة شيقه ممتعة وان كانت تتفق فى فواتح الابواب ومطالع الكلام بصيغ واحدة اذ تبتدىء بقوله : « قال دبشليم الملك لبيدبا : اضرب لي مثل كذا وكذا .. قال بيدبا : زعموا أنه .. الخ ، ويسرد الحكاية وفى تضاعيفها الكثير من الحكم والمواعظ والامثال ، او يستهل الحكاية بالحكمة التى يسوقها لاجلها ثم يعرض للحكاية، وقد ينتقل منها الى غيرها وهكذا ، وهذا التحديد فياستهلال الأبواب على طريقة واحدة لاتتبدل ، ربما ابتعث شيئاً من ملل الالتزام لبداية واحدة فى نفس القارىء ، ولا ريب ان تلوين الكلام وتنويع الاسلوب أبعث للشوق والمتعة والرغبة فى نفس القارىء المتابع من الصورة الواحدة .

ثم اننا نرى ابن المقفع يكثر احيانا من ازجاء الحكم والامثال الى حـــد التخمة ، ويأتى بها متصلة مزدحمة متتابعة حتى كأن الباب دائر على المواعظ والحكم فحسب دون الحكاية والمثل ، وهذا مما يزحم العقل ويتعب الفكر ، وينقل القـــارىء من موضوع القصة المسلية الى موضوع الفكرة الفلسفية والتبصير بالعلل ومسبباتها والنظر فى حقائق الاشياء ، فتكد الذهن وتجهد الخاطر ، على انه فى كثير من المواقف يتنقل بين المثـل والحكاية ، لايغرق فى جانب ولا يقصر فى جانب ، فيجمع بين ما يشوق من الطرفين..

وهو يلتزم هذا فى أكثر ابواب الكتاب . ومـن الابواب التى جمعت اشتات الحـــكم والتقسيمات المنطقية فى شكل زاخر مزدحم ما ورد فى « باب ايلاذ وبلاذ وايراخت » وبخاصة فى المحاورة التى جرت بين الملك ووزيره حول مصير ايراخت ، فان الشطر الكبير من الباب ، قد خص لهذه الحكم والتقسيمات المنطقية حتى يخيل للقـارىء أن كلمات الملك الى وزيره قد وضعت فى تلك الصيغ والعبارات لتناسب تلك الحكم التـى وردت فى اجوبة الوزير وتعقيباته .

ومما يدخل فى طريقة العرض هذه انتقاله من حكاية الى اخرى وتفريع بعض من بعض على وجه متداخل متشابك ، بحيث ان القارىء حين ينتقل بذهنه وخياله مـع هذه الحكايات والحكايات المتفرعة منها يكاد ينسى الاصل الذى سيقت لاجله ، وينسـى ما كان فيه ، كما تجد ذلك فى « باب الثور والاسد » وفى الحكايات التى جاءت علىلسان الناسك فيه ، وفيما ضربه دمنة للثور من أمثال ضمنها حكايات عن الطيطوى ووكيـل البحر وانتقل من ذلك الى حكاية السلحفاة والبطتين ..

وتجد هذا ايضا فى باب الحمامة المطوقة وفيما قصه الجرذ على الغراب والسلحفاة وفى باب البوم والغربان ، وما أورد من الحكايات فى استشارة ملك الغربان لخمسة من ذوى الرأى فى أمر البوم ، وغيرها .

٢ - فى أخيلته وتشبيهاته :

كتاب « كليلة ودمنة » حافل بضروب جمة من الاخيلة الجميلة والتشبيهات الحسنة، وهي فى الحقيقة مع حكمه وأمثاله سدا الكتاب ولحمته ، وخصيصته الاولى ، وهذه التشبيهات والاخيلة وان كان يراد من ورائها تقريب الحقائق الى الاذهان وتصوير المتخيل بصورة الواقع الا انه ينبغى ان يراعى فيها صحة وجه الشبه وصحة التخيل كذلك وصحة المعنى ، والا كان التشبيه ضعيفا ، وكان التخيل فاسدا ، ولا ريب ان جل ما ورد فى الكتاب من تشبيهات واخيلة انما يتصف بهذه الصفة من صحة التشبيه والخيال ويدور على هذا الوجه ، غير اننا لاحظنا بعض وجوه الضعف فى التشبيه والخيال لدى ايراد بعض الحكايات ، وضرب الامثلة .

فمن ذلك ما جاء فى باب الثور والاسد فى موضوع خشية الاسد من صوت شتربة .

قال الأسد لدمنة : « وقد صح عندي من طريق القياس ان جثة صاحب هذا الصوت المنكر الذى لم اسمعه قط عظيمة ، لان صوته تابع لبدنه ، فان يكن كذلك فليس لنا معه قرار ولا مقام . قال دمنة : ليس الملك بحقيق ان يدع مكانه لاجل صوت ؟ فقد قالت العلماء : ليس من كل الاصوات تجب الهيبة . قال الاسد : وما مثل ذلك . ؟ قال دمنة : زعموا ان ثعلبا أتى أجمة فيها طبل معلق على شجرة وكلما هبت الريح على قضبان تلك الشجرة حركتها فضربت الطبل فسمع له صوت عظيم باهر ... الخ » .

يريد ان هذا الطبل الاجوف اذا ضرب ضربا قويا سمع له صوت عظيم ، وكما ان هذا الطبل لا يخيف بصوته فكذلك ينبغى الا يؤبه لصوت الثور ، وليس بلازم ان ينم صوته المنكر عن قوته وضخامته ، ولكن تعليق الطبل على الشجرة وهبوب الريح مهما اشتدت لا يؤدي بأن يضرب بأغصان الشجرة الخضر الثابتة فى حيزها ولها مدى تتحرك فيه بالريح هذا الضرب القوى العنيف بحيث يسمع للطبل دويه الهائل ، حتى اننا لو تخيلنا سقوط حجر صلد على الطبل من عال لما سمع له ذلك الصوت العظيم ، وانما

يسمع له بالضرب الخاص المقصود •

ونجد كذلك ان بعض الحوادث المتخيلة فى الحكاية وقد قررت نتائجها على وجه من الوجوه المستخلصة من جريان الاحوال فى العادة ، لو أريد لها ان تقع حقيقة لكانت أقرب الى المحال منها الى الواقع والمعنى ضعيف مختل ، وليست مما يقرها منطق الأشياء ، والتمثيل ينبغى ان يكون منطقيا صادقا ، ليأتى الحكم على وفاقه ، فمن ذلك مثلا ما جاء فى باب الثور والاسد فى الحديث عن الناسك : « فعجب الناسك من ذلك ومضى حتى دخل احدى المدن فلم يجد فيها قرى الا بيت امرأة فنزل بها واستضافها ، وكانت للمرأة جارية تؤاجرها ، وكانت الجارية قد علقت رجلاً تريد أن تتخذه بعلا لها ، وقد أضر ذلك بمولاتها ، ولم يكن لها سبيل الى مدافعته فاحتالت لقتله فى تلك الليلة التى استضافها فيها الناسك ، ثم ان الرجل وافى فسقته من الخمرة حتى سكر ونام فلما استغرق فى النوم ونام من فى البيت عمدت لسم كانت قد اعدته فى قصبة لتنفخه فى أنف الرجل فلما ارادت ذلك بدرت من أنفه عطسة فعكست السم الى حلق المرأة فوقعت ميتة » •

ولا ريب ان هذه المرأة كانت تستطيع أن تضع السم لقتل الرجل فى طعامه أو شرابه وقد أطعمته وسقته الخمرة فسكر ، أما تحايلها لقتله بوضع السم فى قصبة ثم تنفخ القصبة فى انف الرجل لتسممه ، فان ذلك على افتراض عدم استيقاظه لا يؤدى حتما الى قتله ، وأبعد من ذلك ان يعطس الرجل فينعكس السم بعطسته من أنفه الى فم المرأة ، فما هذه العطسة التى تعيد زرق السم من أنفه الى فم المرأة ••؟ وهل مما يتصور انها كانت قد وضعت فاها فاغرا تجاه انفه حتى يكاد يلامسه او يلتصق به ؟ ، وكيف تقع ميتة بمحض دخول السم او رذاذ منه الى فمها ••؟

ان الحكايات المتخيلة ينبغي الا تجافى طبيعة الاشياء فيما لو أريد لها الوقوع وألا تغاير الفكر المنطقى من حيث سياق الحوادث المتصورة ، وإلا كانت ضعيفة الخيال وكانت خرافتها غير مقبولة •

ومن هذا ايضا قصة طيران الحمامة المطوقة وصاحباتها بشرك الصياد فان الحكاية فى التخلص من البلاء لطيفة ولكنها ضعيفة الخيال كذلك لأنها تقوم على تصور ما لا يتفق وطبيعة الاشياء والمنطق •

ومن التشبيهات الضعيفة ما جاء في باب الناسك والضيف اذ اراد الضيف تعلم العبرانية فنصحه الناسك بترك ذلك وقال له : (ما أخلقك ان تقع مما تركت من كلامك وتكلفت من كلام العبرانية في مثل ما وقع فيه الغراب) وذلك حين أعجبه مشية الحجلة فحاول تقليدها فلم يقدر واختلطت عليه مشيته فاضاع المشيتين • ومعلوم أن من يتعلم غير لغته لايدعو تعلمه ذاك الى نسيان أصل لغته ، فالتشبيه قياس مع الفارق ، وكان الضيف قد سمع الناسك يتكلم بالعبرانية فاعجبته والناسك نفسه لم ينس لغته ، فاولى ان يحتج به نفسه على ما ادعى •

٣ ـ احكام فيها بعض الغلو :

يتأثر الكاتب او الاديب عادة في حكمه على أشياء كثيرة بمؤثرات مختلفة تتصل بالبيئة التي نشأ فيها ، والعرف والعادات والوراثة والقوانين والشرائع والنظم والاوضاع الاجتماعية والسياسية وغيرها ، وقد يكون الحكم على أمر من الامور في عصر ما يختلف عنه في عصر آخر ، وكتاب كليلة ودمنة على الرغم من صحة أحكامه في جملة ما قرر ، فقد بالغ على مانحسب في شيء يسير من هذه الأحكام ، فمن ذلك مثلاً نظرته في تمجيد المال والزراية على الفقر والفقراء ، حتى يكاد يجعل المال كل شيء في حياة الانسان فمن ذلك قوله في باب الحمامة المطوقة : « فقلت في نفسي ما الاخوان ولا الاعوان ولا الاصدقاء الا بالمال ووجدت من لا مال له اذا اراد امرا قعد به العدم عما يريده •• ثم يقول : ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة له ، لان من نزل به الفقر لا يجد بدا من ترك الحياء ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ومن ذهب سروره مقت نفسه ومن مقت نفسه كثر حزنه ومن كثر حزنه قل عقله وارتبك في أمره ومن قل عقله كان أكثر قوله وعمله عليه لا له ومن كان كذلك فأحر به أن يكون أنكد الناس حظاً في الدنيا والاخرة •• ثم يقول : ووجدت الفقر رأس كل بلاء وجالبا الى صاحبه كل مقت ومعدن النميمة ومذهبة للعلم والأدب ومعدناً للتهمة ومجمعة للبلايا ، وليس من خلة هي للغني مدح الا وهي للفقير ذم •• ويردد أمثال ذلك في مواضع كثيرة •

ويبدو أن نظرته هذه مستخلصة من أوضاع المجتمع الذي نشأ فيه ، وعبادة المال ومن سلوك من عرف من الناس ، وواقع الاحوال التي ألفها ، والا فان نظرة الاسلام الى المال ، والى الفقر والفقراء ، تغاير هذه النظرة حيث يعد العمل قوام كل شيء ومعيار قيم الرجال ، والآثار النبوية كثيرة في انصاف الفقر والفقراء وذم من يكتنز الاموال•

ومن هذه المفاهيم التى لم تعدم الغلو فيها نظرته الى المرأة ، ومكانة النساء فى الحياة الاجتماعية ، وتشككه فى سيرتها وسلوكها ، وهى نظرة العصور الغابرة عامة الى الى المرأة حتى أثقل الرجل عليها من الحجب والاستار والسدود والقيود والاقفال ، الى أن جاء الاسلام فرد لها اعتبارها ومنحها حريتها واجاز لها حقوق التملك كالرجل والتصرف بما تملك ، وفتح لها باب المشاركة فى شتى الاعمال والقضايا العامة وساواها بالرجل فى فريضة التعلم ، الى غير ذلك مما هو مبين معروف •

وقد جاء فى غير موضع من الكتاب هذه النظرة الخاصة : فمن ذلك ما جاء فى باب الثور والاسد على لسان كليلة لدمنة « وقد قالت العلماء ان ثلاثة لا يجترىء عليهن الا اهوج ولا يسلم منهن الا قليل : وهى صحبة السلطان وائتمان النساء وشرب السم للتجربة » وجاء فى باب القرد والغيلم قوله : « ولا يقدر أحد ان يجرب مكر النساء ، ولا يقدر على كيدهن وكثرة حيلهن • » وفى الباب نفسه « ان الذهب يعرف بالنار وأمانة الرجل بالأخذ والعطاء وقوة الدواب تعرف بالحمل الثقيل ، والنساء ليس لهن شىء يعرفن به » ويقول كذلك : « النساء لا يوثق بهن ولا يسترسل اليهن » وفى باب الثور والاسد من قول دمنة للثور : « ومن ذا الذى حادث النساء فلم يصب » اى تحل به المصائب •

٤ ــ ضعف الرابطة فى ايراد بعض الحكايات والعبارات :

وهو جد قليل على كثرة ما ساق من هذه الحكايات وفرع وولد ، ولكن بعض هذه الحكايات المفرعة لم تسلم من ضعف الارتباط بما سيقت له ، او كان الارتباط فى وجه من الوجوه وليس المطابقة أو الموافقة كلها ، فمن ذلك مثلاً ما ورد فى باب الحمامة المطوقة فى الحديث الذى جرى بين الضيف والناسك اذ كان الضيف يحدث الناسك عن العجائب التى رآها فى البلاد التى زارها ، وكان الناسك يصفق أثناء كلامه لينفر جرذاً كان قد تحير فىأمره ، وغلبه فما استطاع له حيلة ، فقال له الضيف : « لقد ذكرتني قول الذى قال : لامر ما باعت هذه المرأة سمسماً مقشوراً بغير مقشور » واذا تأملنا فى الحكاية التى أوردها الضيف وقيل فيها هذا القول لم نجد فى ذلك هذه الصلة الوثيقة بين الحكاية وبين ما اوردت من أجله ، الا على تأول بعيد •

ومن ذلك أيضاً اقحام جمل وعبارات في سياق حديث لا صلة لها به ، وربما كان هذا خطأ في الاصل أو اختلاطاً ، فلم ينتبه الى ذلك الناسخون الأولون أو تكون قد سقطت عبارات اخرى فأخلت بسياق الكلام ، فمن ذلك مثلا ما جاء في باب السائح والصائغ . قال : « وان طبائع الخلق ايها الملك مختلفة وليس مما خلقه الله مما يمشي على أربع أو على رجلين او يطير بجناحين او يسبح في الماء شيء هو أفضل من الانسان ، ومع ذلك فربما تحذر العاقل من الناس فلم يأمن احدا منه ، وأخذ ابن عرس فأدخله في كمه وأخرجه من الآخر وأخذ الطير الجارح فوضعه على يده فاذا صاد شيئا أبقى له منه نصيبا . ومن الناس البر والفاجر ومن هؤلاء كل كفور كنود .. الخ فنجد العبارات التي وضعنا خطا تحتها من قوله : واخذ ابن عرس الى قوله : أبقى له منه نصيبا ، مقحمة في هذا وليست بذات صلة بين ما سبقها من الكلام وما لحقها .

٥ - الباس الحيوان غرائز وميول الانسان :

قد سار ابن المقفع في هذا على طريقة القصة الشرقية التي تميزت بها القصص الهندية والفارسية القديمة في استنطاق الحيوان ووصفه بأوصاف الآدميين ، والباسه غرائز الانسان وميوله وخواطره واحاسيسه وهي تخالف الطريقة اليونانية في القصص اليوناني مثلاً كقصص أيسوب ، فحب المال وادخار الدنانير واكتنازها من صفات الانسان والاستظهار بالمال والتقوي به من صفاته كذلك ، وكذلك كل ما ورد في الكتاب من ذكر الرجل والمراة وبعض الاحوال الانسانية الاجتماعية ، تجد ذلك في باب الفحص عن أمر دمنة ، اذ يقول للشعهر وقد آخاه وبلغه موت أخيه كليلة : « فأريد من انعامك ان تنطلق الى مكان كذا فتنظر الى ما جمعته انا واخي بحيلتنا وسعينا ومشيئة الله تعالى فتأتيني به . ففعل الشعهر ما أمره به دمنة ، فلما وضع المال بين يديه أعطاه شطره » ثم يقول : « فأخذ الشعهر ما اعطاه دمنة وانصرف عنه على هذا العهد ، فانطلق الى منزله فوضع المال فيه . »

وتجد مثل هذا في حكاية الجرذ في باب الحمامة المطوقة ، وهو الذي ضاق به الناسك ذرعاً ، فقال له الضيف « فالتمس لي فأساً لعلي أحتفر جحره فأطلع على بعض شأنه ، فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأساً فأتى بها الضيف وأنا حينئذ في جحر غير جحري أسمع كلامها وفي جحري كيس فيه مائة دينار لا أدري من وضعها فاحتفر الضيف حتى انتهى الى الدنانير فأخذها وقال للناسك : ما كان هذا الجرذ يقوى على

الوثوب حيث كان يثب الا بهذه الدنانير فان المال جعل له قوة وزيادة فى الرأي والتمكن ، وسترى بعد هذا انه لا يقدر على الوثوب حيث كان يثب » وكان كذلك فلم يستطع على ما كان قادرا عليه ، وتركته الجرذان التى كانت قد اتخذته رئيسا لها .

ولا ريب ان وصف الحيوان بهذه الصفات والغرائز الانسانية مما يضعف صورة الخيال ، وان كانت هى طريقة القصص الشرقى القديم .

٦ ـ نظرته الى طبقات المجتمع :

يبدو من مضامين عبارات عدة فى الكتاب ان ابن المقفع من المؤمنين بنظام الطبقات الاجتماعية وان الناس من حيث اقدارهم على مراتب ومنازل ينبغى الا يتجاوزوها ، ولا يتطاول أحد الى ما هو أرفع من مرتبته ومنزلته ، وينبغي أن يقنع كل بما وجد فيه ولا يطمع بما سواه ، والا أدى ذلك الى اختلاط الطبقات وضياع المراتب ، وهذا التنويع الطبقي مستمد من اوضاع الاسر وحرف الآباء والاجداد ، وتوجيه ابنائهم بحسبها ، وبحسب اوضاع البيئة الاجتماعية ، والعاقل هو من لا يتعدى طوره ، وعلى الملوك وارباب الامر ان يقروا هذه الاحكام فى نصابها وينتبهوا لها ويمنعوا حدوث ما يخالفها بين الناس ، لان مجاوزة هذه المراتب من ذويها قد يجر الى مزاحمة السلطان والخلاف عليه، وينتهى الى الامر الخطير الجسيم وتفسد الامور ، وهذه نظرة من يؤمن بالحكم الاوتوقراطى وان ليس للرعية رأي فى هذا الحكم ، بل عليها الخضوع والانقياد فحسب ، وهذا يغاير بالطبع روح الحكم فى الاسلام القائم على الشورى ومصلحة الرعية والعدل فيها وانها فى حل من الخروج على الحاكمين اذا خالفوا ذلك .. كما ان النظرة الى المجتمع على أساس الطبقية مغايرة لتلك الروح ومخالفة للشرائع الاجتماعية الصالحة .. وقد ورد شيء من هذا مثلاً فى باب الناسك والضيف حيث قال : «فانه قيل انه يعد جاهلاً من تكلف من الأمور ما لا يشاكله وليس من عمله ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل ولم يعرف به أحد من أهله وذوى قرابته ، فان العاقل لا يتعدى طوره . والولاة ايها الملك وارباب الأمر أولى بالانتباه الى هذا الشأن ومنع حدوثه بين الناس لأن فيه مضرة لهم بما يجرىء

الانفس على منازعتهم فى منازلهم ويغريها بمقاومتهم فى احكامهم ، لما فيه اطماع السفلة فى مراتب أهل الطبقة العالية ومزاحمة اللئيم للكريم والجاهل للعالم والخامل للنسيب والدنيء للشريف الى غير ذلك مما يفضي الى تشوش العالم وفساد الأمور واختلاط الطبقات وضياع المراتب والاقدار ، والامور فى ذلك كله تجرى على مثال واحد ينتهى الى الامر الخطير الجسيم من مزاحمة الملك على ملكه ومضادته فيه .»

كمال ابراهيم

العلّية والاتفـاق
فى رأي الامام الغزالي

للدكتور محمد الهاشمي

أستاذ التاريخ الاسلامى
فى قسم التاريخ

« كان المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى الجمهورية العربية المتحدة قد دعى الى أقامة مهرجان للامام الغزالى وذلك بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لميلاده . وقد اقيم المهرجان فى دمشق فى الفترة الواقعة بين ١١ ـ ١٥ شوال ١٣٨٠ هـ الموافقة للفترة ٢٧ ـ ٣١ آذار ١٩٦١ م . وقد شارك فى المهرجان كل من العربية المتحدة وافغانستان وتركيا والهند والعراق والسودان والاردن ونيجريا وغينيا . وكان الوفد العراقى الى المؤتمر يتألف من كل من سيادة الدكتور مصطفى جواد الاستاذ فى قسم اللغة العربية من كلية التربية والدكتور محمد الهاشمى الاستاذ فى قسم التاريخ فى الكلية . وكان هذا الحديث عن « العلية والاتفاق فى رأى الامام الغزالى » مساهمة الدكتور الهاشمى ـ بأسم العراق ـ فى هذا المهرجان الكبير .

ـ التحرير ـ

تناول الامام الغزالى (الخامس الهجرى) بالبحث مسألة التفاعل بين الاجسام ، كاحتراق الخشب مثلا اذا التقى بالنار ، فذهب الى ان التغير الذى يطرأ على مادة ما ، عندما تتصل بمادة اخرى ، لايرجع الى أن الاولى قد تأثرت بالثانية ، ولا ان الثانية سبب للاولى ، وذلك ان الاقتران فى الوجود بين شيئين لا يقتضى العلية بينهما ، فلا يستلزم اثبات احدهما اثبات الآخر ، ولا نفى احدهما نفى الآخر ، وليس من ضرورة لازمة بينهما بل ان الله سبحانه يخلق الاثر حين يلتقى الجسمان ، وهو قادر على خلق الاحتراق دون لقاء النار [١]

وكان الفلاسفة الطبيعيون فى عصر اليونان يرون ان التغير الذى يحدث فى المواد يرجع فى أساسه الى وجود نظام خاص قائم فى طبيعة هذه المواد وان الاجسام تتحرك فى خلاء غير متناه ، فتتلاقى وتفترق ، ويحدث بتلاقيها وافتراقها الكون والفساد [٢] . وقد

---

(١) الغزالى : تهافت الفلاسفة ٢٧٧ ـ ٨ (بيروت ، ١٩٢٧)

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل/٣/٩٣ ـ ٩ (مصر ، ١٣٦٨)

ظهر هذا الرأى فى صورة مذهب متكامل على يد ديمقريطس الذى أكد وجود تـلازم ضرورى بين الاجسام المتفاعلة ، وانكر وجود المصادفة والاتفاق (١).

والدليل الذى ركن اليه الامام فى هذا المقام : هو ان اقتران ظاهرة ما بظاهرة اخرى لا يدل على اكثر من وجود علاقة زمنية بينهما ، وهذه العلاقة الزمنية لا تكفى لاثبـات وجود علية بينهما . وقد استدرك الامام على نفسه قائلا : ان انكار فعل الطبيعة يؤدى الى جواز وقوع جميع الاشياء ، واستحالة صدور الاحكام عليها ، واختلال القيم والمقاييس التى توزن بها الاشياء ، ثم اجاب على ذلك بقوله : لا مانع من الالتزام بجواز وقوع جميع الاشياء ما دامت هى ممكنة فى حد ذاتها ، وهذا الالتزام لا يؤدى الى استحالة صدور الاحكام عليها ، ولا الى اختلال القيم والموازين ، ذلك ان الحكم والقياس انما يجريان على العادة المستمرة ، لا على الطبيعة القائمة فى الاشياء (٢) .

وقد تصدى ابن رشد (السادس الهجرى) لمناقشة الامام الغزالى فقال : (أ) ان انكار الاسباب الفاعلة فى الطبيعة انكار للبديهيات ، ذلك ان للاشياء ذوات وصفات خاصة تقتضى افعالا معينة ، وهذه الافعال هى التى من اجلها اختلفت ذوات الاشياء وأسماؤها ، فلو لم يكن للموجود فعل يخصه لم تكن له طبيعة تخصه ، ولو لم تكن له طبيعة تخصه لم يكن له اسم يخصه ، وحينئذ تكون الاشياء كلها شيئا واحدا (ب) . على ان تفاعـل الاجسام فيما بينها مقيد بعدم وجود مانع يعوق تأثير بعضها فى بعض : كأن يطلى الجسم القـابل للاحتراق بمادة تمنع تأثير النار فيه ، فيلتقى الجسم بالنار ولا يحدث الاحتراق ، ولكن هذا القيد لا يغير من حقيقة الاشياء وصفاتها (جـ) . أما ما ادعاه الامام الغزالى من ان الحكم على الاشياء انما يكون حسب العادة الجارية بأقتران المسببات بالاسباب فلا يخلو المراد منه : أما عادة الله ، أو عادة الاجسام ، أو عادتنا عند الحكم على الاجسام . فان كان الاول فمحال أن تكون لله عادة لان العادة ملكة يكتسبها الفاعل بتكرر الفعل منه ، وان كان الثانى فالعادة لا تكون الا لذى نفس ، فان كانت فى غير ذى نفس فهى طبيعة ، وهذا ما يريده الفلاسفة الطبيعيون الذين يرون ان للاجسام طبائع خاصة ، واثارا معينة لا تحيد عنها (٣).

---

(١) Rusell : The History of Western philosophy P. 86 (London, 1947)

(٢) الغزالى : تهافت الفلاسفة ٢٨٤ ـ ٥

(٣) ابن رشد : تهافت التهافت ٥١٩ ـ ٢٣ (بيروت ، ١٩٣٠)

والمقارنة بين وجهتي نظر الامام الغزالى وبين اتباع المدرسة الطبيعية تظهر بوضوح أن البراهين التى استند اليها مستقاة من آراء المتكلمين المسلمين قبله • أما الغاية التى قصد اليها من وراء هذا الموقف ، فالظاهر ان الامام الغزالى كان يهدف الى أمرين : أولهما صرف الناس عن علوم الطبيعة لما تنطوى عليه من محاذير ، ذلك أن الضرورة الطبيعية تؤدى الى تحديد القدرة الالهية ، وتحديد القدرة الالهية يؤدى الى استحالة وقوع المعجزات وهذا يؤدى الى نكار بديهيات الدين (١) • أما الهدف الاخر فهو حمل الناس على الاخذ بالمعتقدات الدينية بوساطة التذوق الباطنى (٢) بعد عجز العلم عن اثباتها بالطريق العقلى (٣) • ويبدو ان الغرض الاول لم يتحقق ، فقد زاد الاهتمام بالعلوم الطبيعية (٤) سواء فى عصر الغزالى او بعده • أما بالنسبة الى الغرض الثانى فلا شك أن محاولة الغزالى انما هى استمرار للجهد الذى بذله الاشعرى والباقلانى (الرابع الهجري) قبله(٥) • وهذا الجهد لم يأت بثمرة محسوسة الا فى دائرة ضيقة اقتصرت على حلقات المتصوفة ، فى حين ان العالم الاسلامى ظل يعانى أزمة القلق الفكرى التى استحوذت عليه بعد انتشار العلوم العقلية فيه • فقد كان مسلك التصوف ـ اذا جاز هذا التعبير ـ صعبا : فهو من جهة يستمد كيانه من المزج بين الآراء الدينية والآراء الفلسفية ، وقد عد رجاله عنصراً متميزاً عن رجال الشرع الاسلامي ، هذا الى انه اعتبر خطراً على الشريعة بعد أن خالطته عادات فارسية وهندية (٦) •

والواقع ان مبدأ العلية فى مدلوله الواسع كان محاولة جريئة للكشف عن نظام الكون ، ومعرفة القوى الكامنة فى الطبيعة ، وهو أساس نشأة العلوم والفلسفات التي مهدت لحضارة الانسان • ولعل من المفيد ان نذكر هنا : ان رجال العلم البابليين (الثامن قبل الميلاد) كانوا يرون ان الايقاع الدورى المتكرر الذى يتجلى فى تغير الليل والنهار ،

---

(١) الغزالى : تهافت الفلاسفة/٢٧٦

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام/١٩٧ ـ ٨ (ابو ريده ، مصر ، ١٣٥٧)

(٣) Tritton : Muslim Theology P. 56 (London, 1945)

(٤) Sweetman : Islam & Christion Theology, P. 56 (London, 1945)

(٥) O'leary: Arabic Thought, P. 208 (London, 1939).

(٦) Nöldeke : Shetches from Easteru History, P. 96 ,Tran by : Black, London, 1892)

وفى ظهور البذور واختفائها ، وفى دورة الشمس وحركات الكواكب السيارة ، يدل على وجود نظام للعلية يسير بمقتضاه الكون بأجمعه : الكون المادى والكون الروحى . وقد انتج هذا الاكتشاف الخطير فلسفة الجبرية التى أسرت عقول مجتمعات كثيرة واحدا بعد اخر ، وهى لم تنبذ بعد بالمرة على الرغم من مضى ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة على نشوئها (٤).

أما المدلول الضيق لهذا المبدأ ، وهو الخاص بحقل الطبيعيات فالظاهر أنه وان أكد الضرورة القاضية بالربط بين الظواهر المادية ربطا محكما يكاد يكون أعمى ، الا انه لم يسد جميع المنافذ على الفروض الميتافيزيقيه ، اذ الضرورة الطبيعية لا تنفى وجود قوة وراء الطبيعة ، ولا تعارض فكرة وجود غرض مقصود من خلق العالم ، وغاية ما تستطيع الضرورة أن تقود اليه هو نوع من (اللاأدرية) التى تعترف بعجز العقل عن ادراك كنه الاشياء .

(٤) توينبى : بحث فى التاريخ/٢/٢٢ ـ ٣ (تعريب طه باقر ، بغداد ، ١٩٥٥)

اغاني ابي الفرج الاصفهانى

نظرات فى الجزء الاول منه

الدكتور مصطفى جواد
أستاذ فى قسم اللغة العربية

كتاب الاغانى تأليف أبى الفرج الاصفهانى ركن من الاركان التى يقوم عليها الادب العربى وأكبر المظان للاخبار والاشعار العربية ، وأجمعها لسير الادباء والشعراء فى الجاهلية والاسلام ، فضلا عن سير المغنين والمغنيات والموسيقيين والقيان ، وهو الدرة الواسطة فى عقد الآداب العربية ، والخزانة الضابطة للنفيس من الاخبار والنوادر والآثار . ولذلك عنى الادباء والرواة والمتأدبون والمعنيون بجمع الكتب بهذا الكتاب الكبير الغزير المادة ، المتقن الرواية ، الرائق الفحوى [١] .

وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة بولاق فى عشرين جزءا سنة ١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م ثم وجد جزءا منه ، وهو الحدى والعشرون ، الاستاذ رودلف برونو فطبعه فى ليدن سنة ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٧ م ، وطبع لكتاب الأغاني جميعه فهرست عام ، رتبه الاستاذ جويدى وطبعه فى ليدن سنة ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م موسوما بجداول الاغانى الكبير ، ثم طبع الكتاب فى واحد وعشرين جزءاً بمصر بنفقة السيد محمود الساسى التونسى سنة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م وطبع له فهرس فى أجزاء أخرى . وبعد ثلاث وعشرين سنة صار كتاب الأغاني المطبوع من نوادر المطبوعات فرغب السري الاستاذ السيد علي راتب الى مدير دار الكتب المصرية أن يشارك فى احياء الأدب العربي بأن يطبع طبعة جديدة علمية بنفقته ، ووعد أن يتبرع بالنسخ المطبوعة لدار الكتب ، فأجابته دار الكتب الى سؤله ووكلت طبع الكتاب الى القسم الأدبي فيها ، وشرع القسم فى ضبط الكتاب وتصحيحه وشرح غريبه والتعليق عليه بما هو جدير بمنزلته عند أهل الأدب وادخل فيه من

---

(١) قال ابن خلدون فى مقدمته : « لعمرى انه ديوان العرب وجامع اشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فى من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التى يسمو اليها الاديب ... »

التحسينات وأضاف اليه من الفهارس كل مفيد وقد أخرج الجزء الاول سنة ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٧ م بحلة طبع بهية ، والقسم الادبى الذى كان فى دار الكتب المصرية ، فى عنايته وبحثه وتصحيحه وتحقيقه وتعليقه ، يذكرنا بما كان عليه المشرفون على مطبعة بولاق الاميرية من ضبط المطبوعات واصلاحها وتصحيحها وتقويم الرديء من منسوخها ، وقد بذل القسم الأدبى فى طبع الأغاني مجهوداً فائقاً ، وعني بتقويم نصوصه عناية تامة ، وعلق على غريبه ومبهمه شروحاً وايضاحات صائبة استفاد منها جميع من طالع طبعتهم ، ومن راجعها ونقل منها للتأليف أوالاستشهاد ، هذا وقد فاتت القسم الأدبي أشياء رأيت أن أشير اليها لاتمام الفائدة من مراجعة هذا الكتاب لأنه مرجع عام لعامة دارسي الأدب العربى ومدرسيه والمولعين به فأقول :

١ ـ ذكر القسم الأدبي من رجال دار الكتب المصرية وهم الذين تولوا اصلاح كتاب الأغاني ، كما ذكرت ، فى تصديرهم للجزء الأول تحت عنوان(مختصرات كتاب الأغانى) أن من مختصري كتاب الاغانى « أبا القسم عبد الله المعروف بابن باقيا الكاتب الحلبي المتوفى سنة ٤٨٥ » وقالوا : « قال عنه ابن خلكان : واختصر كتاب الأغاني فى مجلد واحد » .

وقد غلطوا فى تسمية أبى القاسم المذكور ونسبه فانه « ابن ناقيا » بالنون لا « ابن باقيا » بالباء ، وهو بغدادى لاحلبى ، قال ابن خلكان : « أبو القاسم عبدالله وقيل عبدالباقى بن محمد بن الحسن بن ناقيا الأديب الشاعر المترسل اللغوي ، هو من أهل الحريم الطاهري وهى محلة ببغداد وكان فاضلاً بارعاً له مصنفات حسنة مفيدة ... وتوفي ليلة الاحد رابع المحرم سنة خمس وثمانين واربعمائة ودفن بباب الشام ببغداد . وناقيا بفتح النون وبعد الألف قاف مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها مفتوحة وبعدها ألف (١) » وقال أبو الفرج بن الجوزى فى وفيات سنة ٤٨٥ : « عبد الباقى بن محمد بن الحسين ابن داود بن ناقيا أبو القاسم الشاعر من أهل الحريم الطاهري (٢) » ، وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٨٥ أيضاً : « وفى هذه السنة توفي عبدالباقى بن محمد ابن الحسين بن ناقيا الشاعر البغدادي (٣) ... » . وقال شمس الدين الذهبي فى وفياتها

(١) وفيات الاعيان « ١ : ٢٨٨ طبعة بلاد العجم » .
(٢) المنتظم « ٩ : ٦٨ » .
(٣) الكامل « ج ١٠ ص ٧٥ » .

من تاريخ الاسلام : « عبدالباقي بن محمد بن الحسين بن داود بن ناقيا أبو القاسم الحريمي البغدادي الشاعر ، شاعر مجوّد صنف عدة كتب منها تفسير فصيح ثعلب والأغاني الا أنه كان مغترا (١) ... » • وربما كانت الكلمة « معثرا » •

أما لفظ « الحلبي » الذى ذكره القسم الادبي بدار الكتب المصرية فهو فيما أرى تصحيف « الحنفى » لأن ابن ناقيا كان حنفيا ، قال محيى الدين القرشى المصرى : « عبد الله بن محمد بن الحسين بن ناقيا بن داود بن محمد بن يعقوب أبو القاسم بن أبى الفتح • قال ابن النجار : الحنفي المعروف بالبندار الشاعر من أهل شارع دار الرقيق ، هكذا رأيت اسمه بخطه ، ورأيت بخط عبد الوهاب الأنماطى اسمه عبد الباقى ، قال : والصحيح ما كتب بخطه ، كان شاعرا مجودا عذب الألفاظ مليح المعانى وقد جمع شعره في ديوان كبير (٢) ... » • وقال ابن حجر العسقلاني : « عبدالباقى بن محمد بن ناقيا الشاعر ، معروف وقد اتهم بالزندقة نسأل الله العفو ، انتهى • قال بن النجار : عبد الله ابن محمد بن الحسين بن ناقيا (بنون وقاف بعدها مثناة تحتية خفيفة) ابن داود بن محمد ابن يعقوب أبو القاسم بن أبى الفتح (٣) ... » •

وقد وهم فى اسمه الاستاذ مرغوليوث فقد جاء فى معجم الادباء ٢ : ١٦٢ ما هذا نصه : « حدث أبوالقاسم عبدالله بن محمد بن باقيا الكاتب فى كتاب منح المالحة قال : لما خرج عبدالله بن طاهر من بغداد الى خراسان قال لابنه محمد : ان عاشرت أحداً بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فانّ له مروءة (٤) ... » • وعلق مرغوليوث على الاسم بقوله فى الحاشية : « فى كشف الظنون : ابن ماميا » ، والظاهر أنه اعتمد على نسخة رديئة من كشف الظنون والا فقد جاء فى طبعة نظارة المعارف التركية « ملح الممالح (كذا) لأبى القاسم عبد الله وقيل عبد الباقى بن محمد المعروف بابن ناقيا الشاعر » • وتصحف فى « الجمان ... » الى ابن باقيا فى الكشف أيضاً •

ولم يعرف مرغوليوث هذا الأديب حتى يصحح اسمه وقد ورد ثانية فى معجم الادباء على وجه الصحة ولم يستدرك على نفسه فقد جاء فى معجم الادباء ٥ : ٢١٨ ما هذا

---

(١) تاريخ الاسلام « نسخة مكتبة الاوقاف ٥٨٩١ قديم ، الورقة ١٣٨ » •
(٢) الجواهر المضية فى طبقات الحنفية « ١ : ٢٨٣ » •
(٣) لسان الميزان « ٣ : ٣٨٤ »
(٤) معجم الادباء « ٢ : ١٦٢ » طبعة مرغوليوث •

نصه « ومن مليح ما أسمعته أنه قال سألنا أبا القاسم عبد العزيز بن أحمد بن ناقيا البغدادي » قال ياقوت : « هكذا قال عبد العزيز وصوابه عبد الله ، ذكرناه في بابه من هذا الكتاب » . وقد سقطت ترجمته من النسخة التي طبعها مرغوليوث فلم يهتد لوجه من القول يسلكه ، وترك الكلام على حاله من غير تعليق ، وورد اسم ابن ناقيا ثالثة في المطبوع من معجم الادباء فقد نقل ياقوت فيه ٥ : ٢٩٤ ما نصه « قال السلفي قال الرئيس أبوالمظفر الابيوردي أنشدني أبوالقاسم بن ناقيا في ابن فضال المجاشعي المغربي ... » .

٢ ـ فاتهم من مختصري كتاب الاغاني جمال الدين بن خليد الكاتب ، قال مؤلف كتاب الحوادث والوفيات الذي طبعناه غلطا باسم الحوادث الجامعة ـ ص ١١ ـ في حوادث سنة ٦٢٩ : « وفي خامس شوال توفي جمال الدين محمد بن علي بن خليد الكاتب شيخ فاضل عالم بالسير والاخبار كتب بخطه كثيراً وجمع عدة مجاميع واختصر كتاب الاغاني » .

٣ ـ وتكلموا على نسخ الاغاني الخطية ومنها النسخة التي رمزوا اليها بالحرف « أ » وقالوا . « وجد في الجزءين الثاني والسابع عشر هذه العبارة في الورقة الاولى منهما وهي تملكه شرعاً علي بن الأمير الدلقيدي سنة ٦٩٣ هـ » . وضبطوا «الدلقيدي» بالياء ، والصواب « الدلقندي » بالنون ، قال ابن عنبة في أنساب العلويين الخداشاهيين : « منهم السيدان الأميران الجليلان عز الدين طالب وعمد الدين ناصر ... ويعرف كل منهما بالدلقندي . كان لهما جلالة وامارة وتقدما عند السلطان خدابنده بن أرغون تقدما عظيما ... ولهما عقب فمن ولد الأمير طالب الأمير علي[1] ... » .

٤ ـ وذكروا أن من الكتب التي راجعوها لتصحيح طبعة كتاب الاغاني هذه ومقابلة نصوصها كتاب « الكامل » في الأدب لأبي العباس المبرد ، ولما فحصت عن مراجعتهم له ألفيتهم قد قصروا فيها ، مع أن الكامل من أقدم المراجع الادبية في هذا الباب ، مثال ذلك التقصير اغفالهم الاشارة في الصفحة ٧٢ من هذا الجزء الى ورود خبر ابن عباس ونافع بن الازرق في المسجد الحرام ، قال الاصفهاني راويا : « بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الازرق وناس من الخوارج يسألونه اذ أقبل عمر بن

(١) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب « ص ٣١٤ » من طبعة الهند .

أبى ربيعة ... » الى آخر الخبر . وقال المبرد فى الكامل : « ويروى عن أبى عبيدة من غير وجه أنّ نافع بن الازرق سأله عن ابن عبـــاس ، فقال : أرأيت نبى الله سليمان ـ ص ـ مع ما حوّله الله وأعطـاه كيف عني بالهدهد على قلته وضـؤولته ؟ » .. الخ . ثم قال : « ويروى من غير وجه أن ابن الازرق أتى ابن عباس فجعل يسأله حتى أملّه فجعل ابن عباس يظهر الضجر وطلع عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة على ابن عباس وهو يومئذ غلام فسلم وجلس ، فقال له ابن عباس : ألا تنشدنا شيئا من شعرك ؟ فأنشده :

أمن آل نعم أنت غادٍ فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجّر ؟

... حتى أتمّها وهى ثمانون بيتا ، فقال له ابن الازرق : لله أنت يا ابن عبـــاس أنضرب اليك أكباد الابل نسألك عن الدين فتعرض ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه ؟ فقال : تالله ما سمعت سفهاً ...[1] » . الخ .. والذى فى الأغاني أنه قال له نافع : « الله يا ابن عباس ، انا نضرب اليك أكباد الابل من أقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنّـا ، ويأتيك غلام مترف من قريش فينشدك ... » الخ . فالمقابلة بين الخبرين تفيد فائدة من حيث التاريخ منظور ومن حيث النثر مخبور ، ولابد لمعرفة تاريخ النثر العربى من المقابلة بين النصين .

٥ ـ وجاء فى الصفحة ٧٩ قول الاصفهانى ناقلا : « قال اسحاق قال لي الاصمعى : عمر بن أبى ربيعة حجة فى العربية ولم يؤخذ عليه الا قوله :

ثم قالوا تحبّها قلت بهراً   عدد الرمل والحصى والتراب

وله فى ذلك مخرج اذ قد أتى به على سبيل الاخبار . قال : ومن الناس من يزعم أنه انما قال : قيـل لي هل تحبهـــا قلت : بهراً » . وقد علق القسـم الأدبى على قوله « بهراً » بما نصه « أى أحبها حباً بهرنى بهراً أى غلبنى غلبته » . ولم يشيروا الى ورود هذا البيت وقصيدته فى الكامل ولا ذكروا الوجه الثانى للتفسير ، فقد أورده المبرد كما هو آت :

ثم قالوا تحبّها قلت بهراً   عدد الرمل والحصى والتراب

(١) كامل المبرد « ٣ : ١٢٣ ـ ١٣٥ » طبعة المطبعة الازهرية .

جاءت كلمة « النجم » بدلا من « الرمل » . وقال المبرد : « قوله قلت بهراً يكون على وجهين أحدهما : حباً يبهرني بهراً أى يملؤني ، ويقال للقمر ليلة البدر باهر أى يبهر النجوم أى يملؤها كما قال ذو الرمة :

حكمتموه فقضى بينكم أبلج مثل القمر الباهر

والوجه الآخر أن يكون أراد : بهراً لكم أى تباً لكم حيث تلومونني على هذا ، كما قال ابن مفرغ :

تفاقد قومي اذ يبيعون مهجتي بجارية بهراً لهم بعدها بهراً(١)

٦ – وورد فى الصفحة ٨٨ من الجزء المذكور ما نصه « قال الزبير : فحدثنى أبو الهندام مولى الربيعين عن أبى الحارث بن عبد الله الربيعى ... » . فقال القسم الادبى فى الحاشية : « نسخة ت الهيذام . وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست طبع ليبزج ص ٨٢ أبا الهندام وقال ان اسم كلاب بن حمزة ... » . قلت : الذى ذكره ابن النديم هو « أبو الهيذام » يدل على ذلك ما جاء فى معجم الادباء . قال ياقوت : « كلاب بن حمزة العقيلي أبو الهيذام اللغوى ، قال محمد بن اسحاق النديم هو من أهل حران ... وكان أبا الهندام وقال ان اسمه كلاب بن حمزة ... » . قلت : الذى ذكره ابن النديم هو

نفسى تقيك أبا الهيذام كل أذى انى بكل الذى ترضاه لي راضى

... وأنشد الخالدى فى كتاب الديرة لأبى الهيذام : سقياً لحران انه بلد(٢) ... » .

ومن هذا النقل نعلم أن الذى ورد فى الفهرست من كنية أبى الهيذام تصحيف فكان على القسم الأدبى بدار الكتب المصرية أن يرجعوا الى معجم الادباء لأن مؤلفه نقل كلام القوم قديماً .

٧ – وردت فى الصفحة ١٠٣ قصيدة عمر بن أبى ربيعة التى مطلعها :

يامن لقلب متيم كلف يهذي بخود مريضة النظر

(١) الكامل فى الادب « ١٨٤ – ١٨٨ من الطبعة المذكورة » .
(٢) معجم الادباء معجم الادباء « ٦ : ٢٧١ ، ٢٠٩ » .

فلم يشيروا الى ورود ذكرها وأبيات منها فى الكامل « ٢ : ١٢٤ » وبين الروايتين اختلاف ، فمن ذلك قوله كما فى الاغانى :

قالت لترب لهـا تحدثها   لتفسدنّ الطواف فى عمر

وفى الكامل :

قالت لهـا أختهـا تعاتبهـا   لا تفسدنّ الطواف فى عمر

وفى الاغانى :

قالت لها قـد غمزته فأبى   ثم اسبطرت تسعى على أثرى

وفى الكامل : « ثم اسبطرت تشتد فى أثرى » .

٨ ـ وردت فى الصفحة ١١٠ أبيات ثلاثة لابى الاسود الدؤلي ، وقد وردت هذه الابيات فى شرح نهج البلاغة لعز الدين عبد الحميد بن الحديد وهو مطبوع قبل هـذا الجزء من هـذه الطبعة للاغانى ، فكان حسنا أن يشار الى ذلك ، ولكنهم لم يقفوا على الابيات المذكورة فى الشرح المذكور ، وفائدة المقابلة من أعظم الفوائد فى كتب الادب فضلاً عن كتب التاريخ وقد جاء فى الأغانى :

على أن الفـتى نكح أكول   وولاّج مذاهبـه كثيرة

وفى شرح نهج البلاغة : « ومسهاب مذاهبه كثيرة » وقـد استشهد شارح النهج بالابيات من أجل « مسهاب[٢] » قال : « وكان القباع وهو الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة والمخزومى مسهابا سريع الحديث كثيره فقال فيه أبو الاسود الدؤلي ... » وبه يعلم أن كلمة « مسهاب » راجحة على « ولاج » لكونها شاهدا لغويا فى هذا المقام .

٩ ـ ووردت فى الصفحة ١٢١ أبيات لابن أبى ربيعة ، وكان المبرد قد أوردها فى الكامل[٣] . وقد أفاد القسم الادبى فائدة بالاحالة والمقابلة وبين الاغانى والديوان فى نص الابيات ، ولم يشر الى الكامل .

---

(١) الكامل « م : ١٣٣ ـ ١٣٥ طبعة المطبعة الازهرية بعناية ابراهيم الدلجمونى » .
(٢) الكامل « ٢ : ١٨٤ ـ ١٨٨ من الطبعة المذكورة » .

فقد جاء فى الاغانى :

فلمـــا توافقنـا وسلمت أشرقت   وجـوه زهاها الحسن أن تتقنعـا

وفى الكامل :

فلمـــا توافقنـــا وسلمت أقبلت   وجـوه زهاها الحسن أن تتقنعـا

١٠ ـ وورد فى الصفحة ١٢٣ منه بيتان لابن أبى ربيعة هما :

قـــال لي فيهـا عتيق مقـــالا   فجرت ممـــا يقـــول الدموع
قال لي ودّع سليمى ودعهـــا   فأجـــاب القلب لا أستطيـــع

ولم يشر القسم الادبى مع الابيات الاخرى فى الكمل « ٢ : ١٨٠ » قال المبرد : « وقال عمر بن أبى ربيعة :

ليت شعرى هـــل أقولن لركب   بفـــلاة هـــم لديهـــا هجـوع ؟
ان همى قـــد نفى النـــوم عنى   وحـــديث النفس شيء ولـــوع
قال لي فيهـــا عتيـــق مقـــالا   فجرت ممـــا يقـــول الدموع
قـــال لي ودع سليمى ودعهـــا   فأجـــاب القلب لا أستطيـــع
لا تلمـــني فى اشـــتياقى اليهـــا   وابك لي ممـــا تجـــنّ الضـلوع

١١ ـ وورد فى الصفحة ١٢٢ بيتان للشاعر المذكور يقول فى اولهما « أيها المنكح الثريا سهيلاً » وقد ورد البيتان فى الكامل « ٢ : ١٨٠ » ايضا فلم يشيروا الى ذلك .

١٣ ـ وورد فى الصفحة ١٢٢ قوله :

سئمونا وما سئمنا جواراً   وأحبـــوا دمائة وسهولاً

فعلق القسم الادبى على « جواراً » قوله : « فى نسخة ح ونسخة ر سقاماً وفى ديوانه ببين » . وذهلوا عن أن البيت ورد فى الكتاب قبلا ـ ص ١٠٦ ـ وأنه :

سئمونا وما سئمنا مقـــاماً   وأحبـــوا دمائة وسهولا

وبذلك علمنا أن « سقاماً » التى أشاروا الىورودها فى نسختين انما هى « مقاماً » ، فصحفت .

١٤ ـ وورد في الصفحة ١٦٩ في أخبار ابن أبي ربيعة « فأخرجت اليّ صندوقا لطيفا مقفلا مختوما ... ففتحه عمر فاذا هو مملوء من المضارب وهي الكيرنجات واذا على كل واحد منها اسم رجل من مجان مكة ... » . فقالوا في الحاشية : « الكيرنجات جمع الكيرنج وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين هما كير بمعنى عضو التناسل ورنج وهو بالفارسية رنك ومعناه الشكل واللون وذلك مثل نيرنج ... » . قلت : أحسب الصحيح « الكيرپيج » بالباء الفارسية والجيم وقد تصحفت أيضاً في محاضرات الراغب الاصفهاني ، فقد جاء فيه ما هذا نصه « الكيربيخ : جاءت امرأة الى ربيعة الرأي فقالت ما تقول في الكيربيخ ؟ فقال : اعزبي قبحك الله ... ومرّت امرأة بمخنث ومعها كيربيخ ...[1] » . وقد راجعت بعض المعجمات الفارسية المفسرة بغير الفارسية فوجدت « الكيرپيج » أصدق الصور دلالة على المراد .

١٥ ـ وجاءت في الصفحة ٢٠٧ أبيات لابن أبي ربيعة يقول في أولها :

ودع لبابة قبل أن ترحلا واسأل فن قلاله أن تسألا

وقد ذكر المبرد في الكامل منها ثلاثة أبيات « ٢ : ٢٠٥ » وبين الروايتين اختلاف يسير ولكنه ضروري عرفانه لدارسي الأدب ومؤرخي الشعر ومختاريه والمحققين .

١٦ ـ وجاء في الصفحة ٢٢٢ خبر عمر بن أبي ربيعة والثريا بنت علي وابن أبي عتيق ، وقد ورد الخبر في أمالي الشريف المرتضى « ٢ : ٢٢ » وقد يبدر الى الذهن أن المرتضى نقله من كتاب الأغاني أو رواه عن صاحب الأغاني بالواسطة فلا حاجة الى مراجعة كتاب الامالي ، غير أن المقابلة تنفي ذلك . ففي الاغاني وردت هذه الجملة « وما حلاوة الدنيا ان تمّ الصدع بين عمر والثريا » . وفي الامالي « ومن ملح الدنيا أن يلتئم الصدع بين عمر والثريا » وبينهما بون ظاهر ، وكذلك القول في كلمات أخرى ، الا أنهم لم يشيروا الى ورود الخبر في الأمالي المرتضيّة لكي يسهل على المطالع المدقق مراجعتها .

١٧ ـ ورد في الصفحة ٢٣٩ ما نصه « وأم الوليد وسليمان ولادة بنت العباس بن جزي بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسي » . قالوا في التعليق على جزي : « كذا

---

(١) محاضرات الادباء ومحاورت الشعراء « ٢ : ١٢٣ بالمطبعة الشرقية » .

في أغلب النسخ ولم نعثر على ضبطه ، وفي شرح القاموس ، مادة جزى أنه سمي بجزي كسمي وبجزي كعدي ... وفي الطبرى ... جزء بالهمز وفي العقد الفريد ... حربى وقد ورد أنه سمي بكل ذلك » .

قلت الصحيح أنه « جزء » كما ورد في تاريخ الطبرى ونقله المصححون بغير تثبت منهم في أمره ، وضبطه مذكور في تاج العروس فكيف لم يجدوه ، قال مؤلفه : « وقد سمّوا مجزأة وجزءاً بالفتح منهم جزء بن الحدرجان ... وعبدالله بن الحارث بن جزء ... » فهو وإن لم يذكر بالتخصيص مذكور بالاعمام ، وقد نصّ عليه بعض الكتب المختصة بمثل هذا الأمر (١) .

١٨ - وورد في الصفحة ٢٧٠ قول ابن أبي ربيعة :

فلم أر كالتجمير منظر ناظر ولا كليلي الحج أفتنّ ذا هوى

فعلق القسم الادبى على « التجمير » بقوله : « التجمير : رمي الجمار » . وها هنا تتعاظم قيمة مراجعة النصوص التى عددناها ضرورية في طبع الكتب الأدبية فضلاً عن التاريخية ، فأي جمال في منظر الناس حين يرمون الجمار ؟ لابد أن يكون الجمال في تجمير النساء ، فمن معاني التجمير « التجميع » وأراد به الشاعر الجمع بين النساء والرجال في الحج ، وقد ذكر المبرد في الكامل هذا البيت وما معه من الابيات وهي :

وكم من قتيل لا يباء به دم ومن غلق رهنا اذا ضمه منى

وكم مالئ عينيه من شيء غيره اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

أوانس يسلبن الحليم فؤاده فيا طول ما حزن ويا حسن مجتلى

يجرّرن أذيال المروط بأسؤق جذال اذا ولّين أعجازها روى

فلم أر كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج أفتنّ ذا هوى

(١) جاء في جمهرة انساب العرب لابن حزم (ص ٢٣٩) في نسب عيسى « وولادة بنت العباس بن جزء ابن الحارث بن زهير ، أم الوليد وسليمان أبني عبد الملك وابن عمها القعقاع بن خليد بن جزء بن الحارث بن زهير » . وقد جزم بصحة « جزء » محقق كتاب « الفاضل » من تذييل مؤلف الكامل « ص ١١٤ » .

ثم قول المبرد : « وقوله : اذا راح نحـو الجمرة البيض كالدمى ، الجمرة انمـا سميت لاجتماع الحصى فيها ، ومن ثم قيـل : لا تجمرّوا المسلمين فتفتنوهم وتفتنـوا نساءهم أي لا تجمعوهم في المغازى ، والتجمير التجميع (١) » .

١٩ _ وجاء في الصفحة **٢٧١** قول عنترة بن شداد العبسى :

فتركته جزر السباع ينشنه ما بين قلّة رأسه والمعصم

وراوية جمهرة أشعار العرب ص **١٩٥** _ « يعجمن حسن بنانه والمعصم » قال مؤلف الجمرة المذكورة : « العجم : العض » . ولم يشر القسم الأدبي الى هذه الرواية .

٢٠ _ وورد في الصفحة **٢٩٠** ما هذا نصه « قال : علي العهد ان لم يكن وترها من معى بشكست النحوى فكيف لا يكون فصيحا ؟ » . فقال القسم الادبى فى التعليق على بشكست : « كذا ضبط فى نسخة س ولم نعثر على ضبطه فى موضع آخر » . قلت : ولم يعثروا على اسمه قال القفطي : « عبدالعزيز القاريء الملقب بشكست المدني النحوي الشعر ، أخذ عنه أهل المدينة النحو وكان يذهب مذهب الشراة ويكتم ذلك فلما ظهـر أبو حمزة الشاري بالمدينة خرج معه فقتل فيمن قتل » . وقال الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم فى الحاشية : « ترجمته فى تلخيص ابن مكتوم **١١٠** وتاريخ ابن عساكر **٢٤** : **٢٧٣** » . ولم يفطن لورود اسمه فى الاغانى ، ولا لوروده فى شرح نهج البلاغـة لعز الدين عبد الحميد بن أبى الحديد ، قال هذا الشارح ناقلا من الاغانى فى أخبـار أبى حمزة الشارى : « وقد كان اتبعه على رأيه قوم من أهل المدينة وبايعوه منهم بشكست النحوي فلما جاء قتله وثب النـاس على أصحابه فقتلوهم وكان ممن قتلوه بشكست النحوى ، طلبوه فرقي فى درجة دار فلحقوه فأنزلوه وقتلوه وهـو يصيح : يا عباد الله فيم تقتلونيَ ؟ فقيل فيه :

لقـد كان بشكست عبد العـزيز من أهـل القـراءة والمسجـد
فبعـداً لبشكست عبد العـزيز وأما القـران فـلا يبعـد (٢)

---

(١) الكامل « ٢ : ١٧٧ _ ١٧٩ من الطبعة المذكورة » .
(١) ابناه الرواة على أبناه النجاة « ٢ : ١٨٣ » .
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد « ١ : ٤٦١ طبعة البابى الحلبى الاولى » .

٢١ - ووردت فى الصفحة ٣١٨ أبيات رائية أربعة لعروة بن أذينة أولها .

سرى همي وهم المرء يسري وغاب النجـــم الا قيس فتر

وقد وردت الابيات الاربعة فى الكامل « ٢ : ١٩٣ » مع اختلاف فى الرواية ، فلم يشر القسم الأدبي الى الورود ولا الى الاختلاف فى الرواية .

٢٢ - وجاء فى الصفحة ٣٣٨ « قال : حمل عبد العزيز بن مروان النصيب بالمقطم مقطم مصر على بختي قد رحله بغبيط فوقه وألبسه مقطعات وشي ... » . فعلقوا على كلمة الغبيط : « الغبيط الرحل وهو للنساء يشدّ عليه الهودج والجمـــع غبط » . قلت جاء فى جمهرة أشعار العرب فى شرح قول امرىء القيس - ص ٩٠ - « تقول وقد مال الغبيط بنا معاً ... » . ما هذه صورته « الغبيط مركب من مراكب النساء ويقال لمركب الرجل والمرأة جميعاً » . فتأمل ذلك تجد عدم اختصاصه بالنساء .

٢٣ - وورد فى الصفحة ٣٦٢ « دخل نصيب على ابراهيم بن هشام فأنشده مديحاً له ، فقال ابراهيم : ما هذا بشىء ، أين هذا من قول أبى دهبل لصاحبنا ابن الازرق حيث يقول ... » . ولم يعرفوا ابن الازرق ولا ذكروا اسمه ، وكذلك تركوه فى فهرست الناس من هذا الجزء - ص ٤٣٩ - فقد جاء فى الصفحة المذكورة « ابن الازرق ، مدحه أبو دهبل ٣٦٢ » والتحقيق أنه « عبد الله بن عبد الرحمن بن الازرق » قال ابن قتيبة : « أبو دهبل الجمحى هو وهب بن ربيعة وكان شاعرا محسنا وأكثر أشعاره فى عبدالله بن عبد الرحمن بن الازرق والي اليمن (١) » .

٢٤ - هذا وقد أخذ القسم الادبى أحيانا بالوجوه الضعيفة من اللغة ، كضبطهم الفعل « يضن » بمعنى يبخل بكسر الضاد « ص ٣٢ » فقد جاء فى مختار الصحاح « ضنّ بالشيء يضنّ بالفتح ضناً بالكسر وضـــنانة بالفتح أى بخل فهو ضـــنين ، وقال الفراء : ضنّ يضنُ بالكسر ضناً لغة » وكقولهم « الاربعةَ الابياتِ » والاربعة منصوبة بحسب المشهور ، ولكنهم جرّوا « الأبيات » بعدها على الاضافة مع أن الاضافة ها هنا ينبغي أن تكون معنوية لا لفظيـــة ، فلا تدخل « أل » على المضـــاف ، وبعضهم أجاز الجرّ . قال

---

(١) الشعر والشعراء « ص ٢٣٥ طبعة السقاء » .

الجوهري في خ م س من الصحاح : « وتقول عندي خمسةُ دراهم برفع الهاء وان شئت أدغمت التاء في الدال ، فإن عرفت الدراهم لزم رفع الهاء ولم يجز الادغام لأن اللام أدغمت في الدال فلا يمكن ادغام التاء فيها (الخمسة الدراهم) ... وتقول : هذه الخمسة الدراهم بجرّ الدراهم وان شئت رفعتها وأجريتها مجرى النعت وكذا الى العشرة » . فهذا الذي ذكره الجوهري إن شئت هو الوجه العربي الفصيح عندي ، وكضبطهم « يوقع بالقضيب » ـ ص ٢٤٩ ـ بتشديد القاف وكسرها والفصيح تخفيفها وكسرها ، والمصدر الايقاع فهو مصدر الرباعي ذي الهمزة لا المضعّف .

وهذه الملاحظات القليلة الضرورية النشر ليست الا تنبيها على ضخامة هذا العمل الادبي الباهر . فإن نظرة واحدة الى الجزء الاول من الاغاني ، من طبعة دار الكتب المصرية تكفي في معرفة المجهود الكبير والمساعي الكثيرة المبذولة في اخراج هذا الجزء في هذه الهيأة الرائعة والسبر الفائق ، وموعدي الجديد مع القارىء الكريم في الجزء الجديد من هذه المجلة لنقد الجزء الثاني من الاغاني .

مصطفى جواد

خرائط جغرافى العرب الاول

للدكتور ابراهيم شوكة

رئيس قسم الجغرافية الموحد
فى جامعة بغداد

لا اريد ببحثي هذا ان اتعرض لتأريخ الخرائط فى بابل العراق ولا الخرائط التى وضعت فى مصر على عهد الفراعنة وكلها اقدم ما عرفه الانسان والمعروف المتداول منها عدة أهمها خمس وجدت فى أرض الرافدين (١) احداهن تمثل الارض كدائرة وفي وسطها بابل وعليها الفرات والاخرى خريطة تسوية اراضى ، واخرى لمدينة نفر ، واخرى خريطة بابلية لتسوية الاراضى ، واخرى ترى مجارى وجبال . أما الخريطة المصرية فتمثل مناجم الذهب ووضع الارض الطبوغرافى وطرق المواصلات ، ووضع المناجم ممثلا بمقطع عمودى (٢) .

سأقصر بحثي عن الخرائط الجغرافية عند العرب من بعد الاسلام ، بعد ان استقرت امور الدنيا لهم وكادت فتوحاتهم ان تتم ويتوطن اكثرهم فى مختلف ارجاء امبراطوريتهم التى فتحوا ابوابها وانصرفوا الى تدبير أمورها واعمارها مما يتطلب الاطلاع الواسع على طبيعتها وادراك حقيقة واقعها . ومن الناحية الجغرافية كانت الحاجة ماسة الى مسح الاراضى وتثبيت حدودها وتعيين ملكيتها ومقدار خراجها ، ثم تثبيت طرق المواصلات (المسالك) واحصاء المراحل والمنازل وتنظيم البريد بين كل قرية وقرية ومدينة ومدينة . ومعرفة الانتاج الزراعى والصناعى واى الديار تمتاز بهذه الانواع او تلك فى سبيل التبادل التجارى وتوزيع المنتجات على أسواقها التى تنفق فيها ، وبالاضافة الى هذه الحاجة العملية الملحة نجد من عنى باخبار البلدان كمعرفة لها قيمتها العلمية والثقافية فالجهل عندهم منقصة وطلب العلم فريضة والتحلى به زينة ما بعدها زينة . فنشأت من بينهم طبقة ذات خبرة واختصاص فى هذا العلم واختص بعضهم بديار معينة عرفت عنهم الخبرة فى امورها . واصبحوا ثقة وحجة باخبارها يؤخذ عنهم علمها . ولم تكن هذه الحال امرا جديدا بالنسبة للعرب بل هى استمرار لما كانت عليه العرب قبل

---

(١) راجع العراق فى الخوارط القديمة للدكتور احمد سوسة . طبع المجمع العلمى العراقى خريطة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

(٢) مابا اربيكا — لمؤلفه مللر . الجزء الاول .

الاسلام وابان فجر الاسلام من ولعهم بجمع اخبار البلدان من جهة وتذاكر ما هو موجود فى الجزيرة العربية — ديارهم الاصلية — فى بادى الامر من جهة اخرى • وان قسما كبيرا ممن عاش فى ظل الدولة الاموية واوائل الدولة العباسية جمع بين اخبار الجزيرة والبلدان التى فتحت وان أكثرهم كان يروى اخبارها عن ثقاة العلم بها ثم تنقل عنه الرواية باسنادها ايضا وهكذا • فلا عجب اذن ان نجد ان اول خريطة وضعت فى الاسلام يقوم بها اناس ممن توفرت فيهم الصفات التى ذكرت آنفا •

فرسمت خريطة الديلم للحجاج بن يوسف الثقفي — والي العراق على عهد عبدالملك بن مروان والوليد الاموي — بأمر منه وضعها اناس لم تصل الينا اسماؤهم بالذات — وقد ذكر ابن الفقيه [١] الهمدانى فى كتابه (البلدان) ما نصه : (وبعث الحجاج بن [٢] يوسف الى وفد الديلم فدعاهم الى ان يسلموا او يقروا بالجزية فأبوا فامر ان تصور الديلم سهلها وجبلها وعقابها وغياضها فصورت له فدعا من قبله من الديلم فقال ان بلادكم قد صورت لى فرأيت فيها مطمعا فأقروا لى بما دعوتكم اليه قبل ان اغزيكم الجنود فاخرب البلاد واقتل المقاتلة واسبى الذرية فقالوا أرنا الصورة التى اطمعتك فينا وفى بلادنا فدعا بالصورة فنظروا فيها فقالوا قد صدقوك عن بلادنا هذه صورتها ، غير انهم لم يصوروا فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال وستعلم ذلك او قد تكلفته فاغزاهم الجنود وعليهم محمد بن الحجاج ... الخ) •

ولم تكن العرب آنذاك تعرف كلمة (خريطة) بغير معناها اللغوى وهو الحقيبة التى تجمع وتحمل بها الكتب والرسائل أوأى حاجة اخرى من متاع ، أما الكلمة الدالةعلى معناها المألوف لدينا الان فمتأخرة جدا فلم يستعملوا قديما للدلالة على هذا المعنى غير كلمة « الصورة » أو « الرسم » أو « رسم المعمورة » أو « لوح الرسم » وشاعت هذه التسميات بين الناس فى القرن التاسع والعاشر وامتد استعمالها عند العرب فى ايام متأخرة فى التأريخ حيث حلت كلمة الخريطة او « الخارطة » [١] بديلها من بعد قرون •

---

(١) راجع صفحة ٢٨١ من كتاب البلدان — لابى بكر احمد بن محمد الهمدانى — دى غويه ، لايدن ١٣٠٢ هـ • ويسمى المؤلف بابن الفقيه ايضا • والكتاب المذكور مختصر من خمسة مجلدآت فقدت توفى عام ٢٩٠ هـ

(٢) كانت ولاية الحجاج على العراق من سنة ٦٩٤ م وقد وقع الحادث المذكور من بعد بناءواسط وتمصيرها (من بعد ٨٤ هجرية) بمدة •

(١) وهى التى تقابل بالافرنجية (Karte Carte Chart) الانكليزية والفرنسية والالمانية • ومخارج لفظ خريطة او خارطة اقرب الى اللفظ الالمانى •

وللمرة الثانية ينبئنا التاريخ ان خريطة اخرى صنعت لغرض الرى على عهد الخليفة ابى جعفر المنصور بالله العباسى وعرفت هنا كذلك بالصورة ، فلقد جاء فى فتوح البلدان [١] مانصه (قالوا لما اتخذ سليمان بن علي المغيثة أحب المنصور [٢] ان يستخرج ضيعة من البطيحة فامر باتخاذ السبيطية فكره سليمان بن على واهل البصرة ذلك واجتمع أهل البصرة الى باب عبدالله بن علي وهو يومئذ عند أخيه سليمان هارباً من المنصور فصاحوا يا أمير المؤمنين انزل الينا نبايعك فكفهم سليمان وفرقهم ، وأوفدوا الى ابن ابى عروبة واسم ابى عروبة بهران فقدموا عليه ومعهم صورة (صور [٣]) البطيحة فأخبروه انهم يتخوفون ان يملح ماءهم فقال ما اراه كما ظننتم وامر بالامساك ، ثم انه قدم البصرة فامر باستخراج السبيطية فاستخرجت له ... الخ) ويظهر ان امر تصوير قطع من الارض او بلد من البلاد مألوف عند العرب فى العصر الاموى المتأخر وبداية العصر العباسى . وهى على مايظهر من الامور التى لم تستدع أي استغراب لا من الهمداني ولا من البلاذرى فى الحالتين اللتين ذكرتا آنفا وتفسير الامر وتعليله ان الذى يعرف البلدان ويضبط مواقعها واتجاهاتها والمسافة بينها وما عليها من حواجز ـ وهذه هى مادة العلم الاصيلة ـ يسهل عليه ان يخطها على ورق او ان يشير اليها على الرمل ان اراد العون بالتصوير للابانة والافصاح وما اكثر ما روى عمن سئل عن امر جغرافى انه استعان بالتصوير على [٤] الرمل أو على الكاغد لايضاح المراد وكل هذه تقوم مقام الاشارات باليدين

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى صفحة ٣٧١ (الطبعة الاوربية) .

(٢) كانت خلافة المنصور من سنة ٧٥٤م الى سنة ٧٧٥م .

(٣) فى بعض نسخ ما طبع من فتوح البلدان كلمة صور بدل صورة (راجع فتوح البلدان صفحة ٣٧١) .

(٤) ونستشهد على ذلك بما رواه المقدسى فى كتاب (احسن التقاسيم) صفحة ١١ قال وبينا أنا يوما جالس مع أبى علي بن حازم أنظر فى البحر ونحن بساحل عدن اذ قال لى مالى أراك متفكرا قلت أيد الله الشيخ قد حار عقلى فى هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه والشيخ اليوم من اعلم الناس به لانه امام التجار ومراكبه أبدا تسافر الى اقاصيه فان رأى ان يصفه لى صفة اعتمد عليها وارجع من الشك اليها فعل فقال على الخبير سقطت ثم مسح الرمل بكفه ورسم البحر عليه لا طيلسان ولا طير وجعل له معارج متلسنة شعبا عدة ثم قال هذه صفة هذا البحر لا صورة له غيرها وأنا أصوره ساذجا وادع الشعب والخلجان ... الخ] . مطبعة بريل (ليدن) ١٩٠٦ .

وبالاصابع لتمثيل الامر وتقريبه من خيال السائل عن جلية الخبر • وما أن استقرت احوال الدولة العباسية من بعد تطور تدوين العلوم والآداب على يد الامويين فورثوها حتى انصرف الناس الى امور الثقافة وغيرها من مظاهر الاستقرار فى المجتمع واصبحت المدن الكبيرة وعلى رأسها مدينة السلام مراكز علم وثقافة يبحث فيها العلماء عن مستقبل زاهر لهم فى ظل الخلفاء ويتوقعون من هؤلاء جوائز ومكافأت لما يقومون به من عمل جليل يروق فى نظر الخلفاء أو الامراء • ولا تكاد تخلوا مجالس الخلفاء من العلماء والفنيين يتناظرون ويتنافسون ويتسابقون فى سبيل الحظوة عند الخليفة او الامير • فلا غرابة ان نجد أكثر علمائنا قد ألفوا الكتب للخليفة الفلانى أو الامير الفلانى تقرباً وزلفى وطمعا فى الشهرة والعطاء معا الا انهم بفعلتهم هذه قد خلدوا ذلك الخليفة او الامير على مر الدهور واو انه لم يأت بامر جلل • حتى ان ملوك الغرب من بعد ما اخذ نجم العرب بالافول وتسربت ثقافتهم الى الغرب تلدوا ما كان عليه خلفاء العرب ولنا من (رجار) ملك النورمان وخليفته غليالم [١] وصاحبهما الشريف الادريس الجغرافى ابرز مثال •

من ابرز العلوم التى عنى العرب بشأنها علم الهيئة اى علم الفلك (الاسترونومى) وقد استند هذا العلم بالدرجة الاولى عندهم على علم [٢] الانواء فوجوه من هذا الباب وليس بالامر الجديد آنذاك ان تعنى العرب بالسماء ونجومها وكواكبها (الخنس منها والكنس) نوؤها وظهورها وسقوطها وقدرها وربطها بالمواسم وبالحيوان والنبات ••• الخ • ولنا مثل من كتاب (الأنواء) لابن قتيبة المؤلف فيما جاء عند العرب [٣] وحدهم من علم فى هذا الباب غير مستعين بما كان عند الاعاجم عمدا ـ كما جاء فى كتابه المذكور ـ وعندما اطلع العرب على كتب الكلدان والبابلين المترجمة او الهنود او غيرهم من الامم فى صدر الدولة العباسية لم يكن أمر مادة هذه الكتب شيئاً غريباً أو عجيباً عندهم أو بعيداً عن تفهمها والا كيف تترجم وتنقل هذه الكتب الى العربية ولا يفقه المترجم شيئاً مما يترجم

---

(١) تسميه العرب عليام ، أو غليام . أو غليالم وهو وليام النورمانى • (رجع رحلة ابن جبير وكتاب (الاسلام فى صقلية) للدكتور احسان عباس •

(٢) لقد عدد الفهرست لابن النديم كتب العرب عن الانواء ص ١٣٠ وذكر ١٥ كتابا فى الانواء • وعدد منها مطبوع متداول •

(٣) كتاب الانواء لابن قتيبة (المطبعة العثمانية) حيدر اباد الدكن •

او ان لا تكون مادتها مألوفه لديه ؟ ؟ قد يترجم الادب او التاريخ ولايحتاج الى الترجمة غير معرفة لغة الكتاب ولكن الامر يستحيل فى ترجمة العلم من هيئة وطبيعة وكيمياء ورياضيات •• الخ ان لم يكن المترجم عارفاً بكنه هذا العلم ومصطلحاته ومعانيها المحددة قبل الاقدام على ترجمته • ولنا فى ابراهيم [١] بن حبيب الفزارى احسن مثال فلقد كلفه المنصور ان يترجم السدهنت (السدهنتا) عندما قدم الى بغداد العالم الهندى الفلكى (كنكه) على رأس بعثة سنة ٧٦٧ ميلادية اى قبل وفاة المنصور بثمان سنين توفى فى (٧٧٥م) وقبل وفاة ابراهيم الفزارى بعشر سنين (توفى سنة ٧٧٧) • وهذه اول مرة يطلع العرب على ما عند الهند من علم الهيئة • ولو علمنا ان ابراهيم الفزارى هذا هو أول من عمل الاصطرلاب والف كتاباً بالعمل به وشرح تركيبه وان له كتباً عدة كتبت فى علم الهيئة لأدركنا أنه من المعقول أن يسند اليه ترجمة الكتاب لطول باعه فى العلم وان علمه هذا سابق لتاريخ الترجمة وانه فعلا لم يعتمد فى انتاجه العلمى على كتاب السدهنتا الذى بدأ بترجمته عشر سنوات قبل وفاته مع العلم ان السدهنتا خمسة مجلدات ولربما استغرقت ترجمة بعض اجزائه سنوات عدة ولم يبق من حياته غير سنين تعد على اصابع اليد الواحدة • ومن يستعرض اسماء كتبه يتبين على وجه التأكيد انها سبقت ترجمة السدهنتا ولا علاقة لها بالاخير • يتضح القصد من التعرض الى علم الهيئة والنجوم فى هذا البحث عندما يدرك القارىء ان الدخول الى وضع الخرائط وصنعها عند العرب او بالاحرى «صورة الارض» او رسم «المعمور من الارض» كان من باب واسعة الفها العرب هى علم الهيئة وبطريقة غير مباشرة وذلك باستخدام طريقة واسلوب عمل الزيجات [٢] عندهم والزيجات هذه هى جداول تعين بواسطتها مواقع النجوم السماوية فى مختلف الاوقات استنادا الى العرض والارتفاعات وعلى غرار هذه الزيجات واستنادا

---

(١) ابو اسحق ابراهيم ابن حبيب الفزارى (من فزارة من ذبيان ونسبه الى غطفان)• اما كتبه فهى . كتاب تسطيح الكرة ـ كتاب مقياس الزوال ـ كتاب العمل بالاصطرلاب المسطح ـ كتاب القصيدة فى علم النجوم ـ كتاب اواسط الكواكب ـ كتاب العمل بالاصطرلاب ذوات الحلق ـ كتاب الزيج (يعرف بزيج الفزارى)• راجع الفهرست واخبار الحكماء ـ والعلوم عند العرب لطوقان تحت مادة (ابراهيم الفزارى) •

(٢) الزيج لغة خيط البناء الذى يعينه على ضبط الاستقامات • ولا يعرف اللفظ ان كان عربيا اصيلا ام معرب • حتى أن الاصمعى نفسه قد قال بذلك (دائرة المعارف للبستانى) مادة زيج •

الى تعيين خطوط عروض البلدان واطوالها بالنسبة الى رصد النجم القطبي وارتفاعه ثم اختلاف الاوقات الزمنية بين البلدان ، تمكن العرب من وضع جداول جغرافية (أي جداول لخطوط الطول والعرض) لمواقع البلدان والعوارض الارضية الاخرى من سواحل بحار ومجرى أنهار وامتداد بحيرات وامتداد جبال ... الخ بعين الطريقة والاسلوب في تعيين مواقع النجوم في القبة السماوية (١) . ثم ان صور السماء سبقت صور الارض (٢) عند العرب . ليس هذا حسب بل ان تحديد الاقاليم (٣) السبعة في المعمورة قد حددت بارتفاع الشمس ومعدل طول ساعات النهار بحيث يتحدد وسط كل اقليم بزيادة ساعات النهار (صيفا طبعا) او ساعات الليل (شتاء ايضا) وكلما تقدمنا الى الاقاليم الشمالية زادت ساعات النهار فالتقاسيم بالعروض الجغرافية استندت الى اطوال الساعات وفقا للعروض الجغرافية طبعا وميل الشمس على هذه العروض . اى ان امر التحديد كان امرا فلكيا بحتا . فنهاية (الاقليم الاول) مثلا تكون حيث اطول ساعات النهار ثلاث عشرة ساعة وربع ونهاية (الاقليم الثاني) حيث يكون اطول نهار فيه مقدار ثلاث عشرة ساعة وثلاثة ارباع الساعة وهكذا الى نهاية (الاقليم السابع) حيث يكون اطول نهاره ست عشرة ساعة وربع الساعة (٤) . ثم ان اول صورة للارض صنعت للمأمون قام

---

(١) ولقد قام العرب بارصاد بآلات اخترعوها لدوائر نصف النهار ومعدل النهار ومناطق البروج والعروض والميل ... الخ . راجع ما سبق مما ذكر عن الاصطرلابات ذوات الحلق فى الحاشية عن ابراهيم الغزارى .

(٢) وقد ذكر يعقوب صروف فى كتابه بسائط علم الفلك عندما يذكر ولع العربى بعلم النجوم وشغفه به أنه [يصنع فى بيته هيئة السماء وخيل المناظرين فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود] . مع العلم أن اول صورة للسماء صنعت فى زمن الامويين .

(٣) والاقليم جاء من القلم وهو القطع ، والقلامة القطعة الصغيرة من الشيء وقلامة الظفر مثلا قطعة منه : ابن المعتز :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا ... مثل القلامة قد قدت من الظفر

وبما ان اقسام الارض او قطع الارض تنفرد كل واحدة بميزاتها وهى مقطوعة عن بعضها البعض من شيء واحد بخطوط معينة سمى واحدها باقليم .

(٤) وقد جاءت كل هذه التحديدات فى مقدمة كتاب [عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة] لسهراب ، وعلى الاخص صفحة ٧ و٨ و٩ . فراجعها ان شئت .

بهـا علماء الهيئة والرياضات ومن جملتهم محمد بن موسى صاحب الزيجـات الفلكية وصاحب كتاب الجبر والمقابلة (١) ومما يجلب النظر ويؤيد ما ذهبنا اليه من علاقة الفلك انهم جعلوا لكل اقليم أبراجاً تخصـه وسياراً يقتصر عليه فالاقليم الاول مثلا جعلوا له كوكبة زحل ومن بروحه الجدى والدلو والثانى له المشترى كوكبا وابراجـه القوس والحوت ... الخ ويتماشى هذا مع ما كان عند العرب من هيئة وتنجيم بربط الاحداث على سطح الارض بسلوك الكواكب والنجوم .

واول الجداول الجغرافية عند العرب جدول محمد بن موسى (٢) مرتبا على اساس ان أقاليم المعمور من الارض سبعة وقد وضع جداول لكل اقليم تخص المدن ثم الأنهار ثم الجبال ثم البحيرات ...الخ . ولا ندرى هل انه رسم المعمور من الارض كلها ام لا ؟ ولكنه رسم اربع (٣) صور فى آخر كتابه احداها للنيل كاملة من منابعه حتى مصبـه واخرى لجزيرة الجوهر واخرى تصور البطيحة (٤) (مايوتس) . والرابعة تصور وضع البحار والسواحل والخلجان الكبار ويتمثل فى الصورة البحر المحيط الهندى وشكله على ما كان يتصوره هو ومعاصروه . ولسوء الحظ سقطت المقدمة من كتابه والا لعلمنا من امر الكتاب او الصور او غير ذلك من الامور مما يذكر عادة فى مقدمات الكتب . الا ان سهراب (٥) يذكر فى مقدمة كتابه الغرض من وضع زيجه وهو كيفية رسـم المعمور من الارض ويبين فعلا فى المقدمة طريقة رسم كل موقع جغرافى على سـطح الارض من جـداول خطوط الطول والعرض التى جاءت فى كتابه . ويعتبر كتابه أو بالاحرى زيجه هذا نسخة اخرى من كتاب محمد بن موسى تماما عدا المقدمة والقسم

(١) فى صفحة ١٨٧ من أخبار الحكماء للقفطى ورد ما يلى [وهو من اصحاب علم الهيئة وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجة الاول والثانى] ثم يقول [وله من الكتب كتاب الزيج الاول . كتاب الزيج الثانى . كتاب العمل باصطرلاب . كتاب التأريخ . كتاب الجبر والمقابلة] .

(٢) وهو غير محمد بن موسى بن شاكر (أحد بنى شاكر) . وقد مـر التفصيل عن الخوازمى فى العدد التاسع من مجلة الاستاذ .

(٣) يراجع كتاب صورة الارض طبع مدينة فينا من قبل هانس فون مزيك ١٩٢٦ .

(٤) الصورة تمثل بحر آزوف فى روسيا .

(٥) وهو ابن سربيون . وكتابه (كتاب عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة) هانس فون مزيك ١٩٢٩ م . طبع فينا .

الاخير من الكتاب اذ أن زيادة كبيرة قد أضيفت تبحث عن أنهار مدينة السلام • وكتاب سهراب هـذا متأخر عن كتاب محمد بن موسى بقرن ونيف الا ان الزيج الذى فيـه نسخة طبق الاصل من زيج محمد بن موسى مع فارق فيالتقديم والتأخير وفي تسلسل الاسماء • ويظهر ان غرض محمد بن موسى من تأليف كتابه (صورة الارض) هو نفس غرض تأليف كتاب سـهراب وهو تعليم طريقة رسـم الخرائط للمبتدئين بكل تفصـيل ووضوح كما جاء ذلك فى اول كتاب سهراب • ولا يختلف اسلوب تعليم الرسم هنا عما نألفه اليوم مطلقا فكأنك حين تقرأه تقرأ فى كتاب حديث مؤلف فيهذا اليوم فى دروس الجغرافية العملية ولو انه ألف [١] سنة قد مضت على تاريخ تأليفه • ومن عنوان كتاب محمد بن موسى الموسوم بـ (صورة الارض) نفهم ان لابد وانيكون هذا الكتاب قد وضع ليوضح كيفية رسم (الصورة المأمونية) التى اجتمع على صنعها عدة من العلماء فى زمن المأمون وكان محمد بن موسى هذا واحـداً من بينهم وان جداوله التى جاءت بالكتاب لاشك فى أنها ممتحنة بنيت علىالرصد الصحيح•واعتقد ان كتابه لصغر حجمه لا يستوعب صورة الارض بتفاصيلها فاضطر الى وضع الجداول فقط دون ان يرسـم صورة للارض كاملة بل اكتفى بما ذكرناه آنفا من رسمه اربع صور فقط الحقت فى الكتاب كنماذج ايضاحية وخاصة النيل حيث وضع خطوط حدود الاقاليم التى يقطعها النيل من منبعه الى مصبه •

ان اول رسم للمعمور استند على ما امتحن من خطوط الطول والعرض الجغرافيين وبنى على الرصد والقياس بآلات هى من صنع العرب [٢] واختراعهم وقد الحوا فى الرصد للتأكد من كل دقيقة وثانية من خطوط [٣] الطول وخطوط العرض على الاخص

---

(١) من ذكر القصور المشيدة فى مدينة السلام يستنتج الباحث ان سهراب هذا عاش حوالى سنة ٩٥٠ ميلادية •

(٢) العلوم عند العرب ـ قدرى حافظ طوقان صفحة ٦٥ [وقد اعترف الافرنج بان العرب اتقنوا صنعة هذه الآلات وثبت ان الاصطرلابات ، وذات السمت ، والارتفاع والآلة الشاملة ، والرقاص ، وذات الاوتار ، والمشتبهة بالناطق ، وكل هذه من مخترعات العرب عدا ما اخترعوه من البراكير والمساطر] •

(٣) التنبيه والاشراف صفحة ٤٠] ومن ذلك ان حساب بغداد مثل محمد بن موسى الخوارزمى ويحيى ابن ابى منصور وسند بن على وابى معشر وغيرهم وجـدوا طول بغداد من المشرق مائة درجة وعشر درجات « اى سبعين درجة اعتبارا من ساحل افريقيا الغربى »] • راجع الصورة المأمونية •

الصورة المأمونية (شكل رقم ١)
وقد اجتمع على صنعها عدة من العلماء بينهم محمد بن موسى وذلك بتكليف الخليفة المأمون
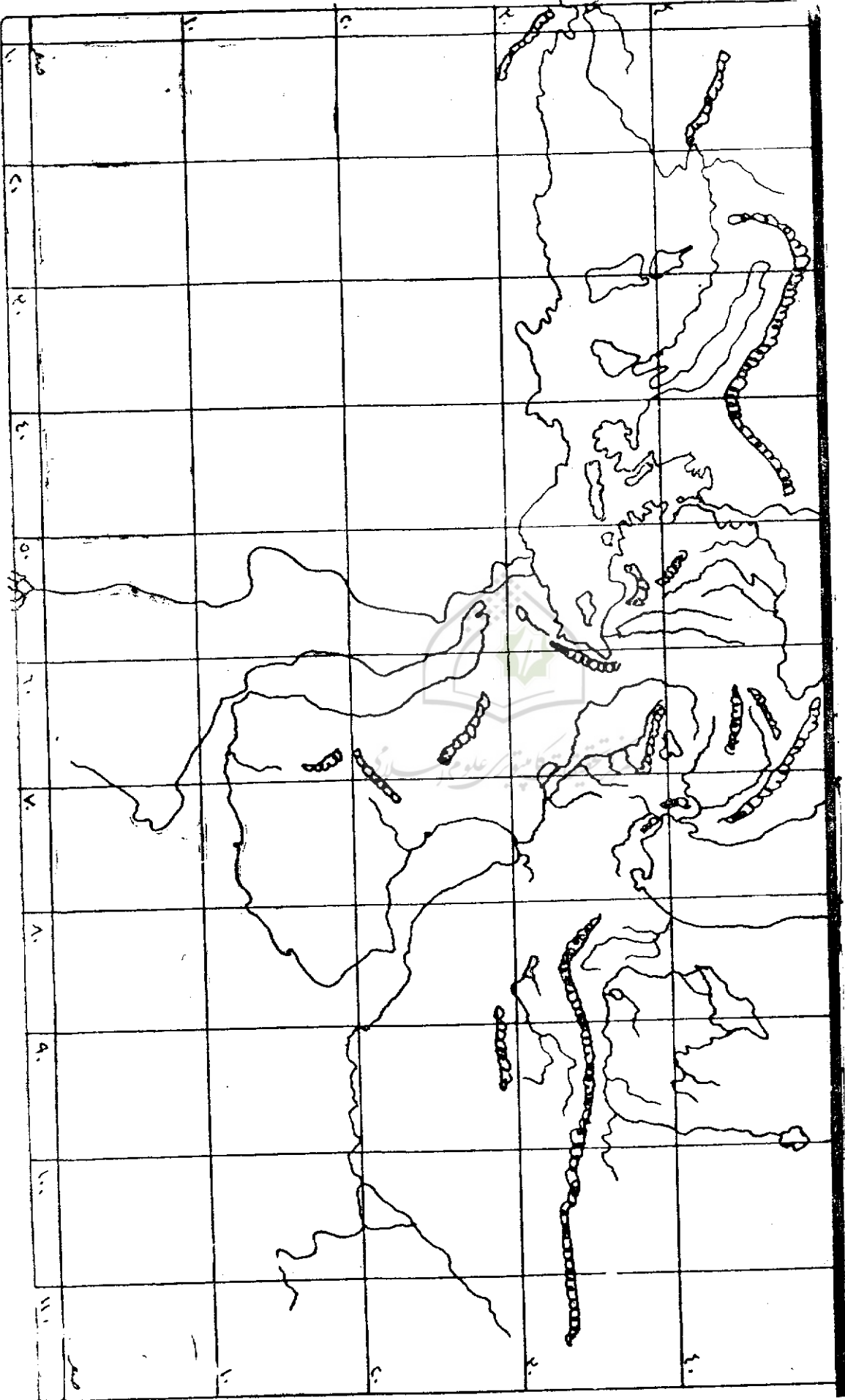
ونستنتج من مقدمة كتاب سهراب (ابن سربيون) ان المرتسم لهذا الرسم (بروجكشن) كان اسطوانيا بسيطا ، فخطوط الطول توازى بعضها البعض وكذلك خطوط العرض فمقياس الرسم والشكل والمساحة صحيح على خط طول ٩٠ فقط ، وما خلاف ذلك يبعد عن الصحة . وخط ٩٠ [١] هذا في وسط الخريطة يشطرها الى نصفين متساويين فما رسم اذن يبلغ ١٨٠ درجة . فاول خطوط تبدأ بخط صفر وهو الذى يمر بجزائر السعادات (أو السعادة أو الخالدات كما يسميها البعض) في المحيط الاطلسى أو أن يبدأ خط الصفر من الساحل الافريقى عند بعضهم ، وفى حالة الصورة المأمونية الآنفة الذكر يبدأ خط الصفر من الساحل الافريقى ، وينتهى فى خط ١٨٠ فى الشرق فى شرق الصين . وتحوى الصورة هذه العالم المعروف فى زمن وضعها وهى مفصلة فيما يخص العالم العربى وما فتحه العرب من العالم وكذلك الهند واواسط اسيا واقل التفاصيل فيها تلك التى تتعلق باوربا واواسط وجنوب افريقيا . وقد وضعت هذه الخرائط بالوان [٢] ولقد جاء فى كتاب محمد بن موسى (صورة الارض) تعاليم عن صبغ الجبال [٣] فهى ليست متجانسة وبلون واحد بل قسم منها بلون احمر او احمر مشبع او اصفر او صفر مشبع او كمد ، او رمادى ، او وردى او لازوردى او اصفر بنى او اصفر كدر او زيتى او حديدى . ويظهر ان الاضباغ كانت توضع فى سبيل الزينة وليس كمصطلح كما هى اليوم . وقد استمر العرب باستعمال الاصباغ فى خرائطهم على غرار ما مر ، فالمدن عندهم مثلا اما ان تكون دائرة او على شكل قباب او مستطيلات وكل مدينة بلون . وكل هذه الاختلافات بالالوان ليست بمصطلح يلتزم جانبه بل كزينة للتجميل فقط اللهم الا لون البحار فانه اما الزرقة او الخضرة المائلة اليها . اما الحدود فانها تكتب خطا ممتدا بكلة

---

(١) ان الاعداد التى وضعت فى الزيج او على الصورة كلها باعداد الجمل على اساس (ابجد هوز) وما يقابلها من الاعداد عندما يراد الحساب بالعدد . ا = ١ ، ب = ٢ ، ج = ٣ وهكذا .

(٢) التنبه والاشراف _ للمسعودى [ورأيت هذه الاقاليم مصورة فى غير كتاب بانواع (الاصباغ) ، واحسن ما رأيت من ذلك فى كتاب جغرافيا لمارنيوس وتفسير جغرافيا قطع الارض . وفى (الصورة المأمونية) التى عملت للمأمون اجتمع على صنعتها عدة من حكماء اهل عصره صور فيها العالم بافلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الامم والمدن وغير ذلك ، وهى احسن مما تقدمها من جغرافيا ، وجغرافيا مارنيوس وغيرها] .

(٣) راجع قسم الجبال فى (صورة الارض) اعتبارا من صفحة ٣٨ .

حد كذا او كذا . اذ انهم لم يصطلحوا على الحدود بعلامته الفارقة . لم تستعمل العرب بصورة عامة مقياس الرسم لا كتابة ولا مصطلحا ويظهر انهم قد تركوا حساب مقياس الى مغربها فهو مثال فصل ما بين اقليم واقليم من الاقاليم السبعة .. (٢) الخ] وهذا هو ذلك البعد مسافة على الخريطة ، وحساب مقياس الرسم من ذلك سهل ميسور ومع هذا فانهم لم يذكروا على خرائطهم مقاييس الرسم لا اشارة ولا تلميحا ويصدق هذا على محمد بن موسى (الصورة المأمونية) ومن جاء من بعده من جغرافى العرب الذين رسموا الخرائط فى وقت متأخر فى التاريخ . كانت العرب تسمى من يرسم الاقاليم السبعة وخريطة الارض صاحب صنعه (اى فلكى رياضى) او من الحساب او صاحب هيئة ونجوم ولم يعتبروه من الجغرافيين بالمعنى الذى نعرفه الان لانهم كانوا يعتقدون ان من يرسم صورة المعمور تتوفر فيه صفة الاطلاع على علم الهيئة والحساب والهندسة فقط . وقد سموا خريطة العالم «جغرافيا» اى رسم قطع الارض بدون الف لام التعريف وبقيت الكلمة مصطلحا على رسم قطع الارض فقط وميزوها عن بقية المواضيع الجغرافيا الحقيقية وبقيت هذه النزعة الى وقت متأخر ، فالدمشقى صاحب (نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر) يقول فى كتابه مثلا [وختمته (اى كتابه هذا) بصورة جغرافية دهانا بالاصباغ وتخطيطا محررا على مثل مواقع الاطوال والعروض والاسقاع (كذا) من المعمور ليكون مثالا حسيا مشاهدا بالحسن لمن يشهد منه ما وضعت وضفه من الهيأة ليكون الوصف برهانا لما مثلته بالجغرافية المذكورة] ثم يقول [وكلما هو صورة خط اسود من مشرق الجغرافية الى مغربها فهو مثال فصل ما بين اقليم واقليم من الأقاليم السبعة .. (٢) الخ] وهذا هو الدمشقى الذى عاش بين سنتى ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) الى ٧٢٧هـ (١٣٢٦م) . أى خمسة قرون من بعد محمد بن موسى . فالدمشقى يستعمل لخريطة الارض كلمة (رسم جغرافية) كما قد مر . وكذلك استعمل الالوان (ليكون مثالا مشاهدا بالحسن) والارجح انه يقصد جمال المظهر كما قد ذكرت آنفا ولم يستعمل الالوان كمصطلح علمى محدد كما قد مر . فخرائط العالم فى اواسط القرن التاسع اذن هى ان تكون على هيئة (جغرافيا) اى

---

(١) لقد علموا مقدار المسافة لدرجة واحدة من درجات العرض الجغرافى وذلك بالقياس الفعلى فى صحراء سنجار وأمر هذا أشهر من أن نفصل أمره .

(٢) صفحة ٣ من نخبة الدهر . لشمس الدين ابى عبدالله محمد بن ابى طالب الانصارى الدمشقى المعروف بشيخ الربوة . طبع ١٩٢٣ فى لايبزك من قبل م.أ.ف مهرن .

اظهار الارض على مسطح مستو وهذه هي خرائط (المأمونية) والتعديلات التي طرأت عليها من قبل البتاني وابن يونس [١] وعهدهما قريب جدا من زمن رسم الصورة المأمونية (حوالى ٨٢٨م) وهذه التعديلات تظهر بناءا على ارصاد الاثنين ومشاهداتهم وحسابهم الفلكي اى امتحان المواقع • والخريطة التي على غرار ما مر (اى جغرافيا) هي التي أمر برسمها المعز لدين الله الفاطمي سنة **٣٥٣** هجرية (**٩٦٣م**) كما جاء في الخطط وارجح ان ابن يونس والحسن بن احمد المهلبي (وهو غير الحسين بن محمد المهلبي وزير بني بويه) قد ساهما على عهد المعز بوضعها والاشراف على اظهارها الى الوجود وان لم تكن هناك نصوصا تقضي بذلك على وجه التأكيد • فكلاهما جغرافي معروف وقد عاصر احدهما الآخر وعاشا في كنف بلاط واحد وخدما المعز لدين الله والعزيز بالله الفاطميين ووضع كلاهما للعزيز بالله اثرا علميا ، فالحسن وضع كتابه (المسالك والممالك) الذي نسبه الى العزيز في اول سني خلافته (**٩٧٥**) [٢] فسمي بالكتاب (العزيزي) بعد ان قضى دور نضوجه العلمي على عهد المعز بالله نفسه ، اما ابن يونس فقد وضع له ايضا زيجه المعروف بالزيج الحاكمي ، [٣] فكلاهما احيط بنفس الظروف التي تحملني على الاعتقاد بانهما مسؤلان عن وضع خريطة العالم (جغرافيا) على غرار الخريطة المأمونية للعزيز بالله في اواخر ايامه ومن يتصفح صورة جغرافيا التي استندت على زيج ابن يونس الجغرافي ويقارنها بالصورة المأمونية لمحمد بن موسى يجد الفرق في الشكل بسيطا لدرجة بحيث لا يشعر به الا من اوتي نصيبا كبيرا من الاختصاص • لقد جاء في الخطط [٤] المقريزيه ما نصه [وصار الى فخر العرب مقطع من الحرير التستري القرقوبي غريب الصنعه منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله في سنة

---

(١) البتاني كتب سنة ٨٨٠ م وهو ابو عبدالله محمد بن جابر بن سنان • توفى سنة ٩٢٩ م اما ابن يونس فهو ابو الحسن الشيخ الامام على بن سعيد بن عبدالرحمن بن احمد بن يونس توفى عام ١٠٠٧ م •

(٢) حدود العالم ـ لمنورسكي ص ٤٧٧ •

(٣) وبعض المصادر تذكر ان ابن يونس وضع الزيج الحاكي للحاكم بامر الله الفاطمي لان الاخير كان صاحب فلسفة ونجوم ورصد • وانى لارجح انه وضع في زمن العزيز وانه ذكر اسم ابنه الحاكم على هذا الزيج المؤلف من اربع مجلدات •

(٤) صفحة ٢٦٧ المجلد ٢ مطبعة الساحل • لبنان •

ثلاث وخمسين وثلاثمائة فيه صورة اقاليم الارض وجبالهـا وبحارها ومدنها وانهارها ومسالكها شبه جغرافيا وفيه صورة مكه والمدينة مبينه للناظر مكتوب عليها كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب او الفضة او الحرير وفي آخره مما أمر المعز لدين الله شوقا الى حرم الله واشـهارا لمعـالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة والنفقة عليها اثنان وعشرون ألف دينار] .

ولابد ان تكون هذه الخريطة مفصلة فيما يتعلق بمصر اكثر من اى جهة من جهات الارض لان زيج ابن يونس نفسه يحوى ٢٨٨ اسما للمدن مع خطوط طولها وعرضها محققة منها ما يقرب من ٥٥ مدينة لمصر وحدها . وعندما تقارن خطوط الطول وخطوط العرض الجغرافي التي بنيت عليها الصورة المأمونية (راجع الاشكال رقم ١) وخطوط الطول والعرض التي جاءت بزيج بن يونس المصري (المسؤول عن خريطة جغرافيا للمعز كما ذكرت) يجد انحرافا بسيطا بين ما جاء في الاولى في مواقع وبين ما جاء في زيج ابن يونس . وقد وضع احدهم [(١)] خريطة جغـرافيا استنادا الى زيج ابن يونس نفسه وكذلك وضع خريطة لمصر وحدها مستقاة من عين المصور . (راجع الشكل رقم ٢) وعند تدقيق خريطة العالم هذه نجد انحرافا بسيطا عن المأمونية في شكل ساحل جزيرة العرب الجنوبي وآخر في جزء من ساحل شمال افريقيه اما خلاف ذلك فالخريطة تطابقها تماما مما يدل على صحة ارصاد محمد بن موسى الخوارزمي اذ ان امتحان هذه الارصاد جاء على يد فلكي ضليع وراصد قديـر مشهور هو ابن يونس المصري . ولا ننسى ان ابن يونس هذا صاحب مذاهب في حلول الامور الرياضية المستعصية ذات اصالة [(٢)] نبغ على عهد المعز لدين الله وما أن جاءت سنة ٩٧٦ وهي ثاني سنة لحكم العزيز الفاطمي الا وكانت شهرته الرياضية قد ذاعت بين الناس [(٣)] مما حملنا على الاعتقاد (كما اسلفت) انه كان مسؤولا مـع المهلبي عن وضـع خريطة العالم للمعز .

(١) ليلول - من جغرافية العصور الوسطى بركسل ١٨٥٧ في اربع مجلدات واطلس

(٢) راجع ابن يونس - العلوم عند العرب - طوقان .

(٣) كذلك نفس المصدر

(شكل رقم ٢)

صورة المعمور فى الارض وضعت استنادا الى زيج ابن يونس المصرى ، وكذلك خريطة مصر والنيل

لقد ذكرت التعديلات التى طرأت على الصورة المأمونية وذكرت بمعرض ذلك البتانى ولا نعلم ان كان قد وضع خريطة (شبه جغرافيا) كما هى الحال مع ابن يونس ـ كما اسلفت ـ ام لا ولكن الذى صنعه البتانى هو انه قام بامتحان ما جاء فى الصورة المأمونية من مواقع استنادا الى ارصاده ولا ينكر احد انه صحح كثيرا من اغلاط الصورة المأمونية (١) وتأكيده كان على العراق والجزيرة واعالى الجزيرة اكثر من اى جزء آخر من اجزاء العالم (بخلاف ابن يونس الذى كان تأكيده على مصر) ومن هذه الوجهة تجد ان ارصاد البتانى كانت اصدق مما جاء فى زيج محمد بن موسى • والذى نعلمه ان البتانى عندما وضع زيجه الجغرافى للاطوال والعروض كان تأكيده فى الدرجة الاولى على المدن ـ كما هى الحال فى زيج ابن يونس ـ وانه كان يحقق ويمتحن والصورة المأمونية ماثلة امامه فانه يقول فى عنوان زيجه [فى جداول عروض البلدان واطوالها على نحو ما جاء فى كتاب الصورة وامتحن] ويشير هنا صراحة على ان الامتحان كان منصبا على ما جاء فى كتاب محمد بن موسى الخوارزمى وهى (صورة الارض) من جداول المعروض والاطوال والغرض على ما يظهر تصحيح المأمونية •

ان الفرق بين زيج محمد بن موسى والبتانى هو ان البتانى بدأ بخط الصفر للاطوال اعتبارا من جزائرة السعادة (السعادات) وبذا زاد على ما جاء فى زيج الاول عشر درجات فمدينة السلام (بغداد) تقع على خط طول ٧٠ عند الخوارزمى اما عند البتانى فتقع على طول ٨٠ • وهذا الفرق لا يغير من موقع المدينة مطلقا كما لا يخفى ذلك •

نتبين من الشكل رقم ٣ تعديلات شكل الفرات ودجلة وسيحان وجيحان وموقع بحيرة وان وساحل سورية (اتجاهه وشكله) وكذلك دلتا النيل هى اقرب ما تكون الى خرائط اليوم • ورغم تعديلات البتانى واهميتها فان صانع اول خريطة ـ محمد بن موسى ـ وعدة العلماء الذين اجتمعوا على صنعها لهم قصب السبق وحق الفخر لانهم اظهروا العالم على صورة قريبة من الواقع القائم الآن وبكل احكام وتحقيق من ناحية صحة المواضع وقرب الشكل العام الى الخرائط الصحيحة مما سهل على الباحثين من بعدهم مهمة التعديل كالبتانى وابن يونس • ولاول مرة فى تاريخ البشرية نرى صورة

---

(١) راجع الشكل المرسوم للتعديلات فى الشرق الادنى (رقم ٣) للبتانى والصورة المأمونية معا •

(شكل رقم ٣)

صورة العراق والشام وارمينية استنادا الى زيج البتاني ٠ وقد رسم فوقها بالخطوط المتقطعة ما يماثل ذلك من الصورة المأمونية قصد المقارنة
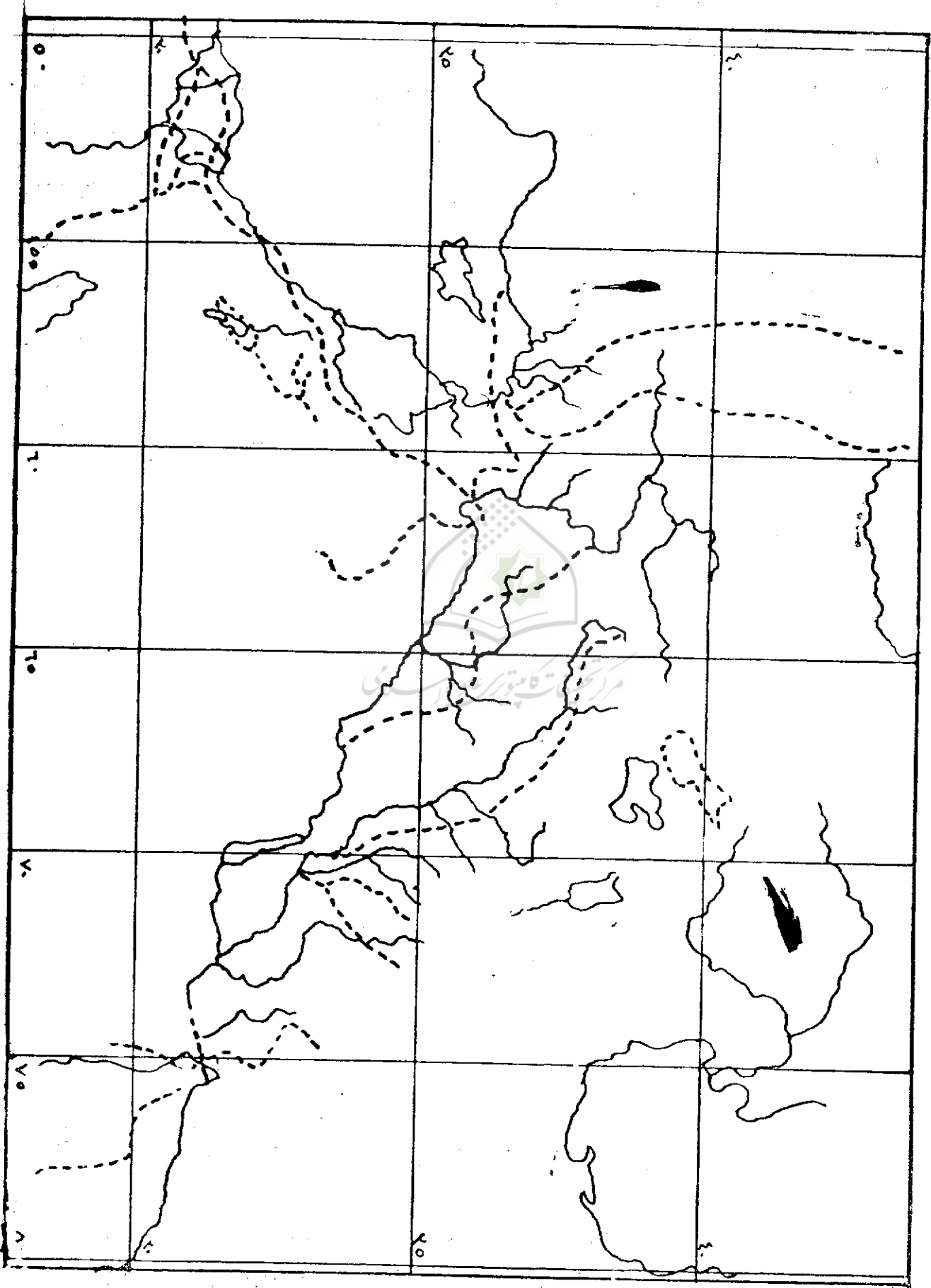
الارض ومواضع البلدان ومواقعها واسمائها واكثر من ٩٥ بالمائة منها مشهور معروف وقائم الى اليوم بخلاف ما سبق الصورة المأمونية من خرائط وضعت واكثر من ٩٥بالمائة مجهول ومواقعها بالنسبة الى خطوط الطول وخطوط العرض مغلوط كأن يذكر عليها جبال —وهي اكثر العوارض رسوخا وثباتا بالفعل — لم تكن موجودة الا في خيالهم وهكذا.

اما خريطة النيل (شكل ٤) التي رسمها محمد بن موسى الخوارزمي في كتابه (صورة الارض) فلا اقف عندها طويلا فيكفي ان اقول انها لو قورنت بشكل ٥ الذي رسمته كما هو عليه حوض النيل الآن لما وجدنا فرقا كبيرا في الشكل العام ولا في المعلومات المدونة كمنابع النيل من جبال القمر (في صورة الخوارزمي) وهي الجبال التي تسمى لحد الآن جبال القمر وتشمل فعلا الآن قمتين معروفتين في افريقية هما قمة جبل (موت الكون) وقمة جبل (رونزوري) اما البطيحتان التي ذكرها الاولى والثانية فهما بحيرتا فكتوريا نيانزا وبحيرة ادورد اما الصغرى التي يصبان فيها فهي بحيرة البرت حيث يمتد فرع عن طريق بحيرة كيوكا من فكتوريا الى البرت ويسمى نيل فكتوريا وفرع من بحيرة ادورد الى بحيرة البرت كذلك ويسمى هذا بنهر سمليكي في الوقت الحاضر . اما النهر الذي يخرج من البطيحة الصغرى فهو النيل الذي يسمى عند خروجه مباشرة بنيل البرت ثم عندما يجري الى الشمال مسافة يسمى ببحر الجبل ثم بحر الغزال ثم النيل الابيض . اما البحيرة التي تصب في النيل فهي بحيرة تانا في الحبشة . ومن اراد التفاصيل فما عليه الا ان يقارن بين ما رسمه الخوارزمي واية خريطة حديثة للنيل كي يدرك اهمية ما رسم . ولكي اظهر تطور رسم الخرائط الاولى عند العرب فقد اتخذت من النيل ومن مصر كبلاد مثلا لما رسم كل الجغرافيين الاوائل وذلك لان اول راسمي الخرائط وهو الخوارزمي قد صور النيل مفصلا فلكي تتم المقارنة ولا تنقطع سلسلتها اتخذت منهما مثلا وكنت اود ان اضع العراق والجزيرة موضع مقارنة الا انهما قد نشر عنهما من قبل آخرين (١) ما يكفي المرجوع اليها واستخلاص النتائج كما يهوى الباحث .

---

(١) راجع اطلس الدكتور احمد سوسة عن العراق في الخرط القديمة — المجمع العلمي العراقي .

ففيه تفاصيل وافية عن العراق والجزيرة . وجزيرة العرب مما يغني عن التعرض لها هنا .

صورة النيل ومصر لمحمد بن موسى الخوارزمى نقلا عن كتابه صورة الارض
(شكل رقم ٤)
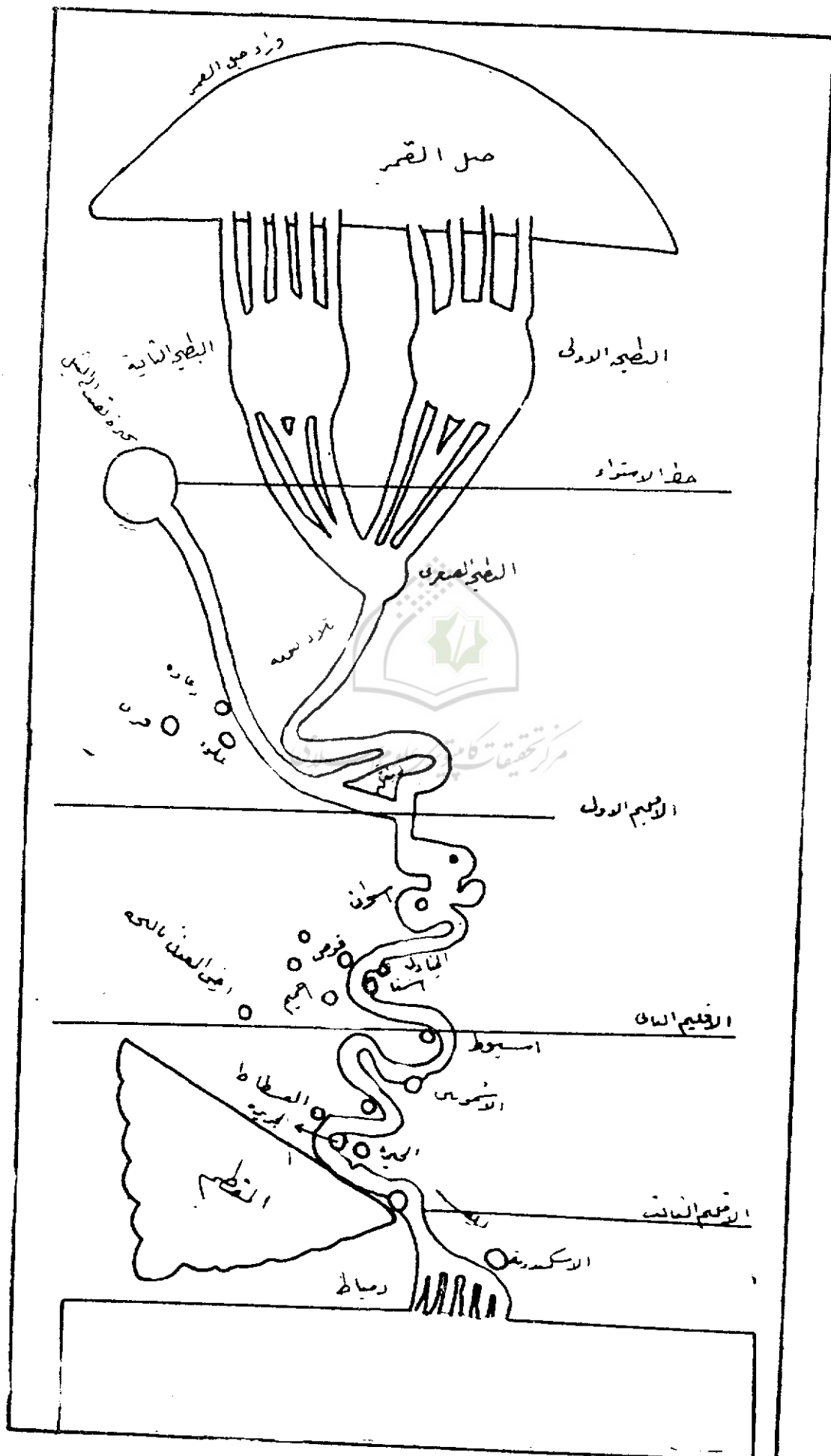
ان اصابة رسم صورة النيل عند الخوارزمى تفوق رسم حتى من طبقت شهرته الآفاق واعنى الشريف الادريسى فلم يرتكب الخوارزمى اغلاط الادريسى رغم اطلاع الاخير الواسع ورغم امكان جمع المعلومات الوافية الصحيحة مع ضيق فى افق جمع المعلومات عند الخوارزمى • لقد وضع الادريسى رغم كل ذلك خطأ نهر النيجر والذى يسميه (نيل غانه) كنهر متصل بالنيل بينما لا نجد كل ذلك فى خريطة الخوارزمى المبحوث عنها ومن يقارن النيل فى خريطة الادريس (١) والنيل فى خريطة الخوارزمى يتوصل – وانى كفيل بذلك – الى ترجيح كفة الثانى كجغرافى بالنسبة لظروفه وزمنه وابتكاره • ولست بمستعرض ما للادريسى من اغلاط ولا اريد الطعن بالشهرة التى تمتع بها وخاصة فى الغرب فليس هنا معرض ذلك •

لقد مرت فترة طويلة بين (الصورة المأمونية) وبين الجغرافيين العرب الذين رسموا خرائط من بعدها تزيد على قرن من الزمن ، الا ان اتجاه اصحاب الهيئة والحساب (اصحاب الصناعة) كانت مستقرة على رسم المعمور من الارض على غرار (الصورة) اى (جغرافيا) كما رأينا حال ابن يونس فيما سبق ، الا ان اواسط القرن العاشر رأى جغرافيين رحالة جابوا البلاد ودوخوا الآفاق وحققوا كل امر بانفسهم فرسموا صورا لا للاقاليم السبعة بل للبلاد المختلفة بالنسبة الى حدودها الادارية وغالبها ضمن تقاسيم العالم العربى آنذاك • وقد قسم هذا العالم الى عشرين بلد لكل منه صورة • ولم يزل هؤلاء من بعد قرن من زمن محمد بن موسى يجهلون كلمة «خريطة» فاستعملوا «الصورة» او «الشكل» ليدل على معناها • واقصد بهؤلاء الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى على تسلسل حياتهم وانتاجهم العلمى ، ويعتبر الاصطخرى فاتحا لهذه المدرسة او بعبارة ادق باعثا لما كان على عهد الحجاج بن يوسف من طريقة رسم (وقد مر البحث عن صورة الديلم) ولما كان على عهد ابى جعفر المنصور (وقد مر ذكر ذلك قبلا) •

(١) تذكرنى مقارنة النيل عند الادريسى وعند الخوارزمى برسم العراق عند الاثنين ايضا فانت ان لم تخبر رغم ثقافتك أن هذه الانهار وفروعها هى دجلة والفرات وفروعهما لما تمكنت من معرفة العراق مطلقا فى خريطة الادريسى أما فى المأمونية فعلى عكس ذلك تماما فالعراق يجلب النظر اليه لشبهه العظيم بما هو عليه اليوم • (تراجع خريطة الادريسى للمجمع العلمى العراقى ان اريد ذلك ولتقارن بشكل رقم (١) ورقم (٣) فى هذا البحث • وشكل رقم (١) صفحة ١٠ من المجلد التاسع من مجلة الاستاذ •

(شكل رقم ٥)

صورة حديثة لحوض النيل ولمصر لمقارنتها بخرائط العرب التى جاءت بهذا البحث

وذلك لان صور البلاد المختلفة كانت عنده على صور مخططات عامة خالية من المقياس ولم يراعى فى رسمها النسب الهندسية ، الا ان الشكل العام للبلاد والعوارض الطبيعية كانت من الامور التى حرص على ابرازها فى الصورة وكذلك تعيين المدن والطرق والعوارض الارضية بالنسبة للاتجاهات وبالنسبة لبعضها البعض • وهذه المدرسة تتمثل بخرائط الثلاثة الذين ذكروا آنفا • وتعتبر خرائطهم متتمة الواحدة للاخرى فما سقط من مدينة او موضع او عارضى فى خريطة احدهم وجدت فى خريطة الثانى وهكذا • اما الشبه فى اسلوب العرض والشكل العام للخرائط فمتشابهة كثيرا الا انها تتفاوت فى حسن التصوير والتزيين والاختلاف فى استعمال الالوان • ولا ترك لكل واحد منهم يخبرنا عن خرائطه بنفسه فهذا ابن [١] حوقل (الموصلى ـ النصيبى ـ البغدادى) يقول فى كتابه (صورة [٢] الارض) ما يلى : [وقد عملت كتابى هذا بصفة اشكال الارض ومقدارها فى الطول والعرض واقاليم البلدان ومحل العامر منها والغامر من جميع بلاد الاسلام بتفصيل مدنها ••• الخ] ثم [ولم اقصد الاقاليم السبعة التى عليها قسمة الارض ••• [وقد جعلت لكل قطعة افردتها تصويرا [٣] وشكلا يحكى موضع ذلك الاقليم ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن والبقاع وما فى أضعافها من المدن والاصقاع] ثم يقول [وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة فلم اقرأ عن المسالك كتابا مقنعا وما رأيت فيها رسما متبعا فدعانى ذلك الى تأليف هذا الكتاب] • ثم ينتقل الى طريقة عرض رسومه واغراضها فيقول [واستوفيت صور المدن وسائر ما وجب ذكره واتخذت لجميع الارض التى يشتمل عليها البحر المحيط الذى

---

(١) وهو ابو القاسم محمد بن العلى الموصلى الرحالة المعروف بابن حوقل ولا نعرف تفاصيل عن حياته سوى انه خرج للسياحة فى شهر رمضان من مدينة السلام سنة ٣٣١ هجرية (٩٤٣ م) • وقد كتب سنة (٩٧٥ م) •

(٢) نسخة الاستانة ـ كرامر ـ طبع ليدن ١٩٣٨ •

(٣) من ابرز الامور فى هذه الصور أن الشمال فى اسفل الخريطة والجنوب فى اعلاه بدون أن يضيع هذا من الاتجاه الحقيقى للبلاد وسبب وضعهم الجنوب فى الاعلى هو لان فى اقصى الجنوب جزيرة العرب بما فيها المدينتان المكرمتان يثرب ومكة ولم يشأ هؤلاء الجغرافيون أن يعلوهما بلد • واتخذ ذلك رسما فى كل الصور التى رسموها فاصبح الجنوب فى اعلى الصورة والشمال فى اسفلها والغرب فى يمينها والشرق فى يسارها مع صحة الاتجاهات الجغرافية فعلا بالنسبة لوضع البلاد منها •

لا يسلك صورة ... واعربت عن مكان كل اقليم مما ذكرته واتصال بعض ببعض ومقدار كل ناحية في سعتها وصورتها من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث وسائر ما يكون عليه اشكال تلك الصورة والعمل وموقع كل مدينة من مدينة تجاورها وموضعها من شمالها وجنوبها وكونها بالمرتبة من شرقها وغربها ليكتفي الناظر ببيان موقع كل اقليم وموضعه ومكانه وماتوخيته من ترتيبه واشكاله ... الخ] ويقصد ابن حوقل هنا انه رسم الكرة الارضية (شكل ٦) بصورة دائرية ووضع مختلف الاقاليم بالنسبة الى اشكالها العامة من استطالة الى تربيع الى غير ذلك ثم وضع كل اقليم فى موضعه بين الاقاليم لمعرفة النسبة بينها اولا ولتحديد حدود كل اقليم من جهة ثانية . ورسم حول اليابسة البحر المحيط الذى يحيط بها من كل الجهات . ان الكرة الارضية المذكورة قد وضعت عليها الجزائر الكبيرة المعروفة وكذلك الانهار الكبيرة المعروفة وكذلك البحار والخلجان الداخلة المشهورة وقد رسم الاصطخرى كذلك صورة للارض ولا تختلف كثيرا عما رسمه ابن حوقل اما المقدسى فانه لم يرسم صورة للارض جمعاء بل انصرف الى تصوير البلاد المختلفة واختصر فى عددها كما سيأتى ذلك .

اننا لانستغرب تشابه بعض خرائط ابن حوقل بخرائط الاصطخرى [1] فلقد التقى الاثنان ولا ندرى متى فلقد ذكر ابن حوقل هذه اللقيا ويذكر انه اطلع على ما صوره الاصطخرى فعدل وصحح بها كما يدعى ، والراجح عندى انه تأثر بها ولم يقتبسها واراد ان يفوقها حسنا وجودة وتفصيلا وهذا ما حدث فعلا اذ اننا نجد ان خرائط ابن حوقل اقرب الى الصحة واكثر تفصيلا مما هى عليه خرائط الاصطخرى . ومن يطلع على خرائطه للنيل ولمصر ـ اذ انه لم يكتف بواحدة كما فعل الاصطخرى والمقدسى ـ يجد ما زعمت واضحا اذا قارنها بخريطة مصر للاصطخرى فلم يكتف ابن حوقل بأن يضع المعالم المشهورة فى مصر على خريطته حسب بل رسم دلتا النيل بكل فروعه ووضع عليها كل المدن والقرى فبلغ عددها ١١٢ مدينة وقرية بينما لا يتجاوز عدد ذلك عشرات منها فى خريطتى الاصطخرى والمقدسى .

اما خريطة ابن حوقل للنيل فلها اهميتها من ناحية تتعلق باطلاعه الواسع ومجال اختياره طريقة رسم الخريطة فلقد وضع هذه الخريطة على مذهب اصحاب جغرافيا اى

(١) نبغ الاصطخرى سنة ٩٥١ م والتفاصيل عنه فى العدد السابع والثامن من مجلة الاستاذ فليراجع .
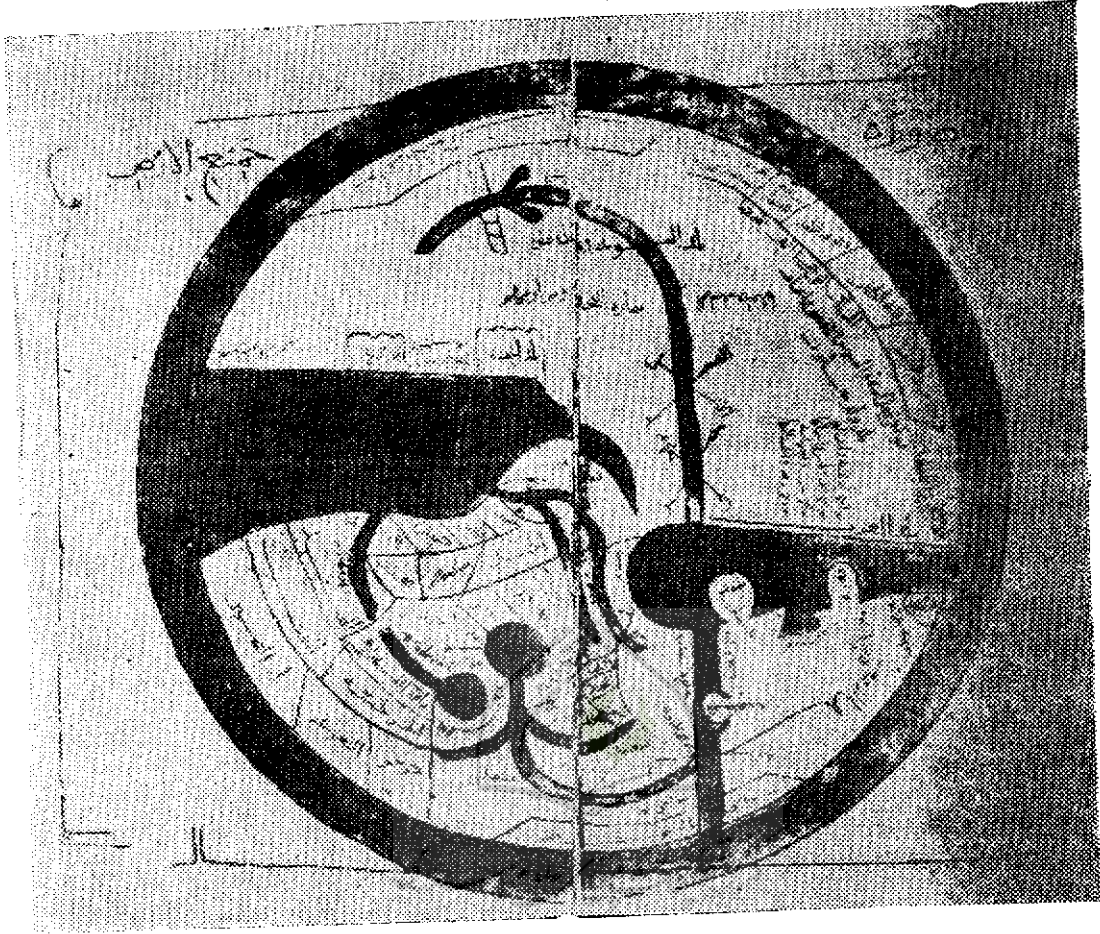
(شكل رقم ٦)
رسم الكرة الارضية لابن حوقل البغدادى
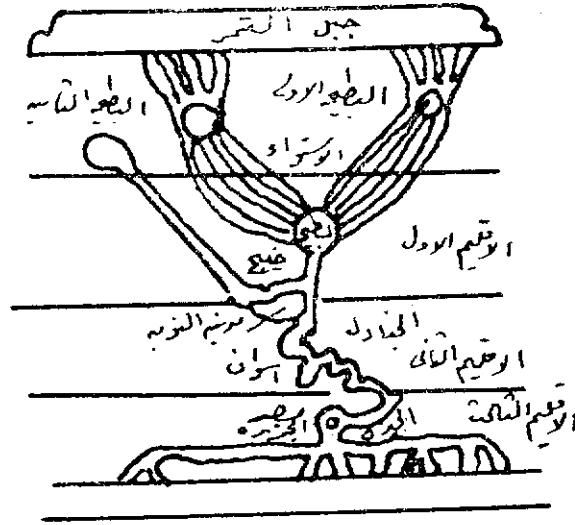
(شكل رقم ٧)

النيل ومنابعه لابن حوقل البغدادى
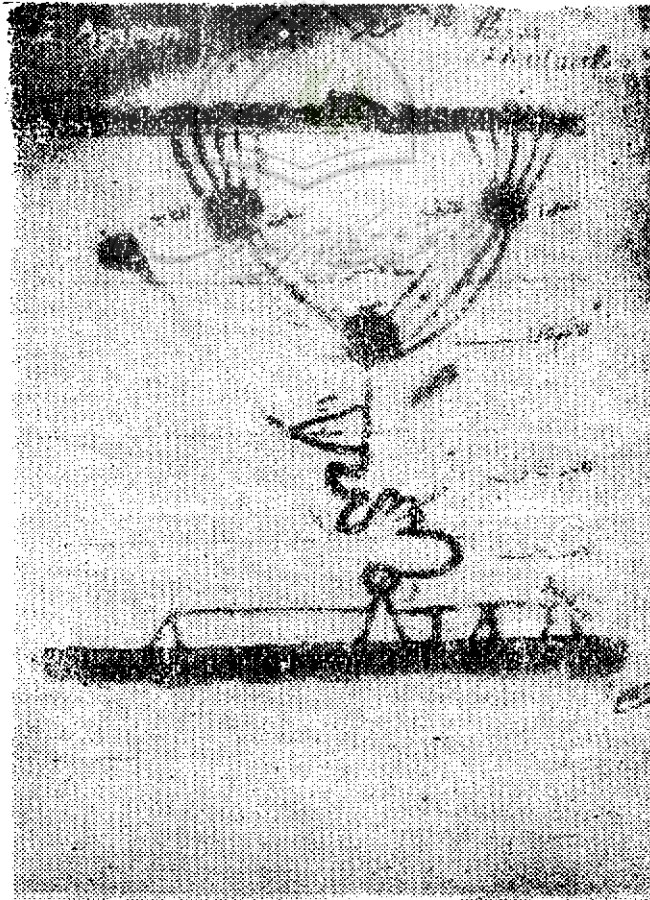
(شكل ٨)

نسخة الاصل فى المخطوط لشكل رقم ٧

بالنسبة للأقاليم السبعة كما يتبين من الرسم فى هذا البحث وقد اظهر لنا بذلك انه قدر على رسم الارض بتفاصيلها على غرار الصورة المأمونية الا انه فضل ان يتبع اسلوب تقسيم العالم الاسلامى الى اقاليم كوحدات ادارية اى ممالك • ويصدق ما زعمت على الاصطخرى والمقدسى [١] على الاول على سبيل الحدس والاستنتاج وعلى الثانى على وجه التأكيد لانهم يدعون ايضا - كما ادعى ابن حوقل - انهم اطلعوا على كل ما كتب فى العلم الا انهم لم يجدوا ما يشفى الغليل مما اضطرهم الى تأليف كتبهم ورسم صورهم فاتبع كل منهم طريقته فى الرسم ومذهبه فى العرض • وتأكدى فى امر اطلاع المقدسى على خرائط من تقدمه من اصحاب الهيئة والصناعة واسلوبهم فى رسم الارض قوله فى كتابه عندما ينقد الجيهانى [وكل من سبقنا الى هذا العلم (اى علم احوال البلدان) لم يسلك الطريق التى قصدتها ولا طلب الفوائد التى اردتها أما أبو عبدالله الجيهانى [٢] فانه كان وزير امير خراسان وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة فجمع الغرباء وسألهم عن اعمالها ودخلها وكيف المسالك اليها وارتفاع الخنس منها وقيام الظل فيها ليتوصل بذلك الى فتوح البلدان ويعرف دخلها ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك • ألا ترى كيف جعل العالم سبعة اقاليم وجعل لكل اقليم كوكبا مرة يذكر النجوم والهندسة وكرة يورد ماليس للعوام فيه فائدة ... الخ] فترى مما ذكر أن الجيهانى قد رسم صورة الارض على اساس السبعة الاقاليم - كما فعل من تقدمه من الحساب واصحاب الهيئة والنجوم (بخلاف ما جاء فى كتاب مابا اربيكا لكونارد مللر [٣] لوحة ٦٦ و٦٧ و ٦٨ و٧٣) ولقد اطلع المقدسى على هذه الصورة وغيرها منها صور الاصطخرى كما يذكر

---

(١) وهو شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن ابى بكر البناء الشامى المقدس المعروف بالبشارى • كتب سنة ٩٨٥ م •

(٢) الجيهانى : هو ابو عبدالله احمد بن محمد نصر • وزير خراسان سنة ٩١٣ م وله من الكتب [كتاب المسالك والممالك (الشرقية)] • الفهرست ص ١٩٨

(٣) لقد نشر مللر للجيهانى صورا للاقاليم المختلفة تشبه صور الاصطخرى أى كل مملكة على حدة وما نشره فارسى • والراجح عندى أن الجيهانى لم يرسم هذه الصور لان كتابه المسالك والممالك بنى على اساس الاقاليم السبعة وليس على قسمة الممالك كما يذكر المقدس فى اعلاه • وزعم قسم من المؤرخين انه مثل كتاب ابن خرداذبة او انه قد حوى فى كتابه كتاب ابن خرداذبة نفسه وزاد عليه ما حصل عليه من الاخبار من الناس اذ انه لم يسافر ولم يطلع بنفسه على ما ذكره •

(شكل رقم ٩)

صورة مصر لابن حوقل البغدادى

ماجاء من الاسماء فى صورة مصر لابن حوقل البغدادى
(شكل رقم ٩)

١ - اسوان ٢ - المحدثة ٣ - قوص ٤ - اخميم ٥ - أنصنا ٦ - اتفيح ٧ - اسكر ٨ - الحى ٩ - الحرس ١٠ - حلوان ١١ - الفسطاط ١٢ - قرية ١٣ - اتفو ١٤ - اسنا ١٥ - ارمنت ١٦ - هو ١٧ - البلينا ١٨ - بوتيج ١٩ - اسيوط ٢٠ - منسارة ٢١ - الاشمونين ٢٢ - طحا ٢٣ - القيسى ٢٤ - سمسكا ٢٥ - دلاصى ٢٦ - اهناس ٢٧ - اطراب ٢٨ - الجيزة ٢٩ - هذان الهرمان ٣٠ - طوقة ٣١ - اللاهون ٣٢ - الفيوم ٣٣ - بوصير قوريدس ٣٤ - شنطوف ٣٥ - دجوة ٣٦ - بنها العسل ٣٧ - تفتهه ٣٨ - القنطرة ٣٩ - تنوهه ٤٠ - صهرجت ٤١ - زفنا جواد ٤٢ - سندبسط ٤٣ - تطاية ٤٤ - اشيعه ٤٥ - مخنان ٤٦ - دمسيس ٤٧ - تنا ٤٨ - ابو صير ٤٩ - سمنود ٥٠ - اوش ٥١ - طلخا ٥٢ - قجنجيمه ٥٣ - دميره ٥٤ - محلة شرقيون ٥٥ - مليج ٥٦ - زمزور ٥٧ - طوخ ٥٨ - دقهله ٥٩ - شارم ساح ٦٠ - شارم بارم ٦١ - بوره ٦٢ - نقيزه ٦٣ - دمياط ٦٤ - شطا ٦٥ - تنيسى ٦٦ - ابو يحنس ٦٧ (٦٨) - ترنوط ٦٨ - بستامة ٦٩ - طنوب ٧٠ - شابو ٧١ - محلة نقيده ٧٢ - دنشال ٧٣ - قرطا ٧٤ - شبروا ابو مينا ٧٥ - قرنفيل ٧٦ - السكربون ٧٧ - قرية الصير ٧٨ - اخبا ٧٩ - الجريسيات ٨٠ - شبروالاو ٨١ - منوف ٨٢ - تنا ٨٣ - فيشه بنى سليم ٨٤ - البندارية ٨٥ - محلة المحروم ٨٦ - صا ٨٧ - دياى ٨٨ - الصافبة ٨٩ - دمى جمول ٩٠ - (دسبو) سنديون ٩١ - فوه ٩٢ - دسيو ٩٣ - نطويه الرمان ٩٤ - طنتنا ٩٥ - قليب العمال ٩٦ - بيبنج ٩٧ - محلة

في كتابه [١] [وما صورة ابراهيم الفارسي (الاصطخرى) وهي اقرب الى الصحة يعتمد عليها وقد أخل وخلط في مواضع كثيرة] الا انه اختار لنفسه اسلوبا خاصا وطريقة في الرسم انفرد بها عن غيره تبعا لنهجه في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم)[٢]. والمقدسي من دون غيره يذكر أنه قد رسم صوره بالالوان وذكر هذه الالوان فيقول [وقد قسمناها (البلاد المختلفة) اربعة عشر اقليما وافردنا اقاليم العجم عن اقاليم العرب ثم فصلنا كور كل اقليم ونصبنا امصارها وذكرنا قصباتها ورتبنا مدنها واخبارها بعد ما مثلنا ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخضرة وانهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف الى الافهام ويقف عليه الخاص والعام] [٣] ولقد رسم المقدسي ثمانية عشر صورة بينما رسم الاصطخرى واحدا وعشرين صورة اما ابن حوقل البغدادى فانه رسم اثنين وعشرين صورة (في نسخة الاستانة) فلقد ازاد واحدة لمجرى النيل بالاضافة الى موضوع مصر فيكون قد رسم لمصر صورتين . لم يرسم المقدسي صورة الارض جمعاء (الكرة الارضية) ولم يرسم صورة سجستان ولا صورة بحر الجزر (بحيرة قزوين) اما بقية خرائطه فهي في نفس الاغراض التي رسمت من اجلها صور ابن حوقل وصور الاصطخرى .

وهذه الصور هي ١ ـ صورة الارض (٢) ديار العرب (٣) بحر فارس (٤) المغرب (٥) مصر (٦) بحر الروم (٧) الشام (٨) الجزيرة (٩) العراق (١٠) خوزستان (١١) فارس (١٢) السند (١٣) كرمان (١٤) اذربيجان (١٥) طبرستان والديلم (١٦) ...

وكثرتها فى الصورة الواحدة وكذا اختلاف الشكل فالصور عنده اقرب الى واقعها الحالى والخرائط الحديثة مما جاء عند الاصطخرى او المقدسى ولقد اوردت صورة مصر للدلالة على ذلك ، واذكر كذلك على سبيل التفصيل صورة بحر الروم (البحر المتوسط) لابن حوقل وسواحل اوربا الجنوبية وسواحل شمال افريقية عليها فهى اقرب صورة الى خرائط هذا البحر الحديثة بينما لا يصدق هذا لا على الاصطخرى ولا على المقدسى مما يبرىء ساحة ابن حوقل من انه اخذ ما عند الاصطخرى من علم فانتحله لنفسه كما يذكر بعض المستشرقين • (وهنا ليس موضع البحث فى هذا) • اذ أن عماد كتبهم جميعا هذه الصور التى رسموها واظهروا فيها جزءا كبيرا من غزارة علمهم ومعرفتهم فتمثل شخصيتهم العلمية لحد كبير اصدق تمثيل بميزاتها وفروقها •

ولا تعنى احكامى وآرائى عن الجغرافيين المذكورين اننى قد حكمت على مؤلفاتهم وما كتبوه وتثمينهم كجغرافيين والا لاختلف الحكم وتبدلت المنازل والمكانات لبعضهم بل اقتصر البحث على خرائطهم (صورهم) فقط بدون التعرض الى كتبهم ومكانتها العلمية ومقدار الابداع فيها وما احاط ذلك من اختلاف فى آراء الباحثين القدامى منهم والجدد •
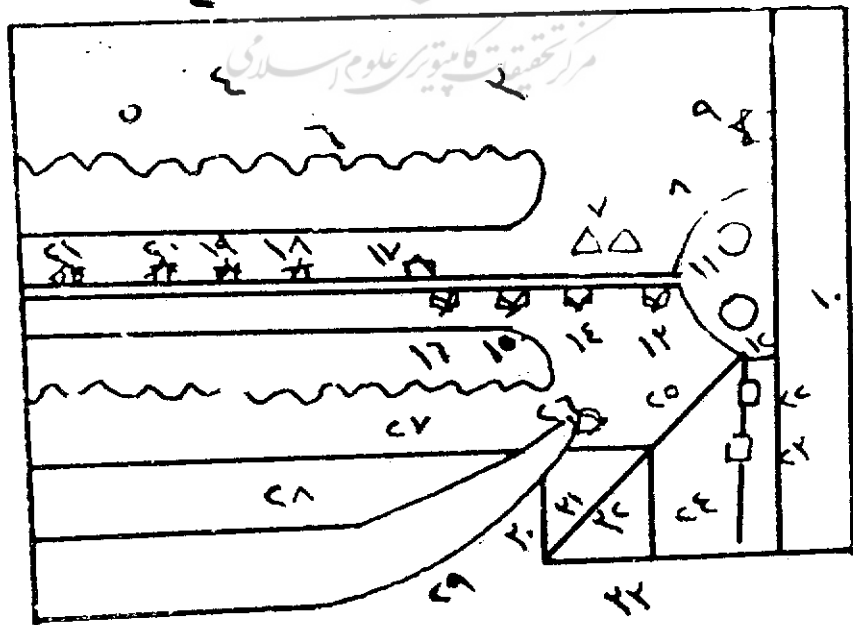
ماجاء من الاسماء فى صورة مصر للاصطخرى (شكل ١٠)

١ - حدود المغرب ٢ - رمال بين الواحات وبين السودان ٣ - برية بين مصر والبربر ٤ - معدن الزبرجد ٥ - الواحات ٦ - جبل الواحات ٧ - الهرمين ٨ - الريف ٩ - الاسكندرية ١٠ - بحر الروم ١١ - دمياط ١٢ - تنيس ١٣ - دبقو ١٤ - فوة ١٥ - الفسطاط ١٦ - بوصير ١٧ - الفيوم ١٨ - اشمونين ١٩ - اخميم ٢٠ - (لم يذكر الاسم) ٢١ - اسوان ٢٢ - الفرما ٢٣ - العريش ٢٤ - الجفار ٢٥ - الحوف ٢٦ - القلزم ٢٧ - جبال المقطم

٢٨ ـ برية بين مصر وارض المعدن ٢٩ ـ حد البادية ٣٠ ـ ايلة ٣١ ـ طور سيناء
٣٢ ـ تيه بنى اسرائيل ٣٣ ـ حدود الشام

شكل ١١ صورة مصر للاصطخرى نسخة عن المخطوط العربى فى بولونا
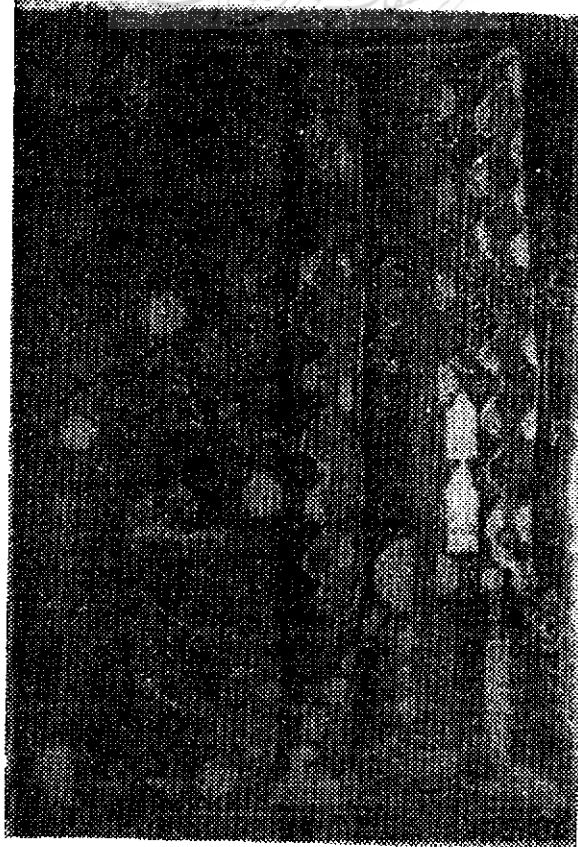
صورة مصر للمقدس عن اصل المخطوط وعنها رسم شكل (١٢)
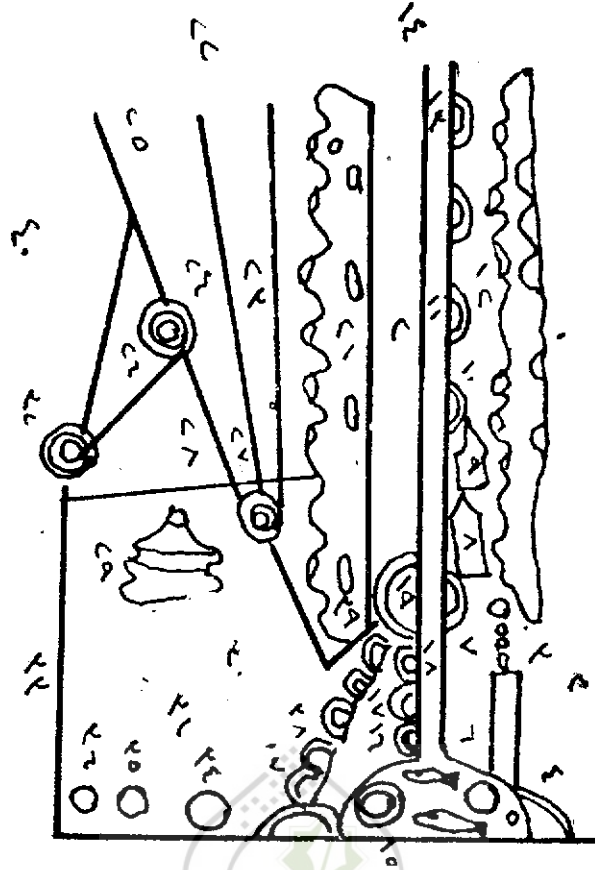
رسم عن شكل رقم ١٢ مع ارقام للاسماء

١ - جبل الواحات ٢ - سواد الاسكندرية ٣ - منارة الاسكندرية (وقد رسمت كصورة) ٤ - اسكندرية ٥ - دمياط ٦ - بحر دمياط ٧ - الجيزة ٨ - الهرم ٩ - هرم ١٠ - الفيوم ١١ - لم يذكر اسم المدينة ١٢ - الصعيد الاعلى ١٣ - اسوان ١٤ - النيل ١٥ - تنيس ١٦ - دميرة ١٧ - دامـرا ١٨ - عين شمس ١٩ - الفسطاط ٢٠ - الصعيد السـفلى ٢١ - جبل المقطم ٢٢ - بلاد النوبه ٢٣ - مفازة مصر وغيداب ٢٤ - موضع خرجوا منه (ويقصد بنى اسرائيل) ٢٥ - بحر الصين ٢٦ - تداز ٢٧ - القلزم ٢٨ - موضع غرق فرعون ٢٩ - طور سيناء ٣٠ - تيه بنى اسرائيل ٣١ - حد الجفـار ٣٢ - ويلة (ايلة) ٣٣ - حد الشام ٣٤ - بقـاره ٣٥ - وراده ٣٦ - عريش ٣٧ - خـرهس ٣٨ - فاقوس ٣٩ - بيبس (بلبيس) ٤٠ - الحجاز ٠
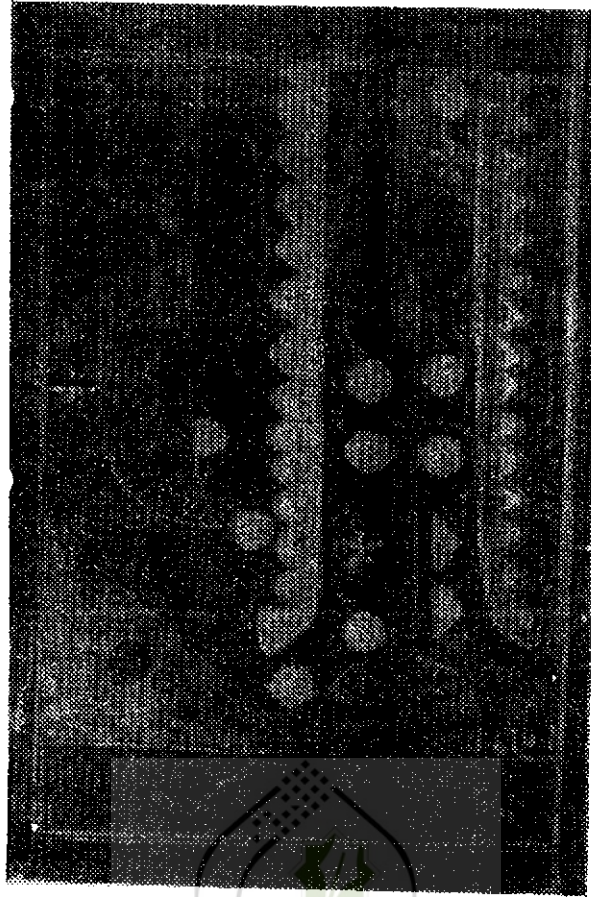
شكل رقم (١٣)

صورة مصر للاصطخرى نسخة فارسية مترجمة (نسخة لننغراد) من الاصل المخطوط
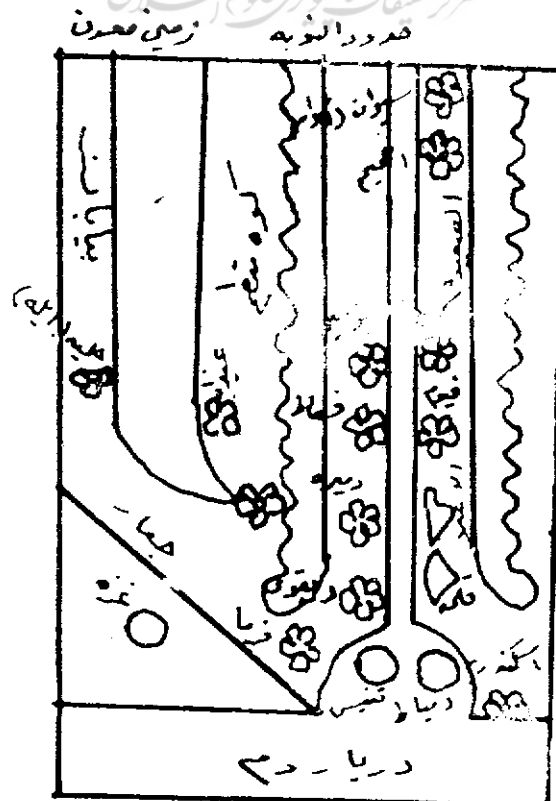
(شكل رقم ١٤)

صورة مصر للاصطخرى عن نسخة مترجمة الى الفارسية

شكوك الرضي وابن ابى الحديد

فى بعض نصوص نهج البلاغة

لقد شك كثير من الباحثين فى نهج البلاغة وصحة نسبته الى الامام علي - كرم الله وجهه - فمن هؤلاء ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » والذهبي فى « ميزان الاعتدال » واليافعى فى تاريخه والصلاح الصفدى فى الوافي بالوفيات وأحمد زكى صفوت باشا وأحمد أمين فى « فجر الاسلام » وصاحب المقتطف (لسنة ١٩١٣) وصاحب مجلة الحديث (لسنة ١٣ العدد الثانى ، ص ١٥٧)

واليوم نأتى بشيء جديد ربما لم يلتفت اليه الباحثون بجدية كافية الا وهو شك الشريف الرضى وابن أبى الحديد وكلاهما ممن عني بنهج البلاغة .. جمعاً وشرحاً على الولاء . ولعل افضل شيء فى هذا الموضوع الدقيق هو ان ادع النصوص نفسها تتكلم :-

(١) قال الرضى رحمه الله : « وربما جاء فى اثناء هذا الاختيار اللفظ المردد والمعنى المكرر ، والعذر فى ذلك ان روايات كلامه تختلف اختلافا شديدا فربما اتفق الكلام المختار فى رواية فنقل على وجهه ، ثم وجد بعد ذلك فى رواية اخرى موضوعا غير وضعه الاول أما بزيادة مختارة ، أو بلفظ أحسن عبارة ، فتقتضي الحال أن يعاد استظهاراً للاختيار ، وغير على عقائل الكلام ، وربما بعد العهد ايضا بما اختير اولا فاعيد بعضه سهوا ونسيانا ، لا قصدا او اعتمادا ، ولا ادعى مع ذلك انني احيط بأقطار جميع كلامه عليه السلام ، حتى لا يشذ عني منه شاذ ، ولا يند ناد ، بل لا ابعد ان يكون القاصي عني فوق الواقع الي ، والحاصل فى ربقتي دون الخارج من يدى ، وما علي الا بذل الجهد وبلاغة الوسع ، وعلى الله سبحانه نهج السبيل وارشاد الدليل ، ورأيت من بعد تسمية هذا الكتاب بنهج البلاغة »[١] ا . هـ .

---

(١) شرح ابن ابى الحديد : ٢٥/١ وابن ابى الحديد عالم معتزلي وردت ترجمته فى كتاب « معجز الآداب فى معجم الالقاب » للفوطى . ولد سنة ٥٨٦ هـ وتوفى سنة ٦٥٦ هـ وقد صنف شرح نهج البلاغة فى عشرين مجلدا فبعث اليه العلقمي بمائة دينار وخلعة وفرس . وكان ممن نجا من القتل عند سقوط بغداد على ايدى التاتار بالتجائه مع اخيه موفق الدين الى دار الوزير العلقمي ، وقد عهد اليه بامر خزائن الكتب ببغداد فلم تطل ايامه فتوفى فى جمادى الآخرة من تلك السنة.

فهناك ثلاثة شكوك (أولاً) الاختلاف الشديد فى رويات كلام الامام وقد جاء الرضى بالجملة مطلقة اى انها تنطبق على النهج كله فلم يخص خطبة دون غيرها او قسما دون قسم (ثانياً) الشك في وجود الاضافات والزيادات (ثالثاً) الشك فى حصول التكرار سهوا •

(٢) ويعترف الرضى نفسه في مواضع من الكتاب ، ويوافقه ابن أبى الحديد ، بأن كذا وكذا عبارة ليست للامام على ، فمن ذلك مثلا ما قاله عند عزمه على المسير الى الشام لحرب معاوية : « اللهم انى اعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الاهل والمال والولد ، اللهم انت الصاحب فى السفر ، وانت الخليفة فى الاهل ، ولا يجمعهما غيرك لان المستخلف لا يكون مستصحبا ، والمستصحب لا يكون مستخلفا» اهـ

فيعلق الرضى قائلا : وابتداء الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد قفاه امير المؤمنين عليه السلام بابلغ كلام ، وتممه باحسن تمام من قوله : « ولا يجمعهما غيرك » الى آخر الفصل •

ويؤيده ابن ابى الحديد فى شرحه لهذه القطعة قائلا : « وصدر الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى المسانيد الصحيحة ، وختمه امير المؤمنين عليه السلام وتممه بقوله : « ولا يجمعهما غيرك » وهو الصحيح ••• وزاد فيه نصر بن مزاحم المنقرى فى « كتاب صفين » : « من الحيرة بعد اليقين » •

هذا ما يعترف به الرضى وابن ابى الحديد • اذن فمن حقنا ان نبحث عما لا يعترفان به مما دخل كلام الامام وليس منه • اقول لا يعترفان به لا عمدا وانما سهوا ، وسبحان من لا يسهو • افليس من السهو مثلا ان ينسب ابن ابى الحديد قصة لسقراط وهي لديموسثينس اتفقت له مع الاسكندر ، فسها عن اسمه وعوض عنه بعبارة : « بعض الملوك [٢] ••• وفوق كل ذي علم عليم • فمن سها في الشرح لابد أن يسهو فى المتن ، والرضى جمع ولم ينقد ما جمع بصورة دقيقة ، فالانتحال وقع – على اكبر احتمال – قبله لا على يديه •

ويقول ابن ابى الحديد : « حذف الرضى بعض عبارات أما اختصارا او خوفا من ايحاش سامعيها » [٣] •

---

(٢) ١/٣٤٦ ـ ٣٤٧
(٣) ٢/٢٤٠

(٣) يعلق ابن ابى الحديد على خطبة الامام يوم بويع بالمدينة [٤] فيقول : « وهذه الخطبة من جلائل خطبه عليه السلام ومن مشهوراتها وقدرواها الناس كلهم وفيها زيادات حذفها الرضى أما اختصارا او خوفا من ايحاش السامعين [٥] ، وقد ذكرها شيخنا ابو عثمان الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين على وجهها » .

(٤) نجد فى كلام الامام : « فى صفة من يتصدى للحكم بين الامة وليس لذلك بأهل » [٦] أن ما يذكره ابن ابى الحديد غير كامل باعترافه هو ، اذ يقول : « وفى كتاب ابن قتيبه (يقصد غريب الحديث) تتمة هذا الكلام ... والذى رواه ابن قتيبة من تمام كلام امير المؤمنين عليه السلام ، وهو الصحيح الجيد » [٧] اهـ .

(٥) يعترض ابن أبي الحديد (بصفته معتزلياً والمعتزلة أقرب الى الزيدية منهم الى غيرهم) على كلام الامام فى « ذم اختلاف العلماء فى الفتيا » (وهو مما يتجلى فيه روح السخرية والتهكم مفرونين بالحجج)[٨] اذ يقول : « ترد على أحدهم القضية فى حكم من الاحكام فيحكم برأيه ، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ... افأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه ، ام نهاهم عنه فعصوه ، ام انزل الله سبحانه دينه ناقصا فاستعان بهم على اتمامه ... ام انزل الله سبحانه دينا تاما فقصر الرسول (ص) عن تبليغه وادائه والله سبحانه يقول : ما فرطنا فى الكتاب من شيء ؟ »

بهذه الخطبة ـ ان صحت ـ يغلق باب الاجتهاد الذى تدعيه بعض الفرق ... لذلك ـ وبكلمات ابن ابى الحديد ـ فقد « دفعوا صحة هذا الكلام المنسوب فى الكتاب الى امير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا انه من رواية الامامية ، وهو معارض بما ترويه الزيدية عنه ، وعن ابنائه عليهم السلام فى صحة القياس والاجتهاد » [٩] .

---

(٤) ١٠٧/١

(٥) يظهر ان هذه الكليشة كانت خير مبرر للحذف والاختصار وتغيير النصوص .

(٦) ١٠٩/١ ـ ١١٠

(٧) ١١١/١

(٨) ١١١/١ ـ ١١٢

(٩) ١١٢/١

(٦) ويظهر شك ابن ابى الحديد باجلى وانصع اشكاله فى خطبة يستهلهـا الامام بقوله : « بنا اهتديتم فى الظلماء ، وتسنمتم العلياء » فيقول فى شرحه لهذه الخطبة مانحكيه هنا بالنص :

« هذه الكلمات والامثال من خطبة طويلة منسوبة اليه عليه السلام قد زاد فيهـا قوم اشياء حملتهم عليها اهواؤهم لا يوافق الفاظها طريقته عليه السلام فى الخطب ، ولا تناسب فصاحتها فصاحته » ••• ويعلق على الجزء الذى يعتقد بصحته وضرورة شرحه وسببه : « لان الرضى رحمة الله تعالى عليه قد التقطها ونسبها اليه عليه السلام ، وصححها وحذف ما عداها » •

اذن فهذا اعتراف صريح بان الرضى قد غير فى نهج البلاغة بعض الشىء وحور •

(٧) وفى صدد خطبة « وانما سميت الشبهة شبهة » يقول ابن ابى الحديد : « هذان فصلان احدهما غير ملتئم مع الاخر بل مبتور عنه ، وانما الرضى رحمه الله تعـالى كان يلتقط الكلام التقاطا ومراده ان يأتى بفصيح كلامه عليه السلام وما يجرى مجرى الخطابة والكتابة ، فلهذا يقع فى الفصل الواحد الكلام الذى لا يناسب بعضه بعضا » (١٠).

(٨) يعلن ابن ابى الحديد شكوكه احيانا بصورة ضمنية وبما يقرؤه الانسان من خلال السطور فهو يعلق على خطبة الامام على فى « صفة الملائكة » (١١) فيقول :

هذا موضع المثل اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل • اذا جاء هذا الـكلام الربانى واللفظ القدسى بطلت فصاحة العرب وكانت نسبة الفصيح من كلامها اليه نسبة التراب الى النضار الخالص • ولو فرضنا ان العرب تقدر على الالفاظ الفصيحة المناسبة او المقاربة لهذه الالفاظ فمن اين لهم المادة التى عبرت هذه الالفاظ عنها ؟ ومن اين تعرف الجاهلية بـل الصحابة المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعانى الغامضة السمائية ليتهيأ لها التعبير عنها • أما الجاهلية فانهم انما كانت تظهر فصاحتهم فى صفة بعير او فرس او حمار وحش او ثور فلاة او صفة جبال او فلوات ونحو ذلك ؛ واما الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة انما كان منتهى فصاحة احدهم كلمات لا تتجاوز السطرين او الثلاثة اما فى موعظة تتضمن ذكر الموت او ذم الدنيا ، او ما يتعلق بحرب وقتال من ترغيب او ترهيب ،

---

(١٠) ٢٥٨/١
(١١) ٢٤٢/٢

فاما الكلام فى الملائكة وصفاتها وصورها وعباداتها وتسبيحها ومعرفتها بخالقها وحبها له وولهها اليه وما جرى مجرى ذلك مما تضمنه هذا الفصل على طوله فانه لم يكن معروفا عندهم على هذا التفصيل . نعم ربما علموه جملة غير مقسمة هذا التقسيم ولا مرتبة هذا الترتيب بما سمعوه من ذكر الملائكة فى القرآن العظيم ، واما من عنده علم من هذه المادة كعبدالله بن سلام وامية بن أبى الصلت وغيرهم فلم تكن لهم هذه العبارة ولا قدروا على هذه الفصاحة ، فثبت ان هذه الامور الدقيقة فى مثل هذه العبارة الفصيحة لم تحصل الا لعلى وحده » اه .

أرأيت كيف اراد ابن ابى الحديد ان يقول لك بصيغة غير مباشرة ان خطبة الامام على هذه وامثالها ظاهرة غير مألوفة فى الادب الجاهلى ولا ادب صدر الاسلام وانما هى من أدب ما بعد هاتين الفترتين حين قال لك انها « لم تحصل الا لعلى وحده » وان خطب معاصريه لم تكن لتتجاوز السطرين او الثلاثة وفى موضوعات حددها لك بذكر الموت وذم الدنيا وما يتعلق بالحرب والقتال وان الموضوعات التى طرقتها خطب على هى على الاغلب مما نشأ فى عصر تال لعصره وان هذه الاطالة لم تكن معروفة لدى الاجيال التى عاصرت عليا ولم تكن على هذه الصورة من التفصيل والتقسيم والترتيب .

يجب ان نتذكر ان ابن ابى الحديد كان مفكرا منصفا ولكنه كان موزع الولاء بين الاخلاص للحقيقة ومداراة سيده الوزير المتعصب مؤيد الدين العلقمى الذى ضحى فى سبيل تعصبه بالدولة العباسية برمتها ... يجب أن نقدر موقفه لنعرف لماذا لجأ الى هذا الضرب من الكلام المبطن فى ابداء رأيه فى خطب نهج البلاغة ، وانه لعمرى لاسلوب حكيم بليغ يلجأ اليه المنصفون الحكماء حين يحرجون ... وما على الباحثين الذين يأتون من بعدهم الا ان يغربلوا السطور ليعثروا على ماهو مخبأ وراءها ، والا فأية ضرورة لهذه المقدمة الطويلة لشرح الخطبة ، اما كان بوسع ابن أبى الحديد أن يكتفى بالجمل الثلاث الاولى التى تتضمن أعلى درجات المديح والاطراء ؟ فلماذا اذن افسدها بالدخول فى التفاصيل وتنبيه اللبيب الى اشياء تفضى الى نوع من تداعى المعانى واستشفاف حقائق يصعب الجهر بها ؟ ولكن الرجل البليغ من وزن ابن ابى الحديد يستطيع - بهذا الاسلوب الرائع - ان يقول ما يشاء متى شاء ليخاطب به اناسا دقيقى الملاحظة يفهمون قصد الكاتب على وجهه الاتم !

(٩) وينقد ابن ابى الحديد الخطبة المستهلة بـ « وانقادت له الدنيا والآخرة » فيقول على نحو ما يقول فى تعليقه على اكثر من خطبة فى النهج : « هذا الفصل ليس بمنتظم من اوله الى آخره ، بل هو فصول متفرقة التقطها الرضى من خطبة طويلة على عادته فى التقاط ما يستفصحه من كلامه عليه السلام ، وان كان كل كلامه فصيحاً ولكن كل واحد له هوى ومحبة لشىء مخصوص وضروب الناس عشاق ضروبا »(١٢) اهـ

اذن فالهوى الشخصى - على رأى ابن ابى الحديد - قد لعب دوره فى اختيار خطب الامام وكلماته وتنقيحها .

(١٠) يشير ابن ابى الحديد معلقا على خطبة للامام يومىء فيها الى الملاحم (ويقول فى مستهلها : « واخذوا يمينا وشمالا طعنا فى مسالك الغى » ...) بهـذه الكلمات : « هذا الكلام يتصل بكلام قبله لم يذكره الرضى رحمه الله وهو وصف فئة ضالة قد استولت وملكت واملى لها الله سبحانه . »(١٣)

اذن فالرضى قد حذف اشياء يعتقد ابن ابى الحديد انها من صميم كلام الامام ولكنه لم يدرجها فى النهج . ويتكرر نفس الشىء فى الخطبة التى تبدأ بـ « وناظر قلب اللبيب به يبصر أمده » فيتكرر تعليق ابن ابى الحديد السابق مع تغيير لفظى فيقول : « هذا كلام متصل بكلام لم يحكه الرضى رحمه الله وهو ذكره قوماً من أهل الضلال قد كان اخذ فى ذمهم ونعى عليهم عيوبهم »(١٤)

(١١) ويورد ابن أبى الحديد الكلمات التالية لعلي بن أبي طالب : « أيها الناس انما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممركم لمقركم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم اسراركم وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل ان تخرج منها ابدانكم ، ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم » ثم يورد فى الشرح ما نصه : « ذكر ابو العباس محمد بن يزيد المبرد فى الكامل عن الاصمعى قال خطبنا اعرابى فى البادية فحمد الله واستغفره ووحده وصلى على نبيه صلى الله عليه وآله فأبلغ فى ايجاز ثم قال : ايها الناس : ان الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار فخذوا لمقركم من ممركم ولا تهتكوا استاركم عند من لا تخفى عليه

---

(١٢) ٢/٥٧٩ - ٥٨٠
(١٣) ٢/٦٥٧
(١٤) ٢/٦٧٦

اسراركم فى الدنيا انتم ولغيرها خلقتم اقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم والمصلى عليه رسول الله ، والمدعو له الخليفة ، والامير جعفر بن سليمان ، وذكر غيره الزيادة التى فى كلام امير المؤمنين عليه السلام . ويجوز ان يكون الاعرابى حفظه فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم » (١٥)

لماذا ذكر ابن ابى الحديد هذه القصة اذا كان من الجائز ان يكون الاعرابى قد حفظ هذه الخطبة عن ظهر غيب ؟ لقد اوردها ليلقى ظلا من الشك على الكلمة كلها ؛ ولكيلا يعاتب عند من لا يطاق عتابه اورد احتمال حفظ الاعرابى للقطعة ، وكذلك يكون اسلوب العالم البليغ لا يريد ان يظلم الحقائق العلمية ولا يستطيع فى الوقت ذاته ان يفقد صداقة من سيحميه يوماً ما من مجازر هولاكو .

(١٢) وقال ابن ابى الحديد عن تعزية الامام للاشعث بن قيس عن ولده والتى يستهلها بقوله : « يا اشعث ان تحزن على ابنك فقد استحقت ذلك منك الرحم » :ـ « قد روى هذا الكلام عنه عليه السلام على وجوه مختلفة وروايات متنوعة هذا الوجه احدها . » (١٦)

فهو يقول لك بصورة غير مباشرة ان النص غير موثوق به لتعدد وجوهه واختلاف رواياته .

(١٣) عندما يصل ابن ابى الحديد الى الجزء التالى :

(وقال عليه السلام وقد جاءه نعى الاشتر رحمه الله) : « مالك وما مالك والله لو كان جبلا لكان فندا (١٧) ، او كان حجرا لكان صلدا . لا يرتقيه الحافر ولا يوفى عليه الطائر » .

اقول عندما يصل ابن ابى الحديد الى هذه القطعة من نهج البلاغة يعلق قائلا :ـ

---

(١٥) ٣/٥

(١٦) ٤/٥١٢ـ٥١٣ (١٧) قال الرضى والفند المنفرد من الجبال وقال ابن ابى الحديد: وانما قال لو كان جبلا لكان فندا لان الفند قطعة الجبل طولا وليس الفند القطعة من الجبل كيفما كانت ولذلك قال لا يرتقيه الحافر لان القطعة المأخوذة من الجبل طولا فى دقة لا سبيل للحافر الى صعودها ولو اخذت عرضا لامكن صعودها .

« يقال ان الرضى ختم كتاب نهج البلاغة بهذا الفصل وكتبت به نسخ متعددة ثم زاد عليه الى ان وفى الزيادات التى نذكرها فيما بعد » (١٨) .

وبكلامه هذا يؤكد الشك فى ان الرضى لم يكن واثقا من كمية الصحيح من خطب الامام وأقواله فقد ختم الكتاب بعبارة « وكتبت به نسخ متعددة » ثم عاد فزاد عليه !

(١٤) ويعود ابن ابى الحديد فيعلق على الجملة التالية :

وقال عليه السلام : « رب مفتون بحسن القول فيه » .

بقوله : واعلم ان الرضى رحمه الله قطع كتاب نهج البلاغة على هذا الفصل وهكذا وجدت النسخة بخطه . وقال : وهذا حين انتهاء الغاية بنا الى قطع المنتزع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام حامدين لله سبحانه على ما من به من توفيقنا لضم ما انتشر من اطرافه وتقريب ما بعد من اقطاره ، ومقررين العزم كما شرطنا او على تفضيل اوراق من البياض فى آخر كل باب من الابواب لتكون لاقتناص الشارد واستلحاق الوارد ، وما عساه ان يظهر لنا بعد الغموض ، ويقع الينا بعد الشذوذ ، وما توفيقنا الا بالله ، عليه توكلنا ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير . ثم وجدنا نسخا كثيرة فيها زيادات بعد هذا الكلام قيل انها وجدت فى نسخة كتبت فى حياة الرضى رحمه الله وقرئت عليه فأمضاها واذن فى الحاقها بالكتاب ونحن نذكرها . » (١٩)

هذا نص خطير ، يعد اهم مفتاح قدمه لنا ابن ابى الحديد فى البحث عن حقيقة نهج البلاغة اذ يفسر لنا سبب وجود اختلاف فى عدد صفحات نسخ النهج وطول خطبه ، فوجود اوراق بيض فى نهاية كل باب اعان على زيادة اسطر منتحلة . ويبدو ان ابن ابى الحديد قد اطلع على عدة نسخ متباينة من نهج البلاغة بدليل قوله : « ثم وجدنا نسخا كثيرة فيها زيادات بعد هذا الكلام . » واين كانت هذه الزيادات ؟ هل كانت فى نسخة بتوقيع الرضى ؟ كلا بل فى نسخ « قيل انها وجدت فى نسخة كتبت فى حياة الرضى وقرئت عليه » ... لاحظ عبارة « قيل انها » ...اذن فقد تكون هذه النسخ التى فيها الزيادات مفتراة على الشريف الرضى .

---

(١٨) ٦٥٦/٤

(١٩) ٧٠٠/٤

(١٥) ويشك كل من الرضى وابن ابى الحديد فى عبارة : « العين وكاء السته او السه » **(٢٠)** فيقول الرضى اولا : وهذا القول فى الاشهر الاظهر من كلام النبى صلى الله عليه وآله ، وقد رواه قوم لامير المؤمنين عليه السلام ، وذكر ذلك المبرد فى الكتاب المقتضب فى باب اللفظ المعروف • قال الرضى وقد تكلمنا على هذه الاستعارة فى كتابنا الموسوم « بمجازات الآثار النبوية » ثم يعقب ابن ابى الحديد فى شرحه قائلا : المعروف ان هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر ...

« واعلم ان السجع لو كان عيبا لكان كلام الله سبحانه معيبا لانه مسجوع كله ذو فواصل وقرائن ، ويكفى هذا القدر وحده مبطلا لمذهب هؤلاء » .

ويتجاهل ابن ابى الحديد ان السجع القرآنى الطبيعى هو غير السجع النهجى المتكلف

السلام لبعضهم منكرا عليه : اسجعا كسجع الكهان ؟ ولولا ان السجع منكر لما انكر عليه السلام سجع الكهان وامثاله فيقال لهم : انما انكر عليه السلام السجع الذى يسجع الكهان امثاله لا السجع على الاطلاق •••• وكان عليه السلام قد ابطل الكهانة والتنجيم والسحر، ونهى عنها •••• ولو كان عليه السلام قد انكر السجع لما قاله ، وقد بينا ان كثيرا من كلامه مسجوع وذكرنا خطبته » (٢٤) •

لسنا نعلم كيف استساغ الامام على الافراط فى السجع فى خطبه المسجوعة مع نهى الرسـول عنه • وأما وجود نوعين من السجع : سجع الكهان وسجع غير الكهان فهذا امر يصعب فهمه وتمييزه والسجع هو السجع لغويا سواء نطق به كاهن او رسول او وحى رسول • لذلك نستبعد وجود السجع السمج المتكلف فى خطب الرسول (ص) والامام علي كرم الله وجهه بالكثرة التى يتصورها ابن أبي الحديد أو الشريف الرضى أو المرتضى او كل من عنى بجمع ما بداله انه من خطب الامام •

(١٨) وقال ابن أبي الحديد تعليقاً على الخطبة المستهلة : «أما بعد حمدالله والثناء عليه أيها الناس ، فانى عين الفتنة » (٢٥) : وهذه الخطبة ذكرها جماعة من اصحاب السيرة وهى متداولة منقولة مستفيضة خطب بها على عليه السلام بعد انقضاء امر النهروان وفيها الفاظ لم يوردها الرضى رحمه الله من ذلك قوله عليه السلام : « ولم يكن ليجترى عليها غيرى ولو لم اك فيكم ما قوتل اصحاب الجمل والنهروان وايم الله لولا ان تتكلوا فتدعوا العمل لحدثتكم بما قضى الله عز وجل على لسان نبيكم صلى الله عليه وآله لمن قاتلهم مبصـرا لضلالتهم عارفا للهدى الذى نحن عليه • سلونى قبل ان تفقدونى فانى ميت عن قريب او مقتول ، بل قتلا ، ما ينتظر اشقاها ان يخضب هذه بدم ؟ » (٢٦) وضرب بيده الى لحيته • ومنها فى ذكر بني أمية : « يظهر أهل باطلهـا على أهل حقها حتى تملأ الأرض عدواناً وظلما وبدعا الى ان يضع الله عز وجل جبروتها ويكسر عمدها وينزع اوتادها الا وانكم مدركوها فانصروا قوما كانوا اصحاب رايات بدر وحنين تؤجروا ولاتمالئوا عليهم عدوهم فتصرعكم البلية وتحل بكم النقمة » • ومنها : « الامثل انتصار العبد من مولاه اذا رآه

(٢٤) ١/ ٦٢
(٢٥) ٢/ ٢٧٥
(٢٦) ٢/ ٢٨٢

اطاعه وان توارى عنه شتمه وايم الله لو فرقوكم تحت كل حجر لجمعكم الله لشر يوم لهم » ومنها : « فانظروا اهل بيت نبيكم فان لبدوا فألبدوا وان استنصروكم فانصروهم فليفرجن الله الفتنة برجل منا اهل البيت بابى ابن خيرة الاماء لايعطيهم الا السيف هرجا هرجاً موضوعاً على عاتقه ثمانية أشهر حتى تقول قريش لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا يغريه الله ببني أمية حتى يجعلهم حطاماً ورفاته ملعونين أينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » (٢٧) اهـ

أرأيت القطع الثلاث التى اوردناها اعلاه ؟ انها زيادات حذفها الرضى واضافها ابن ابى الحديد . فايهما على صواب : الرضى الذى حذف لانه لم يكن متأكدا من صحة نسبة هذه القطع الثلاث الى الامام ام ابن ابى الحديد الذى جاء بعد الرضى بقرنين ونصف فاعتبرها جزءا من الخطبة الاصلية فحكاها بالنص . اكان ابن ابى الحديد اكثر اقتناعاً من الرضى فى صحة نسبة هذه القطع ام جدت لديه براهين على ذلك لم تكن متوافرة فى أيام الرضى ؟ ليس الامر كذلك فكل ما يحاول ابن ابى الحديد ان يفعله جاهدا هو ان يثير عجاجة من الشك ويلقى ظلا من الريبة كلما سنحت له الفرصة فهذا اسلوبه فى البحث وهذه طريقته فى التعبير غير المباشر وهى طريقة سار عليها فيما نعلم فريق من كتاب الفرنجة فى عصرنا وقبل عصرنا ، كما تعاورها بعض كتاب العربية قدامى ومحدثين ، عندما لم يجدوا بدا من اصطناع التقية وتعاور التعبير المبطن الذى يحتمل اكثر من تفسير

(١٩) وفى خطبة له فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله يقول فيها : « حتى اورى قبساً لقابس » قال الرضى رحمة الله تعالى : « وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم ، الا اننا كررناه ههنا لما فى الروايتين من الاختلاف » (٢٨) .

(٢٠) وهناك اختلاف لا فى النصوص فحسب بل فى التفسير ايضا ولا سيما فى ما يتعلق بخطب الملاحم ويحاول ابن أبي الحديد أحياناً أن يوفق بين التفاسير المتناقضة فمن ذلك مثلا قوله فى اختلاف شخصية الرجل الموعود الذى يشير اليه الامام فى خطبته التى يأمر فيها بسؤاله عن كل شىء قبل ان يفقدوه : « فان قيل فانكم قلتم فيما تقدم ان الوعد انما هو بالسفاح وبعمه عبدالله بن على والمسودة وما قلتموه الآن مخالف لذلك

(٢٧) ٢٨٢/٢
(٢٨) ٣٢٢/٢

قيل ذلك التفسير هو تفسير ما ذكره الرضى رحمة الله تعالى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة ، وهذا التفسير هو تفسير الزيادة التى لم يذكرها الرضى وهى قوله : بأبى ابن خيرة الاماء ، وقوله : لو كان هذا من ولد فاطمه لرحمنا ، فلا مناقضة بين التفسيرين » (٢٩) .

(٢١) وقيل أن الامام استشهد فى بعض خطبه ببيت امرىء القيس :ـ

دع عنك نهباً صيح فى حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

ويقول ابن أبى الحديد : « وروي ان أمير المؤمنين عليه السلام لم يستشهد الا بصدره فقط وأتمه الرواة » (٣٠) فأي حق للرواة فى أن يتموا بيتا لم يستشهد الامام بغير صدره ؟

(٢٢) ويثير ابن أبي الحديد قضية وردت فى بعض خطب الامام تثير شكوكا عند مفسري القرآن فقد ذكر انه (قام اليه عليه السلام رجل فقال أخبرنا عن الفتنة وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام : انه لما أنزل الله سبحانه قوله : « أ لم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) علمت ان الفتنة لاتنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا فقلت يا رسول الله ما هذه الفتنة التى أخبرك الله بها ؟ فقال : « يا علي ان أُمتي سيفتنون بعدي » فقلت : يا رسول الله أو ليس قد قلت لي يوم أُحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عني الشهادة فشق ذلك علي فقلت لي : « أبشر فان الشهادة من ورائك » (٣١) .

فيعلق ابن أبى الحديد بقوله : « واعلم ان لفظه عليه السلام المروي فى نهج البلاغة يدل على أن الآية المذكورة وهى قوله عليه السلام : « أ لم أحسب الناس » أنزلت بعد أُحد وهذا خلاف قول أرباب التفسير لأن هذه الآية هى أول سورة العنكبوت وهى عندهم بالاتفاق مكية ، ويوم أُحد كان بالمدينة » (٣٢) .

---

(٢٩) ٢/٢٨٣
(٣٠) ٢/٧١٩
(٣١) ٢/٦٩٧
(٣٢) ٢/٦٩٨

(٢٣) يروى أن الامام قد قال « فى نهج البلاغة » : « الباطل أن تقول سمعت والحق أن تقول رأيت » (٣٣) فيعلق ابن أبى الحديد بقوله : « فان قلت كيف يقول عليه السلام الباطل ما يسمع والحق ما يرى ، وأكثر المعلومات انما هى من طريق السماع كعلمنا الآن بنبوة محمد صلى الله عليه وآله بما بلغنا من معجزاته التى لم نرها وانما سمعناها ، قلت ليس كلامه فى المتواتر من الأخبار وانما كلامه فى الأقوال الشاذة الواردة من طريق الآحاد » .

ولا أدري لم هذا التخريج البعيد فى حين أن بالامكان أن نقول ان هذه الجملة من اضافات النسّاخ .

(٢٤) يعترض ابن أبى الحديد على لفظة « تكفيني » التى أوردها الرضي فى كلام الامام حين يقول : « يا ابن اللعين الأبتر والشجرة التى لا أصل لها ولا فروع ، أنت تكفيني فوالله ما أعز الله من أنت ناصره » وذلك رداً على قول المغيرة بن الأخنس يوم وقع بين علي وعثمان مشاجرة اذ قال المغيرة بن الأخنس لعثمان : « أنا أكفيكه ! » فيقول ابن أبى الحديد بعد أن يورد خبراً معيناً يتعلق بكلام الامام : « وهذا الخبر يدل على أن اللفظة أنت تكفني وليست كما ذكره الرضى رحمه الله أنت تكفيني ، لكن الرضى طبق هذه اللفظة على ما قبلها وهو قوله أنا أكفيكه ، ولا شبهة انها رواية أخرى » (٣٤) .

(٢٥) ويقول فى صدد الخطبة التى يستهلها الامام بقوله : « وانقادت له الدنيا والآخرة بأزمتها وقذفت اليه السموات والأرضون مقاليدها » : (فأما قوله : وكتاب الله الى قوله : « ولا يخالف بصاحبه عن الله » ففصل آخر مقطوع عما قبله ومتصل بما لم يذكره جامع نهج البلاغة ... وأما قوله « قد اصطلحتم على الغل » الى آخر الفصل فكلام مقطوع أيضاً عما قبله) (٣٥) .

(٢٦) وينقل ابن أبى الحديد رسالة أبى بكر الى علي وفيها شيء غير قليل من كلام علي فيعترض على صحة الرسالة التى قيل ان أبا حيان التوحيدى حكاها عن القاضى أبى حامد أحمد بن بشير المروروذي العامرى فيقول : « الذى يغلب على ظني ان هذه

---

(٣٣) ٦٢٦/٢
(٣٤) ٥٨٨/٢
(٣٥) ٥٨٣/٢

المراسلات والمحاورات والكلام كله مصنوع موضوع وانه من كلام أبي حيان التوحيدي لأنه بكلامه ومذهبه فى الخطابة والبلاغة أشبه ... وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفى وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين ؟ ومن تأمل كلام أبي حيان عرف ان هذا الكلام من ذلك المعدن خرج ويدل عليه أنه أسنده الى القاضي أبي حامد المروروذى وهذه عادته فى كتاب البصائر يسند الى القاضي أبي حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه اذا كان كارهاً لأن ينسب اليه » (٣٦) .

اذن فأبو حيان التوحيدى هو واحد من اولئك الذين كان لهم ضلع فى انتحال ما لم يقله الامام عليّ .

(٢٧) ويقول ابن أبي الحديد فى خطبته المستهلة بـ « تجهزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل » وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدم يخالف هذه الرواية (٣٧) .

(٢٨) ويقول ابن أبي الحديد بصدد ما يذكره الرضى عن الامام وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي : « وأما العلاء بن زياد الذى ذكره الرضى رحمه الله فلا أعرفه ، لعل غيري يعرفه » (٣٨) .

(٢٩) وفى خطبة للامام يذكر فيها بعض آداب المحاربة وشرحها ، يقول ابن أبي الحديد : « وهذه الألفاظ كلها لايتلو بعضها بعضاً وانما هى منتزعة من كلام طويل انتزعها الرضى رحمه الله واطرح ما عداها » (٣٩).

(٣٠) وفى خطبة للامام يخاطب فيها الخوارج وقد خرج الى معسكرهم يقول ابن أبي الحديد معلقاً : « هذا الكلام يتلو بعضه بعضاً ولكنه ثلاثة فصول لايلتصق أحدها بالآخر وهذه عادة الرضى تراه ينتخب من جملة الخطبة الطويلة كلمات فصيحة يوردها على سبيل التتالي وليست متتاليةحين تكلم بها صاحبها وسنقطع كل فصل منها عن صاحبه اذا مررنا على متنها . »

---

(٣٦) ٢/٩١١ ـ ٩١٩
(٣٧) ٣/٦
(٣٨) ٣/٢٠
(٣٩) ٢/٤٠١

وبعد شرح يسير يستأنف الشارح كلامه الأول فيقول : « لكنا اذا أصبحنا » فهو كلام ثالث غير منوط بالأولين ولا ملتصق بهما وهو فى الظاهر مخالف ومناقض للفصل الأول لأن الفصل الأول فيه انكار الاجابة الى التحكيم وهذا يتضمن تصويبها ، وظاهر الحال انه بعد كلام طويل وقد قال الرضى رحمه الله فى أول الفصل انه من جملة كلام طويل » (٤٠) .

(٣١) وفى خطبة له عرض فيها بالحجاج وكناه أبا وذحه اعترض ابن أبى الحديد على معنى لفظة وذحه كما فسرها الرضى فقال : « قال الرضى رحمه الله والوذحه الخنفساء ولم أسمع هذا من شيخ من أهل الآداب ولا وجدته فى كتاب من كتب اللغة ولا أدري من أين نقل الرضى رحمه الله ذلك . ثم ان المفسرين بعد الرضى رحمه الله قالوا فى قصة هذه الخنفساء وجوها ... الخ ... » (٤١)

(٣٢) ويعلق ابن أبي الحديد على بعض خطب الامام التى يذكر فيها زهد النبي بالدنيا وان بني هاشم هم شجرة النبوة بقوله : « هذا الكلام غير ملتصق بالأول كل الالتصاق وهو من النمط الذي ذكرناه مراراً لأن الرضى رحمه الله يقتضب فصولاً من خطبة طويلة فيوردها ايراداً واحداً وبعضها منقطع عن البعض » (٤٢)

(٣٣) وفى شرح كلام له يعرض به لما يكون قرب الساعة يقول ابن أبي الحديد : « هذا كلام منقطع عما قبله لأن الشريف الرضى رحمه الله كان يلتقط الفصول التى فى الطبقة العليا من الفصاحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيذكرها ويتخطى ما قبلها وما بعدها » (٤٣)

(٣٤) وفى خطبته الشارحة لأمر الرسول مع العرب وبيان حال خالد بن سنان المقول عنه أنه نبي قال الرضي رحمه الله تعالى : « وقد تقدم مختار هذه الخطبة الا انني وجدتها فى هذه الرواية على خلاف ما سبق من زيادة ونقصان فأوجبت الحال اثباتها ثانية » (٤٤) .

---

(٤٠) ٢/٣٩٥
(٤١) ٢/٣٨٤
(٤٢) ٢/٣٤٩
(٤٣) ٢/٣٣١
(٤٤) ٢/خ

وبعد فقد كان همنا ولا يزال التوصل الى اعماق الحقيقة وسبر غـورهـا وادراك كنهها وقد رأى القارىء بنفسه جملة من شكوك الشريف الرضى وعزالدين بن ابىالحديد انفسهما .

ويشهد الله اننا نتمنى من قراره انفسنا ان يكون كل ما فى النهج صحيح النسبة الى قائله الكريم ولكن ما العمل وقد القى عليه كل من جامعه وشارحه ، فضلا عن جمهرة الباحثين الآخرين ، ظلا من الشك كثيفا ؟ .

ولعلنا بما نبديه من حسن نية نطمح ـ مع حفظ النسبة طبعا ـ الى بعض ما كـان يطمح اليه الامام البخارى يوم قام بغربلة الاحاديث النبوية ، بعد ان رأى فى الحلم انـه يطرد الذباب عن وجه الرسول الكريم (ص) ... فما احرانا بان نقوم بطرد الذباب عن وجه الامام البطل على بن ابى طالب بغربلة نهج البلاغة وطبع الخطب الصحيحة النسبـة منها فى كتاب يعتمد عليه ولا يثير اقاويل وشكوكا .

تطور النظام النقدى فى العراق

الدكتور : محمد عزيز
رئيس قسم الاقتصاد الموحد
فى جامعة بغداد

يقتصر البحث هنا على النظام النقدى وتطوره فى العراق منذ ان جعل الدينار اساسا للوحدة النقدية[١] ، وصار يستعمل هو واجزاؤه ومضاعفاته للقيام بوظائف النقود[٢] .

والبحث فى النظام النقدى يتناول بالدرجة الاولى دراسة القواعد الخاصة بالوحدة النقدية التى تجعل أساساً لتقدير قيمة السلع والخدمات ومبادلتها ، ودراسة الشروط المتعلقة باصدار النقود الورقية ، والمسكوكات الجزئية ، وبيان العلاقات بين مختلف انواع النقود . على ان البحث فى النظام النقدى لا يقتصر على ذلك بل يمتد ايضا الى دراسة القواعد التى تنظم بيع المعادن الثمينة وشراءها وتصديرها واستيرادها . وبما ان مفهوم النقود لا يقتصر على الاوراق النقدية والمسكوكات ، بل يتناول ايضا هذا الصنف من الودائع المصرفية الذى يسمى بالودائع تحت الطلب ، والذى ينقل من شخص الى آخر بوسيلة الشيكات[٣] ، فان البحث النقدى لا يغفل كذلك عن النظر فى حجم الودائع المصرفية تحت الطلب وما يلتمس من الوسائل لتوسيعها او تقليصها .

---

(١) استعملت الربية الهندية فى العراق منذ دخول القوات البريطانية فى العراق خلال الحرب العالمية الاولى حتى اصدار الدينار العراقى فى سنة ١٩٣٢ . وفى خلال هذه الفترة كان النظام النقدى فى العراق امتدادا للنظام النقدى الهندى وتابعا له . وقبل استعمال النقود الهندية كانت النقود العثمانية هى المتداولة ، وكان النظام النقدى فى العراق جزءا من النظام النقدى العثمانى .

(٢) تحسن الاشارة هنا الى ان النقود بالاضافة الى وظائفها الاقتصادية المعروفة كالوساطة فى المبادلة وقياس القيمة وخزنها ، فانها تعد كذلك آية على سيادة القطر واستقلاله . وقد لعب هذا العامل دورا مهما فى اصدار النقد العراقى وفى تطوره .

(٣) أن الودائع تحت الطلب التى يمكن استخدامها فى الاداء بوسيلة الشيكات انما تعد جزءا من النقود اذا كان استعمال الشيكات واسعا ومقبولا . واذا لم يكن الامر كذلك فالاولى عدم عدها من جملة النقود . ذلك أن من أظهر خصائص النقود هى القبول العام فى المبادلة والاداء . واذا فقد الوسيط فى المبادلة هذه الخاصية فأنه يخرج عندئذ من المفهوم الموضوع للنقود .

واذا اريد التوسع فى مفهوم النظام النقدى فان الباحث لن يجد حرجا عن التطرق الى العلاقات التى تقوم بين المصارف التجارية وبين البنك المركزى ، والى ما يوصف فى التحليل الحديث بأسم السياسة النقدية •

واخيرا فلعل الباحث فى النظام النقدى ان يجد قبل الفراغ من بحثه متسعا لهذه الظاهرة التى ظلت تغدو وتروح بين الميدان الاقتصادى والميدان النقدى ، وهى ظاهرة الفائدة وسعرها •

على ان دائرة هذا البحث سوف تقف عند دراسة ما اسميناه بالنظام النقدى بمعناه الضيق ، اى دراسة الوحدة النقدية ، واصدار النقود الورقية ، والمسكوكات الجزئية ، والعلاقات بين انواع النقود المختلفة •

الوحـدة النقدية فى العــراق :

ان الدولة فى العراق هى التى عينت الوحدة النقدية ، وجعلتها اساسا للقيمـة والحساب والمبادلة • ومع ان هذه الوحدة التى سميت بالدينار قد احتفظت بهذا الاسم خلال سنوات طويلة ، أي منذ سنة **١٩٣١** فان تعريف هذه الوحدة أو محتواها قد تغير مرات عديدة تبعا لتغير الاساس النقدي وتطوره فى القطر •

ولو أن قانون العملة العراقية لسنة **١٩٣١** قد وضع موضع التطبيق كما كان مقدراً له ، لكان الدينار هو الوحدة النقدية فى العراق منذ الاول من تموز سنة **١٩٣١** ، ولكان يساوي من حيث القيمة **٧ر٣٢٢٣٨٢** غراماً من الذهب الخالص (١) ، ولسـار العراق على نظام الصرف بالذهب • غير ان اضطراب الأحوال المالية فى العالم عامة ، وفى انكلترا

(١) أن هذا المقدار من الذهب هو نفس المقدار الذى تشتمل عليه الليرة الانكليزيـة الذهبية المسماة Sovereign ويتبين من هذا ان الوحدة النقدية فى العراق وهى الدينار قد جعلت مساوية للوحدة النقدية فى انكلترا وهى الباون الاسترلينى (أو الليرة الاسترلينية) • اما تقسيم الدينار الى الف فلس فقد جاء مشابهـا لتقسيم الجنيه المصرى الى ألف مليم ، ومشابها لتقسيم الجنيه الفلسطينى آنذاك • (كان يقسم الى آلف مل) • ويلاحظ كذلك ان تقسيم الدينار الى عشرين درهما جاء مماثلا ايضا لتقسيم الليرة الانكليزية الى عشرين شلنا • ولعل اهم مزية فى مثل هذا التشابه هو سهولة التحويل والموازنة •

خاصة ، قد أخر تنفيذ هذا القانون حتى نيسان من السنة التالية ، اى سنة **١٩٣٢** • وانتهى التأجيل الى تعديل القانون نفسه •

وفي خلال هذه الفترة التي تأجل فيها تنفيذ قانون العملة العراقية وقع امران مهمان يمسان نظام النقد فى العرا ق •

حصل اولهما فى انكلترا • وحصل الثانى فى العراق • فاما الحدث الاول فهو خروج انكلترا عن أساس الذهب بتاريخ **٢١** ايلول سنة **١٩٣١**(١)• وأما الحدث الثانى الذى كان بمنزلة نتيجة طبيعية للاول ، فهو صدور تعديل لقانون العملة العراقية بتاريخ **١٧** كانون الاول سنة **١٩٣١** حذف بموجبه الاساس الذهبى للدينار ، وصار يساوى من حيث القيمة ليرة استرلينية ورقية واحدة • وقد ترك هـذا التعديل غير قليل من القلق لدى الأوساط المالية والتجارية (٢)• والواقع ان هذا النمط من الشعور يسود عادة حيثما تضطرب الأداة النقدية ، ويكثر القيل والقال حولها •

وظلت الوحدة النقدية ، وهى الدينار ، تعرف بانها تساوى ليرة استرلينية ورقية واحدة قرابة **١٦** عاما اى منذ سنة **١٩٣١** حتى سنة **١٩٤٧** • وهذا الربط الوثيق بين الدينار والليرة الاسترلينية كان باعثا آنذاك على توفير الثقة بالعملة العراقية فى الداخل والخارج • ولكن محذوره هو ان سعر الصرف لليرة الانكليزية كان فى يد انكلترا ، وكان تغييره يتم تبعا لمصالح انكلترا الاقتصادية ، وهى تختلف عن مصالح العراق الذى ينتج بصفة خاصة المواد الأولية (٣)• فلو خفضت انكلترا سعر الصرف للباون الاسترليني وجعلته ارخص بالقياس الى الدولار الامريكى او الين اليابانى لتحسين مركزها فى

---

(١) المقصود بالخروج عن قاعدة الذهب ، أو ايقاف الدفع بالذهب ، هو أن تقوم الحكومة باصدار تشريع يعفى بموجبه البنك المركزي الذي يصدر الاوراق المصرفية من التزامه بدفع قيمتها ذهبا ، مع بقاء تلك الاوراق فى التداول • وهذا الاجراء قد يشبه من بعض الوجوه تأجيل استيفاء الديون • فالدين باق فى الذمة ، وكذلك مقداره ، ولكن المدين لا يلزم بالوفاء • والغرض من اعفاء البنك المركزي من التزامه بدفع الذهب هو حماية الذهب لدى البنك المركزي من جهة ، وانقاذ البنك من احتمال عجزه عن الوفاء بالتزامه من جهة اخرى •

(٢) عبدالرحمن الجليلى ، النظام النقدى فى العراق ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٣٠

(3) F. Shehab, Bulletin of the Oxford University, Institute of Statistics No. 4, 1959, P. 3.

المنافسة ، واضطر العراق الى متابعة انكلترا فى ذلك السعر المنخفض ، لقلت مكاسب العراق من بيع منتجاته الاولية التى قد لايوجد من ينافسه فى تقديمها الى الأسواق العالميه • كما فى حالة التمور مثلا • كما ان التكاليف التى يتحملها للحصول على السلع من ذينك القطرين سوف تزداد أيضاً • وفى مثل هذا الافتراض تكون خسارة العراق مزدوجة : من جهة التصدير ومن جهة الاستيراد ايضا •

وقد يأتي الى الذهن هذا السؤال : أليس فى مقدورالعراق أن لايقتفي أثر انكلترا فى تقليل قيمة ليرتها بما تساويه من الدولارات ، وان يبقى محتفظا بما كان يساويه الدينار من الدولارات قبل تخفيض الليرة الاسترلينية ؟ والجواب ان ذلك لايبدو يسيرا لامرين : (١) ان الدينار يعادل بحكم التعريف القانونى له ليرة استرلينية واحدة ، بصرف النظر عما تساويه تلكالليرة منعملة اخرى فى الحاضروالمستقبل • (٢) والامر الثانى هو ان جميع غطاء العملة كان يتألف آنذاك من موجودات استرلينية بشكل سندات او اوراق نقدية • فاذا لم يأخذ العراق بالتخفيض ، وهذا يعنيان الدينار الواحد سوف يثمن باكثر من الليرة الاسترلينية الواحدة ، فان موجوداته من الاسترليني سوف تكون قيمتها اقل من قيمة الدنانير المصدرة • وبعبارة اخرى يكون جزء من العملة العراقية بدون غطاء • ولا تساعد مثل هذه الظاهرة على دعم العملة العراقية ان اريد لها الاستقرار •

والمحذور الاساسى الاخر الى جانب التخفيض ، من هذا الارتباط الوثيق بين الدينار والليرة الاسترلينية آنذاك هو الاحتمال من تجميد الارصدة الاسترلينية العائدة للعراق • وهذا المحذور ليس بالموضوع الذى يبحث من الوجهة النظرية فحسب بل انه قد حصل فعلاً فى سنة ١٩٤١ [١]• كما ان التخوف من التخفيض لم يكن هوالآخر بقاصر على التحليل النظرى ، بل ان العراق قد خبره بنفسه وتحمل نصيبه من اعبائه •

---

(١) حصل مثل هذا التجميد مرة اخرى بعد ثورة تموز ١٩٥٨ واستمر حوالى ثلاثة ايام •

وبتاريخ ٧ تموز ١٩٤٧ صدر قانون الغى بموجبه التعريف السابق للدينـار ، وصار يعادل ٣ر٥٨١٣٤ غراما من الذهب الخالص • وفى الوسع ان يقال من الناحية النظرية الخالصـة ان هذا التعريف الجديد للدينـار كان يمثل أول تخفيض قانوني فى قيمته [1]• وفى ٢١ ايلول سنـة ١٩٤٩ أجري على الدينــار تخفيض قانوني آخر ، وجعلت قيمته تساوى ٢ر٤٨٨٢٨ غراما من الذهب الخالص • وهذا التخفيض قد تم على اثر تخفيض الليرة الاسترلينية بالقياس الى الدولار • ومن العسير ان نتبين فيه للعراق ما كانت تنشده انكلترا لنفسها بالقياس الى مصالحها ووضعها الاقتصادى •

وفى سنة ١٩٥٩ صدر قانون جديد بأسم قانون عملة الجمهورية العراقية • وقد ورد في المادة الثانية منه : (يكون الدينار الوحدة القياسية لعملة الجمهورية العراقية ويساوى من حيث القيمة ٢ر٤٨٨٢٨ غراما من الذهب الخالص ويتألف من الف فلس) • ويلاحظ من هذا التعريف ان محتوى الدينـار من المعدن الثمين قد بقى على حاله كما حدد بعد التخفيض الثانى فى سنة ١٩٤٩ • اما الفقرة الاخيرة من تعريف الوحدة النقدية ، وهى ان الدينار يتألف من الف فلس ، فليست لها صفة اساسية فى تحديد الوحدة النقدية

(١) التخفيض هو تغيير تعريف الوحدة النقدية ، وذلك بانقاص ما تحتويه أو تعادله من المعدن الثمين • وقد يستعمل الاصطلاح كذلك للدلالة على تقليل قيمة النقد بما يساويه من النقود الاجنبية • ومن أهم اغراض التخفيض (١) تثبيت قيمة النقد فى الداخل ، لان التخفيض يساعد على زيادة نسبة الغطاء المعدنى بالقياس الى عدد الاوراق النقدية الصادرة • وتستفيد عادة الدولة من هذه الزيادة فـى تسديد الالتزامات التى عليها وبخاصة ازاء البنك المركزي • (٢) يساعد عـلى تنشيط الصادرات من جهة وتقييد الاستيرادات من جهة اخرى • فالتخفيـض بمنزلة منحة للتصدير ، وقيد على الاستيراد • وتحقيق هذا الغرض يمكن الدولة من معالجة العجز فى ميزان مدفوعاتها • واذا كان التنقيص قـد حصـل فى المسكوكات الفضية المساعدة فلا يشمله مفهوم التخفيض ، لان هذا المفهوم قاصر على الوحدة النقدية القياسية • والفائدة من تنقيص الفضة فى المسكوكات الفضية المساعدة هى التقليل من التكاليف فى سك النقود •

واذا شبه الخروج عن اساس الذهب ، او ايقاف الدفع بالذهب بتأجيل استيفاء الدين الاصلى الى أمد غير محدود ، فان تخفيض الوحدة النقدية يمكن أن يشبه باسقاط جانب من الدين الاصلى فى ذمة البنك (او جهة الاصدار بصفة عامة) ازاء حملة الاوراق النقدية والمسكوكات المساعدة • ومع أن اثر التخفيض لا يبدو واضحا فى القيم النقدية التى فى حوزة الافراد فى داخل البلاد ، اذا كانت اوراقهم النقدية غير قابلة للتحويل ، فان ذلك الاثر يظهر واضحا بالعكس عند تقييم نقودهم الوطنية بما يعادلها من النقد الاجنبى الذى لم يخفض •

بل تشير الى مفهوم مجرد وهو الأساس الذى ينقسم عليه الدينار للاغراض الحسابية • وبما ان الدينار يمثل وحدة كبيرة نسبيا من القيمة ، بالقياس الى اكثرية الوحدات لدى الأقطار الأخرى ، فقد قسم الى الف جزء ليكون الجزء الواحد ذا قيمة صغيرة نسبياً • والشائع ان الوحدة النقدية ان كانت تمثل قيمة متوسطة نسبيا كالدولار الامريكى والمارك الالمانى فانها تقسم الى مئة قسم •

والسؤال الذى يطرح الان هو كيف تم اختيار هذا القدر من القيمة وجعل اساسا للوحدة النقدية فى العراق ؟ والجواب الى هذا يفسره التطور التاريخى لظهور الدينار وارتباطه الاولى بالليرة الاسترلينية • واذا عدنا الى أصل الوحدة النقدية فى انكلترا وهى الباون الاسترلينى ، لوجدنا انهذه الوحدة النقدية هىثمرة تطور تاريخى معقد لوحدة الثقل او الوزن(١) ، ولا تمت بصلة الى احد هذه المعانى الاقتصادية المختلفة التى قد يسعى البعض فى ربط الوحدة النقدية بها ، كمتوسط الانفاق للشخص الواحد فى اليوم او الحد الادنى للاجر • وما اشبه •

ومن الممكن ان يعرف الدينار بوجه آخر لا يقوم بالليرة الاسترلينية او باية عملة

---

(١) أن الوحدة النقدية الانكليزية هى الباون الاسترلينى • وأصل هذه التسمية يعود الى النقود الفضية التى سكت سنة ٧٧٥ باسم Sterlings أو Pennies وكان ٢٤٠ قطعة منها تزن باونا Pound وهو الوحدة التى كانت تستعمل لوزن المعادن الثمينة • والكثيرمن المدفوعات كانت تحسب بكذا باونا من الاسترلينى So pounds of sterlings ثم اختصرتهذهالعبارة وصارت (باونات استرلينية) • ولغرض الحساب قسم الباون الى عشرين شلنا فى زمن فتح النورمان • وفى الوثائق اللاتينية فى العصور الوسطى كانت تستعمل كلمات Dinarius, Solidus, Libra. للدلالة على الباون والشلن والبنى • وقد افضت تلك الكلمات الى ظهور الرموز L و S و D التى تمثل اوائل الكلمات ، وهذه الرموز ذات الاصل اللاتينى المستعملة حاليا ، تعيد الى الذهن النكتة اللطيفة عن البون الشاسع بين كتابة الانكليزية وتلفظها ، وهى ان الانكليز يكتبون مانجستر ويلفظون لفربول •

ومنذ سنة ١٧١٧ صار الباون الاسترلينى علىاساس الذهب بدلا من الفضة • اما عبارة الجنيه Guinea فقد اطلقت على المسكوكات الذهبية عندما ضربت اول مرة فى سنة ١٦٦٣ من الذهب المستورد من ساحل غينيا فى غربى افريقيا • وآخر مرة سك فيها الجنيه كان فى سنة ١٨١٣ وهى السنة التى جعل فيها (السوفرن) مكانه • (يراجع فى هذه التفصيلات التأريخية دائرة المعارف البريطانية تحت مواد باون واسترلينى وجنيه) •

اخرى ، ولا يحدد بقدر معين من الذهب او بغيره من القيم ، بل يستمد من هذا المفهوم الحديث الذى يطلق على النقود غالباً وهو السيولة . فيقال ان الدينار هو الوحدة القياسية للحق السائل فى العراق .

والمدين الاساسى بهذا الحق السائل هو الان البنك المركزى . ولذلك عندما ينشر البنك موازنته يدون مقدار الدنانير المصدرة فى الجدول الخاص بمطلوباته (أى بديونه) ويدون فى جدول آخر موجوداته لضمان تلك الديون .

تطور الاصدار فى العراق :

تعاقب على اصدار النقد العراقى ثلاث هيئات : (١) لجنة العملة العراقية . (٢) المصرف الوطنى العراقى . (٣) البنك المركزى العراقى .

١ ـ لجنة العملة العراقية :

انشئت هذه اللجنة بموجب قانون العملة العراقية المرقم (٤٤) لسنة ١٩٣١ . ويمكن ان يعد هذا القانون محاولة للتوفيق بين عدد من الاراء والمصالح المتعارضة حول انشاء العملة الجديدة آنذاك . فالذين كانوا يتحركون بدافع قومى او بدافع المعارضة كانوا يرغبون فى عملة مستقلة تكون آية على السيادة . وتلبية لهذه الرغبة استحدثت عملة خاصة بالعراق ، تقوم وحدتها الاساسية على الدينار . اما طبقة التجار واصحاب المال فكان دافعها الاقوى يقوم على اعتبارات اقتصادية ، وترغب فى ان ترى العملة الجديدة على أساس ثابت نسبياً . وقد ارتؤي آنذاك ان ربط العملة الجديدة بالليرة الاسترلينية سوف يخدم ذلك الغرض .

والطرف الثالث المهم الذى كانت له مصلحة فى العملة الجديدة هو سلطة الانتداب. وكانت هذه السلطة تبغي الاحتفاظ بمراقبتها على العملة[١]. وتحقيقاً لهذا الغرض جعل مقر اللجنة فى لندن وجعل لبنك انكلترا يد مهمة فيها[٢] .

وكانت لجنة العملة تمارس اعمالها نيابة عن الحكومة العراقية ، وكان مقرها فى لندن ، ويمثلها فى العراق وكيل من أحد البنوك التى تتعاطى الأعمال فى العراق[٣] .

(1) F. Shehab, op. cit, P. 2.

(٢) لزيادة التفصيل والوقوف على اراء الاحزاب المعارضة والغرف التجارية والخبراء الاجانب يراجع (الدكتور عبدالرحمن الجليلى ، النظام النقدى فى العراق ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١١٠ ـ ١٢٧)

(٣) كان البنك الشرقى هو الذى يمثل اللجنة فى العراق .

وكانت اللجنة تتألف من خمسة اعضاء ، تختار الحكومة العراقية اثنين منهم ، ويختار البنك الشرقي والعثماني والشاهنشاهي الايراني [١] عضوين آخرين ، أما العضو الخامس فكان يختاره حاكم بنك انكلترا • وكانت الحكومة العراقية تختار واحداً من هؤلاء ليكون رئيساً لها [٢] •

اهم وظائف اللجنة :

ويمكن ان نبحث اهم وظائف اللجنة فى النقاط التالية :

(١) السك والطبع : كانت اللجنة تقوم بضرب النقود الفضية والمعدنية الاخرى ، وتطبع الاوراق النقدية الاخرى طبقا لاحكام قانون العملة ، بفئات تتسلسل من ربع دينار ، ونصف دينار ، ودينار واحد ، وخمسة دنانير ، وعشرة دنانير ، ومائة دينار • والمزية من طبع الفئات الكبيرة هى سهولة العد والنقل لأغراض التأديات الكبيرة او التوفير •

(٢) الاصدار : وكانت المسكوكات والاوراق النقدية المذكورة انما تصدر بنسبة ما يقدم الى اللجنة من الليرات الانكليزية ، على اساس دينار واحد لكل ليرة انكليزية • وتستوفى على هذه المبادلة (أو الصرف) قدراً من العمولة •

(٣) تحويل الدنانير الى ليرات استرلينية : وكانت اللجنة تتسلم فى العراق بواسطة البنوك الدنانير العراقية التى يطلب تبديلها الى ليرات انكليزية ، وتعطى فى مقابلها حوالة برقية او بريدية تدفع فى لندن ، على اساس ليرة انكليزية واحدة لكل دينار • وتستوفى عن هذه المبادلة عمولة ايضا •

(٤) ادارة الاحتياطى : ان الليرات الاسترلينية التى كانت اللجنة تحصل عليها لقاء الاوراق النقدية او المسكوكات التى تقدمها ، كانت بمنزلة الاحتياطى او الغطاء الضامن للعملة العراقية • وكانت اللجنة تحتفظ بقسم من موجوداتها التى تمثل هذا الاحتياطى بشكل اموال سائلة ، اى على هيئة نقود وودائع استرلينية تحت الطلب (اى ارصدة استرلينية) لمقابلة طلبات التحويل ، واما القسم الاخر فكانت تستثمره فى شراء السندات المضمونة من قبل الخزينة الانكليزية • وكان مجموع

---

(١) يسمى الآن البنك البريطانى للشرق الاوسط • وقد اختير هذا الاسم بعد اغلاق البنوك الانكليزية فى ايران بعد حركة تأميم النفط سنة ١٩٥١ •

(٢) كان المعتاد ان يعين السفير العراقى فى لندن رئيسا للجنة • ولذلك كان يوثق الاوراق النقدية بتوقيعه نيابة عنها • ومن الواضح ان هذا التعيين يفسر بدافع السهولة العملية اكثر من تفسيره بدافع الاختصاص الفنى •

الفوائد التى كسبتها اللجنة من هذا الطريق حتى انتهاء اعمالها ، حوالى ٥ ملايين دينار[١] • على أن اللجنة لم تحول أى قدر من احتياطيها الاسترليني الى ذهب او نقود اجنبية اخرى كالدولار • ولو انها حولت شيئا من ذلك الى ذهب لكسبت الفرق الذى حصل فى سعر الذهب بليرات استرلينية ، ولزاد نسبة احتياطيها من الاسترلينى بصورة آلية عندما عمدت الحكومة الانكليزية الى تخفيض الليرة الاسترلينية عما كانت تساويه من الذهب • وينطبق الامر نفسه لو كانت اللجنة قد كونت لنفسها بعض الاحتياطى من الارصدة بالدولار • واذا قيل بأن لجنة العملة ليست مؤسسة للمضاربة والحصول على الايراد بقدرما هى مؤسسة لاصدار العملة وتيسير ادارتها ، فقد يجاب بان مثل هذا العمل لا يعد من قبيل المضاربة بقدر مايعد من باب الاحتياط للمحافظة على غطاء العملة وتقليل كثافة الاخطار المحتملة من تركيز الغطاء فى نمط واحد من الاموال •

ويتضح مما تقدم ان الاوراق النقدية والمسكوكات العراقية التى تمثل المطلوبات او الديون Liabilities على اللجنة ، كانت مدعومة باحتياطى من الموجودات أو الحقوق Assets الاسترلينية بنسبة تزيد على ١٠٠٪ (بسبب الفوائد الناجمة عن الاستثمارات والتى كان يضم بعضها الى الاحتياطى ، ويدفع بعضها الآخر الى الحكومة كجزء من الايرادات العامة) •

وأهم ما يورد على هذه الطريقة أن ربط الدينار بالليرة الاسترلينية قد جعل مصير الدينار تابعا لمصير الليرة الاسترلينية • فاذا استدعت الاحوال الاقتصادية فى انكلترا تخفيض الليرة الاسترلينية فأن العراق يجد نفسه مرغما على تخفيض عملته ايضا ، وان كانت الاوضاع الاقتصادية فى العراق لا تستدعى مثلهذا التخفيض[٢] • ويتراءى

(١) كانت لجنة العملة تستخدم نسبة من الاحتياطى الاسترلينى فى شراء السندات المضمونة • والايراد المتوقع من هذا الاستثمار ينجم عن امرين : (١) الفائدة الدورية التى تدفع عن هذه السندات • (٢) احتمال الارتفاع فى الاثمان الجارية لتلك السندات • ويكون الايراد هو الفرق بين ثمن الشراء وثمن البيع •

(٢) الدكتور جابر جاد عبدالرحمن ، الاقتصادى السياسى ، الجزء الثانى ، بغداد • ص ٨٠٢ •

ان هذا المحذور اقوى من المزية التى تعزى الى سهولة الصرف وثبات سعره بين الدينار والليرة الاسترلينية بسبب هذه المساواة التامة فى التحويل •

ويوجد اعتراض مهم اخر على هذه الطريقة وهى ان لجنة العملة لم يكن لها دور ايجابى فى كمية النقود المتداولة فى العراق • فهذه الكمية كانت تتغير تبعا لحالة ميزان المدفوعات • ولم يكن أمام اللجنة مجال لكي تسير على سياسة نقدية تحاول من ورائها التأثير فى النشاط الاقتصادى بتغيير كمية النقود فى التداول (١) •

ويمكن القول بصفة عامة ان اللجنة كانت تسير على اصول المدرسة النقدية Curreny School التى تعنى بتوفير الضمان والغطاء للأوراق الصادرة أكثر من عنايتها بسد حاجة الائتمان ، او اتخاذ الاصدار اداة فى السياسة الاقتصادية •

والواقع ان لجنة العملة لم تنشأ لتبقى وتلعب دورا كبيرا • بل كانت تمثل مرحلة وقتية تنتهى بانشاء مؤسسة للاصدار فى العراق •

وظلت اللجنة تمارس اعمالها حتى تأسيس المصرف الوطنى بموجب القانون المرقم (٤٣) لسنة ١٩٤٧ • على ان هذا المصرف لم يبدأ بوظائفه فعلا الا عند منتصف سنة ١٩٤٩ • ولذلك بقيت لجنة العملة تزاول اعمالها بصفة موقتة حتى هذا التاريخ الاخير •

٢ ـ اصدار النقد العراقى من جانب المصرف الوطنى العراقى :

وفى سنة ١٩٤٧ عدل قانون العملة العراقية لسنة ١٩٣١ ، ونقلت وظائف لجنة العملة الى المصرف الوطنى العراقى • ومع ان هذا المصرف قد انشىء فى سنة ١٩٤٧ من الوجهة القانونية فانه لم يباشر اعماله فعلا الا عند منتصف سنة ١٩٤٩ • وقد فوض هذا المصرف ان يقوم بتجهيز واصدار العملة العراقية من الاوراق والمسكوكات ، وان يقوم بمراقبتها • واوكلت اليه كذلك بعض الوظائف الثانوية كسحب العملة غير الصالحة من التداول ، واتلاف الاوراق النقدية التى يبطل استعمالها •

ويصدر المصرف الاوراق والمسكوكات النقدية فى حالتين : (١) عندما يقدم اليه الذهب او العملات الاجنبية • ولا قيد على الاصدار عند تقديم احد الاشياء الثلاثة المارة الذكر • (٢) ويصدر المصرف المسكوكات والاوراق النقدية ايضا لقاء السندات التى

---

(1) Iversen, Monetary Policy in Iraq, 1954, P. 6.

تصدرها الحكومة العراقية ولكن بنسبة معينة • فاذا بلغت نسبة الاحتياطي او الغطاء من سندات الحكومة العراقية ٣٠٪ من مجموع الاحتياطي للعملة كلها ، فليس له ان يتجاوز هذه النسبة • وبما ان الحصول على مثل هذه السندات أسهل كثيراً من الحصول على الانواع الثلاثة الاخرى من الضمانات وهى الذهب والعملات الاجنبية والسندات الاجنبية ، فان اصدار النقود فى العراق قد اكتسب شيئا من المرونة لم تكن له فى عهد اللجنة السابقة التى كانت ملزمة بان لا يقل غطاء العملة عن ١٠٠٪ من الموجودات الاجنبية (الاسترلينية) •

كما ان وجود هذه السندات لدى المصرف صار يتيح له ان يباشر هذه الاعمال التى يطلق عليها اسم عمليات السوق المفتوحة للتأثير فى عرض النقود تبعا لما تستدعيه مصلحة البلاد •

وتسهيلا للمبادلات الدولية والحصول على العملات الاجنبية جعل من وظيفة المصرف ان يقبل العملة العراقية التى تعرض عليه ، ويصدر بدلاً عنها ذهباً أو عملات أجنبية بحسب اختياره وطبقاً للاسعار والشروط التى يعلنها بين آن وآخر •

ولعل اهم ما تميز به اصدار العملة من جانب المصرف الوطنى العراقى هو التنوع فى غطائه وعدم اقتصاره على نوع واحد من الموجودات وهو الليرات الاسترلينية ، كما كان فى عهد اللجنة السابقة •

ويمكن أن يصنف الغطاء الذى بات على المصرف أن يكونه الى نوعين • فأما النوع الأول فقد تعين بايراد الحد الأدنى منه • ويتألف من الذهب ، والعملات الاجنبية ، والسندات الاجنبية • ويصح تسمية هذا النوع بالغطاء السائل او الاحتياطى السائل • وقد ترك القانون للمصرف الوطنى أن يحدد النسبة المئوية من هذا الغطاء السائل ، وان يحدد كذلك انواع ومقادير العملات الاجنبية ، والسندات الاجنبية ، ومدة استحقاقها • وكان الغرض من هذا منح المصرف الحرية ضمن حدود معينة فى تكوين احتياطى العملة ، تبعا لمقتضيات التجارة الخارجية وحالة التحويل الخارجى وسوق الذهب •

والذى يلاحظ هنا ان تعديل قانون العملة لسنة ١٩٤٧ لم يذكر الفضة الى جانب الموجودات السائلة وشبه السائلة التى تؤلف الاحتياطى • ويتراءى أن هذا الاغفال لم

يكن مقصودا • وعلى اية حال فان قانون العملة العراقية لسنة ١٩٥٩ قد جعل للفضة مقاما ضمن المجموعة التى يتألف منها الغطاء •

وأما النوع الثانى من الغطاء فقد تعين بايراد حده الأعظم وهو يتناول سندات الحكومة العراقية • ويمكن ان نسمى هذا النوع بالغطاء شبه السائل او الاحتياطى شبه السائل • وقد اشترط القانون ان لا تتجاوز النسبة من هذا النوع ٣٠٪ من مجموع الغطاء • والغرض الأساسى من هذا التحديد هو صرف الحكومة عن الالتجاء الى سلطة الاصدار لتمويل نفقاتها اكثر من الحدود التى تعد معقولة ومتعارفة فى الظروف العادية •

وهذا التنويع فى الغطاء او الاحتياطى مفيد من عدة نواح : (١) المرونة فى اصدار النقود وبخاصة بجعل سندات الحكومة العراقية جزءاً من الغطاء • وقد أتيح للبنك بهذه الطريقة أن يؤثر فى عرض النقود عن طريق عمليات السوق المفتوحة ، (٢) تيسير التبادل التجارى الخارجى ، وتسهيل المدفوعات الاجنبية وذلك بجعل جزء من العملات الاجنبية القوية المرغوبة ، وكذلك الذهب ، ضمن الغطاء • وبعبارة أخرى صار من حق المصرف أن يكون لنفسه ما يقدره ملائماً من السيولة الدولية • ومع ان ممارسة هذا الحق لم يكن سهلا فى بادىء الامر بسبب الصعوبة فى الحصول على العملات النادرة او الذهب ، فان المصرف قد تمكن من بعد فى ان يجعل لنفسه احتياطيا من غير الموجودات الاسترلينية • (٣) تقليل كثافة الخطر الذى قد يلم بالغطاء وذلك عن طريق توزيعه على عدة انواع ، جريا مع الحكمة القائلة ان ربة البيت الحكيمة لا تضع جميع بيضها فى سلة واحدة •

وينبغي أن يلاحظ أن التنويع فى الغطاء لايستبعد المخاطر بل يقللها • فمن الجائز ان تقوم احدى الدول التى تؤلف عملتها جزءا من الغطاء بتخفيض عملتها او بتجميد الارصدة التى تمتلكها الدولة ذات العلاقة • وحتى الذهب نفسه لا يخلو من الاعتراض • فان ثمنه فى السوق العالمية قد يتغير • كما أنه لايغل أية فائدة بخلاف السندات •

٣ - اصدار النقد العراقى من جانب البنك المركزى :

لم يأت قانون البنك المركزى العراقى الذى صدر فى سنة ١٩٥٦ بأحكام جديدة عن اصدار النقد العراقى وغطائه ، لأن هذه الامور قد فصلتها قوانين العملة العراقية وتعديلاتها وبخاصة التعديل الصادر فى سنة ١٩٤٧ ، الذى انهى اعمال لجنة العملة ،

ونقل سلطة الاصدار الى مؤسسة مصرفية هي البنك الوطني ، واشار الى التنويع في غطاء العملة ، كما سبق بحثه . فاعمال البنك المركزي العراقي بشأن العملة العراقية هي امتداد واستمرار لاعمال المصرف الوطني العراقي السابق .

وقد اشارت المادة الرابعة من قانون البنك المركزي الى اغراض هذا البنك فاجملتها أولاً في أربعة أغراض ، وهي : (١) ادارة العملة وتأمين استقرارها . (٢) التأثير في وضع الائتمان لمصلحة البلاد . (٣) القيام بالاعمال الصيرفية للحكومة . (٤) تسهيل التأديات الداخلية والخارجية . ثم فصلت واجبات البنك واعماله في فقرات متعددة تالية .

على ان البنك المركزي قد منح اختصاصات جديدة بشأن العملة العراقية بصدور قانون العملة العراقية لسنة ١٩٥٩ والانظمة التي صدرت بموجبه . ولذلك فقد حان ان نلتفت الى هذا القانون وان نقارن أهم أحكامه بالأحكام السابقة للعملة .

قانون العملة العراقية لسنة ١٩٥٩ [١] :

وضع هذا القانون ليقوم مقام قانون العملة العراقية لسنة ١٩٣١ وتعديلاته العديدة . على ان هذا القانون لم يقتصر على جمع الاحكام المتعلقة بالعملة في مكان واحد وتنسيقها ، بل جاء كذلك ببعض الاحكام الجديدة . وسوف نذكر اهمها :

١ ـ حصر الاصدار في البنك المركزي : فقد اورد القانون بصورة صريحة ان البنك المركزي العراقي هو السلطة الوحيدة التي تقوم باصدار وتجهيز العملة للاستعمال في الجمهورية العراقية [٢] . ومع ان هذا النص ما هو الا اقرار لواقع الحال ، فانه يشتمل بحد ذاته على فكرة نظرية خاصة . فالعراق بموجب هذا النص قد حصر الاصدار في مؤسسة واحدة ، ولم يترك للبنوك التجارية الحق في اصدار الاوراق المصرفية . وقد كانت مسألة توحيد جهة الاصدار او تعددها من الموضوعات المهمة التي جرى النقاش حولها كثيرا وبخاصة في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

(١) صدر هذا القانون تحت رقم (٩٢) ونشر في الوقائع العراقية المرقمة ١٨١ بتاريخ ٦ـ٦ـ١٩٥٩ .
(٢) تلاحظ المادة الخامسة من قانون العملة العراقية لسنة ١٩٥٩ .

وتجدر الاشارة ايضا الى ان المسكوكات يصدرها البنك المركزى ايضـا وتؤلف جزءاً من مطلوباته (١) • وهذا يخالف الحال فى بعض الاقطار الاخرى كالولايات المتحدة ، حيث تتولى الحكومة اصـدار المسكوكات وتؤلف جزءاً من مطلوبات خزينتها •

وقد كان العراق نفسه قد اشار الى احتمال الفصل بين الجهة التى تصـدر الاوراق النقدية ، والجهة التى تصدر المسكوكات • فقد ورد فى المادة ٢٤ مـن قانون العملة لسنة ١٩٣١ : (تنتهى مهمة لجنة العملة عندما يؤسس بقانون مصرف اهلى عراقى او اى مصرف آخر له امتياز خاص باصدار الاوراق النقدية فـى العراق • اما المسكوكات فتصدر من دائرة العملة العراقية) • على ان هذه الدائرة لم تؤسس •

ولعل سبب هذا التميز فى الولايات المتحدة ، والاقطار الاخرى التى تسير على منوالها ، هو أن سك النقود يعد منذ الأصـل عملاً من أعمال السيادة • أما اصدار الأوراق النقدية ، فقد كان كما هو معروف من التطور التاريخى ، توسعاً فى أعمال الائتمان التى كانت تقوم بها المصارف التجارية • فالتميز هناك تفسره الظروف التاريخية الخاصة • أما فى العراق فان المصارف التجارية فيه لم تمارس اصدار الأوراق المصرفية ، كما ان المؤسسة التى جعل لها الحق فى اصـدار الاوراق النقـدية (وهى البنك المركزى) تابعة للدولة ، وتمارس الحكومة على اعمـالها اشـرافا واسعا • فجعل سك النقود ضمن الاعمال التى تتولاها تلك المؤسسة لا يعنى ان الدولة قد تخلت عن حق السك •

وبالرغم من ان البنك المركزى يقوم بهاتين العمليتين معا وهما اصدار الاوراق النقدية ، وسك النقود فبين العمليتين قـدر من التفاوت الملحـوظ • فالاوراق النقدية تحمل اسم البنك المركزى ، اما المسكوكات فتحمل عبارة الجمهوريـة العراقيـة •

---

(١) للبنك المركزى ان يسك من وقت لاخـر للاستعمال فى الجمـهورية العـراقية مسكوكات على ان تعين قيمتها واوصافها واحجامها واشكالها وتركيبها واوزانهـا بمرسوم جمهورى وان تدون فئاتها عليهـا بالفلوس • امـا من حيث التفاوت المسموح به فى الوزن فيعين بنظام • (المادة ٦ من قانون العملة العراقية لسـنة ١٩٥٩) •

٢ _ اضافة الفضة الى الاحتياطى : ان السبائك الفضية قد اضيفت الى جانب السبائك الذهبية والعملات والسندات الاجنبية ، اى الى جانب ما اسميناه بالنوع السائل من الغطاء او الاحتياطى ، وصارت من جملة الغطاء او الاحتياطى للعملة العراقية المصدرة • ولم يحدد القانون الحد الاعلى لنسبة الفضة من مجموع الاحتياطى • وبعض الأقطار التى تجعل الفضة من جملة احتياطى العملة تشترط أن لا تزيد نسبة الفضة عن حد معين من نسبة الذهب كعشرين فى المئة او حوالى ذلك • ولعل السبب فى هذا التحديد هو ان السيولة الدولية فى الفضة اقل منها فى الذهب • ويرجع هذا بصفة خاصة الى الحدود الواسعة نسبيا فى تقلبات قيمة الفضة • والاهمية فى جعل الفضة من جملة الاحتياطى تعود بصفة خاصة الى الأقطار التى تنتج الفضة • فاستخدام هذا المعدن الثمين فى اغراض الغطاء يهيء لمن ينتجونه سوقاً مستمرة لشرائه بسعر معين • كما ان هذا الاستخدام يمنح اصدار العملة مزيدا من المرونة باضافة مادة جديدة ذات قيمة دولية الى العناصر التى يتألف منها الغطاء •

وينبغي القول بان الفضة كانت تؤلف جزءا من احتياطى العملة المصدرة قبل ان تضاف عبارة (السبائك الفضية) المارة الذكر • وهذا واضح من الموازنات التى كان ينشرها البنك المركزى [1] • على أن النص الجديد فى قانون سنة **١٩٥٩** له مزيته ، فقد جعل للسبائك الفضية مركزاً صريحاً فى العناصر التى يتألف منها الاحتياطى • كما ان هذا النص قد يشجع المتاجرة الخارجية مع الاقطار التى تنتج الفضة أو تبيعها وتشتريها •

٣ _ زيادة الحد الأعلى للقوة الابرائية فى المسكوكات الجزئية : سار العراق فى نظامه النقدى على التمييز فى القوة الابرائية بين وحدة العملة القياسية وهى الدينار

---

(١) كانت الفضةفى المسكوكاتالمخزونة تؤلف فقرة ضئيلة نسبيا فى موجودات دائرة الاصدار • ففى تشرين الثانى سنة ١٩٥٩ كانت قيمتها ٣٩٤٫٠٠٠ دينار • ولكن قيمة الموجود من تلك الفضة قد ارتفعت فى كانون الاول من السنة نفسها الى اكثر من ثلاثة اضعافها فبلغت ١٫٠٤٨٫٠٠٠ دينار • واستمر هذا المقدار من القيمة يظهر فى الموازنات الشهرية للبنك المركزى حتى ايلول سنة ١٩٦٠ • (لاحظ النشرة الفصلية للبنك المركزى العراقى رقم ٣٥ لسنة ١٩٦٠ ، والنشرات التى سبقتها) •

ومضاعفاته واجزائه وبين المسكوكات المساعدة او الجزئيـــة الفضية والنيكليـة والبرونزية • فوحدة العملة القياسية واجزاؤها ومضاعفاتها لها قوة ابرائية غـير محدودة • وعلى الدائن ان يقبلها في سداد دينه • اما المسكوكات الجزئية عـــلى اختلاف أنواعها فقد جعل لها القانون قوة ابرائية محدودة • أي ان الدائن غـير ملزم بقبولها من الوجهة القانونية لســداد دينه أكثر من حــد معين • ولكي نقف على وجه التغيير الذى طرأ بهذا الشأن ، يحسن ان نعرض اولا القوة الابرائية التى كانت لتلك المسكوكات تبعا لقانون العملة لسنة **١٩٣١** وتعديلاته :

أ - المسكوكات الفضية من فئة **٢٠٠** فلس ، و**١٠٠** فلس ، و**٥٠** فلسا • كان حدها الاعلى فى قوة الابراء هو خمسة دنانير •

ب - المسكوكات التى من فئة تقل عن **٥٠** فلسا ، ولا تقل عن **١٠** فلوس ، حدها الاعلى فى قوة الابراء هو **٢٠٠** فلس • (ان هذا كان ينطبق على المسكوكات من فئة **٢٠** فلسا ، ومن فئة **١٠** فلوس) •

وهذه القوة الابرائية المحدودة للمسكوكات المساعدة ، انما قد جعلت فى الاصل لمصلحة الدائن حتى لا يرهق بالعد او النقل او الحفظ ، وبخاصة اذا كان مبلغ الاداء كبيرا • واذا وافق الدائن على قبول مبلغ اكثر من الحد الاعلى فان الاداء يعد قانونيا • وهذا هو وجه التفسير بعد انتشار الاوراق النقدية غير القابلة للتحويل • اما اذا كان القطر يسير على اساس المسكوكات الذهبية مثلا ، فان امتناع الدائن عن قبول المسكوكات المساعدة اكثر من حد معين لا يقتصر على مسألة الارهاق بالتعداد والحمل والحفظ ، بل يتناول كذلك مسألة استيفائه رأسا نقودا ذات قيمة سوقية تعادل قيمتها الاسمية ، ويمكنه أن يدخرها خيراً من المسكوكات المساعدة •

واذا فسرت القوة الابرائية المحدودة بانها موضوعة لمصلحة الدائن ، فهذا يعنى بان هذه القاعدة ليست من النظام العام ، وفى وسع الافراد ان يتفقوا على خلافها •

كان ، بشرط أن لايكون قد حصل بها تصرف بصورة غير مشروعة[١]. ويسرى نفس هذا الحكم كذلك اذا كان الاداء الى المصارف التجارية المجازة فى العراق [٢] .
ووجه التميز بين الأداء الى الافراد والأداء الى الحكومة هو أن هذه المسكوكات هى من جملة نقودها المتشابهة عندها ، كما انها لا تريد ان تحمل مواطنيها اى شرط عند ايفائهم بالتزاماتهم المالية ازاءها ، ولديها عادة اماكن متينة للحفظ .

ولا ريب ان مفهوم الاداء الى الحكومة ينبغى ان يكون واسعا ، فلا يقتصر على اداء الضرائب والرسوم المختلفة ، بل يتناول كذلك ايفاء القروض الى المصارف شبه الرسمية ، ودفع الغرامات الى المحاكم ، وما يدفع ثمنا لشراء السلع والخدمات التى تعود الى الحكومة او احدى المصالح التابعة للدولة العراقية .

ويختلف الاداء الى البنوك التجارية عنه الى الافراد .فهذه البنوك لديها عادة اماكن محكمة للحفظ ، كما ان اعمالها تقوم فى الاساس على الائتمان ، ولذلك فان جميع اصناف النقود لديها سواء . وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه البنوك قد ترحب بالمسكوكات المساعدة التى تستفيد منها فى القيام باعمالها كصرف الدنانير [٣] ودفع الشيكات وما اشبه.

والواقع ان هذا التميز فى قوة الابراء ليس له من اهمية تذكر من الوجهة العملية فى الوقت الحاضر . ذلك ان النقود من الوحدة القياسية (وهى الدينار واجزاؤه ومضاعفاته) متوفرة بدرجة كافية للقيام بمختلف التأديات . واذا شاع استعمال الشيكات فى التأديات بين الافراد كان تحديد قوة الابراء لبعض الاصناف من النقود لا تبقى له أية مزية من الناحية العملية . ولذلك كله نرى من الأفضل أن يتغافل المشرع العراقى فى المستقبل عن ايراد مثل هذا التحديد فى قوة الابراء .

---

(١) يعتبر التصرف بالمسكوكات بصورة غير مشروعة اذا كانت قد اتلفت او انقصت ، أو خفضت لسبب غير الاستعمال الاعتيادى ، او شوهت بدمغ او حفر او بثقب ، سواء أصبحت من جراء ذلك ناقصة او خفيفة ام لا (الفقرة ٤ ، من المادة ٧ من قانون العملة العراقية لسنة ١٩٥٩) .

(٢) على حكومة الجمهورية العراقية والمصارف التجارية المجازة أن تقبل المسكوكات بأى مقدار كان اذا لم يحصل التصرف بها بصورة غير مشروعة ـ الفقرة ٢ ، المادة ٧ من قانون عملة الجمهورية العراقية لسنة ١٩٥٩ .

(٣) يراد بصرف الدينار هنا تحويل الدينار أو أحد أجزائه الى مسكوكات ، ويعد هذا العمل من الخدمات الثانوية للصرافين والبنوك التجارية .

عيار المسكوكات الفضية (أو تركيبها) :

ان المسكوكات التى توصف بانها فضية لا تضرب عادة من الفضة الخالصة ، بل من مزيج يشتمل على نسبة من هذا المعدن الثمين ونسبة أخرى من معدن أوطأ قيمة ، لزيادة الصلابة فى المعدن الثمين وجعله أكثر ملاءمة للاغراض النقدية • ويراد بالعيار نسبة المعدن الثمين فى السبيكة او فى القطعة المخلوطة ، بالقياس الى مجموع السبيكة او القطعة كلها • والمسكوكات الفضية فى العراق تصنع من سبيكة مخلوطة من الفضة ومعدن آخر هو النيكل • والتعديلات التى حصلت فى ضرب المسكوكات الفضية تشير الى ثلاثة امور : (١) تقليل العيار • اى نسبة الفضة الخالصة فى المسكوكة • وهذا يعنى تغيير نسبة التركيب بانقاص نسبة المعدن الثمين • (٢) تقليل وزن المسكوكة النقدية كلها • (٣) جعل العيار او نسبة التركيب واحدا فى جميع المسكوكات الفضية •

فقد كانت المسكوكة من فئة ٢٠٠ فلس بموجب القانون لسنة ١٩٣٢ تتألف من الفضة المخلوطة • وكان مقدار الفضة الخالصة فيها ٩٠٠ جزء من الالف ووزنها عشرون غراماً • وهذه المسكوكة وكذلك المسكوكة من فئة ١٠٠ فلس التى ضربت سنة ١٩٥٣ هما المسكوكتان الوحيدتان اللتان ضربتا بتلك النسبة العالية من العيار •

اما المسكوكات الفضية الاخرى فقد بقيت على عيارها وكان مقدار الفضة الخالصة فيها ٥٠٠ جزء من الالف ولكن وزنها قد انقص عدة مرات• فالمسكوكة من فئة الخمسين فلسا التى ضربت اولا بموجب القانون لسنة ١٩٣١ كان وزنها تسعة غرامات ، ثم انقص وزنها الى سبعة غرامات ، بموجب القانون لسنة ١٩٥٥ ، والى خمسة غرامات بموجب المرسوم الجمهورى المرقم ٤٦٠ لسنة ١٩٥٩ • اما المسكوكة من فئة المئة فلس فلم يتغير وزنها ، اذ بقى عشرة غرامات •

وقد انقصت المسكوكة من فئة العشرين فلسا من ٣٫٦ غرام الى ٢٫٨ غرام واستحدثت مسكوكة فضية أخرى من فئة خمسة وعشرين فلساً ، عيارها كبقية

المسكوكات الفضية ، اى ان مقدار الفضة الخالصة فيها ٥٠٠ جزء من الالف • ووزن هذه المسكوكة ٥ر٢ غرام[١] •

ولا بد من ان يستحضر فى الذهن ان تقليل العيار والوزن للمسكوكات الفضية يؤدى الى تقليل كلفتها ، ويوفر للبنك المركزى مبالغ كبيرة ، وبخاصة عندما تكون المقادير المسكوكة منها جسيمة ، وبالاضافة الى ذلك فان تقليل وزنها يجعلها اخف حملا بطبيعةالحال • ويزداد عنصر الائتمان بتقليل العيار ، ذلك أن تنقيص العيار يقرب المسكوكة الائتمانية من الورقة النقدية ، وفى الاوراق النقدية ائتمان أوسع من المسكوكات •

العملة المصدرة وفى التداول :

يراد بالعملة المصدرة النقود الورقية والمسكوكات التى خرجت من دائرةالاصدار فى البنك المركزى بعد ان تسلمت ما يقابلها من اوراق نقدية اخرى او مسكوكات ، او ما يقابلها من السبائك الذهبية او الفضية او السندات التى يجوز ان تؤلف قسما من احتياطى العملة[٢] • فالاصدار بهذا المعنى نوع من المبادلة • أما مجرد طبع الاوراق النقدية وضرب المسكوكات فلا يعد اصدارا بل تهيئة للاصدار • ولابد لدائرة الاصدار من هذه التهيئة السابقة للاصدار لتمشية اعمالها بسرعة •

وهنا يرد هذا السؤال : ماذا يعنى ان دائرة الاصدار تصدر الاوراق النقدية او المسكوكات فى مقابل اوراق نقدية او مسكوكات اخرى ؟ الظاهر ان معنى الفقرة هو ان دائرة الاصدار تعطى اوراقا نقدية او مسكوكات فى مقابل اوراق نقدية او مسكوكات عراقية مثلها • ولكن أيعد هذا اصدارا بالمعنى الفنى ؟ الراجح انه ليس كذلك ، لان الاصدار ينطوى على معنى الاضافة الى النقد الخارج من دائرة الاصدار ، وعلى اضافة اخرى تعادل تلك الاضافة الى الاحتياطى للعملة • ومما يساعد على ايراد هذا النفى هو ان العملة العراقية لا تؤلف جانبا من الاحتياطى لدى دائرة الاصدار ، بل هى تمثل

---

(١) المرسوم الجمهورى المرقم ٦٤٩ لسنة ١٩٥٩ • وقد تطرق هذا المرسوم كذلك الى قطعتين من النيكل المخلوط بفئة عشرة فلوس و ٥ فلوس • وادخل هذا المرسوم تغييرا فى شكل الفلس البرنزى • اذ جعلت حافته مضلعة بعشرة اضلاع بدلا من الحافة الدائرية للفلس السابق •

(٢) قانون العملة العراقية لسنة ١٩٥٩ ، المادة ١٠ ، الفقرة (ب) •

جانب المطلوبات على تلك الدائرة [١] • على أن هذا يحتمل استثناءً نظرياً واحداً وهو وجود دنانير ذهبية مسكوكة • فمع انها عملة عراقية ، ولكن ينبغي ان توضع في جملة موجودات البنك لضمان الاصدار من الاوراق النقدية ، او من النقد الائتماني بصفة عامة • ومع ذلك فينبغي ان يلاحظ ان الحقيقة في هذا الاستثناء هي ان الدنانير الذهبية المسكوكة قد اعتبرت من الموجودات ، ليس لانها عملة عراقية ، بل لانها ذهب • ويقال مثل هذا ايضا عن الفضة المسكوكة •

ولا ريب ان تلك الفقرة قد يوجد لها مجال للتطبيق ، وذلك عند سحب الاوراق النقدية او المسكوكات المبطلة ، اذ تقوم دائرة الاصدار بتقديم ما يعادلها من الاوراق النقدية والمسكوكات القانونية • ولكن هذه العملية لا يصح تسميتها بالاصدار ، بل تبديل عمله مبطلة بعملة قانونية [٢] •

ولعله كان من الأدق من وجهة الصياغة الفنية أن يقتصر الاصدار على مفهوم واحد • وكان الاولى ان تفرد فقرة خاصة مستقلة لعملية التبديل •

ويلاحظ كذلك ان بقية العبارة الواردة في الفقرة (ب) من المادة العاشرة من قانون العملة لسنة ١٩٥٩ وهي : (لاتصدر دائرة الاصدار الأوراق النقدية أو المسكوكات •••• الا مقابل السبائك الذهبية او الفضية او السندات التي يجوز ان تؤلف قسما من احتياطي العملة) ، تبدو انها زائدة او مكررة ، لان مضمونها قد جاء بشكل مفصل في الفقرة (أ) من المادة الحادية عشرة التي بحثت في انواع الاحتياطي للعملة والحد الأعلى والأدنى لنسبها ، وكذلك ورد في الفقرتين (أ) و (ب) من المادة الثانية عشرة اللتين بحثتا عما يصح تقديمه من الأموال أو السندات لكي يصدر بدلاً

---

(١) ان العملة المصدرة من اوراق نقدية ومسكوكات تدون دائما في جانب المطلوبات عند اعداد موازنة دائرة الاصدار • وتدون في جانب الموجودات حيثما وجدت في مكان آخر حتى لدى دائرة الصيرفة من البنك المركزي نفسه •

(٢) وقد وقع هذا فعلا عند تبديل العملة التي لا تحمل شعار الجمهورية العراقية • فقد تحدد يوم ٦ كانون الثاني ١٩٦١ نهاية لتداولها القانوني • واستمر البنك على تبديلها والتعويض عنها حتى نهاية الشهر نفسه •

عنها نقد عراقي[١] . على ان الشيء الوحيد الذي تشتمل عليه تلك الفقرة التي قيل عنها انها زائدة أو مكررة ، ولا يوجد له ذكر في الفقرات الثلاث التالية هو كلمة «الفضة» . ويتراءى ان ذلك انما كان من قبيل السهو .

والتفسير الآخر لعبارة الأوراق النقدية والمسكوكات الأخرى الواردة في النص ، وهو تفسير ترجحه القرينة ، انها الأوراق النقدية الأجنبية والمسكوكات الأجنبية التي يجوز أن تؤلف جزءاً من احتياطي العملة العراقية .

والجدول الاتي يبين مقادير العملة المصدرة وفي التداول تبعا لاحصاءات البنك المركزي لشهر ايلول سنة ١٩٦٠ [٢] :

	اوراق نقدية ومسكوكات	
	فلس	دينار
١ ـ الخارج من دائرة الاصدار	٣٩٦	٨٠ر٥٦١ر٢٥٨
٢ ـ لدى مديرية الصيرفة	٢١٥	١ر٤٢٠ر٧٠١
٣ ـ الصافي خارج البنك المركزي	١٨١	٧٩ر١٤٠ر٥٥٧
٤ ـ لدى المصارف التجارية	٣٢٩	٥ر٩٨١ر٣٠٧
٥ ـ الصافي في يد الجمهور	٨٥٢	٧٣ر١٥٩ر٢٤٩

ويمكن ان نتبين من الارقام والاحصاءات والبيانات السابقة النقاط التالية :

١ ـ ان البنك المركزي العراقي يتألف من دائرتين : (أ) دائرة الاصدار . (ب) دائرة

(١) الفقرة (أ) من المادة الحادية عشرة : (يجب ان يكون احتياطي العملة بنسبة لا تقل عن القيمة الاسمية لمطلوبات دائرة الاصدار ، اي الاوراق النقدية والمسكوكات التي في التداول ولدى دائرة الصيرفة . على أن يتكون هذا الاحتياطي من الذهب **والفضة** والعملات الاجنبية بنسبة لا تقل عن ٧٠٪ من تلك المطلوبات ، ومن سندات الحكومة العراقية بنسبة لا تزيد عن ٣٠٪ من تلك المطلوبات .

الفقرة (أ) من المادة الثانية عشرة : (للبنك ان يصدر عند الطلب اوراقا نقدية ومسكوكات في الجمهورية العراقية مقابل الدفع سلفا بالذهب والعملات الاجنبية) . (لم تذكر الفضة) .

الفقرة (ب) من المادة نفسها : (للبنك أن يصدر اوراقا نقدية ومسكوكات في الجمهورية العراقية مقابل سندات الحكومة العراقية على ان تراعى في ذلك احكام الفقرة (أ) من المادة الحادية عشرة من هذا القانون) .

(٢) المصدر : النشرة الفصلية للبنك المركزي العراقي ، رقم ٣٥ تموز ـ ايلول ١٩٦٠ ص ٦ـ٧ .

الصيرفة • والدائرة الاولى منفصلة تماما عن الدائرة الثانية • واهم مظهر فى هذا الانفصال هو الاستقلال فى الذمة • فلكل من الدائرتين ذمة خاصة • وهذا الانفصال بين الدائرتين هو على غرار المعمول به فى البنوك المركزية منذ ان قسم بنك انكلترا سنة١٨٤٤الى شعبتين : احداهما شعبةالاصدار وتعنى باصدار الاوراق المصرفية وتكوين الاحتياطى ، والاخرى شعبة الاعمال المصرفية للقيام بالمعاملات المصرفية العادية •

٢ - ان مجموع الصافى خارج البنك المركزى يراد به مجموع العملة المصدرة ناقصا العملة الموجودة لدى مديرية الصيرفة • وهذا الصافى فى الخارج موزع بين المصارف التجارية والجمهور ، أي فيالتداول [١] • ويتراءى ان هناك جهة أخرى يحسن ذكرها عند تقدير الجهات الاساسية التى يوزع بينها النقد الصافى فى الخارج وهذه الجهة هى خزائن الحكومة والدوائر التى تتسلم النقد باسم الحكومة او احدى مؤسساتها شبه الرسمية •

ولا ينبغى ان تفوت الاشارة ايضا الى ان المقدار الفعلى من النقد لدى الجمهور (او فى التداول) هو اقل من الرقم المذكور اعلاه ، لان جزءا من هذا المقدار ، من مسكوكات او اوراق نقدية قد نقل الى الاقطار الاجنبية ، كما ان جزءا اخر قد اصابه التلف لهذا السبب او ذاك ، فيظل يحسب على انه من جملة المتداول وهو ليس كذلك•

ويجدر ان يلاحظ ايضا ان المسكوكات تؤلف نسبة ضئيلة بالقياس الى الاوراق النقدية • فقد بلغ مجموع المصدر منها حتى ايلول سنة ١٩٦٠ ما قيمته ٢٫٠١٢٫٦١٢ دينار و٦٤٦ فلسا [٢] • وتستعمل المسكوكات للمدفوعات الصغيرة والجزئية او لتكملة القيمة المطلوبة •

موازنة الاصدار :

ينشرالبنكالمركزىالعراقى موازنةشهرية بشأنمطلوباته وموجوداته • والواقعانها موازنتان • تتعلق اولاهما بدائرة الاصدار ، وثانيتهما بدائرة الصيرفة • والذى يهمنا

---

(١) أن النشرة الفصلية للبنك المركزى العراقى تستعمل اصطلاح (النقد فى يد الجمهور) و (النقد فى التداول) بمعنى واحد • تلاحظ آخر فقرة من ص ٧ ، واول فقرة من ص ٨ ، من النشرة ٣٥ لسنة ١٩٦٠ •

(٢) النشرةال فصلية للبنك المركزى العراقى ، رقم ٣٥ لسنة ١٩٦٠ ، ص ٦

فى هذا المبحث بصفة خاصة هوالموازنة المتعلقة بقسم الاصدار • وهذه الموازنة تتناول قيمة العملة المصدرة وقيمة الغطاء وانواعه •

والموازنة التالية تمثل موازنة مديرية الاصدار لشهر ايلول سنة ١٩٦٠ • محسوبة بآلاف الدنانير (١) :

مديرية الاصدار			ايلول ١٩٦٠
	المطلوبات	العملة المتداولة	٧٩ر١٤٠
		العملة لدى مديرية الصيرفة	١ر٤٢١
		المجمـــــوع	٨٠ر٥٦١
	الموجودات	الموجودات الاسترلينية	١٩ر٣١٥
		موجودات اجنبية اخرى	٢٦ر٢٩٩
		الفضة فى المسكوكات المخزونة	١ر٠٤٨
		سندات الحكومة العراقية	٣ر٩٣٤
		سبائك ذهبيـــة	٢٩ر٩٦٥
		المجمـــــوع	٨٠ر٥٦١

ويتبين من الموازنة السابقة النقاط التاليـة :

١ - ان العملة المصدرة هى التى تؤلف الديون على مديرية الاصدار (البنك المركزى العراقى) •

٢ - ان الفقرات التى تدون ضمن موجودات المديرية تؤلف الغطاء للعملة المصدرة ، (أو الاحتياطى لها) ، وتعد ضماناً لتلك الديون (أو المطلوبات) •

٣ - المراد بالموجودات الاجنبيـة الاخرى هى الموجودات الاجنبية من غير الاسترليني كالدولارات الامريكية والفرنكات السويسرية والماركات الالمانية وما أشبه من العملات الاجنبية المرغوبة • على ان الذى يلاحظ فى اعداد هذه الاحصاءات انها لا تشير الى غير المجموع ، ولا تذكر تلك الانواع بصورة مفصلة • ونعتقد انه من الملائم

(١) النشرة الفصلية للبنك المركزى العراقى ، رقم ٣٥ لسنة ١٩٦٠ ، ص ٩

للبنك أن يدرج فى موازنته تلك الأنواع ، لأنها صارت تؤلف نسبة مهمة من الاحتياطى ، وهى تزيد على النسبة من الموجودات الاسترلينية • وهذا التزايد فى الموجودات الأجنبية قد بدأ فى الظهور منذ سنة ١٩٥٩ • ومجموع الموجودات الاجنبية فى ايلول سنة ١٩٦٠ كان يعادل اكثر من سبعة اضعاف ما كان موجودا منها فى كانون الاول سنة ١٩٥٨ [١] • واهم مصدر فى هذه الزيادة هو تحويل قسم مهم من الاسترلينى الى تلك الموجودات الاجنبية • وقد أفضى ذلك التحويل الى هبوط نسبة الاسترلينى الى أقل من نصف ما كان عليه فى كانون الاول سنة ١٩٥٨ [٢] •

٤ — ان قيمة السبائك الذهبية تؤلف الان اوسع الفقرات التى يتكون منها غطاء العملة • فهى تؤلف حوالى ٣٧ ٪ من مجموع قيمة العملة المصدرة • وهذه النسبة من الذهب تعد ملائمة لدعم العملة المصدرة او لاستخدامها فى التسويات الدولية • ويخيل الينا ان ليس فى زيادة هذه النسبة كثيرا مزية مرغوبة فى احتياطى العملة [٣] •

٥ — ان سندات الحكومة العراقية تعادل الان حوالى ٥٪ من مجموع الغطاء • فى حين ان النسبة التى يسمح بها القانون هى ٣٠ ٪ أى من الجائز بحكم القانون أن تبلغ السندات الحكومية ما قيمته ٣٠٠ر١٦٨ر٢٤ دينار • على أن الجواز القانونى شىء والملاءمة العملية أو المحافظة على مركز الدينار ، وصيانة قوته الشرائية شىء آخر • فمع ان الحكومة اذا احتاجت الى الأموال ففى وسعها بحكم القواعد القائمة ان تقترض من البنك بتقديم السندات ، فان اثر هذا الاقدام قد لايكون فى مصلحة الدينار •

على ان البنك المركزى اذا وجد ان السياسة النقدية للعراق تستلزم زيادة المعروض من النقد أو تقليصه والتمس لذلك الاستعانة بما يسمى بعمليات السوق

---

(١) كانت الموجودات الاجنبية من غير الاسترلينى آنذاك ٠٠٠ر٨٧١ر٣ دينارا •

(٢) كانت الموجودات من الاسترلينى آنذاك ٠٠٠ر٨٥٢ر٤٦ دينارا •

(٣) ينبغى القول هنا أن من محاذير الغطاء الذهبى انه لا يعطى عائدا غير تميزه الفريد بالسيولة الدولية • فى حين أن السندات تغل فائدة (هذا مع افتراض بقاء الاسعار على حالها) •

المفتوحة فلا غبار على تصرفه • وغنى عن القول ان اقتراض الحكومة بتقديم السندات يختلف كل الاختلاف عما يسمى بعمليات السوق المفتوحة ، وان كان الامران يؤديان الى التغيير فى نسبة السندات الحكومية التى فى حوزة البنك المركزى •

٦ - لا توجد حتى الان سبائك فضية ضمن غطاء العملة • وقد مر من قبل ان قانون العملة العراقية لسنة ١٩٥٩ قد اجاز ان تؤلف هذه السبائك جانبا من الاحتياطى• ولذلك من المحتمل أن تظهر السبائك الفضية كفقرة خاصة فى الموازنات المقبلة • أما الفقرة (الفضة فى المسكوكات المخزونة) التى تورد فى الموازنات فليست من قبيل السبائك الفضية • صحيح ان قيمتها مقدرة كما لو كانت سبيكة معروضة على السوق ، ولكنها ليست سبيكة على اى حال •

ويتراءى ان الدقة فى الحساب تستدعى أيضاً ذكر قيمة النيكل والنحاس والبرونز فى المسكوكات المضروبة من تلك المعادن والمخزونة فى المديرية • ولعل ضآلة قيمتها هى التى تحول دون ظهور صورتها ضمن الموجودات •

وهنا يمكن ان يوضع هذا السؤال : هل تعتبر القيمة لجميع المسكوكات الصادرة جزءاً من مطلوبات مديرية الاصدار ؟ والجواب هو ان تلك المديرية مدينة من غير شك بالقيمة الاسمية لجميع المسكوكات التى تصدرها • ولكن المسكوكات نفسها ، وبخاصة الفضية ، لها قيمة سوقية بسبب ما تشتمل عليه من معدن يمكن أن يستعمل فى أغراض الصناعة بعد اذابته • ولو ان المسكوكات ما كانت تفقد شيئا نتيجة للاستعمال لوجب ان تطرح قيمتها كسبيكة من قيمتها كنقود ، ولكان الفرق بين القيمتين هو الدين الصافى فى ذمة البنك • ولتعديل الحساب ينبغي أن يؤخذ فى نظر الاعتبار ما تفقده المسكوكات من قيمتها بسبب التداول • وهذا القدر المفقود من المعدن نتيجة للاستعمال يتحمله البنك ، ويضاف الى جانب مطلوباته •

ويظهر مما تقدم ان الفضة فى المسكوكات المخزونة ، او المعادن فى المسكوكات المخزونة بصفة عامة ، ليست هى وحدها التى تؤلف ، او ينبغى ان تؤلف ، جانبا من الاحتياطى • بل ينبغى ان يضاف الى ذلك قدر كبير من الفضة والمعادن الاخرى فى المسكوكات المصدرة • واذا قيل بأن تلك الفضة ، والمعادن الاخرى موجودة فى خزائن

البنك ، وان هذه الفضة ، او المعادن بصفة عامة ليست تحت تصرف البنك ، فقد يجاب بان هذه المسكوكات المصدرة هى نفسها بمنزلة سندات الدين الذى يشغل ذمة البنك ، وانه لابد من حمل هذه السندات الى البنك وتقديمها لقبض قيمتها الأسمية • واذا تلفت المسكوكة الفضية ، أو المعدنية بصفة عامة ، لهذا السبب أو ذاك ، خسر صاحبها قيمتها الاسمية ، لانها بمنزلة السند الوحيد لحقه • ومع ان البنك فى مثل هذه الحالة تبرأ ذمته من ذلك الدين لفقدان الدليل ، فانه لا يكسب بمقدار ذلك الدين الهالك ، بل أقل منه • ذلك ان البنك يفقد هو أيضاً عند تلف المسكوكة ما يعادل القيمة المعدنية لتلك المسكوكة ، ويكسب الباقى من قيمتها الاسمية •

النقود المصدرة والعرض من النقود :

بما أن البحث السابق كان يتناول اصدار النقود بصفة خاصة ، فلابد من الاشارة الى وجوب التمييز بين ما يدخل ضمن النقود المصدرة وبين الذى يطلق عليه اسم عرض النقود ، او المعروض من النقود • فالمفهوم الاول يشمل مجموع الاوراق النقدية والمسكوكات التى تصدرها البنوك المركزية والهيئات الاخرى كالحكومات فى بعض الاقطار • اما المفهوم الثانى فهو اوسع من المفهوم الاول • فهو يشمل بالاضافة الى الأوراق النقدية والمسكوكات المصدرة مايطلق عليه اسم النقود الكتابية أو نقود المصارف • وهذه تشتمل على الودائع تحت الطلب فى المصارف التجارية التى يمكن ان تستعمل فى الاداء بسحب الشيكات عليها • على ان الودائع الثابتة وحسابات التوفير لدى البنوك التجارية ، والودائع لدى صناديق التوفير البريدية لا تدخل فى الغالب ضمن مفهوم العرض من النقود • وسبب التمييز بين الصنف الاول من الودائع والصنف الثانى من الودائع والحسابات هو درجة السيولة الموجودة فى كل منهما أو امكان سحب الشيكات عليها • فالودائع الثابتة او الزمنية لا يجوز التصرف بها عادة الا عند استحقاقها• فهى قروض ذات اجل وان سميت بالودائع • كما ان السحب من حسابات التوفير يستلزم الحضور شخصيا او ارسال وكيل للسحب • ولا يجوز سحب الشيكات على حسابات التوفير • وبعبارة اخرى ان هذه الودائع والحسابات لا يمكن ان تستعمل كاداة للدفع راسا • بل يجب ان تسحب اولا ، او ان تحول الى ودائع تحت الطلب لكى يمكن التصرف فيها بسحب الشيكات عليها •

على ان البنك المركزى العراقى ، وبعض البنوك المركزية الاخرى ، لا تميز بين هذين الصنفين من الودائع والحسابات ، فتدخل الودائع الثابتة وحسابات التوفير ضمن المفهوم الخاص بعرض النقود • وهذه الوجهة فى الاحصاء قد تفسر على ان الودائع الثابتة وحسابات التوفير تمثل الطاقة النقدية للافراد • كما ان هذه المبالغ يمكن ان تستخدم بصورة غير مباشرة فى الدفع • ومع ذلك فمن المفضل أن يورد على انفراد احصاء عن الودائع الجارية التى يمكن ان تسحب الشيكات عليها ، لاهميتها فى غير قليل من البحوث الخاصة بالنقود والائتمان •

وهنا يمكن ان يثار هذا السؤال : لماذا لاتعد المبالغ المعروضة للاقراض فى البنوك الاخرى غير التجارية ، كالبنك العقارى ، والزراعى ، والتعاونى ، وبنك الرهون من جملة عرض النقود(١) ؟ الواقع انه من الصعب العثور على فارق كبير بين هذه المبالغ المعروضة للاقراض ، وبخاصة بعد انجاز عملية القرض وبين المبالغ الموجودة فى حسابات التوفير • فكلا النوعين من المبالغ طاقة نقدية يمكن التصرف بها واستعمالها كقوة شرائية •

وفى الجدول الاتى مثل لعرض النقد لدى الجمهور فى تموز وآب وايلول سنة ١٩٦٠ ، وما يقابل عرض النقد من الموجودات • والارقام تمثل ملايين الدنانير :

		تموز ١٩٦٠	آب ١٩٦٠	ايلول ١٩٦٠
عرض النقد	صافى العملة فى التداول	٧٦ر٦	٧٤ر٣	٧٣ر٢
	ودائع الجمهور الجارية وحسابات التوفير لدى البنوك التجارية	٤١ر٥	٤١ر٩	٤٢ر٢
	ودائع الجمهور لدى الصيارفة وصندوق توفير البريد	٦ر٢	٥ر٧	٥ر٧
	المجموع	١٢٩ر٨	١٢٧ر٤	١٢٦ر٧

والجدول الاتى بيان عن مقابل عرض النقد من الموجودات المختلفة خلال المدة نفسها • والارقام تمثل ملايين الدنانير ايضا(٢) :

(١) ان هذا السؤال يصح أن يرد ايضا على المؤسسات الاخرى التى تقدم القروض •
(٢) المصدر : النشرة الفصلية للبنك المركزى العراقى ، رقم ٣٥ تموز - ايلول ١٩٦٠ •

		تمـوز ١٩٦٠	آب ١٩٦٠	أيلول ١٩٦٠
	١ ـ غطاء العملة (مديرية الاصدار فى البنك المركزى)	٨٦ر٠	٨٢ر٠	٨٠ر٥
	الموجودات الاسترلينية	٢٥ر٣	٢١ر٤	١٩ر٣
مقابل عـرض النقـد	موجودات اجنبية اخرى	٢٥ر٨	٢٥ر٧	٢٦ر٣
	سبائك ذهبية	٣٠ر٠	٣٠ر٠	٣٠ر٠
	فضـــة	١ر٠	١ر٠	١ر٠
	سندات الحكومة العراقية	٣ر٩	٣ر٩	٣ر٩
	٢ ـ استثمارات البنوك التجارية	٧١ر٤	٦٦ر٢	٦٨ر٣
	الائتمان التجـــارى	٥٢ر٠	٥٢ر٣	٥١ر٤
	استثمارات فى سندات حكومية وشبه حكومية	٦ر٧	١ر٩	٢ر٥
	استثمارات فى الخارج	١٢ر٧	١٢ر٠	١٤ر٤
	٣ ـ فقرة موازنة	ـ٢٧ر٦	ـ٢٠ر٨	ـ٢٢ر١
	المجمـــوع	١٢٩ر٨	١٢٧ر٤	١٢٦ر٧

ان المقابل لعرض النقد يتألف فى الجدول السابق من فقرتين وهما : غطاء العملة ، واستثمارات البنوك التجارية • أما الفقرة الثالثة التى سميت بفقرة موازنة ، فهى تمثل الفرق بين عرض النقد وبين مجموع المقابل لهذا العرض • وهو يمثل قدرا من الطاقة النقدية التى لم تستثمر •

ومن الملائم ان يستحضر فى الذهن ان مفهوم عرض النقد هنا يختلف عن مفهومه عند بحث كمية النقود فى التداول ، وأثر هذه الكمية فى قيمة النقود • ذلك أن سرعة تداول النقود، وهى من العناصر المهمة فى تحليل كمية النقود ، لاتؤخذ هنا فى نظر الاعتبار •

النسبة بين العملة المصدرة والدخل القومى :

كان بودنا أن نستخدم لهذا الغرض الاحصاءات المتعلقة بسنة ١٩٦٠ أو ١٩٥٩ •

ومع ان الارقام المتعلقة بالعملة المصدرة يمكن الحصول عليها بسهولة كبيرة من مصادر البنك المركزى ، فان الاحصاءات الخاصة بالطرف الثانى من النسبة ، وهى احصاءات الدخل القومى غير متيسرة لهاتين السنتين • ولذلك سوف نقتصر على بيان النسبة بين العملة المصدرة والدخل القومى لآخر سنة ظهرت فيها الاحصاءات وهى سنة ١٩٥٦[1] •

ويتبين من مراجعة احصاءات العملة المصدرة فى سنة ١٩٥٦ ، ان مجموع الصافى من العملة فى يد الجمهور كان حوالى ٤٨½ مليون دينار [2] • أما الدخل القومى فى العراق لسنة ١٩٥٦ فقدر بحوالى ٣٣٠ مليون دينار [3] • وهذا يعنى ان نسبة مجموع العملة الى مجموع الدخل القومى خلال تلك الفترة هو حوالى السبع (أى نسبة ١ الى ٧) • وفى غير قليل من الاقطار تكون النسبة اقل مما فى العراق • والغالب ان النسبة هى حوالى العشر • وفى بعض الاحيان تهبط تلك النسبة حتى تبلغ واحدا من العشرين او دون ذلك • وهذه النسبة الكبيرة فى استخدام النقود يمكن ان تفسر بأحد هذين العاملين أو بكليهما معاً : (١) قلة استعمال الصنف الثانى الاساسى من النقود وهو حسابات الشيكات فى مبادلات السلع والخدمات التى تؤلف الناتج القومى فى العراق • وهذا يجعل العبء الاكبر فى تسهيل المبادلات على العملة المصدرة • ولكن الملاحظة التى ينبغى ايرادها هنا هى ان الاقتصاد العراقى لايقوم كله على المبادلات لكى يستدعى

---

(١) اعلمنا الدكتور خيرالدين حسيب بأن تقديراته عن الدخل القومى فى العراق للفترة ١٩٥٧ – ١٩٦٠ سوف تظهر فى اواخر سنة ١٩٦١ •

لقد وضع الخبير الروسى مانياكن (Maniakin) فى مايس سنة ١٩٦١ تقريرا عن الدخل القومى فى العراق للسنوات ١٩٥٦ – ١٩٦٠ ، بعنوان : (مقدمة للمحاسبة القومية فى العراق للسنوات ١٩٥٦ – ١٩٦٠) • وقدر مجموع الدخل القومى فى العراق لسنة ١٩٦٠ فى قطاع الانتاج المادى بنحو ٣١٢ر٤ مليون دينار ، وفى قطاع الخدمات (او القطاع غير المنتج كما يسميه) بنحو ١٠٩ر٧ مليون دينار • وبذلك يكون مجموع القطاعين ٤٢٢ر١ مليون دينار • ومع أن هذا التقرير لم ينشر بعد بصورة واسعة فان الاسلوب الذى اتبعه هذا الخبير فى التقدير مازال قيد الدرس •

(٢) النشرة الفصلية للبنك المركزى العراقى ، رقم ٣٢ ، ١٩٥٩ ، ص ٦–٧ •

(3) K. Haseeb, "An Estimate of the National Income of Iraq 1953-1956", unpublished Ph.D. thesis, University of Cambridge, September 1959, pp. 217 and 568.

مثل هذا القدر من العملة . فهو يشتمل على قطاع غير نقدى . وفى هذا القطاع يكون الانتاج من السلع لاستهلاك الشخص واسرته ، ولا يخرج منه الى السوق الا نسبة قليلة . وهذا القطاع غير النقدى كان ينبغى ان يقلل الحاجة الى استعمال العمـــلة .
(٢) واذا كان العامل الاول لا يفسر الظاهرة كلها فى تلك النسبة العالية من العملة المصدرة بالقياس الى الناتج القومي ، فقد يلتمس لذلك تفسير آخر وهو أن الكثير من العملة فى يد الجمهور ليس لها تداول فعلي ، بل انها مخزونة بشكل توفير بدائي [١] .

(1) Iversen, Op. Cit., P. 12.

الافعال الناقصة

كان واخواتها

الدكتور محمود غناوى الزهيرى
الاستاذ فى قسم اللغة العربية

١ ـ فعل تام وفعل ناقص :

يقسم النحاة الفعل قسمين : احدهما الفعل التام ، وثانيهما الفعل الناقص ، وقد عرفوا الفعل التام بأنه الفعل الذى تتمّ به وبمرفوعه جملة كقام محمد أمّا الفعل الناقص فقد عرّفه بعضهم بأنه الفعل الذى لاتتم الجملة معه الاّ بمرفوع ومنصوب.(١) او بأنه الفعل الذى لم يكتف بمرفوعه ، كما عرفه فريق آخر بأنه الفعل الذى قد سلب الدلالة على الحدث وتجرّد للدلالة على الزمان .(٢) وبناء على هذا تكون « كان واخواتها » وأفعال المقاربة من الافعال الناقصة التى فقدت الحدث واحتفظت بالزمان فقط . وقد أجمع النحاة على أنّ هذه الافعال تدخل على المبتدأ والخبر فترفع الاول ويسمّى اسمها وتنصب الثانى ويسمى خبرها ، وفى ذلك يقول ابن مالك فى ألفيته : (٣)

ترفع كان المبتدا اسماً والخبر تنصبه ككان سيداً عمر

٢ ـ قسمة باطلة :

يعرّف النحويون الفعل بأنه ما دلّ على معنى بنفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة وهو ـ أى الفعل ـ فى اللغة نفس الحدث الذى يحدثه الفاعل من قيام أو قعود أو نحوهما.(٤) ومن هذا يتبين لنا أن الفعل يتألف من شيئين هما الحدث والزمان ، الاّ أنّ الحدث هو المقصود من الفعل ، قال ابن يعيش : انما وضع ـ يعنى الفعل ـ دليلا على الحدث المقترن بالزمان والاقتران وجد تبعا . (٥)

---

(١) شرح الرضى على الكافية ص ٢٧٦ طبعة ايران .

(٢) شرح التصريح على التوضيح [١/١٩٠] الطبعة الثالثة ١٩٢٥

(٣) شرح ابن عقيل على ألفيه ابن مالك [١/٢٢٦] الطبعة التاسعة ١٩٥٦

(٤) شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب لابن هشام الانصارى [ص ١٤] الطبعة السابعة ١٩٥٧

(٥) شرح المفصل تأليف ابن يعيش [٧/٣] طبعة محمد منير الدمشقى .

واذا كان الأمر كذلك فان الفعل الناقص يجب أن يكون هو والفعل التام مشتركين في هذا التعريف من جهة ، كما يجب أن يكونا مختلفين بعد ذلك في أمور فرعية ؛ لاتمسّ جوهر الفعل من جهة أخرى ليصحّ أن يكون كلاهما قسماً قائماً بذاته مع محافظته على طبيعة الفعل التي اعترف بها النحاة له • وعلى هذا الأساس يكون تعريف النحاة للفعل الناقص بأنه ما لا تتم الجملة معه الاّ بمرفوع ومنصوب تعريفاً غامضاً او قل : انه تعريف غير مانع كما يقول أهل المنطق ، ذلك لأنه يصدق على الفعل التام المتعدّى كضرب مثلاً فالجملة مع هذا الفعل لاتتم الاّ بمرفوع ومنصوب أي بفاعل ومفعول به ، فأنت اذا وقفت عند الفاعل فقلت : ضرب زيد كانت الجملة ناقصة ، لا يحسن السكوت عليها ، كان معناها لغواً وعبثاً • ومن هنا كان هذا التعريف تافهاً اذ لم يستطع أن يدعم وجهة نظر النحويين في انّ الفعل الناقص موجود حقيقة في اللغة العربية •

على أنّ فريقاً من النحاة قد شعروا بضعف هذا التعريف وقصوره عن تبيان الحدود الواضحة للفعل الناقص ، فاضطروا الى القول بتعريفهم الثاني ؛ ذلك التعريف الذى ينصّ على أن الفعل الناقص انما سمّى ناقصاً لأنه سلب الدلالة على الحدث وتجرّد للدلالة على الزمان ، وهذا يعنى أنه فقد الحدث ، فقد معناه ، وبقى دالا على الزمان وعلى الزمان فقط •[1] ونحن ، بعد هذا ، نتساءل فنقول : أيّ فعل هذا الذى يفقد معناه فيصبح جثة هامدة ، ثم يعدّ فعلاً بين الأفعال ؟ أيصحّ عقلاً أن يجمع بين الفعل الدال على الحدث وبين الفعل الذى لا يدلّ على حدث فى اطار وتحت عنوان واحد وقسم واحد من أقسام الكلمة ؟! وهل هناك معنى للفعل غير الحدث ؟ لاشك عندى فى أنّ الجواب لابد أن يكون نفياً باتاً •

ولعلك تستطيع أن تتبين مما تقدّم أن الفعل الناقص كما عرّفه النحاة لا يمكن أن يكون قسيماً للفعل التام ، لسبب بسيط جداً ، هو أنّه ليس فعلاً ؛ لأنه لا يدخل فى تعريف الفعل الذى قال به النحويون أنفسهم ، اذ أن الفعل من حيث معناه ، أو من حيث دلالته على الحدث لا يمكن أن ينقسم الى فعل تام ذى معنى ، والى فعل ناقص لا معنى له بل لابدّ من توفر الحدث فى أى نوع من انواع الفعل ليصحّ ان يسمّى فعلا • وقديماً

---

(١) شرح التصريح ١/١٩٠ وشرح المفصل ٩٧/٧

قال ابن يعيش : الفعل فى الحقيقة ما دلّ على حدث والحدث الفعل الحقيقى فكأنه سمّى باسم مدلوله • [(١)] وبذلك يكون تقسيم الفعل على النحو السابق تقسيماً باطلاً لايستند الى واقع ولا الى منطق معقول ••

٣ - ليس للفعل الناقص وجود :

أحسب أن القارىء الكريم سيفزع من هذا العنوان ، أريد أن أقول انه سيسخر منه سخرا شديداً ؛ فقد ألفنا ، وألف الناس معنا « كان وأخواتها » و « كاد وأخواتها » أقول لقد ألفنا وألف الناس معنا هذه الاخوات والقريبات وألفنا غيرهن كثيرا فى تلك السلسلة الطويلة التى تنتظم موضوعات النحو الفاً شديداً منذ الصغر ، وحفظنا ، فيما حفظنا ، هذه القاعدة الخالدة القائلة بأن « كان وأخواتها » هى أفعال ناقصة ، وأنها تعمل فى المبتدأ والخبر عملا خاصاً بها أشرنا اليه قبل قليل • وأنت ، أيها القارىء الكريم ، تعلم علم اليقين ما للالف والعادة والمران من أثر شديد فى النفس وفى العقل أيضاً يصعب أن يتحرر منه الانسان ، بل يشق عليه أن يفكر فيه مجرد تفكير ، بيد أننى بالرغم من ذلك وجدت فى نفسى شعوراً حملنى على الخروج على هذه القاعدة الخالدة منذ زمن ليس بالقصير ؛ فقد راودني احساس عميق بأن كان وأخواتها وقريباتها انما هى أفعال مفترى عليها ، حين حكم عليها أهل النحو بالنقصان ، وخيل الى من خلال هذا الاحساس أنها أفعال تامة ، تتمتع بجميع خصائص الفعل من دلالة على الحدث ، واكتفاء بالمرفوع ، وتجاوز لهذا المرفوع الى المنصوب على نحو مانراه فى الافعال الاخرى • وكل ما هنالك من فرق بينها وبين هذه الأفعال هو أنها أفعال قد استعملت بعد فترات طويلة من التطور اللغوي استعمالاً خاصاً فى بعض وجوه استعمالها فى اللغة • وقد دفعني ذلك كله الى دراسة هذا الموضوع فى مصادره الأولى ، فعثرت فيها على ما يبعث فى النفس العجب كل العجب ، العجب لهذا الباطل كيف يكتب له الذيوع والانتشار ، والعجب لهذا الحق كيف يحكم عليه بالتوارى والاستتار • عثرت فى هذه المصادر على آراء مهمة وخطيرة ، تدل بوضوح ما بعده وضوح على أن هذه الافعال تامّة ، وأنها بريئة من النقصان • ولا أريد أن أطيل عليك الكلام ، وانما أريد أن أدون لك ما قاله الرضى الاستربادي فى هذه الأفعال لتقرأه وتتدبره وترى رأيك فيه وهذا نص كلامه [(٢)] :

---

(١) شرح المفصل ٧٩/٧

(٢) شرح الرضى على الكافية ص ٢٧٦

« ... وما قال بعضهم من أنها سميت ناقصة لأنها تدل على الزمان دون المصدر ليس بشيء ، لان كان في نحو كان زيد قائماً يدل على الكون الذي هو الحصول المطلق وخبره يدل على الكون المخصوص وهو كون القيام أي حصوله ، فجيء أولاً بلفظ دال على حصول ما ثم عيّن بالخبر ذلك الحاصل ، فكأنك قلت : حصل شيء ثم قلت حصل القيام ، فالفائدة في ايراد مطلق الحصول أولاً ثم تخصيصه .. وهناك فائدة أخرى وهي دلالته على تعيين زمان ذلك الحصول المقيّد ، ولو قلنا قام زيد لم يحصل هاتان الفائدتان معاً . فكان يدل على حصول حدث مطلق ، تقييده في خبره ، وخبره يدل على حدث معين واقع في زمان مطلق ، تقييده في كان ، لكن دلالة كان على الحدث المطلق أي الكون وضعية ، ودلالة الخبر على الزمان المطلق عقلية .. وأما سائر الافعال الناقصة نحو صار الدال على الانتقال ، وأصبح الدال على الكون في الصبح أو الانتقال ، ومثله أخواته ، وما دام الدال على معنى الكون الدائم ومازال الدال على الاستمرار وكذا أخواته ، وليس الدال على الانتفاء ؛ فدلالتها على حدث معين لايدل عليه الخبر في غاية الظهور ، فكيف يكون جميعها ناقصة بالمعنى الذي قالوه . »

وواضح جداً من كلام الرضي أنه يرفض الرأي القائل بنقصان هذه الافعال ، ويؤكد أن دلالتها على الحدث في غاية الظهور . ولكنه مع ذلك كله يسمّيها أفعالا ناقصة مجاراة للرأي السائد في كتب النحو ومسايرة للتيار الجارف الذي لا يقوى على الوقوف أمامه أحد .

٤ ـ اقوالهم تدينهم :

بالرغم من أن النحاة كانوا حراصاً على اثبات نقصان هذه الافعال ، وأنهم كانوا يعتبرون هذا النقص حقيقة لاشك فيها فيبنون آراءهم على هذا الاساس ، أقول بالرغم من ذلك كله أفلتت منهم آراء وأحكام في أثناء مناقشاتهم وتأويلاتهم تدل بوضوح على عكس ما يصفون ويصنعون ويقصدون . فقد كان الحق يغلبهم فيجرى على ألسنتهم حتى اذا شعروا بالحرج تكلّفوا العلل ، وزوّروا التأويلات ، وزعموا لهم نصراً مزيفاً في معركة هم فيها الخصم والحكم .

أ ـ من هذه الآراء : رأي الكوفيين في اعراب معمولي كان وأخواتها ، فالكوفيون شعروا ، على ما يظهر ، بقصور الرأي الشائع بين النحويين في اعراب ما دخلت عليه

كان فذهبوا الى أن خبر كان وأخواتها منصوب على أنه حال ، ففى كتاب « الموفى فى النحو الكوفى » نجد هذا التعريف [١] : « الافعال الناقصة : مالم يتمّ كلاماً الا بحال .» وذهبوا الى أن الاسم الذى بعد كان يعرب فاعلا . فقد قالوا [٢] : « .. ولا يكون - أى الحال - معرفة الا اذا كان صاحبه فاعل النواقص . » ومعنى ذلك أن الكوفيين يعربون (زيد) فاعلا ويعربون (قائماً) حالا منه فى نحو قولك « كان زيد قائماً » وقد ردّ الكوفيون على البصريين حين اعترض عليهم هؤلاء فى هذا الصدد اذ قالوا [٣] : « ولا يجوز أن يقال انه لو كان نصباً على الحال لما جاز أن يقع معرفة فى نحو : كان زيد أخاك ، وظننت عمراً غلامك ، والحال لا تكون معرفة ، لانا نقول : انما جاز ذلك لان أخاك وغلامك وما أشبه ذلك قام مقام الحال ، كقولك : ضربت زيداً سوطاً ، فان سوطاً ينتصب على المصدر وان كان آلة لقيامه مقام المصدر الذى هو ضربه ، وكذلك ها هنا ، على أنه قد جاءت الحال معرفة فى قولهم « أرسلها العراك وطلبته جهدك وطاقتك، ورجع عوده على بدئه الى غير ذلك فدل على صحة ما ذهبنا اليه » .

ب - ومن هذه الآراء : أن النحويين يقسمون الافعال الناقصة الى ثلاثة أقسام من حيث التصرف وعدمه ، قسم لا يتصرف مثل ليس ، وقسم يتصرف تصرفاً ناقصاً نحو مازال وأخواتها اذ لا يأتى منها الامر ولا المصدر ويعللون ذلك بعدم دلالتها على الحدث وقسم ثالث يتصرف تصرّفاً تاماً وهو الباقى من الأفعال الناقصة وذلك لمجيء الأمر والمصدر منها ، ويذكرون أن مصدر كان الكون ، والكينونة ، ومصدر أضحى وأمسى وأصبح الاضحاء والامساء والاصباح ومصدر صار الصير والصيرورة ومصدر بات البيات والبيتوتة ، ومصدر ظل الظلول . ثم يضيفون الى ما تقدّم قولهم : وللتصاريف فى هذين القسمين وهما المتصرف التصرف التام والتصرف الناقص ما للماضى من العمل. [٤] ويأتى ابن مالك فينظم هذا المعنى كله فى ألفيته اذ يقول :

وغير ماض مثله قد عملا　　　ان كان غير الماض منه استعملا

---

(١) ص ١٣٢ تحقيق محمد بهجة البيطار ، وشرح التصريح على التوضيح ١/١٨٤

(٢) الموفى فى النحو الكوفى ص ٣٨

(٣) الانصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين تأليف ابن الانبارى النحوى ٢/٤٩٠

(٤) شرح التصريح على التوضيح ١/١٨٦

ويتسابق النحويون فى ايراد شواهدهم على عمل غير الماضى من هذه الافعال عمل الماضى ان كان غير الماضى منها مستعملا فى اللغة ، فجاءوا بقوله تعالى « ويكون الرسول عليكم شهيداً » شاهداً على عمل المضارع من كان وقوله تعالى « كونوا قوامين بالقسط » شاهداً على عمل الامر . وأوردوا قول الشاعر :

وما كل من يبدى البشاشة كائناً أخاك ، اذا لم تلفه لك منجدا

شاهداً على عمل اسم الفاعل . وقول الشاعر :

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى وكونك اياه عليك يسير

دليلا على عمل المصدر عمل فعله وهو كونك ، قال فى التصريح كونك مبتدأ وهو مصدر مضاف الى اسمه وهو كاف المخاطب واياه خبره من جهة نقصانه .

وقد أوردوا غير ذلك من الشواهد مما لا مجال لذكره الآن (١) .

وأنت اذا أمعنت النظر قليلا فيما تقدم تلاحظ فى سهولة ويسر تناقض النحويين مع أنفسهم ، أعنى تناقض أقوالهم فى المسألة الواحدة ، وهل تريد دليلا على هذا التناقض أقوى من جعلهم عدم ورود المصدر والامر من أفعال القسم الثانى دليلا على فقدانها الحدث ، دليلا على نقصانها ، بينما نراهم لا يعدّون مجيء الامر والمصدر من أفعال القسم الثالث دليلا على تمامها ؟ على أنه لو وقف النحويون عند هذا الحدّ ولم يتجاوزوه لهان الامر ولكنهم تعدّوه الى ما هو أغرب من ذلك ، فقد زعموا أن هذه التصاريف التى جاءت من أفعال القسم الثالث هى ناقصة أيضا ، ولذلك فهى تعمل عمل الماضى . وأنا لا أدرى فى هذا المقام ممّ أعجب ، أأعجب من عقلى القاصر الذى لايستسيغ مثل هذا الكلام ، أم أعجب من النحاة الذين أبتكروا هذه القواعد وطلبوا الى الناس أن يتعلموها وأن يؤمنوا بها ؟! أنا اعترف لك أيها القارىء بأننى لا أستطيع أن أفهمها على النحو الذى يريده النحاة ، فظنّ بى ما شئت من الظنون . ولكن ألم يعرّف النحاة المصدر بأنه اللفظ الدال على الحدث مجرداً من الزمان أو بأنه اسم الحدث الجارى على الفعل ؟ نعم ! ألم يقولوا ان اسم الفاعل هو ما اشتق من فعل لمن قام به على معنى الحدوث ، أو انه صفة تؤخذ من الفعل المعلوم ، لتدل على معنى وقع من الموصوف بها ؟

---

(١) المصدر السابق ١/١٨٧ وشرح ابن عقيل ١/٢٣٢ ـ ٢٣٤

بلى ! اذن ما بالهم يتجاهلون كل هذا ويرمون المصدر واسم الفاعل بالنقص ؟ أفلم يتنبهوا الى أن المصدر اذا فقد الدلالة على الحدث لم يبق منه أثر ، والى أن اسم الفاعل اذا اتصف بالنقص لم يبق منه الا الموصوف ؟

ليس من شك عندي في أن مجيء الامر واسم الفاعل والمصدر من هذه الافعال يعدّ دليلا قاطعا على تمامها ، فالفعل الذي يشتقّ من المصدر - على رأي البصريين - أو الذي يشتق منه المصدر - على رأي الكوفيين - يجب أن يكون تاماً لا ناقصاً ، اذ ليس من المعقول أن يأتي فعل ناقص من مصدر أو مصدر من فعل ناقص . ذلك لان المصدر يدل على الحدث دائماً ..

ج - ومن هذه الآراء ما ورد في كتاب (أسرار العربية) لابن الانباري [1] ، من أن بعض النحويين يذهبون الى أن كان وأخواتها حروف وليست أفعالا لانها لا تدل على المصدر ولو كانت أفعالا لكان ينبغي أن تدل على المصدر ولما كانت لا تدل على المصدر دلّ على أنها حروف . ثم أضاف ابن الانباري الى ما تقدّم قوله : والصحيح أنها أفعال وهو مذهب الأكثرين والدليل على ذلك من ثلاثة أوجه : الوجه الأول : انها تلحقها تاء الضمير وألفه وواوه نحو كنت وكانا وكانوا كما تقول قمت وقاما وقاموا وما أشبه ذلك . والوجه الثاني : أنها تلحقها تاء التأنيث الساكنة نحو كانت المرأة كما تقول قامت المرأة وهذه التاء تختصّ بالافعال . والوجه الثالث : انها تتصرف نحو كان يكون وصار يصير وأصبح يصبح وأمسى يمسي ، وكذلك سائرها ما عدا ليس . وأما قولهم انها لا تدل على المصدر ولو كانت أفعالاً لدلت على المصدر قلنا هذا انما يكون في الأفعال الحقيقية ، وهذه الافعال غير حقيقية .

في هذا الكلام مسألتان : الاولى أن كان وأخواتها حروف وليست أفعالا ، والثانية ان كان وأخواتها لا تدل على المصدر . أما المسألة الاولى فقد فنّدها ابن الانباري نفسه بأوجهه الثلاثة المتقدمة . وأما الثانية فقد سبق أن ذكرنا أن النحاة أنفسهم قد اعترفوا صراحة بأنّ لهذه الافعال مصادر ، وأن هذه المصادر تعمل عمل الماضي واستشهدوا على ذلك كما مرّ بنا .. ولكن ماذا يمكن أن يستنتج من هذا كله ؟ أما أنا فأستنتج منه في غير مشقة أن النحاة كثيرا ما يخبطون في بحوثهم خبط عشواء ، فهم ، حين يزعم بعضهم

---

(١) ص ٥٥ طبعة ليدن

أن كان وأخواتها حروف وليست أفعالا ينبرى فريق منهم آخر فيبرهن بما لا مزيد عليه على أن كان وأخواتها أفعال وليست حروفاً ، ولكنهم لا يلبثون على هذه الحال الا قليلا حتى يعاودهم الانحراف أو يخامرهم الداء ـ داء النقص ـ الذى رموا به كان وأخواتها ظلماً وعدواناً فيعتذروا عن عدم ورود المصدر من هذه الافعال بأنه انما يكون ذلك فى الافعال الحقيقية وهذه الافعال غير حقيقية ويعنون بهذا أنها أفعال ناقصة ونسى هؤلاء أو تناسوا أن زملاءهم قد نصوا على وجود مصادر لأكثر هذه الأفعال كما مرّ بنا •• على أننا نريد أن نسلمّ جدلا بأنّ هذه الافعال لا مصادر لها ، فهل يعنى هذا أنها ناقصة حقاً ؟ واذا كان الامر كذلك ، فماذا يقول النحاة فى أفعال المدح والذم ؟ بل ماذا يقولون فى صيغتى التعجّب ؟ أيعدّونها أفعالا تامة أم أفعالا ناقصة ؟ لقد أعربوها اعراب الافعال التامة دون أن يذكروا لنا مصادرها • يضاف الى ما تقدم أننا لم نعرف أن هناك أفعالا حقيقية وأخرى غير حقيقية •

د ـ ومن هذه الآراء ما ورد فى كتاب مغنى اللبيب لابن هشام الانصارى تحت عنوان « هل يتعلقان بالفعل الناقص » وذلك قول المؤلف (١) : « من زعم أنه ـ يعنى الفعل الناقص ـ لا يدل على الحدث منع من ذلك وهم المبرّد فالفارسى فابن جنّى فالجرجاني فابن برهان ثم الشلوبين والصحيح أنها كلها دالة عليه الا ليس • »

وابن هشام الانصارى فيلسوف النحاة يسجل رأيه فى الافعال الناقصة فى هذه العبارة بوضوح اذ يرى أنها تدل على الحدث ولكنه مع ذلك يرى أنها ما تزال ناقصة لسبب بسيط هو أنها لم تكتف بمرفوعها ، وهو رأى طائفة من النحويين أيضا منهم ابن مالك صاحب الألفية الذى قال (٢) : « وذو تمام ما برفع يكتفى • » وقد سبق أن بيّنا زيف هذا الرأي وتفاهته وعدم جدواه • ولكننا مع هذا نسأل ابن هشام وأصحابه فنقول : اذا كانت هذه الافعال دالة على الحدث فمن ذا الذى يقوم بهذا الحدث ، ولمن يسند ياترى ؟ انه مما لا ريب فيه عندى أنّ الاسم المرفوع الذى يلى هذا الفعل جدير بأن يقوم به ، ولهذا فانه من الخطل أن نسمّى هذا الاسم الذى هو مسند اليه لانه قام بالحدث اسماً لكان ولا نسميه فاعلا لكان •

---

(١) ٢/٤٣٦ تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد •

(٢) شرح ابن عقيل على الالفية ١/ ٢٤٠

على أن بعض النحويين قد شعروا بأنهم متعسفون فى آرائهم فأرادوا أن يخففوا من وطأة هذا التعسف فجاءوا بتعريف غريب للأفعال الناقصة اذ قالوا [١] : « هذا باب الافعال الداخلة على المبتدأ والخبر فترفع المبتدأ تشبيهاً بالفاعل ويسمى اسمها حقيقة وفاعلها مجازاً ، وتنصب خبره تشبيهاً بالمفعول ويسمى خبرها حقيقة ومفعولها مجازاً لانها أشبهت الفعل التام المتعدّى لواحد . » ونحن لا نعرف - فيما تعلمنا من النحو - هذا المبتدأ الذى يشبه الفاعل ، ولا هذا الخبر الذى يشبه المفعول ، وانما الذى نعرفه هو أن الجملة العربية امّا أن تكون فعلية مؤلفة من فعل وفاعل ، واما أن تكون اسمية مؤلفة من مبتدأ وخبر . أما هذه الجملة التى يكون فيها الفعل مترجّحاً بين التمام والنقصان ويكون فيها المسند اليه مبتدأ يشبه الفاعل ، وفاعلا يشبه المبتدأ ، أما هذه الجملة التى تكون فى منزلة بين المنزلتين لتنقذ النحاة مما تورّطوا فيه حينما زعموا أن هناك أفعالا ناقصة ، فأمر لا نعرفه كما لا تعرفه قواعد النحو الاولى .

٥ - خاتمة :

لقد أطلت عليك - أيها القارىء الكريم - فى غير حاجة الى التطويل ، فالمسألة أيسر من ذلك بكثير كما يخيل الىّ ، وان كنت فى شك مما نقول فاليك خلاصة رأينا :-

اقرأ هذين التعبيرين بامعان وتدقيق وهما : (جاء زيد راكباً وكان الله عليماً) فهل تجد بينهما فرقاً جوهرياً من حيث الاعراب ؟ ستقول : نعم ، وستعربهما اعراباً تقليدياً ، ستعرب التعبير الاول على أنه فعل وفاعل وحال ، وستعرب الثانى على أنه فعل ناقص واسمه وخبره . سيكون اعرابك على هذا النحو بحكم العادة والمران والدربة . ولكن هل لي أن أطلب اليك أن تقرأ التعبيرين السابقين ثانية بعد أن تحذف منهما الكلمتين الاخيرتين قراءة تدقيق وامعان أيضا ؟ وهل لى أن أطلب اليك مرة أخرى أن تتذوق المعنى وان تتدبره ولكن فى معزل عن الأطار النحوى ؟ ان استجبت لهذا الطلب المتواضع فانك ستجد ، دون شك ، ان التعبيرين يدلاّن على معنى تام ، على معنى يحسن السكوت عليه ؛ فقد أسند المجيء الى زيد فى أولهما كما أسند الكون أو الكينونة الى الله عز وجل فى ثانيهما وفى كلا التعبيرين - كما ترى - توفر ركنا الجملة فى اللغة العربية وهما المسند والمسند اليه .. ثم دعنى اثقل عليك مرة ثالثة فأطلب اليك أن تقرأ التعبيرين

(١) شرح التصريح على التوضيح ١/ ١٨٤

المذكورين بعد أن تعيد اليهما ما حذف منهما . أعنى أن تقرأهما على أصلهما .. ان فعلت ذلك ، فليس من شك فى أنك ستحسّ احساساً عميقاً بأنّ هذين اللفظين الاخيرين (راكباً وعليماً) قد بيّنا هيئة المسند اليه فى هذين التعبيرين ، والمسند اليه فيهما ، كما رأيت ، هو الفاعل لتقدم الفعل على المسند اليه ، أريد أن أقول انك ستضطر الى القول بأنهما لايمكن أن يكونا الاّ حالين وانك ستؤمن ان عاجلاً أو آجلاً بأن اعراب (عليماً) حالاً من لفظ الجلالة فى هذا الموضع أجدى وأليق بالمعنى المقصود من اعرابها خبراً لكان على الطريقة التقليدية ، ذلك لان اعراب (عليماً) خبراً لكان يعنى وصفه تعالى بالعلم فى الزمن الماضى باعتبار (كان) لفظاً دالا على الزمان فقط كما يزعم النحويون بينما المقصود فى هذا التعبير وصفه تعالى بالعلم بوقوع أو حصول شىء معين فى وقت معين مثلا ، وهذا معنى لايؤدى بغير الحال . وقد عبرّ عن ذلك الامام الرضى بالكون المخصوص الذى يحصل فى نطاق الكون المطلق الذى يستفاد من كان .

أما المفسّرون فقد شعروا بما يصيب معنى الآيات الكريمة من افساد اذا هم تابعوا النحويين فى زعمهم انّ كان خالية من الحدث وانها دالة على الزمان فقط ولذلك نراهم ينصّون على أن لها معنى بل معانى ذكروها بالتفصيل . لقد قال السيوطى [١] : وتأتى (كان) بمعنى الدوام والاستمرار نحو وكان الله غفوراً رحيماً ، وكنا بكل شىء عالمين اى لم نزل كذلك . وعلى هذا المعنى تتخرج جميع الصفات الذاتية المقترنة بكان .

وقال أبو بكر الرازى [٢] : « كان فى القرآن على خمسة أوجه : بمعنى الازل والأبد كقولـه وكان الله عليماً حكيماً ، وبمعنى المضى المنقطع وهو الأصـل فى معناها نحو وكان فى المدينة تسعة رهط ، وبمعنى الحال نحو كنتم خير أمة ، انّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، وبمعنى الاستقبال نحو يخافون يوماً كان شرّه مستطيراً ، وبمعنى صار نحو وكان من الكافرين . »

ماذا ترى فى هذين النصّين ؟ ألا يشيران الى أنّ كان تدل على الدوام والاستمرار والأزل والأبد والصيرورة ؟ أليس كل اولئك معانى لاتخرج عن نطاق الكون والكينونة والوجود والحصول والوقوع ونحوها ؟ لاريب عندى فى أن الجواب نعم ! ...

---

(١) و (٢) الاتقـان ١/١٦٨

ولعلك بعد هذا كله قد ادركت أننى أذهب الى أن كان وأخواتها هى أفعال تامة قاصرة تسند الى الفاعل فقط كقوله تعالى : وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة . وقد يؤتى بعد فاعلها بمنصوب هو وصف فضلة يبين هيئة الفاعل ولا يمكن أن يعرب الا حالا .

وبعد ، لقد شغل النحاة أنفسهم بهذا النحو كما شغلوا الناس به مئات من السنين وسيشغلونهم به مئات أخرى اذا لم يتهيأ له من يعيد النظر فى أبوابه وقواعده وأحكامه وعلله لاختصارها وتيسيرها لجعله أداة نافعة للدارسين الذين يهمهم من النحو أن يقرأوا وان يكتبوا على وجه صحيح . ومن هنا نقول : لقد آن لهذا الليل البهيم أن ينجلي عن هؤلاء الصبية والصبايا فى حجرات الدرس ، كما آن للذين كتب عليهم السرى فى هذا الليل البهيم الطويل أن يستريحوا من وعثاء الطريق قليلا ...

النفط

الدكتور جابر الشكرى
رئيس قسم الكيمياء

النفط احد المواد البيوتيمينية التى توجد فى الطبيعة بأشكال مختلفة ، فقد تكون هذه المواد صلبة كالقار (او القير) او سائله كالنفط او غازيه كالغازات الطبيعية (وتسمى الغازات الارضية ايضا) • ولقد اطلق اسم « القطران Tar » « او المواد البيوتيمينية الاصطناعية » على المواد التى تحضر من مختلف أنواع الفحم او الخشب او من بقايا تقطير المواد الطبيعية او الاصطناعية •

لقد استعمل « بلينيوس » كلمة بيوتيمين "Butemen" لاول مرة سنة ٧٩ ق٠م٠ ووضحها « أردمان » حسب الاصطلاح اللاتينى "pix tumen" ومعناها أمواج الزفت •

نبذة تاريخية :

النفط معروف منذ زمن قديم جدا ، فقد ورد فى الاخبار التاريخية القديمة ذكر استعمال الزيوت الأرضية السائلة فى التدفئة والاضاءة والوقود ، كما ذكر استعمال القار فى البناء (ملاط البيوتيمين) • وقبل ٥٠٠٠ سنة استعمله المصريون القدماء فى التحنيط ، حتى ان كلمة مومياء Mum مأخوذة من موم Mumie ومعناها الزفت الارضى • ويقال ان « هيرودتس ـ ٤٥٠ ق٠م » نوه فى كتابه عن وجود بئر للنفط فى ضواحى قرية « سوسا » قرب مدينة دسبول فى ايران • ويذكر ان بعض أقسام جدران مدينة بابل بنيت بملاط البيوتيمين الايرانى المستخرج من قرية السوس •

وقد دلت الاكتشافات الاثرية الحديثة فى العراق على ان سكان وادى الرافدين استعملوا القار منذ عصور ما قبل التاريخ فاستعملوه مثلاً فى صنع مناجل الصوان بتثبيت أحجار صوانية محددة بأطار مقوس من القير وبهذه الطريقة صنعوا آلاتهم التى استعملوها للحصد قبل استعمال المعادن • وقد اكتشفت مثل هذه المناجل فى موقع حسونة قرب الموصل وفى جرمو قرب جمجمال ، وتوجد فى المتحف العراقى مناجل مختلفة الاشكال من هذا الطراز • كما أن سكان وادى الرافدين استعملوه فى العصور التاريخية

على هيأة ملاط في بناء قصورهم وسفنهم كما يلاحظ الان في خرائب بابل وكما يروى هيرودتس ٠

ان المواقع التى كانوا يستخرجون منها النفط هى فى مدينة هيت ومن الطريف ذكره ان الاسم هيت معناه فى اللغة السومرية والبابلية « قير » فورد ذكرها بصيغة تقرب من العربية « أدو » وسميت هيت فى العصور الرومانية واليونانية باسم « أيس » على انه من المرجح أيضا ان القير جلب من محلات اخرى عدا هيت ، بعضه من العراق والبعض الآخر من خارج العراق ٠ ولعل السبب فى ذلك هو جودة هذا النوع لنقائه مثلا وصلاحه فى البناء ٠

أما فى مناطق كركوك فلا يعرف بالضبط هل استعمل العراقيون القدماء النفط فى الاضاءة والوقود ، ولكن لا يستبعد انهم عرفوا ذلك قياسا على ما نعرفه من قدم النار الازلية المشهورة فى منطقة بابا كركر ٠ مع أن المراجع القديمة تشير الى ان النفط فى كركوك كان يتدفق على سطح الارض رأسا او بعد حفر بسيط ، ونعرف ايضا أن عائلات قديمة النسب كانت تستثمر النفط بجمعه من مناطقه قبل استثماره بالطرق العلمية على ايدى الشركات الحالية ٠

وفى حوالى ١٠٠٠ سنة ق٠م٠ بنى الفنيقيون قواربهم المدورة بالقار ، ويذكر أن الصينيين قد حفروا آبارا للنفط سنة ٢٢١ ق٠م٠ وفى اليابان وجدت اول بئر سنة ٦٦٨ ب٠م٠ ومن المعلوم ايضا ان الكبائر النفطية استعملت فعلا لحرق القسطنطينية ٠ ويذكر ماركو بولو سنة ١٢٧١ - ١٢٩٥ أن النفط كان يشحن بالسفن من بلاد أرمينيا الى بغداد لاستعماله دواء ٠ وفى سنة ١٥٢٧ علم بوجود القير فى بيرو ، واستعمله الهنود الحمر فى بناء الشوارع ٠ وفى سنة ١٦٢٧ اكتشفت اول بئر للنفط فى أمريكا فى ولاية نيويورك٠ ويقال أن أول عمليات التصفية اجريت فى روسيا سنة ١٧٣٥ ، وفى امريكا سنة ١٨٥٩، حيث أسس « دراك Drake » معملا لتقطير النفط قرب مدينة تيتوس فيل فى مقاطعة بنسلفانيا ، وكان النفط يستخرج من باطن الارض بحفر الآبار حفرا بسيطا ، ولا تزال مؤسسة دراك قائمة فى الوقت الحاضر وتعتبر من أهم المؤسسات العالمية ٠ ثم تأسست معامل اخرى فى أمريكا وغيرها من البلدان وكان عمل جميع هذه المؤسسات يقتصر على انتاج نفط الاضاءة « الكيروسين » فقط ٠

وبين سنة ١٨٨٥ - ١٩٠٠ استعملت زيوت التشحيم المعدنية بدلا من الـزيوت النباتية ،ثم أعقب ذلك استعمال البنزين وأصبح منذ سنة ١٩١٥ أهم منتوج من نواتج تكرير النفط الخام •

ففى سنة ١٩١٢ وضع تصـميم أول سـفينة حربية هى « الملكة اليزابيث » بحيث تستخدم النفط بدلا من الفحم • ولما زاد استعمال الآلات الميكانيكية أصبح من الضرورى أن تكون كمية الوقود مناسبة لزيادة الآلات ، فلا مكائن بدون وقود ولا جدوى للوقود بدون المكائن ، ولهذا السبب بحث كثيرا لانتاج اكبر كمية من البنزين ، وأخيرا توفقت اليد الصناعية الكيميائية الى ايجاد طريقة السحق بالحرارة والضغط Cracking فالحاجة ام الاختراع ، وبهذه الطريقة يمكن انتاج كميات كبيرة من البنزين من بقـايا تقطير النفط الخام زيادة على ما هو موجود فيه • وبعد نجاح هذا الاختراع بنيت اجهزة تقطير جبارة (أى معامل التصفية) للحصول على مختلف منتوجات النفط • ومنـــذ سنة ١٩٢٥ تقدمت الصناعة فى انتاج زيوت التشحيم بتقطير بقايا النفط ، وفى هذه الفترة من الزمن وجد العالم (أدليانو) طرقا جديدة لانتاج مواد التشحيم بأستعمال مذيبات معينـة • ومن سنة ١٩٢٩ اخذت الصناعة تبحث عن ايجاد مواد وقودية شديدة الحرارة فتيسر لها ذلك ، وبعد البحث العلمى الدقيق أمكن تحويل المواد النفطية الرخيصة الى بنزين وذلك بطريقة (التحويل بالحرارة والضغط - (Reforming) وكذلك طرق الهدرجة بالضغط العالى وغيرها •

وبعد الحرب العالمية الثانية أخذ العلم يبحث فى وسائل لاستعمال الذرة فى الاغراض السلمية ، فبنيت محطات القوة الكهربائية وبنيت السفن التى تعتمد فى وقودها على الذرة لا على الزيوت ، ومما لاشك فيه أن العالم بأسره متجه الى استعمال الذرة كمصدر للطاقة وهى بدون منازع طاقة جبارة بيد العقل البشرى يستطيع تسييرها الى الشر أو الى الخير • فاذا سيرها الى الشر هلك العالم ولا يعرف ماذا سيكون المصير واذا سيرها الى الخير فيسود العالم الاطمئنان ويذهب الذعر من النفوس وتصبح الذرة حبيبة لكل مخلوق عدا أهـل النفط ، والمستقبل يرينا ما لم نره من قبل •

تكون النفط :

لقد بحث الكيميائيون والفيزيائيون والجيولوجيون عن كيفية تكون النفط ، فأستطاع الكيميائيون فى مختبرهم تحضير مواد هيدروكاربونية تشبه النفط وكانت موادهم الاولية

عضوية وغير عضوية (أى من اصل حى ومعدنى) وتوجد آراء ونظريات عدة حول تكون النفط فى الطبيعة ، ولم يصل البحث العلمى لحد الآن الى شىء جازم حول هـــذا الموضوع • ونشرح أهم النظريات التى جاءت بهذا الصدد •

اولا ــ تكون النفط من أصل معدنى :ــ

كانت فرضية العالم ــ مندليف ــ تشير الى أن المركبـات الهيدروكاربونية النفطية تتكون فى باطن الارض من تأثير بخار الماء الساخن على كاربيدات المعادن ، وتتم هـــذه التفاعلات بتأثير الحرارة وعوامل مساعدة (Catalysators) وقد حضر العـالم « موازان »غاز الميثان CH_4 ــ وهو الغاز الاساسى بين غازات النفط ــ من معاملـة كاربيد الالومنيوم مع الماء •

$$Al_4C_3 + 12H_2O \longrightarrow 4Al(OH)_3 + 3CH_4$$

أما اذا عومل كاربيد الكالسيوم مع الماء فينتج الاستيلين

$$CaC_2 + 2H_2O \longrightarrow CH \equiv CH + Ca(OH)_2$$

واذا عوملت كاربيدات المعادن الثقيلة مثل كاربيد الاورانيوم والبريليوم والثوريوم وغيرها ، فقد تنتج مواد هيدروكاربونية سائلة بالاضافة الى الهيدروكاربونات الغازيـة العاليـة •

وحسب التجارب التى اجراها العلماء أمثال V. Wilde, Senderens, Sabatrier توصل الى أن المركبـــات الهيدروكاربونية تتكون من هدرجـــة الاسيتيلين بوجــود عوامل مساعدة كمساحيق النيكل أو النحاس • فاذا عومل الاسيتيلين مثلا بالهيدروجين بوجود عامل مساعد يتكون الايثان ، اذا كانت كمية الهيدروجين كبيرة ، وغاز الاثيلين اذا كانت كمية الهيدروجين قليلة :ــ

$$CH \equiv CH + 4H \longrightarrow CH_3 - CH_3$$ ايثان

$$CH \equiv CH + 2H \longrightarrow CH_2 = CH_2$$ أثيلين
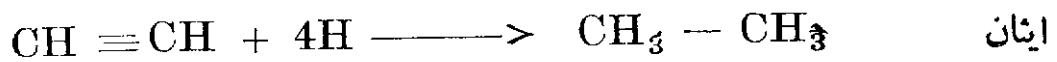
ان نظرية الكاربيدات فى تكون النفط لا تلاقى اليوم تشجيعا كبيرا للاسباب التالية :ــ

١ ــ لو فرض ان النفط قد تكونمن الكاربيدات لعثر حتما فى الاحجار النفطية على

أثر لهذه المواد (أى الكاربيدات) فلا يدل الفحص الجيولوجى على وجود كاربيد فى الاحجار النفطية ، ولكن مع ذلك قد تكون هذه المواد موجودة فعلا ولكنها تفاعلت مع الماء الموجود فى باطن الارض حيث توجد الحرارة الكافية لسير هذا التفاعل ، ولكن فى هذه الحالة يجب أن يكون غاز الهيدروجين أحدى المواد الناتجة ، وهذا الغاز - أى الهيدروجين - غير موجود عمليا فى غازات النفط أو فى المناطق الغازية •

٢ - لقد دلت الفحوص الدقيقة للنفط على وجود مواد كيميائية عضوية معقدة التركيب ذات أوزان جزيئية عالية مثل الهرمونات (وهى افرازات الغدد الداخلية فى الحيوان) والهمين (المادة الحمراء فى الدم) والكلوروفيل (المادة الخضراء فى النباتات) وبعض هذه المواد لها فعالية بصرية - Optic active - وتحتوى على عنصر النتروجين • ان هذه المواد العضوية المعقدة لا يمكن أن تتكون بالطريقة البسيطة المارة الذكر (طريقة الكاربيد) وانما تتكون بطرق بيولوجية داخل جسم حى (حيوانى او نباتى) •

ثانيا - تكون النفط من أصل غير معدنى :-

١ - لقد افترض العالم هوفر Höfer ان النفط قد تكون من أصل حيوانى ونباتى ، مثلا من زيوت شجيرات بعض الاشنات - شجيرات الالجى Fettalgen وهذه الاشنات صنف خاص من نباتات صغيرة الحجم غير مزهرة - يحوى هذا الصنف اكثر من ٥٠٠٠ نوع - فيتكون النفط من تحطيم هذه النباتات المطمورة فى باطن الارض بفعل بيولوجى - أى بواسطة الانزيمات والفرمنتات - والظاهر أن عملية تكون النفط تتم بدون الحاجة الى حرارة وضغط عاليين ، وانما الانزيمات والفرمنتات هى العامل الاساسى لذلك • ان النباتات الموجودة فى باطن الارض لا تكون عرضة للتفسخ وذلك لعدم وصول الهواء اليها - أى الاوكسجين - وان نواتج تحطيم هذه المواد العضوية تسيب الى خلايا الاحجار المسامية المترسبة فى باطن الارض مثل الاحجار الرملية والكلسية •

ويظن من الوجهة الجيولوجية ان هذه المناطق الحجرية قد غطيت بطبقات من التربة - مثل الطين - فتكونت عليها طبقات أرضية وقائية • وبهذه الصورة تكون ما يسمى بـ « المناطق النفطية الاولية » ومن هذه المناطق يتسرب النفط « يصطلح بالكلمة

Migration أي يهاجر » خلال الثقوب والشقوق الارضية الى مناطق أخرى تسمى « المناطق النفطية الثانوية » • ان هذه المناطق تحتوى على خلايا ذات حجوم كبيرة • ويعتقد هوفر ان وجود المياه الملحية مع النفط يشير الى وجود بحيرات ضحلة المياه يستقر فيها النفط • ويبين الجدول التالى كيفية تحول المواد البيوتيمينية القديمة الى النفط ـ حسب افتراض هوفر ـ

الشحوم الحيوانيــة والحوامض الشحمية تتحول الى أقدم الزيوت الارضية ومــواد نفطيــة معقدة التركيب ومواد نفتينية واولفينات معقدة تتحول الى زيوت نفتينية تتحول الى مــواد شبيهة بالنفط وزيوت نفتينية ـ ميثانية تتحول الى زيوت ميثنية وزيوت برافينيــة (أى المواد النفطية)

٢ ـ يفترض العالم أنكلر " Engler " أن النفط قد تكون من جراء تفسخ وتعفن مواد شحمية حيوانية ونباتية ، وان تحول هذه المواد الى نفط قد جرى تحت ضغوط وشروط وأدوار مختلفة الامر الذى أدى الى وجود الانواع المختلفة من النفط ، وأن تحطيم الشحوم يجب أن يكون بتأثير الفرمنتات وبوجود الماء • ولقد برهن انكلر على فرضيته هذه بتجارب اجراها فى المختبر على تحطيم بقايا الاسماك بالضغط والحرارة ، فقد حصل على زيوت تشبه النفط •

يظهر لنـا أن هوفر وأنكلر يتفقان فى الرأى حول تكون النفط من أصل عضوى (أى من اصل حيوانى ونباتى) • ان نظرية هوفر ـ انكلر ـ هى النظرية الكلاسيكية وهى مقبولة فى الوقت الحاضر وتدعم النظرية البيولوجية وهى النظرية المتفق عليها لحد الآن •

ثالثا ـ تكون النفط بيولوجيا :ـ

ذكرنا سابقا أن النفط يحتوى على بعض المواد الكيميائية العضوية المعقدة التركيب ، **ووجود هــذه المواد فى النفط يدل دلالة قاطعة انه قد تكون من أصل حي ، وهـذه** الكائنات الحية التى تأتى بالدرجة الاولى هى شجيرات الالجى Fettalgen

وحيوانات عائمة صغيرة وحيوانات سباحة ذات قشور صدفية أو كلسية (الفورا مينيفرا)

شـــكل (١)

ويرى كثير من العلماء أمثال بوتونيه وبومبكى وفزموند وغيرهم أن بقاء المواد العضوية المطمورة فى باطن الارض يعود الى كمية الاوكسجين المذاب فى الماء • فاذا كانت نسبة الاوكسجين فى المياه المترسبة عالية تحصل اكسدة تامة فى المواد العضوية (أى تتعفن) ، وتبقى المواد غير العضوية التى كانت فى الجسم الحى ، ويتكون من جراء ذلك المترسبات المعدنية ، مثل المترسبات الكلسية وهى _ أول أنواع المترسبات _ • واذا كانت نسبة الاوكسجين فى المياه قليلة يبقى قسم كبير من بقايا المواد العضوية محافظا على جوهره وتتولد فى هذه الطبقات المترسبةحيوانات ارضية متحركة مثل الديدان وآكلات الطين • وهذه الحيوانات الصغيرة تقوم بتغيير بقايا المواد العضوية • ان المواد الناتجة من هذه التغيرات تتحد مع بقايا المواد العضوية مكونة نوعا ثانيا من المترسبات تعرف باسم كيتيا ''Gyttya'' كلمة سويدية الاصل « وهو النوع الثانى من

المترسبات ، وفيها توجد مواد غير عضوية ومتحجرات عضوية ايضا • ويعرف هذا النوع من المترسبات بأسم « احجار الاوحال المتفسخة »

اما اذا كانت المياه لا تحتوى على الاوكسجين فالمواد العضوية تتفسخ ويتكون من زلالها كبريتيد الهيدروجين H_2S ، وهذا لا يساعد على بقاء الكائنات الحيوانية المتواضعة ، بل يساعد فقط على بقاء البكتريات الكبريتية Anaerobe وهى لا تعيش على الاوكسجين • وبهذه الصورة يتكون نوع ثالث من المترسبات يعرف بأسم (الاوحال المتفسخة أو المتعفنة Sapropel مأخوذة من كلمتين Supros بمعنى متفسخ أو متعفن و Pelos بمعنى وحل) • وهذا النوع من المترسبات هو آخر نوع ، وتكون هذه الاوحال أم الاحجار النفطية وتحتوى فى الغالب على المعادن المعروفة كالنيكل والنحاس والفناديوم والموليبدينيوم • ويستدل من نتائج فحوص المياه المرافقة للنفط على وجود الاوحال المتفسخة •

مما سبق شرحه ومن التحليلات الكيميائية ومن دراسة خواص المياه المرافقة للنفط يستنتج أن النفط ناتج لتفسخ الاوحال المترسبة البحرية • ان الاجزاء الناتجة من تحطيم بقايا المواد العضوية وبتأثير من البكتريات عليها لاتكون فى تعادل جيولوجى منتظم ، بل تتحد مع بعضها مكونة مواد أخرى قابلة للتحطيم ، وهذه الافعال تتم بدرجة حرارة أقل من ٢٠٠ درجة مئوية وتحت ضغط يتراوح بين ٥٠٠ الى ١٠٠٠ ضغط جوى ، لان بعض المواد العضوية تتحطم فوق درجة ٢٠٠ مئوية ، وهذه المواد الناتجة تكون متجانسة نوعما ويمكن اعتبارها البيوتيمين القديم ، ثم يقع على هذه البيوتيمينات تغيرات اخرى كما جاء فى نظرية هوفر ـ أنكلر ، وذلك بوجود عوامل مساعدة وبتأثير من الاوكسجين على المياه وغير ذلك من العوامل المؤثرة • نتيجة لهذه التغيرات تتكون المواد النفطية •

FORMATION OF OIL-BEARING SEDIMENT
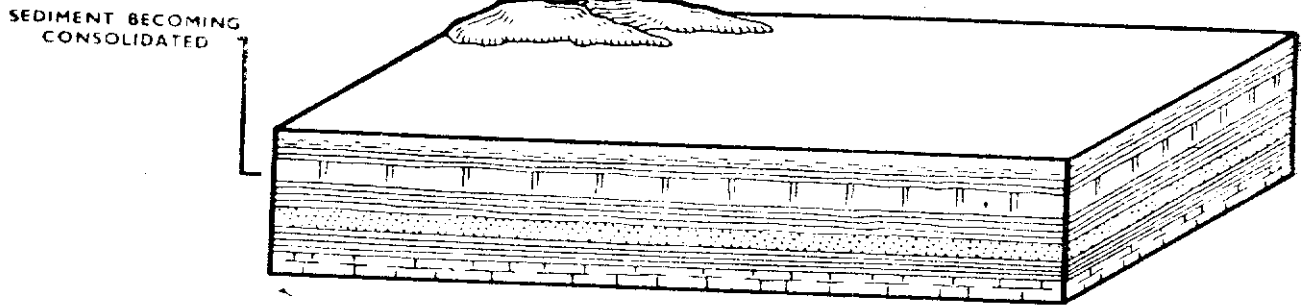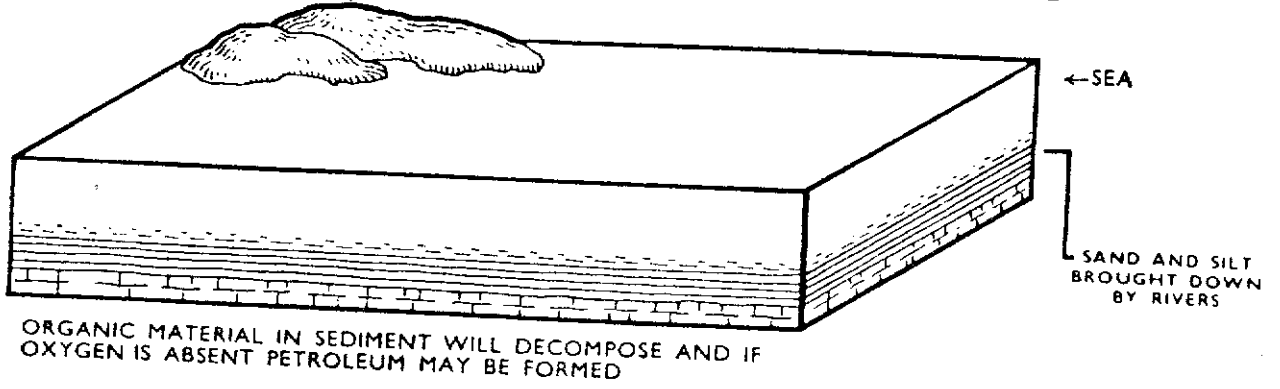
BUCKLING OF THE EARTH'S CRUST
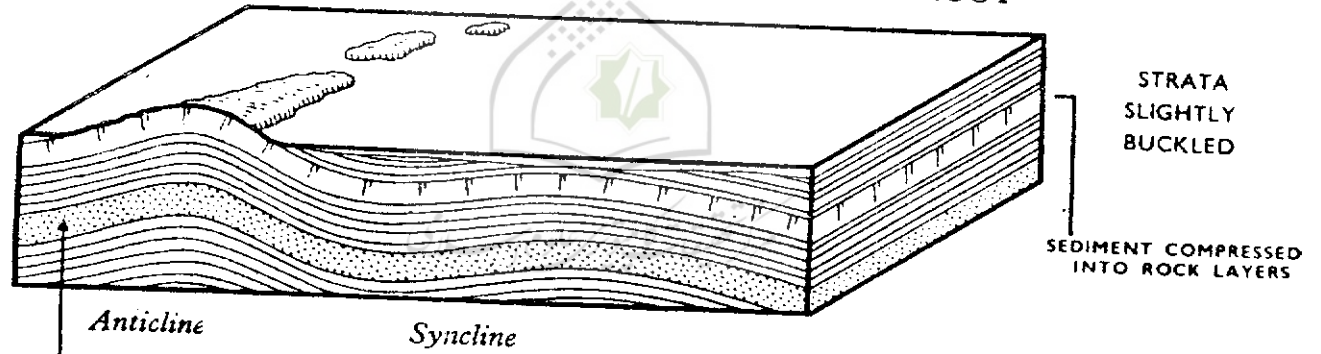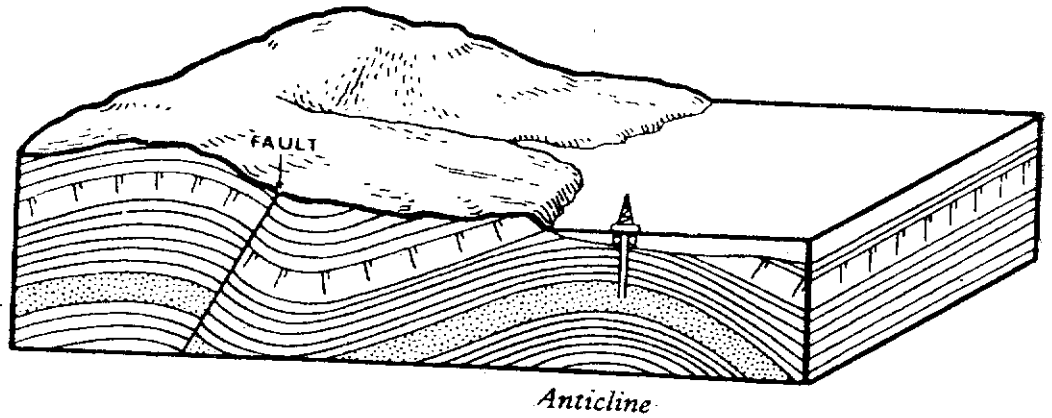
How oil came to be formed by the decomposition of organic material in prehistoric oceans. Buckling of the original layers of sediment has resulted in oil deposits becoming trapped. By studying geological formations oil engineers learn where such deposits may be found.

شكل (٢)

يظهر فى الشكل الاول والثانى كيفية تكون الطبقات الرسوبية . يوضح الشكل الثالث تكون المرتفعات والمنخفضات اما الشكل الرابع فيظهر فيه مرتفع وشق . (النفط مؤشر بنقاط) .

جيولوجية النفط :

يخبأ النفط فى باطن الارض بين طبقات مستوية أو بين طبقـات حجرية ، وتعرف هذه المخابىء بأسم « المناطق الاولية ـ ''Source Rock'' » وقد يتسرب خلال تجاويف الطبقات المسامية والشقوق الارضية ويستقر فى مخابىء أخرى تعرف بالمناطق أو المحلات الثانوية ، ويصطلح عليها بأسم « مصائد او محاجر ''Traps'' » • ويتم تسرب النفـط بمساعدة ثقل الطبقات الارضية عليه او بتأثير ضغط الغازات الارضية الموجودة فى مناطقه • وتكون محاجر النفط على اشكال مختلفة تتكون بعوامل جيولوجية معينة وأهم هـــذه المحاجر هى :ـ

القبـــب :

تتكون القبب (جمع قبه) حسب نظرية تكون الالتواآت والمرتفعات شكل (٢) ''Anticline Theory'' فاذا صادف أن تسرب النفط من مناطقه الاولية الى محل آخر صلب الجوانب ، ثم حصل تغير جيولوجى فى هذا المحل وأحدودب من جراء هذا التغير فانـه يكون قبة ارضية ، وفى هذه الحالة تصعد الغازات وتليها السوائل فوق سطح القبةوتعلق عليها وتبقى المياه المرافقة للنفط فى أسفل جوانب القبـة لان الغازات أخف من النغط ، والنغط أخف من الماء • وبهذه الصورة تحتضن القبب النفط بين جوانبها ولا تدع المجال له للتسرب مرة ثانيـــة ، فينحصر بين المـــاء من الاسفل وبين جوانب القبـــة الصلدة من الاطراف وبين الغازات من الاعلى • وليس له مهرب الا من فوق القبة ـ ان أمكن له ذلك ـ ولكن سقف القبة قوى محكم مغطى بالصخور او التراب ، وبهذه الحالة لامجال لهروب النفط من مخبئه هذا الا بعد ايجاد منفذ له يهرب منه ، أى بعد حفـــر البئر • وعمليا نشاهد بعد الحفر خروج الغازات اولا ثم النفط • وتختلف اعماق الحفر بأختلاف عمق القبة من سطح الارض ، كما يشاهد فى اثناء الحفر طبيعة التربة التى غطت مخـابىء النفط • ان القبب هى أهم المخابىء النفطية وأكثرها دراسة ، والجيولوجى يعرف عمليـا ظواهرها فى المناطق النفطية ، فشكل القشرة الارضية الخارجى فى مثل هذه المناطـــق محدودب أو ملتو او قريب من ذلك •

الشقوق والفوالق :

قد يحصل تأثير جيولوجي على مناطق النفط الاولية فيؤدى هذا مثلا الى شـق الطبقات الارضية الى شقين بحيث يرتفع اولهما وينخفض الاخر ، ونتيجة لذلك يتغير ترتيب الطبقات المسامية والتجاويف الارضية • فاذا صادف ان وقفت أمام النفط طبقة صلده منعته من التسرب وبقى فى محله وكون له مخبئا يستقر فيه •

ان هذه الشقوق المؤدية الى رفع قسم من سطح الارض وخفض القسم الآخر قد لا ترى على سطح الارض بوضوح ، فقد تزيلها بممر الاعوام عوامل التعرية ، ولكنها تبقى فى باطن الارض ويعرفها الجيولوجى من اختلاف الطبقات الارضية •

البحيرات :

اذا صادف ان تجمعت الرواسب النفطية فى مناطق مستوية مثلا ، فتتكون من جراء ذلك البحيرات • وطبيعى ان عمق البحيرة يزداد كلما دخلنا الى وسطها ويقل كلما اقتربنا من الساحل حتى يتلاشى العمق • كذلك الامر فى الرواسب النفطية فالطبقات المترسبة تكون عميقة فى وسط البحيرة ويقل العمق كلما اقتربت من اطـراف المحجر ـ أى البحيرة • فاذا تكلست هذه الاطراف بسبب كثرة الرواسب وعوامل اخرى غيرها ، كونت حاجزا يحول دون تسرب نواتج الرواسب ـ أى النفط ـ الى خارج البحيرة • ويستقر فى محله وتتكون فى الاخير البحيرات النفطية •

ان معرفة مخابىء النفط من الامور الصعبة جدا ، فلا تدل كل قبة على وجوده ولا كل شق او بحيرة • وهذا الامر منوط بالجيولوجى ، فقد لا يرى له أثرا فى القبب ، اذ قد تتكون هذه بتأثير عوامل جيولوجية لا علاقة للنفط فيها مطلقا • ان الجيولوجى حريص كل الحرص على معرفة وجود النفط قبل البدء فى الحفر عليه ، ومع ذلك فقد يخطىء فى حفر البئر • شكل **(٣ ، ٤)**

والمناطق التى يندر وجود النفط فيها هى الجبال والمناطق الارضية المنخفضة بتأثير الضغط « ''Depression'' » ولا وجود له الا فى الطبقات الرسوبية •

تحتوى جميع اصناف الاحجار النفطية على مسامات وخلايا ، وهذا يبرهن على أن النفط لايمكن ان يوجد الا فى الاحجار المسامية ، اذ لا وجود له مطلقا فى الاحجار ذات الطبيعة البركانية او الاحجار المتبلورة • والمناطق النفطية تكون فى الغالب رملية أو

أرض غنية بالنفط شكل (٣)

OIL TRAPS

Fault trap
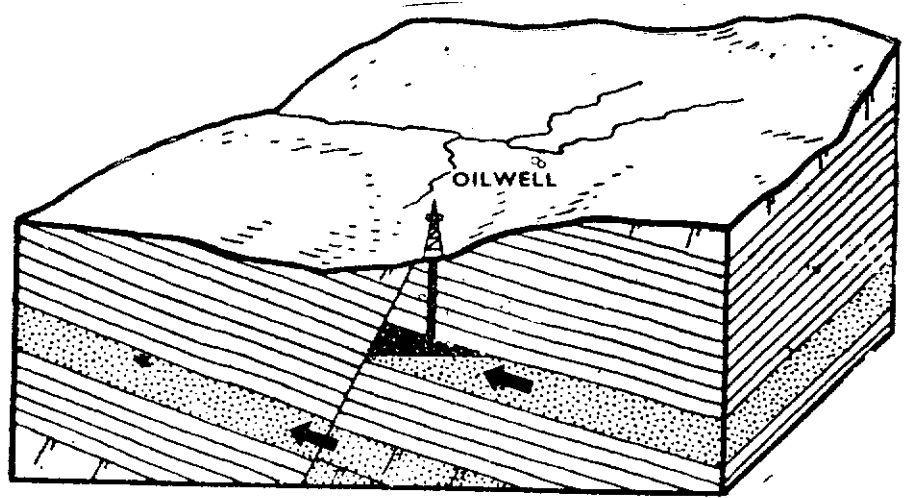
Stratigraphical trap
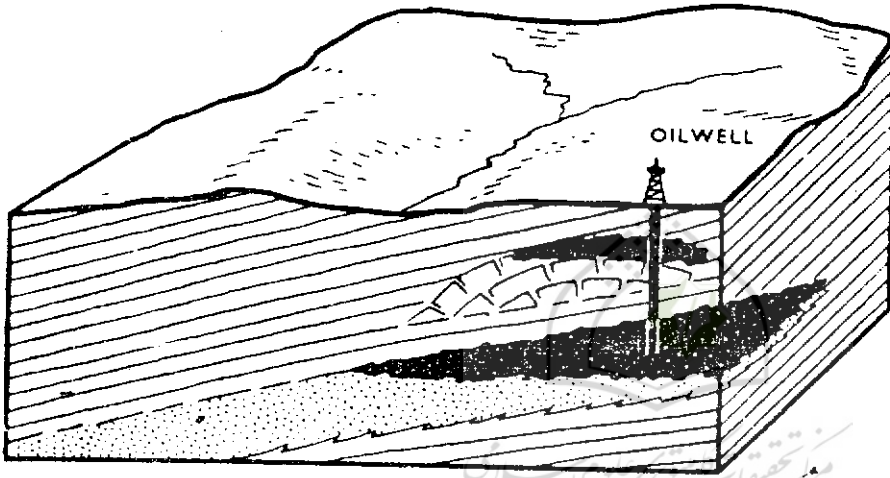
Unconformity trap
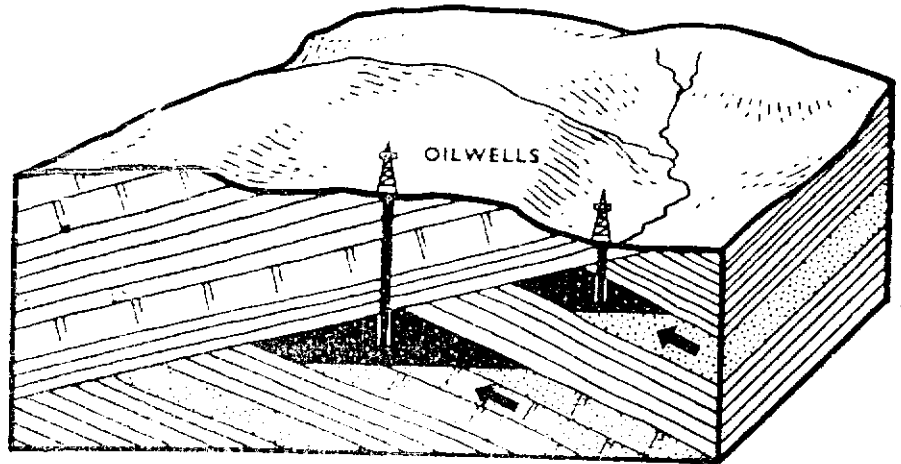
Any suitable barrier in the path of migrating oil and water, apart from anticlines, can concentrate oil, providing an adequate seal is present. Some of the more common types of traps are illustrated above.

محاجر النفط شكل (٤)

حجرية رمليـــة أو كلسية • ويبلغ حجم المسامات والخلايا المخزون فيها النفـط فى الاحجار الرملية حوالى ٤٠٪ من الحجم الكلى ، أما فى الاحجار المتبلورة فلا يزيد عـلى كسور الواحد •

تعتمد معرفة كمية النفط فى منطقة ما على تقرير أمور كثيرة ، منها حجـم ونوع المسامات والخلايا فى احجار تلك المنطقة وكذلك درجة التشبع أى مقدار كمية النفط فى الحجارة ، ودرجة التمدد السطحى وصلابة الحجارة وغيرها من التحاليل الجيولوجيـــة البحت •

يوجد النفط فى جميع الادوار الجيولوجية تقريبا ما عدا الادوار اللاحياتية والحمم البركانية القديمة (Archaicum, Eozoicum, pri Cambrium) فهذه الادوار خالية عمليـا من المتخلفات العضوية أو على الاقل خاليـة من العضويات التى هى مصدر للنفط •

ان النفط موجود فى أماكن كثيرة من الكرة الارضية ، ولكن كميـــاته تختلف بأختلاف الاماكن والمناطق ولا تركز جهود البحث عنه الا بعد احتمال وجوده بكميات يمكن الاستفادة منها تجاريا • وقد اصبح من المؤكد الان انه كلما بحث عنه فى اعمـاق أكثر أمكن الحصول على مناطق نفطية جديدة ، سواء كان الحفر على اليابســة او تحت اعماق البحار •

المناطق النفطية المهمة فى العالم (وهى فى تزايد مستمر)

١ ـ القارة الامريكية : الولايات المتحدة ، فنزويلا ، المكسيك ، بيرو ، الارجنتين •
٢ ـ اسيا الغربية : اقليم القوقاس ، البلاد العربية ، ايران •
٣ ـ شمال أفريقيا •
٤ ـ رومانيا •

لقد بلغ انتاج العالم من النفط منذ استخراجه بنطاق تجارى حتى ابتداء سنة ١٩٥٠ حوالى ٦٠٠ ألف مليون برميل ، وكان الاحتياطى منه لنفس المدة ٨٠ ألف مليون •

التفتيش عن النفط واستخراجه

هناك ظواهر عدة يستدل بها على وجود النفط فى منطقة ما ، وتكون هذه أما مرئية للعيان او مخفية ، فمن الامور الواضحة التى يستند عليها هى المنابع النفطية او ما يسمى ب « قبور القطران » ، فقد ينضح النفط على سطح الارض رأسا ، كما عرف سابقا فى مناطق كركوك ومسجد سليمان بأيران • ومن الامور الظاهرة ايضا مناطق القار والمحلات التى تخرج منها الغازات الطبيعية • وفى مثل هذه المناطق يحدد الجيولوجى أحسن نقطة يحفر فيها البئر ليستخرج منها النفط •

وقد يكشف الجيولوجي منطقة معينة لايدل مظهرها على أنها منطقة غزيرة النفط ، اذ لا توجد فيها علائم له ، ولكن الجيولوجى يستطيع تحديد منطقة التعاريج الارضية والفواصل بين هذه التعاريج - أى الشقوق او الفوالق - • وقد تكون هـذه التعاريج واضحة ايضا فيسهل العمل ، او قد تكون مغطاة بالرمال والتراب ، فمن يعتقد ان الصحراء تكون فى يوم من الايام من اهم مناطق النفط فى العالم ، كما هو الحال فى الصحـراء العربيـة والبصرة والكويت وكذلك فى صحارى شمال افريقيا (الجزائر - ليبيا •••) وغيرها من مناطق العالم •

وهناك طرق علمية كثيرة لمعرفة مناطق النفط وهى سائرة فى تقـدم وتحسن ، فالطريقة التى استعملها الجيولوجيون قبل ثلاثين سنة مثلا تختلف نوعا ما عن الطـرق المتبعة فى الوقت الحاضر • والكشف عن مناطق النفط من الامور الصعبة جدا ، ويستلزم جهودا وأمـوالا طائلة • وأهم الطـرق المتبعـة فى الوقت الحاضر هى طرق القيـاسات الفيزيائية - الجيولوجية "Geophisical" وامثلة ذلك القياسات بواسطة الميـزان الدوار والقياسات المغناطيسية والكهربائية واخيرا قياسات ذبذبات الزلازل الاصطناعيـة وتعيين الزمن للهزات الزلزالية النفطية وتعـرف هـذه الطريقـة الاخيرة بطريقـة السيسموكراف • Seismograph

ان السيسموكراف جهاز يسجل الزلازل الارضية ويعين مراكزها قبل حدوثهـا ، وهو حساس الى درجة انه يسجل ظواهر الزلازل على بعد آلاف من الكيلومترات • وقد استخدم الجيولوجى هذا الجهاز للكشف عن مواقع النفط وبالطريقة التالية :-

تحفر حفرة فى المنطقة التى يظن انها حاوية للنفط ، وتوضع فيها مواد متفجرة ، ثم تنبت أجهزة التقاط الامواج - أى السيسموكراف - على محيط دائرة كبيرة مركزها
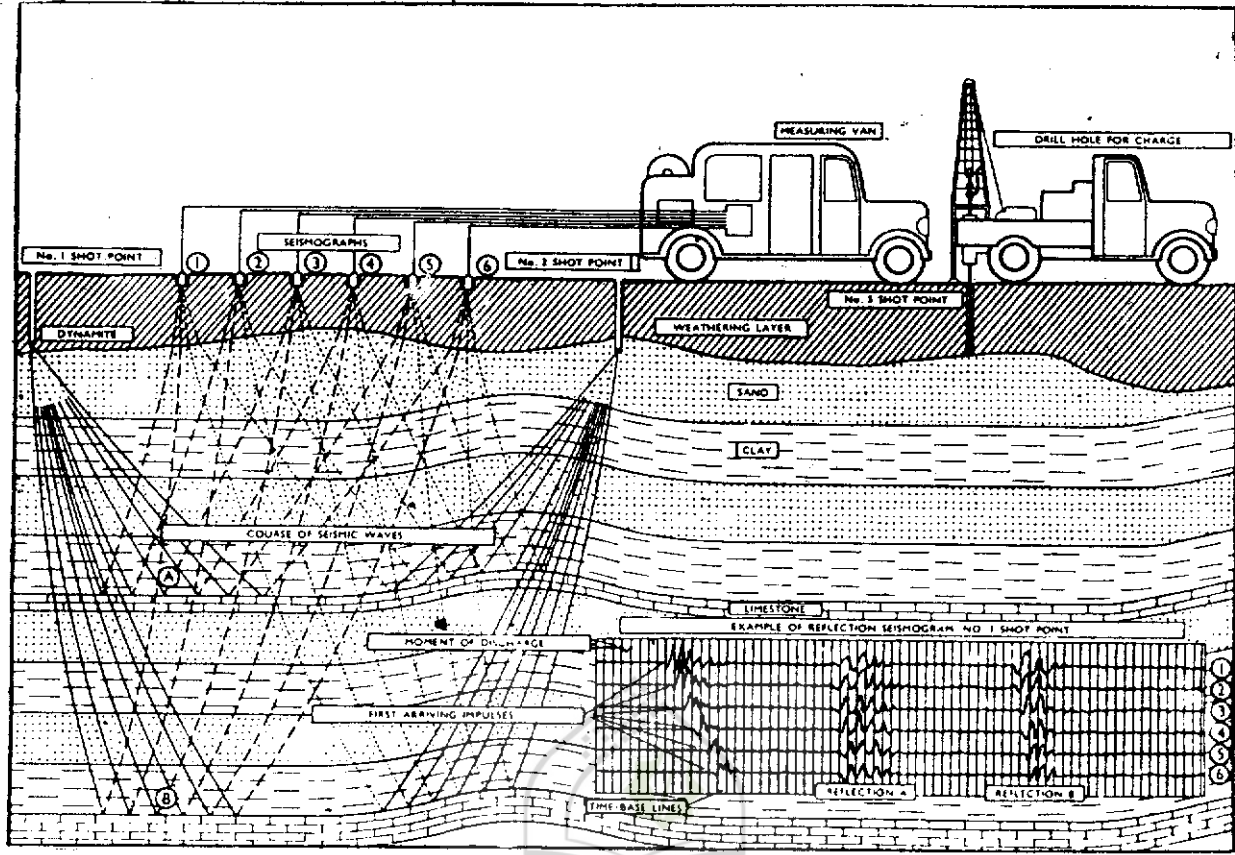
شكل (٥)

طريقة السيسموكراف للكشف عن وجود النفط

حفرة التفجير ، وعند تفجير المواد فى الحفرة تحدث هزات اصطناعية تسرى من جرائها الامواج الصوتية الى باطن الارض باتجاهات مختلفة فترتطم بطبقات متباينة من التربة او الماء او النفط • ومن المعروف فيزيائيا ان الامواج الصوتية اذا ارتطمت بجسم ما تنعكس مرة ثانية • ان الامواج المنعكسة تستقبل بواسطة اجهزة الالتقاط الموضوعة على محيط الدائرة وتسجلها • وهنا يستطيع الجيولوجى والفيزيائي معرفة طبيعة التربة أوالسوائل التى ادت الى انعكاس الصوت وذلك من دراسة طبيعة الامواج والزمن الذى قطعته من حفرة التفجير الى ان وصلت الى جهاز الالتقاط وكذلك اعماق المناطق التى اصطدمت فيها ثم انعكست منها وغيرها من الحسابات الدقيقة • شكل (٥)

والاجهزة المستعملة لهذه الكشوف حساسة جدا وتسجل الزمن لاجزاء الالوف من الثانية الواحدة ، وقد تصل سرعة الامواج الزلزالية المتكونة الى اكثر من ٦٠٠٠ مترا فى الثانية الواحدة •

ان جميع الكشوف الجيولوجية والقياسات الفيزيائية ـ الجيولوجية تعطى فكرة عن توزيع الاجسام الحجرية فى باطن الارض وكذلك كيفية بناء الطبقات الجيولوجية وطبيعتها ، كما انها تعطى الجيولوجى فكرة عن وجود النفط فى المنطقة ، ومع ذلك فأنه لا يجزم على ذلك ، ولكن يستطيع أن يقدم على الحفر بعد نجاح هذه الدراسات وبعد أن يشرك الكيميائى فى تحليل ما يستخرجه من صخور وأتربة •

والامر القطعى فى معرفة وجود النفط وكميته ـ الشيء المهم ـ هو الحفر عليه ، فلا مناص من حفر البئر لاثبات وجوده فى مرقده ، ثم ايقاضه من سباته العميق واستخراجه •

كانت الطريقة البدائية للحصول على النفط من قبوره ـ قبور القطران كما سميت سابقا ـ هى اغتراف النفط رأسا من هذه القبور ، ثم حورت الطريقة فبنيت القبور وجعلت بشكل آبار يرفع منها النفط بالدلو ، كما يرفع الماء من آبار الماء • وقد استعملت هذه الطريقة فى اليابان وغاليسيا ورومانيا • ثم تطورت الحال فحفرت الآبار حفرا يدويا وبنيت لها فوهات ونظمت بشكل سهل نقل النفط منها وبكميات كثيرة • وبقيت هذه الطريقة مستعملة حتى سنة ١٨٥٩ ، حيث حفر دراك Drake أول بئر للنفط فى الولايات المتحدة (نيتوس فيل) شكل (٦) • ومنذ سنة ١٨٥٩ حتى ١٩٥٥ حفرت فى الولايات المتحدة

DRAKE
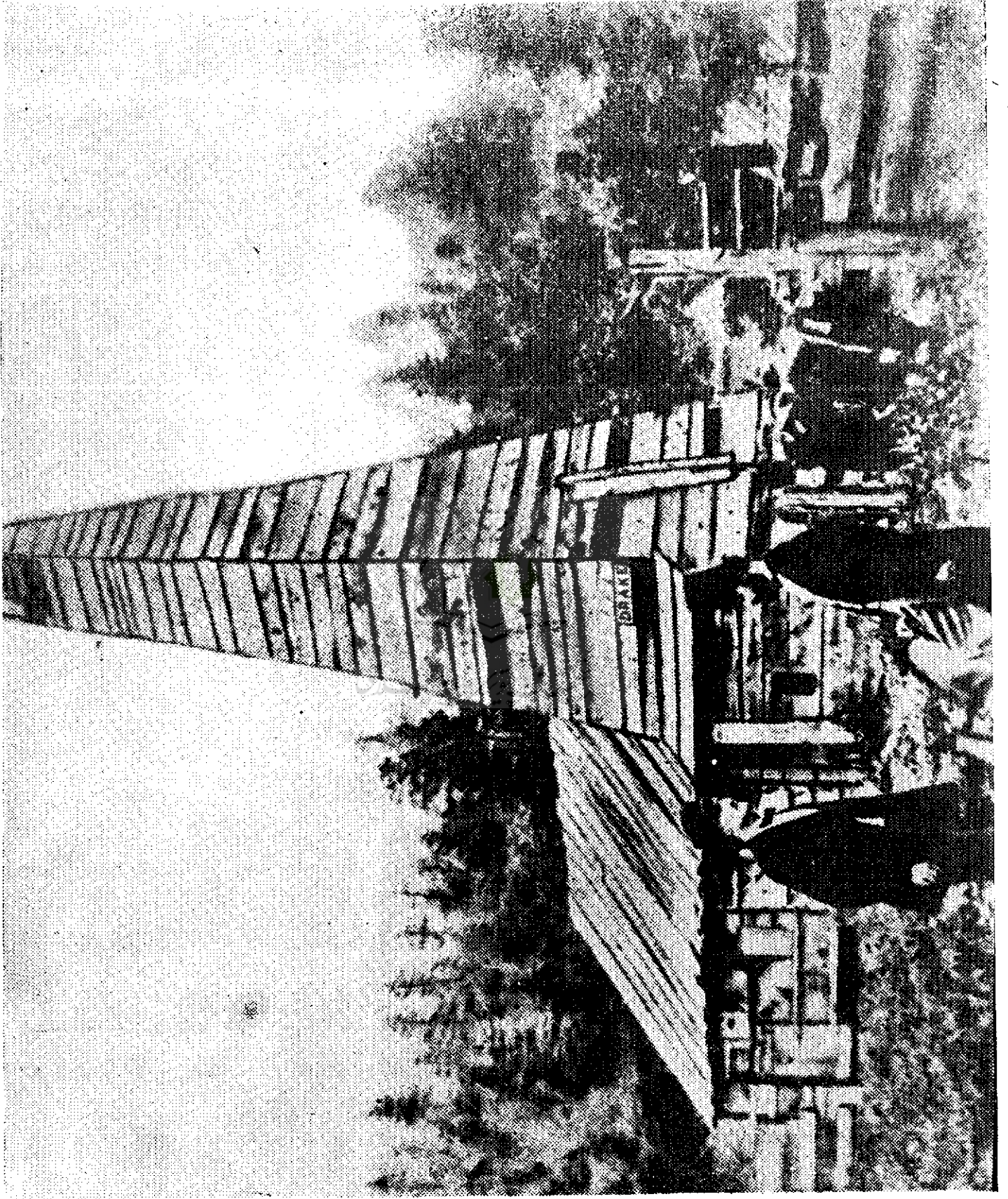
الامريكية اكثر من مليون بئر وبمعدل ٢٠ ألف بئر سنويا ووصل عمق بعضها اكثر من ٥٠٠٠ متر ٠ ونسبة الآبار الناجحة منها ـ أى الحاوية على النفط حوالى ٦٩٪ والآبار التى يعثر فيها على غازات فقط حوالى ٧٪ والباقى أى ٢٤٪ تكون فيها نتائج الحفر فاشلة ٠ وتنتج الولايات المتحدة وحدها أكثر من نصف انتاج العالم من النفط سنويا ٠ ان العلم الحديث يسعى لتقليل نسبة الحفر الفاشل وذلك لدقة الكشوف التى تجرى قبل البدء فى الحفر وبمساعدة الاجهزة والادوات الحساسة ، وربما يأتى يوم تكون فيه نسبة نجاح حفر الآبار ١٠٠٪ ٠ وتوجد طريقتان رئيستان للحفر وهما طريقة الدق وطريقة البريمة ٠

طريقة الدق :

وهى الطريقة القديمة التى استعملت لحفر الآبار النفطية ولا تزال تستعمل بنطاق ضيق جدا ٠ وتلخص العملية فى بناء برج عال على فوهة البئر المراد حفرها ، وبجانب البرج محرك ضخم يدير عجلة يتصل بها أحد طرفى ذراع كذراع الميزان ، وتربط بالطرف الآخر من الذراع حبال جبارة تحمل آلات الدق ، وهى عبارة عن كتل فولاذية صلدة جدا يتراوح ثقل الكتلة الواحدة منها بين ٣ الى ٥ أطنان ، ولها رؤوس مدببة حادة ٠ وبتدوير العجلة يرتفع الذراع الموصول بحبل آلة الدق وينخفض فيؤدى ذلك الى رفع الحفارة ذاتها وخفضها ، وبهذه الصورة تدق الارض دقا وتفتت ما يلاقيها من صخور وتراب ٠ وتوجد آلة اخرى تدخل فى الحفرة لنقل فتات الصخور والتراب من باطن الحفرة وآلة ثالثة تدفع بأسطوانه مدببة الى داخل الحفرة وذلك لتغليفها منعا من انهيار التراب والمياه الجوفية أثناء الحفر ٠ تدخل هذه الآلات كلها فى باطن البئر تدريجيا حتى يتوصل الحفار الى النقطة التى يعينها له الجيولوجى والكيميائى حيث يخبأ النفط ٠ يستغرق حفر البئر بهذه الطريقة بضعة شهور ٠

طريقة البريمة

وهى الطريقة الحديثة لحفر آبار النفط ، فاكثر من ٨٠٪ من حفر الآبار يتم بها ، وتستغرق عملية الحفر بضعة اسابيع الا ان كلفتها اكثر بكثير من الاولى (تقدر كلفة حفر البئر من ٢٥٠٠٠٠ الى ١٢٥٠٠٠٠ دينار) ٠

يبنى برج يزيد ارتفاعه على الستين مترا وفى مركزه تثبت آلة التدوير على فوهة البئر المنتظرة . وآلة التدوير هذه عبارة عن قرص فولاذى كبير تديره محركات جبارة.
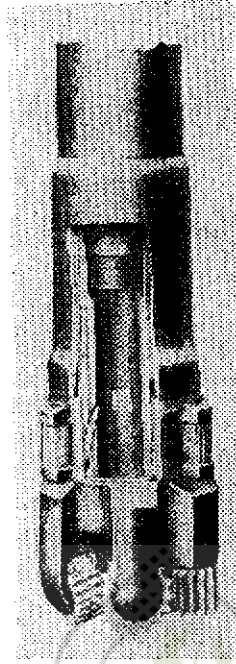
شكل (٧)
آلـة الحفر
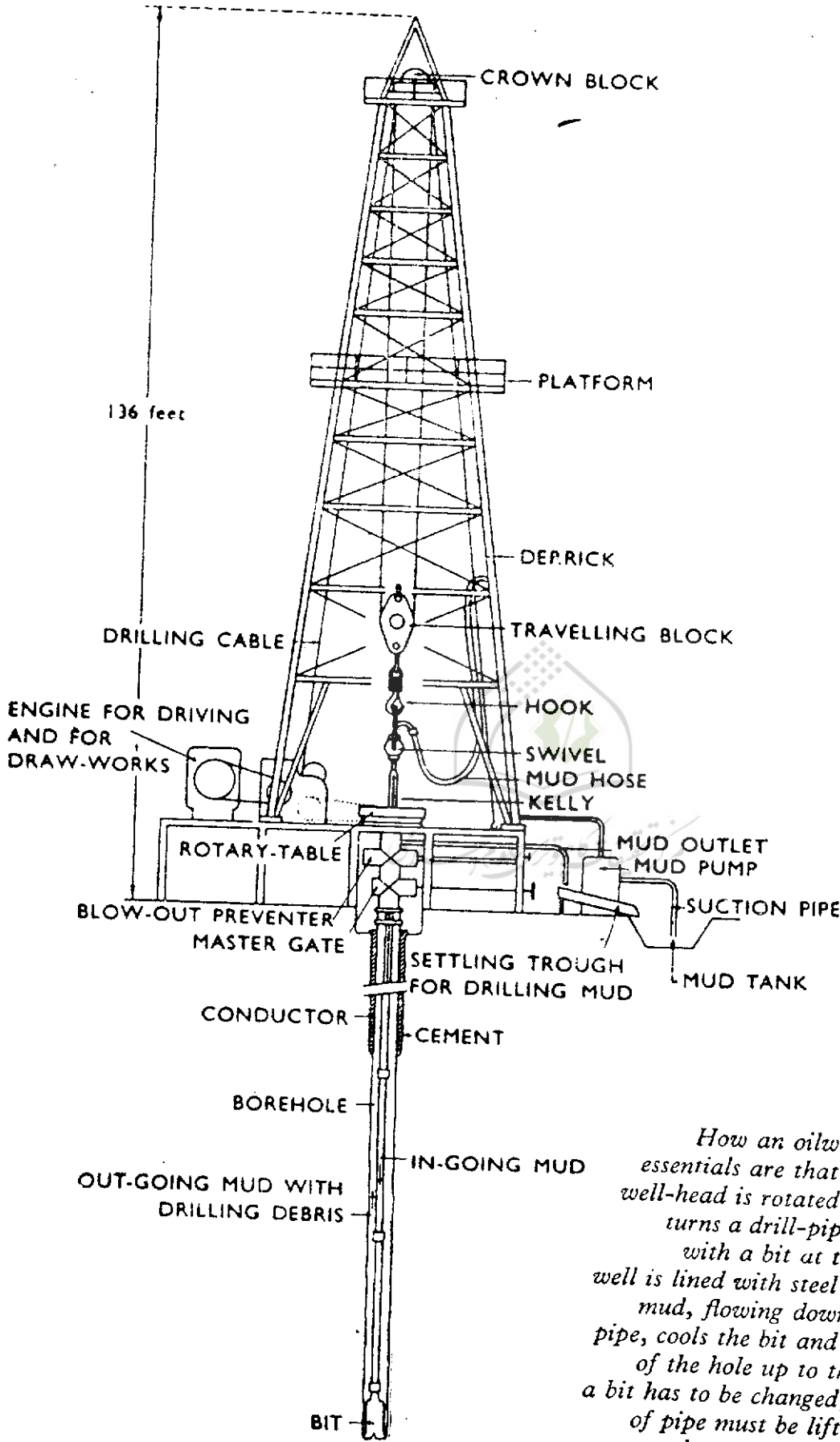
How an oilwell is drilled. The essentials are that a turntable at the well-head is rotated by a motor. This turns a drill-pipe made in sections, with a bit at the lower end. The well is lined with steel casing. A special mud, flowing down the inside of the pipe, cools the bit and washes debris out of the hole up to the surface. When a bit has to be changed, the whole length of pipe must be lifted out of the hole and stacked in sections by the side.

مخطط كامل لبرج الحفر وملحقاته
شكل (٨)

وتثبت فى آلة التدوير اسطوانة الحفر وفى رأسها تثبت آلة الحفر نفسها التى تتكون من بريمة حادة الرأس • وتوجد انواع مختلفة من آلات الحفر ، فقد تكون بشكل زعانف السمكة أو على شكل اجنحة المروحة الكهربائية او غيرهما • واسطوانة الحفر مكونة من قطع يربط بعضها ببعض من الأعلى وكلما زاد العمق حتى تنتهي عملية الحفر • شكل(٨٠٧)

وتوجد فى اسطوانة الحفر ثلاث تجاويف يدخل فى التجويف الاول (فى الوسط) بريمة الحفر وفى التجويف الذى يليه يدخل انبوب الغسيل من أعلى البرج ، وفى هذا الانبوب يضخ سائل لزج الى قاع البريمة كثافته حـــوالى ١٫٤ ويتكون فى الغالب من محلول الطين (طين خاوه) ومواد اخرى ، ولهذا السائل ثلاث وظائف ، الاولى ترطيب الارض والصخور ليسهل عمل البريمة ، والوظيفة الثنية طلى جدار البئر ليعيق انهيار التراب فيها ، والثالثة جمع فتات الصخور والتراب من باطن البئر حيث يحمل هـــذه الفتات معه الى الخارج من خلال التجويف الثالث الذى يوجد فى الاسطوانة كما ذكر سابقا •

يقوم الكيميائى والفيزيائى والجيولوجى بفحص هذه السوائل بأستمرار وبدقة ، لانه يحمل معه آثار النفط - ان وجد - فيضخ من داخل البئر الى خارجها بواسطـــة مضخات خاصة ويجمع فى حوض بجوار البرج ثم يضخ الى البئر مرة ثانية وهكذا تستمر عملية ضخ هذا السائل •

وتدل نتائج الفحوص والكشوف دلالة واضحة على عمق البئر وكميات النفـــط المخزونة فيها وحتى نوعيته وغير ذلك من الامور المهمة التى يجب ان تتوفر لاستمرار الحفر أو ايقافه •

ان الاخصائيين لا يقدمون على الحفر الا بعد اجراء جميع الكشـــوف والفحوص اللازمة ، فان دلت هذه على نتائج موجبة يقدمون على الحفر ، ولكن مع كل ذلك قـــد لا يعثر على النفط وتكون نتيجة الحفر فاشلة ، وتذهب جميع الجهود والامـــوال التى صرفت هباء منثورا •

وهناك اعمال اخرى تجرى على البئر الناجحة قبل استخراج النفط منها • فترفع اولا آلات الحفر وأنابيب سائل الغسيل ، وتبنى جدران البئر الواقعة بين غلاف الاسطوانة

الخارجي والجدار الترابي للبئر وذلك بضخ سائل الاسمنت بينهما منعا من انهيار التراب والمياه الجوفية الى باطن البئر • وبعد ذلك تبنى فوهة البئر •

ويتم استخراج النفط بطريقتين ، الاولى بالضخ ، فاذا كانت كمية الغازات المرافقة للنفط قليلة وضعيفة القوة فلا تستطيع ان تحمل معها النفط عند خروجها من فوهة البئر ويبقى راكدا في محله ، ففي هذه الحالة يسحب النفط من باطن البئر بواسطة مضخات ماصة تبنى على فوهتها أو تضخ غازات في باطن البئر لتسهل خروج النفط أو غير ذلك من الطرق وهي خاصة بكل شركة ومؤسسة •

والطريقة الثانية وهي المثلى التي لا تكلف أموالا وجهودا كثيرة ، والفضل فيها يعود الى وجود الغازات الطبيعية المرافقة للنفط والى نوعيـة النفط نفسه • فاذا كانت الغازات المرافقة للنفط غزيرة ، ذات ضغط عال فبخروجها من فوهة البئر تسحب معها النفط الى الخارج بدون عناء أو تعب •

ومن الجدير ذكره أن جميع آبار العراق غنيـة بالغازات ويخرج النفط بفضلها ولا توجد في بلدنا بئر يسحب النفط منها سحبا • ولاهمية الغازات في أخراج النفط من باطن البئر تنظم على فوهتها شبكة من أسطوانات فولاذية مهمتها السيطرة على ضغط الغازات والمحافظة على كمياتها ، فتبنى فوهة البئر بناء محكما ، بحيث يثبت انبوب النفط في الفوهة تثبيتا دقيقا وفيه صمام يصنع خصيصا لهذا الغرض ، يفتح ويسد عند الحاجة • فعند فتح الصمام يخرج النفط من البئر ويسيل خلال الانبوب الى محلات الخزن الاولية أي أحواض خزن النفط الخام المستخرج من البئر مباشرة ، وهذه الاحواض تكـون بقرب الآبار •

ويستطيع الجيولوجي تقدير كميات النفط الموجودةفي البئر وعمرها • فقد يأتي يوم تجف فيه البئر وينقطع خروج النفط ، كما هو الحال في آبار كثيرة في الولايات المتحدة وروسيا وغيرهما • والمعروف عمليا ان الآبار في العـراق ـ القـديمة منها ـ لا تزال تدر نفطا وبالنسبة التي بدأت فيها أول اكتشافها • وتوجد في الولايات المتحـدة آبار يستخرج منها النفط منـذ أكثر من خمسين عاما • ان عمر البئر لا يعـرفه الا الله ولا يقدره الا الراسخون في علم طبقات الارض (الجيولوجيا)

خواص النفط وصفاته :

تختلف أنواع النفط بأختلاف المناطق الجيولوجية ، حيث تتغير نسب المواد الكيميائية المكونة له • والنفط الخام سائل ذو لون بنى غامق أو فاتح ، غير شفاف ، يرى فى ضوء الشمس بلون أصفر فاتح أو أحمر ، وكثير من أنواع النفط تتألق بلون أخضر مائل الى الزرقة • رائحته عطرية مقبولة ، اذا كان خاليا من الكبريت والنتروجين • أما اذا احتوى على هذين العنصرين أو أحدهما فتكون رائحته نفاثة غير مقبولة • وهو أخف من الماء ، وتختلف كثافته بأختلاف أنواعه •

والنفط خليط لمركبات هيدروكاربونية « Hydrocarbons" – أى مركبات من الهيدروجين والكاربون » ويحتوى ايضا على كمية قليلة من عنصر النتروجين والكبريت والاوكسجين • وتدل التحاليل لمختلف أنواعه على أنه يتكون بصورة عامة من :ـ

كاربون	٨٠ – ٨٨٪
هيدروجين	١٠ – ١٤٪
اوكسجين	١ر٠ – ٧٪
كبريت	١٠ر٠ – ٥٪
نتروجين	٠٠٢ر٠–١ر١٪

وكلما زادت نسبة الهيدروجين فى النفط الخام اصبح خفيفا ، ويترتب على ذلك زيادة فى كمية البنزين ، وكلما زادت نسبة الاوكسجين زادت نسبة القار والمواد الراتنجية الاخرى • واذا زادت نسبة الكبريت قلت جودته • وتوجد فى النفط رواسب غير مرغوب فيها مصدرها بالدرجة الاولى عمليات الحفر الميكانيكية • وتدل الفحوص الكيميائية لهذه الرواسب على وجود عناصر كثيرة كالصوديوم والبوتاسيوم والالومنيوم والحديد والكلور واليود والنيكل والفناديوم وغيرها • وأهم المركبات الهيدروكاربونية المكونة للنفط هى :ـ

١ - الهيدروكاربونات الاليفاتيةالمشبعة•وتسمى البرافينات "Paraffines Compounds" والقانون العـــــام لهـــذه المركبـات هـو $C_n H_{2n+2}$ وقيمة n تتسلسل من ١ الى ٧٢(*) • وهذه المركبات تكون غازية كالميثان CH_4 والايثان $C_2 H_6$ والبروبان $C_3 H_8$ والبيوتان $C_4 H_{10}$ أو سائلة كالبنتان $C_5 H_{12}$ والهكسان $C_6 H_{14}$ ••• الى حد المركب $C_{15} H_{32}$ Pentadecane ! • أما المركبات التى تبدأ من ١٦ ذرة من الكاربون $C_{16} H_{34}$ فتكون صلبة •

٢ - الهيدروكاربونات الاليفاتية غير المشبعة ، $C_n H_{2n}$ وتسمى أولوفينات Oleffines Compounds فكل مركب من هذه المجموعة يقل بمقدار ذرتين من الهيدروجين عن المركب الذى يقابله فى السلسلة السابقة ، وسبب ذلك يعود الى أحتواء آصرة مزدوجـــة واحـــدة = وهـــذه المركبـــات تكون أيضـــاً على ثلاث أصناف ، غازية وسائلة وصلبة • ان الاولوفينات مواد سريعة التفاعل ، وتوجد بصورة خصة فى الاجزاء الثقيلة من النفط الخام ذات درجات الغليان العالية • وقد تتكون ايضا أثناء تكرير النفط نتيجة لتحطيم الاجزاء العليا للمركبات الهيدروكاربونية المشبعة •

٣ - المركبات الهيدروكاربونية الاسيتيلينية بأختلاف أنواعها ودرجاتها وقانونها العام $C_n H_{2n-2}$

٤ - المركبات الهيدروكاربونية النفثية $C_n H_{2n}$ وتسمي البرافينات الحلقية "Cyclo Paraffines" ان المركبات البرافينية والمركبات النفثية تكون المجموعات الاساسية فى البناء الكيميائى للنفط •

ويدخل عنصر الاوكسجين فى تركيب مواد ترافق النفط الخام مثل الحوامض النفثية والفنولات والاسترات العضوية والمواد القارية • ويوجد الكبريت فى المركبـات الكبريتية المرافقة للنفط وأهمها غاز كبريتيد الهيدروجين H_2S وقـــد يأتى هـذا الغاز حرا كما هو الحال فى نفط كركوك • ويوجد النتـروجين فى مركبـات معقـدة التركيب كما ذكرنا سابقا ، ومن أهم المواد النتروجينيـة البيريدين C_5H_5N والكولين والكلوروفيل •

(*) $C_{72}H_{146}$ • أعلى مركب معروف فى هذه السلسلة لحد الآن •

ومن الخصائص الاساسية للنفط أن يكون سهل الحركة ، ويعبر عن ذلك فيزيائيا بكلمة « لزوجة ''Viscosity'' » ، فكلما كانت درجة اللزوجة واطئة سهل ضخه الى المناطق البعيدة عن آباره ، ولذلك تجرى على كثير من أنواع النفط الخام عمليات فيزيائية لخفض هذه الدرجة ''Viscosity Breaking'' ودرجة التصلب فى النفط لها أهمية كبيرة (أى تأثره بالبرودة) فاذا كانت هــــذه الدرجة عالية(*) يتأثر بسرعة فى الشتاء ويصبح سائلا كثيفا ، وقد يتصلب بعضه ، وفى هذه الحالة يصعب ضخه ، ولذلك يعامل النفط ذو درجة التصلب العالية بعوامل كيميائية أو فيزيائية لخفض هذه الدرجة • ان النفط الذى يحتوى على نسبة عالية من المواد البرافينية العالية تكون درجة تصلبه عالية

وتوجد ثوابت فيزيائية اخرى يجب معرفتها قبل البدء بتكرير النفط الخام وأهمها ما يلى :ــ

الحرارة النوعية : وتتراوح بين ٤ر٠ ــ ٥ر٠ ٪ كيلو غرام سعره/كيلو غرام •
حرارة التبخر : وتتراوح بين ٥٣ ــ ٨٤/ كيلو غرام سعره/كيلو غرام
حرارة الاتقاد : أى الحرارة الناتجة من حرق كيلو غرام واحد من النفط الخام وتتراوح بين ٩٥٠٠ ــ ١١٠٠٠ كيلو غرام سعره/ كيلو غرام •
معامل التمدد الحرارى
معامل التوصيل الحرارى
درجة الاتقاد
درجة الالتهاب
درجة الغليان

وتوجد علاقة كبيرة بين كثافة النفط والثوابت الفيزيائية المذكورة ، ويجب تحديد قيمها ثم اجراء عملية التكرير ــ أى التقطير التجزيئى Fractional Distillation وكل هذه الفحوص تجرى فى المختبر أولا وعلى ضوء النتائج التى يحصل عليها تبنى معامل التصفية الكبيرة ، فتكون نسب المواد الناتجة فيها مقابلة تقريبا تلك التى حصل عليها فى المختبر الصغير •

(*) درجة التصلب هى أقل من الصفر ، والمراد بـ (عالية) أى العدد السالب قريب من الصفر ، وكلما بعد الرقم السالب عن الصفر كلما أصبحت الدرجة منخفضة أكثر •

تصفية النفط :

أن تصفية النفط فى الحقيقة دراسة قائمة بذاتها ، وتحتاج الى المزيد من الدراسة والبحث • فمعامل التصفية (Refinery) فى العالم ليست متشابهة تماما ، لانها تصمم على أساس النتائج المختبرية لكل نوع من أنواع النفط وحسب أصناف المواد الثانوية المرافقة للنفط الخام ، ويترتب على ذلك اختلاف فى بعض أجهزة التصفية نفسها ، لتستمر فى عملها على أحسن ما يرام ، منتجة مواد نفطية نقية بأقل كلفة •

توجد فى النفط الخام المستخرج من باطن الآبار مواد غريبة ، أهمها الماء ومحاليل ملحية ورمل وطين ، اضافة الى ذلك كميات كبيرة من الغازات الارضية •

وقبل البدء بعمليات التصفية يجب فصل هذه المواد من النفط لان بقاءها فيه تسبب متاعب كبيرة جدا ، نتيجتها عدم الحصول على منتوجات نفطية جيدة ونقية •

فأول العمليات وأبسطها هى عملية فصل الغازات ، وتتم هذه عادة بمحلات قريبة من الآبار •

والغازات الطبيعية المرافقة للنفط على نوعين ،

أ ـ الغازات غير الذائبة ، ويتم فصلها من السوائل برفع الضغط عن النفط المتدفق من البئر رأسا وافساح المجال له بالهروب من السائل •

ب ـ الغازات الذائبة ، ويتم فصلها بطرق كثيرة ، منها تسخين النفط الخام فى فرن خاص الى درجة ٤٠٠ مئوية ، بحيث تتحول جميع السوائل الى بخار ، ثم تكثف الابخرة فتأخذ حالتها الطبيعية ـ أى السائلة ـ وتخرج من فتحات معينة فى الفرن ، وتبقى الغازات حرة تخرج من أعلى الفرن • تجمع الغازات الناتجة من العمليتين السابقتين فأما أن ترسل خلال أنابيب خاصة الى معامل كيميائية تنتج العشرات بل المئات من المواد الكيميائية بمختلف أنواعها ، أو أن ترسل كلها أو بعضها الى أفران وقود المعامل الكبيرة منها والصغيرة ، أو تشيع الى مثواها الاخير لا فى البئر هذه المرة ، بل الى المداخن حيث تحرق فى الجو ويذهب فتاتها الذهبى هباء منثورا • وبهذين الاسلوبين تفصل الغازات من نفطنا ، والى الحرق ينتهى عمرها •

وغازات النفط خليط لمواد كيميائية كثيرة جدا ، وهى مواد أولية رخيصة الثمن لصناعات لا تحصى ولا تعد • وتوجد نقطة مهمة فى مسألة الغازات وهى قضية الكبريت •

فقد ذكرنا سابقا أن بعض أنواع النفط يحوى نسبة معينة من هذا العنصر حبيب الصناعة ، عـــدو النفط وبأشكال مختلفة أهمها غاز كبريتيد الهيدروجين H2S ففى عمليات فصل الغازات أو بعمليات أخرى غيرها يتم التخلص من جميع أثر للمركبات الكبريتية تخلصا تاما • وينحصر السبب بنقطتين أساسيتين :ـ ١ ـ ان الكبريت يتلف بمدة وجيزة الانابيب التى يجرى فيها النفط الخام من مناطق استخراجه الى معامل التصفية أو الى مناطق شحنه الى الاسواق الخارجية • ٢ ـ ان وجودالكبريت فى منتجات النفط عامل مهم فى ابادة المكائن والآلات ، فهو أى الكبريت ، سريع الالفة مع الحديد ويعتبر أخطر مادة على الآلات الحديدية •

وبعد فصل الغازات يصبح النفط الخام جاهزا للضخ الى معامل التصفية المحلية أو الى محلات الخزن والتصدير ، كما هو الحال فى بلدنا ، فعندما تتم عملية الفصـــل فى مناطق كركوك مثلا يضخ الى بغداد ـ مصفى الدورة ـ من جهة والى بانياس ليشـــحن الى الاسواق العالمية من جهة أخرى •

وقبل البدء بتصـــفية النفط الخام يتحتم فصل المواد الغريبة الأخرى وبخاصة الماء ، فوجوده مع النفط ولو بنسبة ضئيلة يسبب رغوة شديدة تعيق عملية التصفية والتقطير • وهناك وسائل عدة لفصل الماء ، منها تسخين النفط بأجهزة الترسيب أو معاملته بأجهـــزة التـــــــدوير Centrifuge ذات سرعة عالية ، فقد تبلغ سرعة الجهاز اكثر مـــن ٢٠ ألف دورة فى الدقيقة الواحدة • وقد يعامل النفط الخام بتيار كهربائى ذى ضغط عال أو أن يرشح تحت الضغط أو تضاف اليه بعض المواد الكيميائية التى تقلل من توتره السطحى •

وبعد اكمال جميع هذه العمليات يصبح النفط الخام جاهزا للتصفية فى المعامل • وجهاز التقطير عبارة عن برج جبار يدخل النفط خلال انابيب من أسفله ويسخن الى درجات حرارة عاليـــة ، فيتحول الى غاز يصعد تدريجيا الى أعلى البرج • وتوجـــد فى داخل البرج مكثفات مائية تكثف الابخرة الصاعدة وتحولها الى سوائل حسب درجات غليانها وتخرج من فتحات جانبية من البرج • فالسوائل الثقيلة تتكثف اولا وتخـــرج من الفتحة الاولى « السفلى » للبرج وتليها السوائل الاخف منها التى تخرج من الفتحة

الثانية ، ثم السوائل الاخف من الثانية - تخرج من الفتحة الثالثة - ، الى أن تصل الابخرة الخفيفة الى أعلى البرج حيث تكون درجة حرارة المكثفات هناك كافية لتكثيف السوائل الخفيفة ذات درجات الغليان الواطئة (ويقصد بذلك البنزين) وتخرج من الفتحات العليا من البرج • وتليها مواد غازية يصعب تكثيفها الى سوائل ، وهذه تحرق ، كما نشاهد ذلك فى مصفى الدورة ، أو ترسل بعضها الى معامل الغازات كما هو متبع حديثا فى الدورة أيضا لاستعمالها وقودا فى مطابخ الغازات • وبعد اجراء بعض العمليات الكيميائية البسيطة •

اما المواد الثقيلة الموجودة فى النفط فتبقى فى أسفل البرج وتسحب منه بين حين وآخر ، وتتكون هذه من مواد قيرية كالزفت الذى يستعمل فى تبليط الشوارع والطرقات •

ان عمليات فصل المواد الموجودة فى النفط الخام تجرى على أساس فصل مجموعات بعضها عن البعض الآخر وتستند فى ذلك على التباين فى درجات غليان المجموعات • ويستند فصل المجموعات على عملية كيميائية بسيطة هى عملية التقطير التجزيئى Fractional Distillation • والمواد الناتجة من تقطير النفط الخام فى حدود معينة من درجات الحرارة هى :-

١ - البنزين الخام ويتقطر بين ٥٠-١٨٠ درجة مئوية

٢ - زيوت الاشتعال (البترول) وتتقطر بين ١٥٠-٣٠٠ درجة مئوية

٣ - مواد وقود ديزل (كازأويل) وتتقطر بين ٣٠٠-٣٥٠ درجة مئوية

٤ - زيوت التشحيم والزيوت البرافينية وتتقطر فوق درجة ٣٥٠ درجة مئوية

٥ - المواد الثقيلة •

وتختلف نسبة المواد الناتجة باختلاف الانواع ففى بعض أنواع النفط تكون نسبة الزيوت الثقيلة عالية وتقل نسبة البنزين - فالنفط الالمانى مثلا خال من البنزين • والنفط الجيد - معنى ذلك كثير الربح - هو ما كانت نسبة البنزين فيه عالية • وتتراوح نسبة البنزين فى النفط الخام المربح تجاريا بين ١٠-٣٠٪

ان المواد الناتجة من التقطير لا تكون صالحة للاستعمال مباشرة ، بل يجب اجراء عمليات اخرى عليها ، ولنأخذ البنزين مثالا فى ذلك ، فيعامل أولا بحامض الكبريتيك H2SO4 لفصل الشوائب التى تأتلف وهذا الحامض ، ثم يعامل بالصودا الكاوية NaoH لمعادلة بقايا الحامض « أى التخلص منه » من جهة ولفصل الشوائب التى تألف للصودا من جهة اخرى • وبعد ذلك يغسل البنزين بالماء عدة مرات لازالة بقايا الحامض والصودا حتى يذهب كل أثر لهما « أى يصبح متعادلا » ثم تضاف الى البنزين بعض المواد الكيمائية التى ترفع من درجة اتقاده Octane - Number ولمنع ما يسمى بالطقطقة "Anti-knock" التى تحدث فى المكائن اثناء الاحتراق • وبعد هذه العمليات يخزن البنزين النقى الصالح للاستعمال فى مخازن خاصة أو يعبأ فى براميل أو صفائح ويكون جاهزا للنقل الى محطات البيع المحلية أو الى محلات التسويق الخارجية • شكل (٩)

شكل (٩)

مخطط لمعمل التصفية يأتي النفط الخام من الحقول البعيدة (الجهة اليسرى) ويمر بجميع أجزاء المعمل ·

يلاحظ في اسفل الصورة المنتجات النفطية الكثيرة ممثلة بصور مختلفة للاجهزة والآلات الميكانيكية التي تستعملها ·
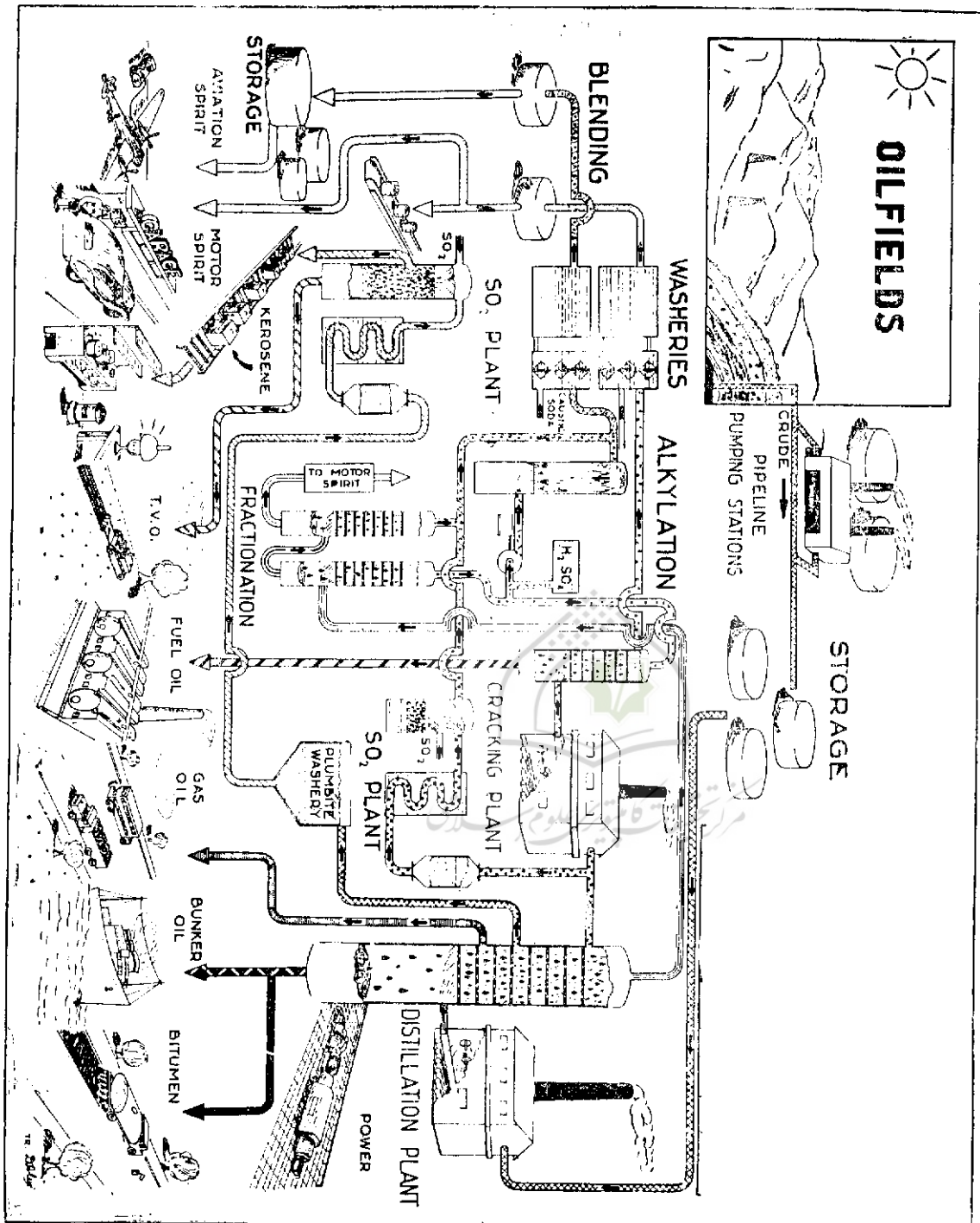
المراجــــع

1. B. Neumann : Lehrbuch der chemischen Technologie.
2. P. Karrer : Organic Chemistry.
3. British Industries : Oil
4. OIL IM THE MIDDLE EAST by S.H. Longrigg
5. ÖLKRIEG : A. Zischka
6. ERDÖL : K. K. Graf.

تركيب الشخصية*

كالفن سي . هول

ترجمة الدكتور ابراهيم يوسف المنصور

قسم التربية وعلم النفس

تتكون الشخصية بصورة عامة كما يراها فرويد من جوانب رئيسة ثلاثة . وهذه الجوانب هى الأنا السفلى **Id** والأنا Ego والأنا العليا Superego . ~~وهذه الجوانب~~ تكون عند الشخص الصحيح عقليا تركيبا موحدا ومنسجما . انهذه الجوانب، وهى تعمل سوية وبصورة متعاونة ، تمكن الفرد من أن يقوم بعمليات تامة ومرضية تتلاءم والبيئة التى يحيا فيها . ان هذه العمليات تهدف الى ارضاء حاجات الإنسان الاساسية ورغباته . واذا ما تضاربت هذه الجوانب المكونة للشخصية فيما بينها فان تكيف الشخص مع بيئته يكون سيئا . ان مثل هذا الشخص غير راض عن نفسه وعن العالم وهو قليل الكفاءة .

١ – الأنا السفلى The Id

للأنا السفلى عمل واحد وهو التصريف الآني لمقادير الهياج (الطاقة أو التوتر) التى تنطلق فى الكائن الحي نتيجة لاستثارات داخلية أو خارجية . وعمل الأنا السفلى هذا يطمئن مبدأ الحياة الاساسي الذي أطلق عليه فرويد « مبدأ اللذة » Pleasure Principle ان مايهدف اليه مبدأ اللذة انما هو تخليص الشخص من التوتر ، أو ، اذا لم يكن هذا التخليص ممكنا – كما هي الحالة دائما – تقليل مقدار التوتر والابقاء على هذا المقدار عند مستوى واطىء ما امكن ذلك . يأخذ التوتر هيئة الالم وعدم الراحة ، بينما يسفر تقليله عن لذة أو رضى . ان ما يهدف اليه مبدأ اللذة تجنب الالم والحصول على اللذة .

مبدأ اللذة حالة خاصة لاتجاه عام موجود عند جميع الكائنات الحيه من شأنه ايجاد ثبات بوجه التوترات الداخلية والخارجية . والأنا السفلى بشكلها الساذج وسيلة انعكاسية

---

*ترجمة الفصل الثانى من كتاب "A Primer of Freudian Psychology"
لـ « كالفن س . هول » .

تحاول اطلاق ما يصلها من اضطرابات حسية بواسطة المسالك الحركية فورا . فالجفن يغلق عندما يسقط على شبكية العين نور قوي فيمنعه من الوصول الى الشبكية . ونتيجة لذلك فان التوتر الذى اصاب الجهاز العصبى من جراء الضياء يهدأ ويعود معه الكائن الحى الى حالة هادئة . ان الكائن الحى مجهز بكثير من هذه الافعال الانعكاسية من شأنها القيام بمهمة التصريف الآلى للطاقة الجسمية التى اطلقها المنبه الذى من شأنه التأثير على الاعضاء الحسية . ان النتيجة الطبيعية للتصريف الحركى انما تكون فى اقصاء المنبه . فالعطاس مثلا يطرد عادة كل ما من شأنه تهييج المناطق الحساسة فى الانف ، وتدميع العين يطرد خارجا الدقائق الدخيلة . والمنبه قد يأتى من داخل الجسم كما يأتى من خارجه . ومثال على المنبه الداخلى الانفتاح الانعكاسى لصمام المثانة عندما يبلغ عليه الضغط درجة معينة . ان التوتر الذى ينشأ عن الضغط ينتهى بافراغ محتويات المثانة خلال الصمام المفتوح .

ان الاضطرابات التى تعترى الكائن الحى ، لو تسنى لها جميعا ان تتصرف بوساطة العمل الانعكاسى ، فليس ثمة حاجة اذن لاى تطور نفسى خارج الوسيلة الانعكاسية البدائية . ليس الامر هكذا . فهنالك اضطرابات تحدث وليس لها من تصريف انعكاسى مناسب . فعندما تظهر انقباضات الجوع مثلا فى معدة طفل من الاطفال ، فان هذه الانقباضات لاتنتج الطعام آليا . ان هذه الانقباضات ، على العكس من ذلك ، تنتج ضجرا وبكاء . فاذا حدث ان لم يطعم الطفل ، فان هذه الانقباضات تزداد حتى يسكنها النصب . واذا ما استمرت الحالة هذه فان الطفل يموت جوعا .

ان الطفل الجائع غير مجهز بالاعمال الانعكاسية الضرورية التى يتمكن بواسطتها من اشباع جوعه ، واذا لم يتدخل الكبار فى جلب الطعام له فانه سوف يهلك لا محالة . عندما يوضع الطعام فى فم الطفل فان افعال المص والازدراد والهضم الانعكاسية تقوم بعملها دونما مساعدة وبذلك تنتهى حالة الاضطراب المتسببة عن الجوع .

سوف لا يكون هنالك أى تطور سيكولوجي اذا طعم الطفل حالما يحس باضطراب الجوع والاضطرابات الاخرى التى تنهض فى الجسم التى تصرف بنفس الطريقة وذلك بفضل الجهود المتضافرة للعناية الابوية والافعال الانعكاسة الموروثة . ولكن بالرغم من اهتمام الابوين الشديد ، فليس من المحتمل أن يرضيا بسرعة جميع حاجات

الطفل • ان استعمال الابوين نظاما مقننا من الضبط يسبب في خلق الاضطرابات كما يسبب في تقليصها في آن واحد • يعاني الطفل بصورة قسرية ضرباً من الخيبة وعدم الراحة • ان هذه الخبرات التي يعانيها الطفل تستثير تطور الانا السفلى •

ان التطور الجديد الذي يحدث للأنا السفلى نتيجة للخيبة يطلق عليه العملية الاولية Primary Process ولفهم طبيعة العملية الاولية هذه فانه من الضروري أن نفسر بعض امكانيت الانسان • للوسيلة السايكولوجية هدف حسي وهدف حركي • يشتمل الهدف الحسي على أعضاء الحس ، التي هي تراكيب خاصة لتسلم المنبهات ، ويشتمل الهدف الحركي على العضلات ، التي هي اعضاء للفعل والحركة • انه لمن الضروري ان يكون للفعل الانعكاسي اعضاء حسية وعضلات وجهاز عصبي ينقل الرسائل على هيئة بواعث عصبية من الهدف الحسي الى الهدف الحركي •

وبجانب الجهاز الحسي Sensory System والجهاز الحركي Motor System فان الفرد يملك جهازا للادراك الحسي Perceptual system وجهازا تذكريا Memory System ان جهاز الادراك الحسي يتسلم الاضطرابات من اعضاء الحس ويكون صورة عقلية للموضوع الذي عرض لاعضاء الحس • ان هذه الصور العقلية تبقى آثارا تذكرية في الجهاز التذكري • وعندما تنشط الآثار التذكرية يقال بأن الشخص لديه صورة تذكرية Memory Image للموضوع الاصلي • ان الماضي يؤتى به الى مجال الحاضر بواسطة الصور التذكرية • ان الادراك الحسي انما هو تمثيل عقلي للموضوع بينما تكون الصورة التذكرية تمثيلا عقليا للادراك • عندما ننظر الى شيء ما يتكون عندنا مدرك حسي ، وعندما نتذكر ما رأيناه مرة تتكون عندنا صورة تذكرية •

لنعد ثانية الى حالة الطفل الجائع • كان الطفل يطعم كلما أحس بالجوع • وكان الطفل ، اثناء اطعامه ، يرى الطعام ويتذوقه ويشمه ويشعر به • ان هذه التصورات تخزن في جهازه التذكري • وكان الطعام ، في فترة الاطعام ، يقترن بتخفيف حدة التوتر • واذا حصل أن لم يطعم الطفل حالا فان التوتر الناشىء عن الجوع ينتج صورة تذكرية للطعام تقترن به • ان العملية التي انتجت صورة تذكرية للموضوع ضرورية لتخفيف التوتر يطلق عليها « العملية الاولية » •

ان العملية الاولية تحاول تصريف الاضطراب وذلك بتكون ما أطلق عليه فرويد بـ « مماثلة الادراك الحسى Identity of Perception وبمماثلة الادراك الحسى قصد فرويد بأن الأنا السفلى ترى بأن الصورة التذكرية تشابه الموضوع الأصلي • وبعبارة أخرى ، فان الانا السفلى تخفق فى التميز بين الصورة التذكرية الذاتية وبين الادراك الموضوعى للشيء الحقيقى • ان المثل المألوف لفعل العملية الاولية هو مثل المسافر العطشان الذى يتخيل الماء أمامه حقيقة واقعة • والمثل الآخر للعملية الاولية هو الحلم الليلى Nocturnal dream. الحلم سياق من الصور المتعاقبة ، وهى حية فى نوعها عادة ، مهمتها تخفيف التوتر وذلك ببعث ذكريات الحوادث الماضية والاشياء المقترنة بالتطمين بشكل من الاشكال • فالنائم الجائع يحلم بالطعام والاشياء التى تقترن بالاكل ، وكذلك النائم المتهيج جنسيا فانه يحلم بالفعاليات الجنسية وما يتصل بها من حوادث • ان تكوين صورة للشيء الذى من شأنه انقاص التوتر يطلق عليه اسم تطمين الرغبة Wish - fulfillment يعتقد فرويد بأن جميع الأحلام ما هى سوى تطمين الرغبات أو انها محاولات لتطمين الرغبات • أننا نحلم عما نريده •

ان الشخص الجائع بطبيعة الحال لا يستطيع ان يعمل وجبة صور من الطعام وكذلك الشخص العطشان فانه لايستطيع أن يطفى غلته بأن يشرب ماء خياليا • فى حالة الشخص الحالم ، يعتقد فرويد بأن الحلم بالأشياء المرادة قد يؤدى الى عدم استيقاظ النائم من نومه • وحتى فى حالة اليقظة ، فان العملية الاولية لا يمكن أن تكون عديمة الفائدة كليا ، فانه من الضرورى أن نعرف ما يحتاجه الفرد قبل أن يشرع فى الحصول عليه (أى أن لديه صورة لـ •••) • فالشخص الجائع الذى لديه تمثيل عقلى للطعام يكون فى حالة يشبع بها جوعه أحسن من الشخص الذى لا يعرف عما يفتش عنه • ليس للعملية الاولية من صلة بأن يستطيع شخص ما من ارضاء حاجاته خلال سلوك لا هدف له من المحاولة والخطأ • لان العملية نفسها لا تخفف من التوتر بصورة نافذة ، وهذا يؤدى الى تكوين ما يعرف بالعملية الثانوية Secondary process • ان العملية الثانوية هذه تتعلق بالانا Ego ، وعليه فاننا سوف نرجيء الحديث عنها الى القسم التالى •

ان لدى فرويد اشياء أخرى يقولها عن الأنا السفلى • الانا السفلى هى الينبوع

الرئيس للطاقة النفسية وهى مركز الغرائز . الأنا السفلى أكثر اتصالا بالجسم ووظائفه منها بالعالم الخارجي . والانا السفلى يعوزها التنظيم فيما اذا قورنت بالانا والانا العليا . ان طاقتها فى حالة حركية وهكذا يكون من الميسور تصريفها حالا أو نقلها من شيء الى آخر . الانا السفلى لا تتغير بمرور الزمان ولا يمكن ان تحور بالخبرة وذلك لانها غير ذات صلة بالعالم الخارجى . وبالرغم من هذا كله فانه بامكان الانا Ego ان تسيطر عليها وتنظمها . الانا السفلى لا تحكمها قوانين العقل او المنطق ، وهى لا تملك قيما واخلاقية Morality . ان الانا السفلى يسيرها شيء واحد فقط وهو الحصول على ترضية الحاجات الغريزية طبقا لمبدأ اللذة . هنالك امران يمكن احتمالهما فى اية عملية من عمليات الانا السفلى : أن تتصرف هذه العملية بصورة فعلية او على هيئة تحقيق رغبة متمناة ، او انها تخضع لتأثير الانا Ego فتتقيد بدلا من أن تتصرف مباشرة وآنيا .

يتحدث فرويد عن الانا السفلى على انها الحقيقة النفسية الصادقة . وبهذا يعني بأن الانا السفلى ما هى سوى الحقيقة الذاتية الاولى ، او عالم الفرد الداخلى قبل أن يخبر العالم الخارجى . ان الغرائز والافعال الانعكاسية ليست وحدها موروثة فقط ، بل يمكن ان تكون الصور التى هى حصيلة حالات الاضطراب موروثة ايضا . وهذا يعنى بأن الطفل الجائع يمكن ان يكون صورة للطعام دون أن يحتاج الى أن يتعلم كيف يقرن الطعام بالجوع . يعتقد فرويد بأن الخبرات المعادة المتكررة كثيرا والقوية عند عدد كبير من الافراد فى الاجيال المتعاقبة تصبح ارصدة ثابتة فى الانا السفلى . وهنالك أرصدة جديدة تتكون فى الانا السفلى خلال حياة الانسان نتيجة لآلية الكبت Repression

ليست الأنا السفلى قديمة فى تاريخ الاجناس فقط ، وانما هى قديمة فى تاريخ الفرد ايضا . انها الاساس الذى تقوم عليه الشخصية . والأنا السفلى تحاول أن تحتفظ بالخصائص الطفولية خلال الحياة . انها لا تتساهل مع التوتر والاضطراب . انها ذات طلابة ودافعة Impulsive ولا عقلية Irrational ولا اجتماعية Asocial وانانية ومحبة للذة . انها الطفل الفاسد فى الشخصية . انها قادرة على كل شيء لانها تملك قوة سحرية فى تنفيذ رغباتها فى الخيال والاوهام والهلاس Hallucination والاحلام . لقد قيل عنها بأنها محيطية Oceanic لانها ، كالبحر ، تحتوى على كل شيء . انها لا ترى

شيئا خارج نطاق وجودها • الأنا السفلى عالم للحقيقة الذاتية عملها الوحيد الذى يؤخذ بعين الاعتبار هو اتباع اللذة وتجنب الالم •

ان فـرويد يعتـرف بأن الأنا السفلى تكون الجانب الغـامض الصعب المنـال فى الشخصية ، وأن الشيء القليل الذى يعرف عنها تم الحصول عليه من دراسة الاحلام والاعراض العصابية • ومع كل هذا فبامكاننا ان نرى الانا السفلى تعمل كلما قام الفـرد بعمل دافعى • ان الشخص الذى يعمل وفقا لباعث ما كأن يرمى حجرا على الشبـاك او يسبب عثرة انسان ما او يغتصب شخصا ما لابـد وأن يكون واقعا تحت سـيطرة الأنا السفلى • وشبيه بهذا ، الشخص الذى يصرف وقتا كثيرا فى احلام اليقظة ويبنى قلاعا فى الهواء • انه واقع تحت سيطرة الانا السفلى • الانا السفلى لا تفكر • انها ترغب وتفعل فحسب •

٢ ـ الانـا The Ego

ان العمليتين اللتين تصرف الأنا السفلى الاضطراب بواسطتهما ، وأعنى الفعاليـة الحركية الدافعية Impulsive وتكوين الصورة (اشباع الرغبة) ، لا تكفيان لتحقيـق الاهداف التطورية الرئيسة فى البقاء والانسال • ان الافعال الانعكاسية والرغبات سوف لا تمد الشخص الجائع بالطعام ولا الشخص المستثار جنسيا بالانيس • ان السـلوك الدافعى ، فى الواقع ، قد يسفر عن زيادة فى التوتر (الالم) وذلك بنشدان العقاب من البيئة الخارجية • واذا لم يكن للانسان من شخص يعني به دائما ، فانه كما كان خلال فترة الطفولة ، يجب أن يفتش ويجد الطعام ورفيق الجنس وعددا كبيرا من الاشياء التى يهدف الى تحقيقها والتى هى من ضرورات الحياة • ولانجاز هذه المهام بنجاح فما على الشخص الا أن يأخذ في الحسبان الحقيقة الخارجية (البيئة) وذلك اما بملاءمـة نفسه لها او بسيطرته عليها ومن ثم الحصول على الشيء الذى يحتاجه منها • ان هـذا الاخذ والعطاء بين الشخص وعالمه الخارجى يتطلب تكوين نظام سايكولوجى جديد ، هو الأنا Ego •

وتكون الأنا عند الشخص الحسن الانسجام الجانب التنفيـذى Executive

لشخصيته ، وذلك لما لها من سيطرة على الأنا السفلى Id والانا العليا Superego وادارة لهما • انها تقيم علاقات تجارية مع العالم الخارجي لمصلحة الشخصية ككل وحاجاتها المعددة •

عندما تقوم الأنا بأعمالها التنفيذية بحكمة فان الانسجام والتكيف يكون ديدنها • واذا ما تنازلت الأنا عن الكثير من قوتها للأنا السفلى او الأنا العليا او العالم الخارجي او استسلمت ، فان هذا التنازل او الاستسلام يتبعه سوء انسجام وتكيف •

وعوضا عن مبدأ اللذة فان الأنا يسودها مبدأ الواقعية Reality principle والواقعية هنا تعني ما هو موجود فعلا • ان هدف مبدأ الواقعية يكون في تأجيل تصريف الطاقة حتى يكتشف شيء حقيقي من شأنه ارضاء الحاجة • ومثل ذلك ، أن الطفل عليه أن يتعلم عدم وضع شيء في فمه عندما يكون جائعا • عليه أن يتعلم كيفية تمييز الطعام وأن يرجيء الأكل حتى يجد شيئا يصلح للأكل • واذا ما كان الامر خلافا لذلك فان الطفل يحصل على خبرات مؤلمة •

ان ارجاء الفعل Action يدل على ان بمقدور الأنا احتمال الالم حتى يحين وقت تصريف هذا الالم بصورة مناسبة من السلوك • ان مبدأ الواقعية ليس من طبيعته نبذ مبدأ اللذة او هجره • انه ارجاء موقت لمبدأ اللذة كي يتسنى تحقيق هذا المبدأ بشكل واقعي • ان مبدأ الواقعية بعد كل هذا يقود الى اللذة ، ولو أن الشخص يعاني ضربا من عدم الراحة وهو يفتش عن الواقعية •

ان مبدأ الواقعية تحققه عملية يطلق عليها فرويد اسم العملية الثانوية وذلك لانها تتطور وتهيمن على العملية الاولية للأنا السفلى • ولأجل أن نفهم ما المقصود بالعملية الثانوية فانه من الضروري التأكد من النقطة التي تشبع فيها العملية الاولية حاجات الفرد •

العملية الاولى توصل الفرد الى نقطة تتكون لديه عندها صورة للشيء الذي يرضي حاجته ، اما الخطوة التي تلي ذلك فمن شأنها ايجاد الشيء أو انتاجه ، ومعنى ذلك أن ذلك الشيء او الانتاج يؤتى به الى حيز الوجود • وتتم هذه الخطوة بواسطة العملية الثانوية •

ان مهمة العملية الثانوية هى الكشف عن الواقع بواسطة تصميم من العمل يتطور خلال الفكر والمنطق (المعرفة Cognition) • ليست العملية الثانوية سوى ما هو معروف عادة بحل المشاكل Problem solving او التفكير • فعندما يضع شخص خطة عمل موضع التنفيذ لكى يتحقق من نجاحها او عدمه ، يقال بأن هذا الشخص منهمك فى اختبار واقعية خطته Reality Testing واذا لم ينجح هذا الاختبار ، اى ان الشيء المرغوب في تحقيقه لا يمكن اكتشافه او انتاجه ، فلابد اذن من خطة عمل جديدة يفكر فيها ويقوم باختبارها • ويستمر هذا الامر حتى يتم الوصول الى حل صحيح (واقعى) من شأنه تصريف التوتر بعمل ملائم • والعمل الملائم فى حالة الجوع هو اكل الطعام •

ان العملية الثانوية تنجز ما ليس بمقدور العملية الاولية انجازه ، أى انها تحاول الفصل بين عالم العقل الذاتى Subjective world of mind وبين حقيقة العالم الموضوعى المادى • ان العملية الثانوية لا ترتكب خطأ كما تفعل العملية الاولية التى لا تجد فرقا بين الشيء نفسه وصورة ذلك الشيء •

ان مبدأ الواقعية وفعل العملية الثانوية والدور المهم الذى يلعبه العالم الخارجى فى حياة الشخص ، كلها تستثير نمو عمليات الادراك النفسية والذاكرة والتفكير والعمل وتطورها الى الاحسن •

ان نظام الادراك الحسى يطور قوى دقيقة تمييزية تساعد على تصور العالم الخارجى بصورة دقيقة • وهو يعلمنا النظر الى العالم بسرعة ويمكننا من اختيار الصفات البيئية المناسبة من حمأة المنبهات لحل مشكلة من المشاكل • وزيادة على المعلومات التى يتم الحصول عليها بواسطة اعضاء الحس ، فان التفكير يستخدم المعلومات التى سبق لها ان خزنت فى الذاكرة • والذاكرة ترقى وتتحسن وذلك بتكوين ترابطات Associations بين آثار الذاكرة Memory traces وبتطوير نظام من الاشارات : هذا النظام هو اللغة • وهكذا فان أحكام الشخص تصبح أكثر دقة ويكون من السهل معها أخذ مقررات واضحة عن الشيء اذا كان صحيحا (له وجود) او خطأ (عديم الوجود) • هنالك

سلسلة اخرى مهمة من التغيرات تحدث فى الجهاز الحركى • فالشخص يتعلم استخدام عضلاته بمهارة اكثر ويحاول القيام بحركات اكثر تعقيدا من ذى قبل • وجماع ذلك ، فان هذه التكيفات فى المهام السيكولوجية تجعل الشخص ان يسلك سلوكا اكثر ذكاء وكفاءة وان يسيطر على بواعثه ومحبطه من اجل الحصول على رضى ولذة كبيرين • قد تكون الانا Ego ذلك التنظيم المعقد للعمليات السايكولوجية التى تعمل وسيطا بين الأنا السفلى والعلم الخارجى •

واضافة لعمل الأنا الذى يخدم مبدأ الواقعية ، فان هنالك عملاً لها يشبه عمل العملية الأولية للأنا السفلى • ان مهمة هذا العمل خلق الخيالات Phantasies واحلام اليقظة Daydreams • انهذا العمل لا يخضع لمتطلباتاختبار الواقع ومرتبته تأتيثانوية بعد مبدأ اللذة • ومع كل هذا ، فان عمل الأنا هذا يختلف عن العملية الاولية ، لانه يميز بين الخيال والواقع • ان خيالات الأنا لها أهدافها ، أى انها خيلات لعب ولذة • ان هذه الخيالات ، وان كان لا يخلط بينها وبين الواقع ، تمنح الشخص عطلة يريح فيها نفسه من عمل الأنا الجدى •

ان الأنا وان كانت نتاجا للتفاعل مع البيئة ، فان خطوط تطورها تحددها الوراثة وتقودها عمليات النمو الطبيعى (النضج Maturation) ومعنى هذا ان كل شخص عنده امكانيات موروثة Inborn Potentialities للتفكير والاستدلال Reasoning هذه الامكانيات تتحقق بالخبرة والتدريب والتربية • ان موضوع التربية المقصودة Formal education الرئيس على اختلاف مراميه يهدف الى تدريس الناس طريقة التفكير السليم • والتفكير السليم يتصف بقدرته على الوصول الى الحقيقة ، هذه الحقيقة التى يعرفها وجودها المادى •

٣ ـ الأنا العليا The Superego

ان الجانب الثالث من الشخصية ، وهو الأنا العليا ، هو الجانب الاخلاقى والقانونى Judicial للشخصية • انه يعنى بالمثال Ideal اكثر من الحقيقة Real وهو يسعى من أجل الكمال أكثر من سعيه من أجل الواقع أو اللذة • الأنا العليا هى قانون

الشخص الاخلاقى • انه يتطور من خارج الأنا نتيجة التمثيل Assimilation الذى يقوم به الطفل لمعايير ابويه بشأن ما هو حسن وفاضل وما هو ردىء وآثم • والطفل ، بتمثيل سلطة أبويه الاخلاقية ، يستبدل سلطانه الداخلى بسلطانهما • وهذا الامر يمكن الطفل من السيطرة على سلوكه ويجعله يسير باتجاه ما يرغبه الابوان ، وبذلك يضمن رضاهما ويتجنب عدم ارتياحهما • وبعبارة اخرى فان الطفل يتعلم ليس فقط الخضوع لمبدأ الواقعية من اجل الحصول على اللذة وتجنب الالم ، وانما يحاول فى ان يسلك وفقا لآراء ابوية • ان الفترة الطويلة نسبيا والتى يعتمد الطفل فيها على ابويه تساعد على تكوين الأنا العليا •

تتكون الأنا من جانبين فرعيين ، الأنا المثالية Ego-ideal والضمير Conscience الأنا المثالية تعنى بتصورات الطفل عن الاشياء التى تطابق ما يعتقده أبواه على انها حسنة من الناحية الاخلاقية • ويوصل الابوان معاييرهما فى الفضيلة الى الطفل وذلك بمكافأته عن الخلق الذى يتفق ومعاييرهما • فاذا ما كوفىء الطفل مثلا باستمرار على أناقته وتربيته فان الاناقة تصبح احدى مثله • والضمير ، من ناحية اخرى ، يعنى بتصورات الطفل التى تطابق ما يعتقده ابواه على انها سيئة من ناحية الاخلاقية • وتتكون هذه التصورات خلال الخبرات المتصلة بالعقاب • فاذا ما عوقب الطفل باستمرار على قذارته ، فان القذارة تبعا لذلك تعتبر شيئا سيئا • ان الأنا المثالية والضمير يكونان الجانبين المتقابلين للعملة الاخلاقية الواحدة •

ما هى المكافأة والعقاب التى يتمكن بواسطتها الابوان من تكوين الأنا العليا عند الطفل ؟ المكافأة والعقاب نوعان ؛ مادي ونفسى • تشتمل المكافأة المادية على ما يرغب فيه الطفل • انها اشياء كالطعام واللعب والام والاب والملاطفة والرقة • اما العقوبات المادية فهى ايذاء مؤلم يقع على جسم الطفل كالضرب والحرمان من الاشياء التى يريدها • ان المكافأة النفسية الرئيسة تكون فى الرضى الابوى الذى يفصح عن نفسه بكلمة أو تعبير فى الوجه • الرضى هو الحب • ان البخل بهذا الحب يكون الصورة الرئيسة للعقاب النفسى • وقد يتجلى العقاب النفسى فى التحذير اللفظى او بنظرات الاستهجان • ان المكافأة والعقاب الماديين تعنى حب الطفل وعدمه • فالطفل الذى يضرب لا يشعر باذى

الضرب فقط وانما يشعر بأن الذى ينزل العقاب فيه ينبذه ، اى انه يحرمه حبه . ومع ذلك فان التعبير عن الحب والحنان وعدمه يحدد وقع قوته على الطفل بالدرجة الاولى بما لذلك من علاقة بتطمين الحاجات الاساسية او عدم تطمينها . الطفل يحتاج الى حب امه لانه تعلم بأن الام التى تبخل بحبها قد تمنع عنه الطعام وبذلك تطيل من حالة التوتر المؤلمة . وشبيه بذلك يحاول الطفل ان يتجنب عدم رضى ابيه لانه تعلم بأن الاب غير الراضى قد يضربه ويؤلمه . واخيرا ، مهما كان مصدر المكافأة والعقاب ، فانها تعتبر ضروف من شأنها تقليل او زيادة التوتر الداخلي Inner tension

ولكي تتمكن الأنا العليا من فرض سيطرتها على الطفل ، تلك السيطرة التى يملكها الابوان ، فانه لمن الضرورى أن يكون لها القوة لفرض قوانينها الخلقية . والأنا العليا ، كالابوين ، تفرض قوانينها بواسطة المكافأة والعقاب . الانا تخول فى تنفيذ المكافأة والعقاب لانها بفضل سيطرتها على اعمال الشخص تكون مسئولة عن حدوث الاعمال الخلقية واللاخلقية . واذا كان الفعل مطابقا لمعايير الانا العليا الاخلاقية فالانا سوف تحصل على المكافأة . ومع ذلك فليس من الضرورى أن تقوم الانا بعمل مادى واقعي تثيبها عليه الانا العليا او تعاقبها .

قد تكافأ الانا او تنال العقاب لمجرد التفكير فى عمل شىء ما . فالفكر بنظر الانا العليا كالعمل . وبهذا الشأن تشبه الأنا العليا الأنا السفلى من حيث عدم التفريق بين الشىء الذاتى والشىء الموضوعى . وهذا يفسر لنا الكروب وآلام الضمير التى قد يعانيها شخص يحيا حياة فاضلة . تعاقب الأنا العليا الأنا لتفكيراتها السيئة ، ولو انه لم يتح لهذه التفكيرات السيئة ان تترجم الى الواقع .

ما هى مكافآت وعقوبات الانا العليا ؟ انها مادية او نفسية . قد تخاطب الانا العليا شخصا اتبع طريق الفضيلة بهذا الخطاب « لقد كنت طيبا وقتا طويلا ، ولك الآن ان تلذذ نفسك وتتمتع بوقت طيب . » وقد يكون ذلك على هيئة وجبة طعام غالية او راحة طويلة او تطمين جنسى . والعطلة مثلا تعتبر مكافأة بعد عمل شاق .

وقد تخاطب الانا العليا الشخص المتجاوز اخلاقيا بهذا الخطاب « لقد كنت سيئا وسوف تعاقب بشىء يجلب لك عدم الراحة . » وعدم الراحة قد تجلبه معدة مضطربة

او جرح او فقدان شيء ثمين • ان بصيرة فرويد في الشخصية الانسانية واعمالها المعقدة هي التي كشفت عن السبب المهم الذي يبين سبب مرض الناس وتعرضهم للحوادث وفقدانهم للاشياء • ان سوء الطالع بألوانه المختلفة يشتمل من بعيد او قريب على العقاب الذاتي Self-punishment لعمل تم القيام به بصورة مخطوءة • ومثال ذلك الشاب الذي حطم سيارته بعيد قيامه بعلاقات جنسية مع فتاة ما • ان الشخص عادة وبطبيعة الحال غير دار بطبيعة العلاقة القائمة بين ضميره الآثم وبين حصول الحادثة •

ان المكافآت والعقوبات النفسية التي تستخدمها الانا العليا هي الشعور بالاعتداء والشعور بالاثم والنقص على التعاقب • فالانا Ego تتيه كبرياء عندما تكون قد تصرفت تصرفا فاضلا او فكرت تفكيرا فاضلا ، وهي ليعتريها الخجل من نفسها عندما تكون قد أذعنت للغواية • ان الاعتزاز بالذات مساو لحب الذات Self-Love وان الاثم والنقص مساو لاحتقار الذات Self-hate ؟ ان هذه الاشياء ان هي الا دلالات باطنية للحب والرفض الابويين •

الانا العليا في الشخصية ممثل للقيم الموروثة والمثل الاجتماعية كما هي معطاة من الآباء الى الابناء • وهنا علينا أن نفهم بأن أنا الطفل العليا ليست انعكاسا لخلق الابوين وانما للانا العليا عندهم • فالراشد قد يقول شيئا ويعمل شيئا آخر • ان الشيء الذي يقوله الراشد مدعوما بالعقاب والثواب هو الذي يؤثر في صوغ المعايير الاخلاقية للطفل • ان المدرسين ورجال الدين والشرطة ـ او اي شخص له تأثير على الطفل ـ يلعبون نفس الدور الذي يلعبه الابوان في التأثير على الطفل • ان استجابات الطفل لاوائك تقرر الى حد كبير ما هضمه الطفل من قيم أبويه في مطلع حياته •

ما هو الغرض الذي تخدمه الأنا العليا ؟ انها تخدم بصورة مبدأية غرض السيطرة على البواعث التي يهدد التعبير المطلق عنها استقرار المجتمع وتحاول تنظيم هذه البواعث• هذه البواعث هي الباعث الجنسي والاعتدائي • ان عدم الطاعة والتمرد والفضول الجنسي امور سيئة وغير اخلاقية • ان الراشد المضطرب جنسيا والذي يحلوله انتهاك القوانين والوقوف ضد المجتمع لشخص شرير • ان الانا العليا التي تضع قيودا داخلية على

اللا قانونية والفوضى تمكن الشخص من أن يكون عضوا نافعا فى المجتمع وثيق الصلة بالقانون •

واذا كانت الانا السفلى نتاجا للتطور والمعبر السيكولوجي لما يملكه الفرد من امور بيولوجية ، واذا كانت الانا Ego نتاجا لعلاقة الفرد بالحقيقة الموضوعية واذا كانت هذه الانا مركزا للعمليات العقلية العالية ، فان الانا العليا يمكن أن تعتبر حصيلة التطبع الاجتماعى Socialization وعربة التراث الثقافى •

على القارىء أن يعلم بأنه ليس هنالك من حدود دقيقة بين هذه الجوانب الثلاثـة من الشخصية • ولايمكن ان يكون لكل جانب من هذه الجوانب كيانا قائما بذاتـه بمجرد الاسم الذى نطلقه عليـه • ان الاسماء ، الأنا السفلى والأنا العليا ، لا تعني فى الواقع شيئا بحد ذاتها • انها مجرد طرق اختزالية لعمليات مختلفة ووظائف وميكانيكية وداينامية داخل الشخصية ككل •

تتكون الأنا من الأنا السفلى والأنا العليا من الأنا • وهذه الجوانب الثلاثة مستمرة فى تفاعلها ويمتزج كل جانب منها بالجانب الآخر خلال فترة الحياة •

مصادر البحث

Freud, Sigmund. (1900.) The Interpretation of Dreams, Chap. 7. London : The Hogarth Press, 1935.

Freud, Sigmund. (1911.) "Formulations Regarding the Two principles in Mental Functioning." In Collected Papers, Vol. IV, Pp. 13 — 21. London : The Hogarth Press, 1946.

Freud, Sigmund. (1923.) The Ego and the Id. London : The Hogarth Press, 1947.

Freud, Sigmund. (1925.) "A Note upon the 'Mystic Writing Pad.' " In Collected Papers, Vol. Pp. 175—80. London : The Hogarth Press, 1950.

Freud, Sigmunol. (1925.) "Negation." In Collected Papers, Vol. V, Pp. 181 — 85. London : The Hogarth Press, 1950.

Freud, Sigmund. (1933.) New Introductory Lectures on Psychoanalysis. Chap. 3. New York : W. W. Norton & Company, Inc., 1933.

Freud, Sinmund. (1938.) An Outline of Psychoanalysis, Chap. I. New York: W. W. Norton Company, Inc., 1949.

هيرودتس فى العراق*

نقله الى العربية ، وقدم له ، وعلق عليه**:

فؤاد جميل

ولد « هيرودتس » (ابو التأريخ) قبيل حرب الاغريق مع الفرس ، وعاش حتى زمن حرب البيلوبونيس ، واشتهر اسمه سنة ٤٦٨ ق•م• انه اذن وليد الحرب الاغريقية — الفارسية ، نشأ نشأة تجارية عملية ، ثم نبه صيته قاصا موهوبا غزيرالمادة ، طلعه ، يكلف بالعجائب والغرائب ؛ كما عدّ من اعلام النثر اليونانى المرسل • و (تأريخ هيرودتس) مجموعة مدونات عن رحلاته الى : مصر ، وغزة ، وصور ، والفرات ، وبابل ، وشمالى بحر الارخبيل ، والبوسفور • ان (تأريخه) هذا اول مؤلف حمل الاغريق على الاعتقاد بان فى النثر جمالا واثارة لا ينفرد بهما الشعر • لذلك اطلق عليه (شيشرون) لقب ابى التأريخ لانه اول من وضع كتابا محكم الاسلوب ، سهل القراءة ويفصح بجلاء عن سعة اطلاع المؤلف فى النواحى : التأريخية ، والجغرافية والادبية•

وهيرودتس كغيره من البلدانيين — المؤرخين القوامى يسجل ما يسمع ويرى ••• ولكنه فى (تأريخه) لا يسجل الا الرأى السديد ، فهو يرى انمشاهدة العيان ، والاستماعالى نثير الاقوال، وقراءة ما يكتبه الكتاب يجب أن يدعم كله بالبحث والاستقصاء

---

* مترجم الى الانكليزية بقلم جورج رولنصن ومثبت كملحق فى كتاب :
[لين — معضلات بابلية • Lane : Babylonian Problems]
وقد اشرنا الى ارقام الكتب والفصول على ما وردت فى الاصل أى (تأريخ هيردتس) [المترجم]

** ازجى جزيل الشكر الى البحاثة الاثارى المحقق الاستاذ فؤاد سفر مفتش التنقيبات العام فى العراق لاسهامه ، فى حدود اختصاصه ، بالتعليق على هذا الفصل • ولقد اشرت الى ذلك فى مواضعه • [المترجم]

الذاتيين وأن يخضع للنقد الباده • وانك لتجده فيما يكتب يورد الروايات المختلفة والآراء المتباينة ، ولكنه يحتفظ برأيه الخاص أن لم تكن هناك ادلة تدعم هذا الرأى بالذات •

ان كتاباته لتجلو لنا « شخصيته » : فهو رحاله دقيق الملاحظة يحسن الاستماع ، ويحب الغريب ، ويكلف بالنكات ؛ وهو متسامح لا تشوب تفكيره شائبة التعصب • كما انه شديد الثقة بما يدلى من معلومات ؛ وهو يبحث عنها فى جميع المظان ، وفى كل مكان » •

واليك ما ورد فى (تأريخ هيرودتس) عن [العراق وما حوله] على ما خبره (ابو التأريخ) فى ايامه :

فى بلاد آشور مدن كبيرة ، جد كثيرة • ان أشدها أيدا ، واعظمها شأنا فى هذا الزمن بالذات : (بابل)•••فاليها انتقل ، اثر سقوط (نينوى) ، مقر الحكومة واليك وصفها : تقوم المدينة فى سهل واسع ، مربع الشكل طول ضلعه ١٢٠ فرلونج (١) فمجموع اضلاع المربع ٤٨٠ فرلونج (٢) • هذه سعة المدينة ولا تدانيها ، نباهة شأن مدينة اخرى • واول ما يطالعك منها خندق مائي ، واسع ، ذو غور ، وخلفه سور عرضه ٥٠ ذراعاً ملكية وارتفاعه ٢٠٠ (والذراع الملكي أطول من الذراع المعتاد بـ ٣ أصابع) (٣)

وحرى بى ان لا اغفل ذكر حفرة صبّت فى الخندق المائى العظيم ، او ذكر طريقة

*** للوقوف على سيرته وآثاره على وجه التفصيل ، راجع :
Rawlinson : History of Herodotus. و The Oxford Classical Dictionary

(١) الفرلونج Furlong = ١٧ر٢٠١ مترا ، ١٧ر٢٠١ × ١٢٠ = ٢٤١٤٠ مترا• ان طول ضلع المدينة يزيد على ٢٤ كيلومترا ولعل فى ذلك شيئا من المبالغة (المترجم) •

(٢) وجد المنقبون الالمان نتيجة حفرياتهم (١٨٩٩ - ١٩١٧) ان اسوار المدينة الباقية هى كما يأتى : طول السور الخارجى (٤ - ٥) كيلو مترات وطول السور الداخلى (١٧٠٠) متر - تعليق : فؤاد سفر •

(٣) الكتاب الاول - الفصل ١٧٨

بناء السور ايضا ، اذ ما ان قام القوم بحفر الخندق المائى الا صنعوا من التراب المستخرج منه لبنا ، ثم ادخلوه المفاخر فاصبح آجرا ، وبالآجر كانوا يبنون حوافى الخندق والسور وكانوا يستخدمون القير الحار فى البناء بدلا من السمنت ، وهم يجعلون بين كل ١٣ صفا من صفوف الآجر طبقة من البردى المضفور ، وعلى حافة السور العليا بنوا بنيات صغار، تأتلف الواحدة منها من غرفة واحدة ... وتواجه كل غرفة الاخرى ، وبين الغرف مسافة تكفى لاستدارة عجلة ذات اربعة جياد Chariot بيسر واسماح (٤) ، وفي السور ١٠٠ باب كبير ، صنع كل باب منها من نحاس أصفر ، وفي كل باب اسكفات (٥) من نحاس أصفر ايضا ، ومراكز جانبية ، وكانوا يأتون بالقير المستعمل فى البناء من (از Is) (٦) وهو جدول صغير يصب فى الفرات عند نقطة قريبة من مدينة تسمى باسمه ، والمدينة هذه على مسافة ٨ أيام من بابل (٧) ، ان فى النهر كداسا مكدسة من القير ، وهو يقسم المدينة الى قسمين ؛ انه (الفرات) يمر من وسطها ، وهو نهر واسع عميق ، سريع الجريان ، ينبع فى (ارمينية) ويصب فى البحر الارثيرى Erythraen Sea (٨) ، وسور المدينة ينحدر على جانبه حتى يلامس الماء ؛ وينحدر جدار المدينة من الجانبين حتى يكاد ان يلامس حافة الجدول ، ومن زوايا انحدار هذا يعلو سور على ضفتى الجدول ايضا ، والبيوت ، فى الأغلب الأعم ، ذوات ٣ او ٤ طوابق ، والشوارع جميعا مستقيمة وليست الاستقامة هذه مقصورة على

---

(٤) راجع Koldewey : Excavations at Babylon (London 1914) ففيه رصف لشكل سور المدينة وعرضه ، (المترجم) .

(٥) فى الاصل Brazen limtels والاسكفة عتبة تعلو النافذة او الباب (المترجم)

(٦) وهى (هيت) الحالية ، وكانت تسمى (ابيولس) ايضا وورد ذكرها فى الكتابات المسمارية باسم (دلدولو) ثم عرفت بعدئذ باسم (اد) – وهو الشكل القديم لاسم هيت – كما اشتهرت منذ القدم بمنابع القار راجع : (بلدان الخلافة الشرقية) ترجمة : كوركيس عواد وبشير فرنسيس ص ٩٠ .

(٧) كان ازدهار بابل على يد الملوك الكلدانيين ابان عهد الانبراطورية البابلية الجديدة واستولى عليها الفرس سنة ٥٣٨ ق م وجعلوها المدينة الاولى فى ارض بابل ومنزلا شتويا لملوكهم . استولى عليها الاسكندر كما استولى عليها كورش من قبل بدون مقاومة ، وحال موته (سنة ٣٢٣ ق م) دون اعادة بنائها وجعلهاعاصمةلانبراطوريته الواسعة .
راجع Oxford Classical Dictionary : Babylon (المترجم)

(٨) وهو البحر العربى : تعليق : فؤاد سفر

الشوارع الموازية للنهر ، وانما هي صفة الشوارع العرضانية المؤدية الى النهر ايضا . وفي نهاية الشوارع الأخيرة ابواب السور الخفيضة القائمة على حافة الماء . انها على طرف المجرى ، وعلى غرار الابواب الكبيرة الموجودة في السور البراني ، صنعت من نحاس أصفر ، وانها قبالة ماء المجرى تماما (٩) .

وخط الدفاع الرئيس في المدينة هو السور البراني . وهناك آخر جواني (١٠) أقل من الاول ثخنا وقوة . وفي القلب من كل قسم من اقسام المدينة حصن . وكان قصر الملوك قائما في احدها ، وهو محاط بجدار ضخم متين . وفي الثاني قام المبنى المقدس المخصص ل [جوبتير بيلوس (بعل) (Jupiter Belus)] وهذا بناء مربع الاركان ، طول ضلعه فرلونجان ، وله ابواب من نحاس أصفر خالص ، وكل ذلك كان قائما في زمني . وفي وسط المبنى هذا برج من حجارة مصمتة ، وطول ضلعه فرلريج واحد ، يعلوه برج ثان ، فثالث حتى يبلغ عدد الابراج ثمانية . والمرقاة الى البرج الاعلى خارجية ، وهي طريق تلتوي حولها جميعا . وما ان يصل الصاعد الى

صورة خيالية لسور بابل

(٩) الكتاب الاول _ الفصل ١٧٩

(١٠) الجواني والبراني من العامي الفصيح (المترجم)

منتصف الطريق الا يجد فيه مقاعد اعدت للاستراحة ، وكثير من الناس يجلسون عليها هنيهة ثم يتابعون الصعود الى القمة (١١) .

وفى اعلى الابراج هذه معبد واسع ، فيه زخرف كثير وزينة ، وعلى جانب منه منضدة من ذهب ، وليس فيه أى تمثال ، ولكن فيه غرفة تسكنها امرأة وحيدة . انها ، على ما يؤكده كهنة الرب هذا ، من الكلدان ، مجتباة من قبل الالهة ، ومفضلة على نساء البلاد جميعا (١٢) .

وانهم ليقولون ، وان كنت لا اقيم لقولهم هذا وزنا كبيرا ، ان الرب ينزل بنفسه فيدخل الغرفة وينام على اريكة فيها . وتلك قصة تشبه القصة التى يتناقلها اهل (مصر) عما يحدث فى (طيبة) حيث تمضى احدى النسوة الليلة فى معبد (جوبتر) الطبيعى . ويحرم على المرأة ، فى جميع الاحوال ، ان تتصل بالرجال . وهذا شبه ما يجرى فى بطارا Patara من اعمال (ليقية Lycia) تماماً حيث تجلس الكاهنة فى المعبد كل ليلة ، ان جاء فى التنجيمات Oracles ما يفيد حبسها فى المعبد لهذا القصد بالذات (١٣) .

وفى أسفل المبنى نفسه معبد آخر ، وفيه تمثال ل (جوبتر) كبير الالهة ، وهو جالس . وامام التمثال منضدة كبيرة من ذهب ، فالعرش الذى يتبوأه ، ومنصته التحتانية،

---

(١١) راجع حول هذا البرج : Parrot : The Tower of Babylon

فقد نشر فيه مؤلفه رقيما من العهد السلوقى (٣٠٠ ق م) يصف هذا البرج وعدد طبقاته وابعاد كل طبقة فيه . والرقيم يؤيد وصف هيرودوتس هذا . [تعليق : فؤاد سفر] .

(١٢) الكتاب الاول ـ الفصل ١٨١

(١٣) الكتاب الاول ـ الفصل ١٨٢

(١٤) كان برج بابل مخصصا لعبادة (مردوخ) كبير آلهة المدينة . اما جوبتر ، او بعل ، او زيوس ، فاسم آخر للاله (شمش) من الآلهة البابلية الرئيسة . وعلى ذلك أخطأ هيرودتس فى تعيين اله هذا البرج [تعليق : فؤاد سفر] .

من ذهب • واعلمنى الكلدانيون ان كمية الذهب فى هذه جميعا تبلغ ٨٠٠ طالن (١٥). وفى خارج المعبد مذبحان ، يوقد الكلدانيون فيهما البخور ، ويبلغ مقداره ، ابان الاحتفال بعيد الرب الف طالن • وكان فى المعبد هذا ايام كورش Cyrus تمثال رجل يبلغ ارتفاعه ١٢ ذراعا والتمثال مصنوع من الذهب الخالص • ولم ار التمثال هذا بعينى ، فانا اروى ما نقله لى الكلدانيون عنه • وقرر دارا Darius بن هستاب Hystapes (١٦) ان ينقل هذا التمثال ، ولكنه لم يجسر على ان يمسه بيده • وقتل اكسركس Xerxes بن دارا كاهنا حال دون اخذه التمثال والمضى به • وفى مبنى المعبد هدايا خاصة به ، هذا الى الحلى التى اشرت اليها انفا (١٨) .

وحكم (بابل) ملوك كثيرون عنوا ببناء أسوارها ، وتزيين معابدها ، وسأتطرق الى خبرهم فى تأريخ آشور • وممن حكمها امرتان ، تدعى لاولى [سمير اميس] (١٩) وقد استغرق حكمها خمسة اجيال ، قبل ان يجىء حكم الاخرى • وبنت الملكة سمير اميس سدادا حرية بالمشاهدة ؛ انها تقوم فى السهل الكائن على مقربة من بابل ، والغاية منها السيطرة على مياه النهر الذى كان يطغى احيانا فتغمر مياهه ما حولها من الارض (٢٠) .

اما الملكة الاخرى فتدعى (نيتوكريس Nitocris) وهى اكثر رجاحة

---

(١٥) فى الاصل Talents' Weight والطالن وزن قديم ويقارب ١٠٠ كيلو (وزنه) [المترجم] •

(١٦) فى تاريخ مختصر الدول لابن العبرى : داريوش بن يشتب (المترجم)

(١٧) وقد ورد اسمه فى (العهد القديم ـ التوراة) ـ أحشويرش [تعليق : فؤاد سفر]

(١٨) الفصل ١٨٣ ـ الكتاب الاول •

(١٩) انها ملكة آشورية اسمها [سمورامت] وقد حكمت فى العاصمة الآشورية (كالح) المعروفة اليوم بـ (نمرود) وذلك نيابة عن ابنها الطفل ، وكان ذلك فى القرن الثامن قبل الميلاد • [تعليق : فؤاد سفر]

(٢٠) الفصل ١٨٤ ـ الكتاب الاول •

عقل من الملكة الاولى • لقد خلدت حكمها باعمال سأتطـــرق الان الى وصفها : كانت الملكة ترقب بعين ساهرة تعاظم قوة أهل مادى [٢١] وما يقومون به من مشاريع مالها من فواق • ذلك انهم استولوا على كثير من المدن ، ومنها (نينوى) فأصبحت الملكة تتوقع غزو بلادها ايضا • لذلك اتخذت كل ما يلزم لتحصين انبراطوريتها • وكان نهر الفــرات يخترق المدينة فى مجرى مستقيم فعمدت الملكة الى القيام بحفريات على مبعدة من مجراه وصيّرته متمعجاً يستطيع المرء ان يراه ، ثلاث مـــرات ، من القرية الاشـورية المسماة اردريكا Arderica • لذلك فمن يروم الســـفر من بحرنا الى بابل اليـوم لا معدى له من ان ينزل الى النهر ويصطدم بهذا الموقع ٣ مرات وفى ٣ أيام مختلفة • وبنت الملكة سدة على كل ضفة من ضفتى الفرات ، وكانت كل ســـدة منها على غايـــة من السعة والامتداد ، كما انها حفرت حوض بحيرة على مبعدة كبيرة من (بابل) قرب المجرى • وتم اغراق الحوض فى كل مكان حتى وصل الماء النقطة التى يستقى عندها النـــاس • وبلغت سعة البحيرة حدا كبيرا : فطول محيطها ٤٢٠ فرلونـــج ، واســـتخدم التراب المستخرج من حفر البحيرة فى بناء السداد القائمة على حوافى الماء • وما ان تم ذلك

---

(٢١) مادى Media هى البلاد الجبلية الواقعة فى الجنوب الغربى من بحر قزوين • وكانت مركزا للانبراطورية المادية طوال قرن • وأهل (مادى) من السلالة الهندية- الاوروبية اصلا ولغة ، وهم يمتون الى الفرس بصلة • وكانوا فى اول عهدهـم قبائل رحالة ، او من مستوطنى القرى المحصنة • وقد شن الاشوريون عليهـم حربا شعواء ، ويغلب عليهم أنهم كانوا يسكنون قرب بحيرة [اورمية] ، بادىء الامر ، ثم توطنوا فى منطقة همدان الحالية - (تعليق : فؤاد سفر) لقد استطاع احد ملوكهم النابهين المسمى كى اخسار Cyaxares أن يخضع البـــلاد المجاورة لمملكته ويتحالف مع نبوبلاصر البابلى فيهـزم الآشوريين ويستولى على عاصمتهم (نينوى) سنة ٦١٢ ب م • وقد استطاع ملك آخر من ملوكها يدعى استياكس Astyages ان يوســـع حدوده على حساب (بابل) لـــكن كورش استطاع ان يهزمه فاصبحت الانبراطورية المادية خاضعة للفرس • راجـــع Oxford Classical Dictionary [المترجم]

كله الا أمرت الملكة بأن يؤتى بالحجارة لتبنى بها حافة الخزان كله • وهكذا أصبح النهر متمعجا ، كثير العطفات ، كما غدا جريه بطيئا بسبب من ذلك • ولو اراد امرؤ ان يمخر فيه مسافرا وجب عليه ان يدور ليتاخم البحيرة فى خاتمة المطاف •

لقد جرى ذلك كله على مقربة من (بابل) ومسالكها ؛ وكانت غاية الملكة من وراء ذلك الحيلولة دون اتصال اهل (مادى) باهل (بابل) وان يبقى الماديون فى متاهة الجهل من شؤون مملكتها (٢٢) •

وهكذا تمت الاستفادة من الحفريات فى تحصين المدينة • وعنيت (نيتوكريس) بمشروع آخر وهو ثانوي ان قيس بالمشاريع التى ذكرناها • سبق لى القول : ان النهر يشطر المدينة الى شطرين ظاهرين ؛ فلو اراد المرء ، ابان عهد الملوك السابقين ، ان ينتقل من شطر لآخر وجب عليه ان يعبر النهر بقارب ؛ وعلى ما يتراءى لى ، لا يخلو ذلك من مشقة بالغة • لذلك فكرت (نيتوكريس) – وهى تحفر البحيرة – ان تزيل كل عقبة فتضيف الى اثار حكمها (بابل) اثرا خالدا جديدا • امرت بان يقطع الصفاح اولا ، ويعد كثير منه ، ثم ما ان فرغت من حفر حوض البحيرة الا حولت مجرى الفرات كله الى هذا الحوض • لذلك كانت هناك فترة من الزمن خلا ابانها مجرى الفرات من الماء بينا امتلأ الحوض به • ثم عمدت الملكة الى رص الطابوق ، والطابوق هذا يشبه الذى استخدم فى بناء سور المدينة ، صفوفا على ضفتى المجرى والمراسى الكائنة امام ابواب النهر • ثم انها اعدت كل ما يلزم من مواد البناء فبنت فى قلب المدينة تقريبا قنطرة من حجر ، وجعلت اجزاءها متماسكة بالحديد والرصاص • وكانوا يضعون بين عقد وآخر من عقودها دكة من خشب يمشي عليها السكان ابان عبورهم المجرى ، وكانوا يرفعون الدكات هذه ليلاً ليمنعوهم من الانتقال من جهة الى أخرى وليحولوا دون ارتكاب السرقات • وما ان تم امتلاء الحوض بماء النهر ونصب الجسر الا حول الفرات الى مجراه الاصلى ، وبذلك تحقق القصد من وراء المشروع واستطاع السكان بواسطة الحوض ان يحصلوا على الفائدة المتوخاة من الجسر (٢٣) •

---

(٢٢) الفصل ١٨٥ الكتاب الاول

(٢٣) الفصل ١٨٦ الكتاب الاول •

وفي هذا الوقت بالذات وضعت الاميرة خطة رائعة من خطط الخداع ؟ ذلك انها امرت ببناء قبر لها في اعلى باب من ابواب المدينة الرئيسة ، وبذلك اصبح القبر يعلـــو رؤوس المارة من اهلها جميعا • ثم انها امرت بان تحفر فيه الكلمات التالية : « ان احتاج احد ممن سيخلفني على عرش بابل الى كنز فليفتح قبري هذا وليأخذ منه ما يشاء ••• شريطة ان يكون في حاجة الى ذلك حقا ، والا لن يكون عمله هذا في صالحه ابدا » • ولم يمس القبر هذا احد بسوء حتى جاء (دارا) الى مملكة بابل • وخيل اليه ان مــن الفضاعة ان لا يكون في مقدوره استخدام الباب ، وان فوقه كنزا من المال مخزونا بلا جدوى ، والكنز ، بعد ، في متناول يديه ، ولا يستطيع اليه سبيلا •

ان (دارا) لا يمكنه ان يمر من الباب ما دام الجدث موجودا فوقه ، لذلك عمد الى فتح القبر ، لكنه لم يجد فيه كنزا ، وانما وجد الجثمان المسجى فقط وكتابة هذا نصها : « انك لم تشبع من المال ولا تأبه بالطريقة التي تتوسل بها الى جمعه لهذا عمدت الى خرق خرمة الموتى [٢٤] • »

••• وسار (كورش) في حملة موجهة الى ابن الاميرة ، واســـمه كاسم ابيـــه لابينيتس Labynetus [٢٥] وكان ملكا على الاشوريين • وكانوا يعدون للملك ان سار الى حومة الوغى الزاد بعناية ، ويسيرون معه ما يملك من الانعام • واستصحب معه المشرب ماءا من نهر شواسب Choaspes [٢٦] وهو نهر يجرى على مقربة من

---

(٢٤) الفصل ١٨٧ الكتاب الاول •

(٢٥) واضح أن هذا الاسم محرف من (نابونيئد) آخر ملك كلداني حاربه (كورش) قبل استيلاء الاخير على بابل • تعليق : فؤاد سفر •

(٢٦) وانك لتجد صدى قول (هيرودتس) هذا عند كتاب آخرين ، وجلهم يردده لكن (سترابون Strabo) يذكر الـ (يوليس Eulaeus) فقط (وبلنى Pliny) يذكر الاسمين معا • ولعلهمـا يجانبـان الصـواب اذ يحسـبان ان (يوليس) و (شواسب) نهران مختلفان ، فاسم (يوليوس) (أو يولاى دانيال) اطلق ، على ما يبدو ، على الفرع الشرقى لنهر كرخه ـ وهو الذى يتفرع من المجرى الرئيس في (باى ـ بل Pai Pul) ثم يلتقى بنهر شابور Shapur ويصب في نهر كارون • تعليق : (لين) •

السوس Susa (٢٧) ، ذلك ان ملوك فارس لا يستمرئون غيره شرابا . وحيثما سار الملك منهم فان هذا الماء يحمل على عربات ذات اربع عجلات تجرها البغال . وماء نهر شواسب Choaspes المحمول عليها مغلى وصالح للشرب . انهم يضعونه فى جرار من فضة ، وتنقل مع الملك من مكان الى مكان (٢٨) .

وبلغ (كورش) فى طريقة الى [بابل] ضفاف نهر الجنديس The Gyndes (٢٩) النابع من جبال الماتين Matienian Mountains (٣٠) . ان النهر هذا ، بعد ان يجرى فى اراضى الدردان Dardanians يصب فى نهر دجلة . ويمر نهر دجلة بعد

---

(٢٧) السوس (Susa) او « مدينة الشوش » كانت عاصمة (عيلام) ثم عاصمة الاخمينيين ، ولقد بنى فيها الملك دارا الاول قصره الشهير وكان اسمها فى ايام السلوقيين والفريثيين (سلوقية - على - نهر يوليس) واسفرت الحفريات التى اجريت فيها عن وجود كتابات يونانية كثيرة .
راجع ''Oxford Classical Dictionary, Susa''
وكانت حضارة العيلاميين الذين اتخذوا (السوس) عاصمة لهم تشبه فى كثير من وجوهها حضارة بابل ، منافستها فى جميع العهود .
راجع Hustchinson's ''Story of the Nations''

[المترجم]

(٢٨) الفصل ١٨٨ الكتاب الاول .

(٢٩) الجنديس هو نهر ديالى ، ما فى ذلك شك ؛ وذلك : (أ) لعدم وجود نهر آخر صالح للملاحة بعد الزاب الاسفل ، بين سارديس وسوسا ، غيره ؛ (ب) ليس هناك من نهر مهم يمر بين الجبال ونهر دجلة ، ويقطع الطريق بين اكباتانا Agbatan ، وبابل غير هذا النهر . فلو لم يكن الامر على ما ذكرنا لكان نهر (كانيكر) المتفرع فى أرض مندلى الى فروع صغيرة عدة ، والذى يتلاشى راويا اراضيها ، هو اقرب الانهر الى المقصود . تعليق : لين .

(٣٠) لا لبس بين هذا الاسم واسم جبال مارتينى فى آسية الصغرى ، ولعل سكان المنطقتين من اصل واحد ، ولكن لكل منهما صفات متمايزة عن الآخر ، ويظهر ان هيرودتس يزعم ان هذا الشعب سكن سلاسل الجبال الممتدة من منبع نهر ديالى ، قرب همدان ، والى جبال آراكس قرب ارضروم فى ارمينية العليا . تعليق : لين .

التقائه بماء الجنديس بمدينة اوبس Opis (٣١) ثم يصب في البحر الاريثري •
وعندما وصل (كورش) الى هذا المجرى ، ولا سبيل الى عبوره الا بالقوارب ، اندفع احد الجياد البيض المقدسة جامحا فخاض ماءه يحاول عبوره ، لكن التيار غلبه فكان الجواد هذا من المغرقين ! وذهل (كورش) من شدة تيار النهر وتوعد بأن يكسر حدته فتستطيع النسوة عبوره بيسر واسماح ، شريطه ان لا يبلغ ماؤه منهن الركبتين • لذلك ارجاء هجمته على بابل حينا من الدهر وشطر جيشة شطرين • ثم أمر بان تؤشر بالحبال مواضع على ضفتي نهر الجنديس ، ويحفر فيها ١٨٠ خندقا ، وتم ذلك فأصبحت كالفروع تتشعب من النهر في مختلف جهاته • لقد استطاع (كورش) أن يحقق وعيده،

---

(٣١) هذا هو المعنى الذي يفصح عنه قول هيرودتس ، وان رماه رينيل Rennell بالجهل • وموقع مدينة (اوبس Opis) مشكوك فيه • ان سترابون Strabo يدعوها بالسوق او البندر emporium وقد يحملنا ذلك على ان نتصور موقعها في اسفل النهر • اما زينفون Xenophon فيجعل ذلك في حكم المستحيل ، وما يقوله هذا يجب أن يحمل على محمل الصدق ؛ وعلى الرغم من هذا كله فمن المحتمل ان تكون (اوبس) على مقربة من الجهة السفلى لملتقى نهري ديالى ودجلة ؛ او عند نقطة الالتقاء بالذات • ولو لم يغرب عن بالنا ان السور المادى الذي يشير اليه (زينفون) هو سور بابل وان الاغريق عبروا دجلة في سيتاسي Sittace التي كانت واقعة على طريق بابل ـ السوس فلن نجانب الصواب ان جعلنا (فيسكوس Physcus) الذي يشير اليه (زينفون) هو نهر ديالى بالذات وبذلك نستطيع ان نجعل موقع (أوبس) في موقع (خرائب خفاجي) وعلى مقربة من ملتقى النهرين • واسم (فيسكوس) مشتق من (هيوبوسكا : Hupuska عنوان ما عثر عليه من كتابات في منطقة السليمانية وفي اسم (Opis) ما يدل على أصلها الاغريقي ، وباعتبار انها تنتهي بـ Is • ان ضبط التهجئة المسمارى Cuneiform Orthography هو (هوفي ـ هيوبيا Hupiya واعتقد ان اسم (خفاجي) لا يعدو ان يكون تحريفا للاسم الاصلي • تعليق : لين •

(*) اختلف الآثاريون في تعيين موقع (اوبس) واتجه بعضهم حديثا الى تعيين موقعها بـ (تل عمر) بازاء (طيسفون) على الضفة اليمنى من دجلة • اما تلول خفاجي فلا يمكن ان تكون موقع اوبس لانه لا يوجد فيها آثار سكنى احدث من العهد البابلي القديم بينما بقيت (اوبس) آهلة بالسكان حتى زمن كورش •
تعليق : فؤاد سفر •

ويعون من الايدى العاملة العديدة التى عملت على جانبى النهر طوال موسم الصيف (٣٢)

ثأر كورش لنفسه من (الجنديس) فوزع ماءه على ٣٦٠ مجرى (٣٣) ، ومضى فى بواكير الربيع التالى الى بابل وعسكر البابليون خارج اسوارهم ، يترصدون قدومه . واستقرت المعركة على مقربة من المدينة وهزم البابليون بنتيجتها على يد (الملك الفارسى) فانسحبوا الى ما وراء خطوطهم الدفاعية . وتحصنوا بعد ذلك فى مدينتهم وجعلوا حصارهما هيناً يسيراً ، ذلك انهم كانوا يختزنون المواد الغذائية التى تكفيهم سنين عدة ، ولقد اعدوها مسبقا لمثل هذا اليوم العصيب . لقد شهدوا من قبل كورش يخضع الامة تلو الامة فتأكد عندهم انه لن يتوقف ، وستدور الدائرة عليهم بأخرة (٣٤) .

ان كورش اليوم فى متاهة الحيرة ، فالزمن يمر ، وهو لا يمضى نحو المكان المنشود قدما . واقترح عليه أحدهم ، أبان ربكته هذه ، خطة ، لعلها خطرت على بال كورش ايضا ... وازمع على تنفيذها : وضع شطرا من جيشه فى النقطة التى يدخل منها النهر الى المدينة ، ووضع الشطر الآخر فى النقطة التى يخرج منها ، وامر الشطرين بالسير الى المدينة بعد ان ينحسر ماء النهر وان يلتزما قعره ... ذلك أن انحسار الماء عن النهر جعله ضحضاحا ليس بذى غور . وانسحب كورش ومعه رهط من قوات غير محاربة الى المكان الذى حفرت فيه (نيتوكريس) حوض النهر ، وكرر ما قامت به الملكة من عمل

---

(٣٢) الفصل ١٨٩ الكتاب الاول

(٣٣) يقول (رينيل) صوابا ان قصة كورش هذه وشطره (الجنديس) ـ على ماورويت ـ من قصص الاطفال ؛ وفى رأيه ان ماء النهر طغى وربى فأراد كورش ان يتخذ فى النهر سبيلا ، ولكن هذا التأويل لا يبعث على الطمأنينة والرضى . وانى اميل الى جعل القصة كلها فى عداد الاساطير وان انطوت على ما تواتر عن المشاريع المائية الكبرى القائمة على نهر ديالى عند اقدام تلال حمرين . فهناك سد يقوم على النهر ويرفع من مستوى الماء فيه ، وشبكة منظمة من قنوات الرى شقت على جانبه وهناك ٣٦٠ مجرى تتفرع من ديالى ، وبضمنها جميع الفروع المتشعبة من القنوات السبع الكبرى . فان كان كورش حقا صاحب هذه المشاريع الضخام فليس بد من ان يكون قصده من ورائها ارواء البلاد كلها ، وان قصدا كهذا لن يكون له الا اضعف الاثر فى القيام بحملته العدائية بازاء بابل ويحتمل ان يكون اسم (الجنديس) مشتقا من (جذون) المسماوية وهى مدينة أو منطقة كانت على ضفة النهر وتحاذى هبوسكا Hypusca فيما رواه سردنابلس .
تعليق : لين

(٣٤) الفصل ١٩٠ الكتاب الاول

قبلا • لقد حول مجرى (الفرات) الى الحوض ، وكان الحوض آنئذ اشبه ما يكون بالبطائح ينساب اليه ماء النهر فيصبح قعرة الطبيعي مخاضة • وعلى هذا ترك الفرس (بابل) ظهريا ، ودخلوا مجرى النهر وقد انخفض مستواه فلا يكاد يبلغ منتصف فخذي الرجل ، واستطاعوا بذلك بلوغ المدينة بعد حين • ولو قدر لاهل بابل أن يدركوا قصد (كورش) والخطر المحدق بهم لما سمحوا للفرس ان يدخلوا مدينتهم ولعمدوا الى تحطيم قواتهم كليا • لقد كان فى مقدورهم فى مثل هذه الحال ان يغلقوا ابواب الشوارع ، وهي تفتح جميعا على النهر ، ثم يصعدوا الى اعالى الاسوار الكائنة على جانبى المجرى ، وبذلك يقع العدو قنيصة فى شراكهم • لكن الفرس اخذوا اهل (بابل) على حين غرة ، واستولوا على المدينة • وبالنظر الى سعة المكان لم يكن القسم الاكبر من المدينة يعلمون بما أصابهم من سوء ، وعلى ما أفصح عنه بعض نزلاء بابل • وغبر زمان طويل واستولى الفرس على الاقسام البرانية من المدينة واهلها لا يعلمون عن ذلك شيئا • لقد كان اهل بابل لاهين يمرحون ويرقصون فى احدى احتفالاتهم بينما مدينتهم تقع فى أيدى العدو(٣٥) •

هذه ، اذن ، هى الظروف التى اكتنفت الاستيلاء على بابل اول مرة (٣٦) وفى ارض بابل ، كما فى ارض مصر ، شبكه من القنوات • ان اعظمها شأنا قناة تتجه صوب « شمس الشتاء » ويتعذر عبورها الا بقارب • والقناة هذه متفرعة من الفرات ، وتجرى فى مجرى خاص الى (دجلة) ؛ انه النهر الذى كانت (نينوى) راكبة عليه •

ما ان اقلعت قوات اوتانس Otanes الى ساموس Somos الا ثار البابليون واعدوا ما استطاعوا لهم من قوة • وكان « السبعة » يتآمرون على الملك ماكس Magus فاستفادوا من نشوب الاضطرابات كما استعدوا لمجابهة ويلات الحصار ، وقدر الا يطلع أحد من الناس على مايبيتون وما أن أزف الوقت الا أعلنوا الثورة وفق الخطة التالية: جعلوا امهاتهم فى معزل ، واختار كل رجل منهم حفية من اهل بيته ، ومنحوا حق الحياة

---

(٣٥) وكان ذلك فى عام ٥٣٨ ق م تعليق : فؤاد سفر •

(٣٦) الفصل ١٩٠ الكتاب الاول •

(٣٧) الفصل ١٩٣ الكتاب الاول •

لهاته النسوة الحفيات المختارات فقط ، ثم جيء بالبقية الباقية من نسوة المدينة الى مكان واحد ، ولاقين فيه حتفهن جميعا . ونيط بالنسوة اللائى بقين على قيد الحياة اعداد الخبز للرجال ، وما قتلت النسوة الاخريات الا اتقاء ان يأتين على ما فى المخازن من مؤن وذخيرة[٣٨] .

وطرق مسمع (دارا) ذلك فجمع قواته وبدأ الهجمة بالسير على بابل توا وقدما ، ثم ضرب عليها حصارا خانقا . وتجمع اهل المدينة فى الابراج التى تعلوها وانهالوا على (دارا) يرمونه بكل مأثمة من القول ويسخرون منه ومن حشده العظيم . وناداهم رجل قائلا : « لم انتم ، ايها الفرس ، قاعدون ، ولم لا تعودون الى دياركم راجعين ؟ ! ... انكم لن تستولوا على (مدينتنا) هذه حتى تفلى[٣٩] البغال . » تلك قولة بابلي حسب ان البغل لن يفلى أبداً[٤٠] .

وغبرت على ذلك سنة وسبعة شهور واصاب دارا وجنوده نصب شديد وشعروا ان من الصعوبة بمكان عظيم الاستيلاء على المدينة . لقد اصطنعوا لذلك جميع فنون الحرب واساليب سوق الجيش ، لكن الملك لم يكتب له النصر وحاول ان يصطنع نفس السبل التى رفعت كورش فصيرته سيد الدنيا لكن ذلك لم يجده نفعا . لقد بقى البابليون عيونا ساهرة فلم يستطع الى قهرهم سبيلا[٤١] .

وفى شهر العشرين للحصار وقعت معجزة لـ (زوبيروس بن ماكابيسوس Zobyrus Son of Magabysus) احد «السبعة» الذين تآمروا على (ماكس Magus) واسقطوه : ذلك ان بغلة من بغال الحمل والجر ولدت فلوا ! لم يصدق (زوبيروس) الخبر ، بادىء الرأى ، وسار يستطلع جليته . لقد شاهد الفلو بأم رأسه ؟ لكنه امر اتباعه ان لا يذكروا عن ذلك شيئا ؟ ثم شرع يفكر فيه . وخطرت على باله كلمات البابلي التى نطق بها عند بدء الحصار : « انكم لن تستولوا على مدينتنا هذه حتى تفلى البغال» فحسب ان بابل ستشهد الان مصيرها المحتوم . لقد خيل اليه ان ذلك البابلى

---

(٣٨) الفصل ١٥٠ الكتاب الثالث .

(٣٩) فى الاصل (Foal) وتفلى الخيل او غيرها ، تلد فلوا (والفلو ولد الناقة أو غيرها) المترجم

(٤٠) الفصل ١٥١ الكتاب الثالث .

(٤١) الفصل ١٥٢ الكتاب الثالث .

كان ينطق بوحي الهي ... وهكذا ولدت بغلتـه فلواً ! [٤٢] وما أن خامره احساس بأن بابل واقعة فى الاسر لا محالة الا مضى الى (دار) يسأله ان كان يعلق على هذا الامر أهمية كبرى. ولما علم منه أنه يقيم للأمر وزناً كبيراً عاد يتدبر الأمر من جديد عساه يستطيع ان يحول كفة النصر اليه فيستولى على بابل شخصا . ان فارس تعـلى من شأن جلائل الاعمال علوا كبيرا لذلك اخذ يستعرض جميع السبل المؤدية الى خضد شوكة المدينة لكنه لم يجد من بينها سبيلا يؤدى الى ذلك الا ان يشوه جسمه ويمضى بعد ذلك الى ارض العدو قدما . وخيل اليه ان الامر يسير جد يسر لذلك عمد الى تشويه جوارحه بوجه لا سبيل الى اصلاحها ابدا : لقد جدع انفه ، وصلم اذنيه ، وحلق شعر رأسه ، والهب جلده بالسوط ... ثم وقف على مثل هذه الحال امام (دارا) منتصبا [٤٣] .

وأخذ الغضب من الملك كل مأخذ اذ رأى رجلاً من عليّة قومه على مثل تلك الحال. وسرعان ما وثب من فوق عرشه وسأل (زوبيروس) :

« ليس من رجل يستطيع ذلك غيرك ... ايها الملك ! ... لقد عمدت الى ذلك لانى لا اطيق ان ارى الاشوريين يسخرون من اهل فارس فقال (دارا) : « انك لشقى ايها الرجل اذا ارتكبت باسم الخير نكرا ، وحسبت ان « الشوهة » هذه تساعد على ان نمضى فى حصار المدينة قدما . ايمكن ان تحمل هذه العدو على تسليمها قبل يوم ... فى الحق أنك لمخبول اذ أقدمت على مثل هذا . فأجابه الآخر : « ان قلت لك عما أزمعت عليه لما اكبرت ذلك ابدا . لقد فكرت فى (خطة) ونفذتها ؟ وان لم يخب ظنى فيـك فسنستولى على بابل حتما . سامضى الى العدّو على مثل حالى هذا ، وسأخبر اهلها انك انت الذى فعلت بى هذا ، وفى ظنى انهم سيصدقون قولى وينيطون قيادة جندهم ؟ وما عليك الا ان تتمهل حتى اليوم العاشر من دخولى المدينة ثم تضع فى مكان قريب من ابواب سمير اميس مفرزة من الجند تأتلف من ١٠٠٠ مقاتل ... ولا تأسوا عليهم ان ذهبـوا الى غير رجعه ، ثم انتظر بعد ذلك لسبعة ايام ، وارسل مفرزة اخرى قوامها ٢٠٠٠ رجل الى (نينوى) ثم اجعل على ابواب الكلدانيين قوة اخرى مؤلفة من ٤ الاف رجل . لاتسلح رجال القوتين ابدا ، ولكن اترك لكل رجل سيفه ، ثم اصدر بعد ٢٠ يوما من ذلك الامر

---

(٤٢) الفصل ١٥٣ الكتاب الثالث .
(٤٣) الفصل ١٥٤ الكتاب الثالث .

الى الجند ليهجموا على المدينة من كل مكان • اجعل قوتين من جند الفرس على (باب بعل) و(الباب الكيسى) فاني آمل ، بسبب ما أصبته من نجح أن يثق البابليون بي فيودعون عندي مغاليق هذه الابواب ، وعلى جندي من الفرس اتمام الباقي [٤٤] •

وما ان أصـدر زوبيروس « هذه التعليمات » الا فرّ صـوب أبواب المدينة ، وهو يتلفت الى الوراء كثيرا • ورآته الربايا [٤٥] من ابراج المدينة فنزل رجالها اليه مسرعين وفتحوا له احد ابوابها قليلا ، وسألوه عن خبره ، فقال : « انا زوبيروس وقد هربت من الفرس وانا مستجير بكم • » وسمع الحرس قوله فقادوه ليمثل بين ايـدى الحكام • ودخل (زوبيروس) المحفل واخذ يندب حظه العاثر ويقول : « ان دارا اساء معاملته على ما يرون ، والسبب فى ذلك نصيحة اسداها له ، مفادها ان يرفع الحصار عن المدينـة ما دام الأمل فى الاستيلاء عليها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءاً » ، ثم تابع القول : « ان فى مجيئي اليكم أيها البابليون ، لمكسباً ، وانه لـ(دارا) وجنوده من الفرس لخسران مبين • وان من شوهني سينال عقابه بتعيين ، واني لأعلم ما يجول فى خاطره على وجه اليقين • » ••• هكذا تكلم زوبيروس [٤٦] •

رأى البابليون فارسيا من الرعيل الاول على مثل تلك الحال السيئة ؛ رأوه مجدوع الانف ، مصلوم الاذنين ، وعلى جسده اثار وقع السياط وبقع من دم ••• فاستبعدوا ان يقول الا صدقا ، ولم يرتابوا فى امره ابدا ، لذلك اوشكوا ان يمكنوه من امرهـــم ما يشاء ••• وما ان طلب منهم تولى مركز القيادة الا اناطوا به جماعة من جنـدهم • ومضى بهؤلاء وطوق الـ ١٠٠٠ جندى الذين انفذهم (دارا) اولا ، ثم انقض عليهـــم وذبحهم جميعا • وما ان رأى اهل (بابل) ان افعال الرجل تسبق اقواله شجاعة واقداما الا عمهم السرور واصبح (زوبيروس) مناط ثقتهم المطلقة • وتمهل حتى انقضت الفترة المتفق عليها ، ثم هجم مع عصبة منتخلة [٤٧] من الرجال وذبح القوة المؤلفة من ٢٠٠٠ رجل • وجعلت هذه الهجمة اسمه يتردد على كل لسان • وتمهل ثانية حتى انقضى الموعد

---

(٤٤) الفصل ١٥٥ الكتاب الثالث •

(٤٥) الربايا = الرقباء •

(٤٦) الفصل ١٥٦ الكتاب الثالث •

(٤٧) منتخلة = مختارة •

المضروب ثم قاد جنده الى الموضع الذى كان فيه الـ ٤٠٠٠ رجل واعمل السيف فى رقابهم جميعا • ورفعه النصر المؤزر الاخير الى اوج القوة فاصبح فى نظر اهل بابل رجلا فى أمة ؛ وعقدوا له لواء الجيش كله ، ووضعوا مغاليق المدينة فى يده (٤٨) •

وما زال (دارا) عند (الخطة) المتفق عليها ، لذلك نراه يسير الى اسوار المدينة من كل حدب وصوب ، و (زوبيروس) يسعى جاهدا الى تنفيذ بقيتها • وتجمع البابليون عند اسوار مدينتهم وسعوا الى صد هجمة الفرس بقوة • وهنا فتح (زوبيروس) الباب الكيسى والباب البعلى فولج منهما الاعداء • والتجأ من شهد هذه الخيانة من اهل باب الى معبد بعلى (جوبتر) ومن لم يشهدها لازم مكانه حتى علم بما أحاق بأهل بابل من غدر بأخرة (٤٩) •

وهكذا قدر لبابل ان تسقط كرة اخرى (٥٠) • وما ان اصبح دارا سيد الموقف فيها الا هدم سورها ، ورفع الابواب منه • ان (كورش) لم يقم بمثل هذا عند استيلائه على المدينة فى المرة الاولى • لقد القى (دارا) قرابة الـ ٣ الاف من سراة المدينة فى غيابة السجن ثم امر ان يصلبوا ، وترك لغير هؤلاء الخيار فى سكنى المدينة او الرحيل عنها • ورؤى ان لا يفنى الجنس البابلى ابدا فهيئت لمن بقى منهم ازواج (بدلا من النسوة اللائى لاقين حتفهن على ما بينته آنفاً) • لقد قتلت تلكم النسوة ابقاء على ما فى مخازن المدينة من مؤن وذخيرة • ان الزوجات اللائى اعددهن بأخرة لرجال بابل نسوة جمعن من البلاد المتاخمة ••• انهن امهات البابليين فى يومنا هذا (٥١) •

الطريق السلطانى بين ساردس والسوس

هذه قصة الطريق على وجه التحقيق : هناك محطات سلطانية (٥٢) تقع على طولها وتمر بها قوافل ممتازة ، وارضها آهلة بالسكان وهم بمنجاة من كل خطر •

---

(٤٨) الفصل ١٥٧ الكتاب الثالث •

(٤٩) الفصل ١٥٨ الكتاب الثالث •

(٥٠) ان مدة حكم دارا الاول هو ٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق٠م • تعليق : فؤاد سفر •

(٥١) الفصل ١٥٩ الكتاب الثالث •

(٥٢) يراد بالمحطات السلطانية الاماكن التى كان يأوى اليها آحاد حاشية السلطان حين نقلهم الرسائل من محطة الى اخرى • والطريق هذه هى طريق البريد على اغلب احتمال ، وطريق القوافل بين العاصمتين • انها تمر بالموصل (نينوى) واربيل (أربيللا) فآشور • (لين) •

وفى ليدية (٥٣) Lydia وفريجية Phrygia ٢٠ محطة من هذه المحطات موزعة على مسافة طولها ٩٤½ فرسخا • فمن يغادر فريجيه عليه ان يعبر نهر هلس Halys (٥٤) ، (وعلى الزاب) ابواب لا مغدى له من ان يجوزها قبل عبوره ، وفى هذا الموقع بالذات حاميه قوية • ولو تسنى لك عبور النهر ووصلت القباذق Cappadocia فليس بد من أن تقطع مسافة طولها ١٠٤ فراسخ وتمر خلالها بـ ٢٨ محطة قبل الوصول الى حدود قليقية Cilicia حيث يمر الطريق السلطانى من مجموعتين من الابواب ، وعلى كل باب منها حارس •

فان خلفت كل ذلك ظهريا ومضيت خلال (قليقية) صادفت فى طريقك ٣ محطات، كل ١٥٫٥ فرسخا • والحد الفاصل بين (ارمينية) و (قليقية) هو : الفرات ، ولا معدى من عبوره بالقوارب • وفى قليقية ١٥ محطة للاستراحة وتبلغ المسافة ٥٦½ من الفراسخ • وهناك مكان واحد عين فيه جمع من الحرس •

وفى هذه المنطقة (٥٥) (٤) من المجاري المتقاطعة ومن الضروري

---

(٥٣) ليديا ارض كانت واقعة فى غربى آسية ؛ وكانت تحدها شمالا أرض ميسيه Mysia وشرقا فريجية Phrygia وجنوبا كاريه ، وكانت مدينة (ازمير) تلحق تارة بـ (ليديا) وتارة بـ (ايونية) Ionia • وكانت ارض ليدية غنية ، واستولى عليها الاسكندر المقدونى ثم استولى عليها الرومان • وليدية اول دولة استعملت النقود المسكوكة ، وأصل اهلها غامض ؛ وكان الناس يتكلمون بلغتها الخاصة ايام سترابون

راجع : Oxford Classical Dictionary, Lydia (المترجم)

[ونضيف الى هذا ان عاصمة ليدية هى ساردس وان اشهر ملوكها قارون الوارد ذكره فى (القرآن الكريم) ـ تعليق : فؤاد سفر] •

(٥٤) هالس Halys او (النهر المالح) ، اطول انهار آسية الصغرى ينبع من مكان قريب من حدود أرمينية وكان هذا النهر الحد الفاصل بين مملكتى (ليديا) والانبراطورية الفارسية ايام كورش ، لذلك قيل : « ان كورش بعبوره هذا النهر استطاع ان يهزم انبراطورية عظمى » •

راجع : مادة Halys فى Oxford Classical Dictionary (المترجم)

(٥٥) بهذا الوصف تضفى على (ارمينية) سعة بالغة تمتد صوب الجنوب وبذلك تضم اليها مساحة شاسعة تعتبر عادة جزءا من اشور ومادى تعليق : [لين]

عبورها جميعا بالقوارب اولها (دجلة) والثانى والثالث الاسم نفسه (٥٦)، وذلك على الرغم من انهما نهران مختلفان لاينبعان من محل واحد (٥٧). ذلك ان اولها ينبع في ارمنية بينا ينبع الثاني من بلاد الماتين Matien ورابعهم يدعى (الجنديس) وهو النهر الذي وزع (كورش) ماءه فحفر ٣٦٠ قناة متفرعة منه . ولو تركت ارمينة ودخلت بلاد الماتين لوجدت ٤ محطات ان جاوزتها حللت في ارض (سيسية) . وفي هذه الارض بالذات ٤ محطات على مسافة ٤٢½ من الفراسخ لو قطعتها لوصلت نهرا صالحا للملاحة يدعى شوسب Choaspes ، وعلى ضفة هذا النهر شيدت مدينة السوس (Susa) وبذلك يصبح مجموع المحطات كلها ١١١ ، هذا الى اماكن عديدة اعدت للاستراحة بين (ساردس) و (السوس) (٥٨).

المراسلون الفرس

ليس من مخلوق يمضى فى سفره مسرعا كهؤلاء المراسلين . ان التصميم كله فارسي محض ، واليك تفصيله :

هناك ، على ما يقال ، فرسان يقفون على طول الطريق ، وعددهم يساوى عدد الايام التى تستغرقها المرحلة ، فلكل يوم فارس وجواده . وهؤلاء الفرسان لا يألون جهداً فى قطع المسافة بأسرع مايستطيعون ، ولا يحول دون ذلك ثلج يساقط ، أو مطر

---

(٥٦) انهما (الزاب الاعلى) و(الزاب الاسفل) مافى ذلك شك. غلب اسم النهرين (حدياب Adiabene) على المنطقة التى يرويانها (اميانوس مرشلينس : ٢٣ ، ٦) و (بوشار : ٤ (٩) ص ٢٤٨) والظاهر انها احتفظت بهذا الاسم منذ الازمنة القديمة حتى يومنا هذا . ومهما كان الامر فان الزاب الاعلى يحتفظ بالاسم على ما ورد فى المدونات الاشورية . ويسميه زينفون Xenophon (زاباتس Zabatus) ايضا [اناباسيس ، ج ٥ ، ٣ ، ج ٦ (٣)] و (ديافا) او (ديابا) على ما يسميه (اميانوس) (١) والزاب الاسفل اقل شهرة من الزاب الاعلى لكن خلود اسمه ظاهر من هذه العبارة بالاضافة الى ذكره من قبل (اميانوس) وبقاء الاسم حتى يومنا هذا. ان (زاب) أو (دياب) و (دياف) – على ما يراه بوشار – هو (الذئب) ويخطىء (بطليموس) فى اسمه على ما ورد فى (جغرافيته) (الجزء ٦ – ١) تعليق : [لين]

(٥٧) ان قول هيرودتس هو الحق بعينه ، ذلك ان منبع الزاب (الاعلى) فى (ارمينية) من بحيرتى (وان) و (اورمية) اما الزاب (الاسفل) فينبع فى جبال كردستان التى يسميها (تلال الماتين) وعلى قرابة درجتين الى الجنوب الشرقى . تعليق : [لين]

(٥٨) الفصل ٥٢ الكتاب الخامس

بنهمر ، او حر تشتد وديقته ، او ليل يرخى سدوله ! ويسلم الفارس الاول رسالته الى الفارس الثانى ، ويسلم الثانى الرسالة الى الثالث ... وذلك على غرار تسليم (الشعلة) وتسلمها فى (سباق المشاعل) الذى كان الاغريق يحتفلون به فى (فولكان) . وعلى النقطة التى ينطلق منها الفرسان على الوجه المبين آنفا يطلق الفرس اسم (انكارم Angarum) (٥٩)

(٥٩) الفصل ٩٨ الكتاب الثامن

«آل سبكتكين كما تحدث عنهم نظام الملك» في مؤلفه كتاب السياسة(*)

ونظام الملك هذا هو ـ ابو على الحسن بن على بن اسحق الطوسى ـ عاش فى الفترة بين سنة ٤٠٨ ـ ٤٨٥ هـ (١٠١٨ ـ ١٠٩٢ م) وكان من اعاظم الوزراء المسلمين وأرفعهم ، وفى طليعة الوزراء السلاجقة وأشهرهم . استوزره السلطان ـ الب أرسلان ـ وابنه ـ ملكشاه ـ فقضى معهما فى الوزارة أكثر من ثلاثين عاماً كان خلالها هو الحاكم المطلق الذى تسير رهن اشارته امور السلطنة السلجوقية وتجرى طوع ارادته شؤون الخلافة العباسية .

وهو فضلا عن ذلك كان سياسيا هادفا وعسكريا بارعا تمت على يديه فتوحات عديدة واذعنت لحكومته اقاليم كثيرة وكان ـ فوق ذلك ـ متدينا راسخ الايمان بمبادىء الاسلام مثقفا واسع الثقافة . وقد دفعه ايمانه العميق الى التوحيد بين الاقطار الاسلامية كما استفاد من ثقافته تلك فى تنظيم ادارة المملكة ودعوته الى نشر العلم . فأسس ـ من أجل ذلك ـ نظامية بغداد المعروفة والنظاميات الاخر فى امهات الامصار كالبصرة والموصل واصفهان ونيسابور ومرو وهراة وبلخ وآمل وخوزستان . وألف الكتب التى كشفت لنا عن اهدافه السياسية ، وعن وجهات نظره فى اساليب الحكم وتنظيم ادارة الدولة منها كتابه « سياست نامه » وكتابه « بند نامه » وغيرهما من رسائل ومراسيم ، وأمالى فى الحديث .

والذى بين ايدينا هو الفصل الثامن والعشرون من كتاب السياسة فى اللغةالفارسية،

(*) وهو فصل من كتاب ـ سياستنامة ـ قام بترجمته واعداده للطبع الاستاذ احمد ناجى القيسى والدكتور عبد الهادى محبوبة .

وقد خصصه المؤلف للحديث عن سلاطين انغزنويين وكيف جاءوا الى الحكم وأسسوا دولتهم فى بلاد ما وراء النهر وغرب الهند ، التى خلفت السامانيين وشملت البنجاب والغور وسجستان وبخارى وخراسان وغيرها • وذلك تلبية لرغبة سلطانه – ملكشاه – حيث أعجب بحديث وزيره عن السلطان الغزنوى – محمود – فطلب اليه أن يزيده معرفة بأصله وكيف نشأت أسرته واستولت على الحكم فقص عليه حكايتهم بعد ان مهد لها بالحديث عن القاعدة السائدة حينذاك فى تنظيم شؤون غلمان القصر •

الفصل الثامن والعشرون (١)
فى تنظيم شؤون غلمان القصر

لقد كانت القاعدة الثابتة حتى عهد السامانيين هى ان الغلمان يرقون تدريجيادرجة حسب الخدمة والمهارة واللياقة • وهكذا كان الغلام اذا اشترى أمر بالخدمة راجلا مدة سنة واحدة وجعل فى الركاب مرتدياً قباء زندنيجياً (٢) ولا يسمح لهذا الغلام أن يركب حصانا سرا او علانية فى هذه السنة • فاذا علم انه فعل ذلك عوقب واذا خدم سنة واحدة اخبر رئيس الغلمان الحاجب بذلك واعلم هذا السلطان • وحينئذ يعطى قباءا وحصاناً تركيا ذا سريج مصنوع من جلد غير مدبوغ ولجام ، وركاب (٣) بسيط •

وبعد ان يخدم سنة واحدة بحصان وسوط يعطى فى السنة الاخرى نطاقا ليشده فى وسطه ، وفى السنة الرابعة يؤمر باعطائه جعبة سهام وغمد قوس لكى ينتطق بهما حين يركب • وفى السنة الخامسة يؤمر له بسرج احسن [من السرج السابق] وبلجام مكوكب (٤) وقباء جميل (٥) ودبوس يعلق فيه حلقة • وفى السنة السادسة يعين ساقياً فيكون له حصان (٦) وقدح يعلقه فى وسطه • وفى السنة السابعة يعين مسؤولاً عن اللباس • وفى السنة الثامنة يعطى خيمة ذات ستة عشر وتدا كما يعطى ثلاثة غلمان

(١) جعل هذا الفصل قسما متمما للفصل السابع والعشرين فى نسخة مدرسى •

(٢) الزندنيجى نسيج قطنى مخصوص كان يحاك فى مدينة زندنة أو زندنيج من مدن شمال بخارا (تعليق اقبال) •

(٣) فى الاصل (من ركاب) والتصحيح من نسخة مدرسى •

(٤) أى مزين ومرصع بالكواكب (اقبال) •

(٥) فى الاصل : قباى روى وارى : أى قباء ذو وجه ، والمقصود ، ما ذكرناه • [المترجمان]

(٦) المراد من يقوم بادارة شؤون حصانه • [المترجمان]

صغار ، حدثني عهد بالشراء يكونون فى جماعته • فيلقب هو (بوشاق باشى) أى رئيس الغلمان • ويخلع عليه قلنسوة من اللباد مزينة بخيوط الفضة وقباء كنجوى ، ويزاد فى كلّ سنة جاهه وتجمله وجماعته وترفع رتبته حتى يصبح(خيل باشى)أى رئيس سرية ثم حجبا • واذا اشتهر فى كل مكان باللياقة والمهرة والفضل وصدر منه عمل عظيم وكان حسن المعاشرة محبا لسيده ، فلن يعطى حينئذ الامرة ولا يمنح الولاية ما لم يبلغ الخمسة والثلاثين •

وقد تسلم « البتكين » قيادة جيش خراسان – وهو مملوك السامانيين وربيبهم – فى الخامسة والثلاثين من عمره • وكان مخلصاً جداً ووفياً • وكان شجاعا ذا رأي وتدبير طيب العشرة محباً للناس ذا فتوة سخياً خاشعاً لله متحلياً بكل مزايا السامانيين • وقد ولى خراسان والعراق سنوات عديدة وكان له سبع مائة والف غلام ومملوك تركى • وقد أشترى فى يوم من الايام ثلاثين غلاما تركيا كان واحدا منهم (سبكتكين) والد محمود • وبعد شرائه بثلاثة أيام ، كان واقفا بين الغلمان أمام البتكين ، فتقدم الحاجب الى البتكين وانبأه • ان الغلام فلانا الذى هو رئيس الغلمان (غلام باشى) قد توفى ، فلمن تعطى خيمته وفراشه [(١)] وجماعته وميراثه (تركته) ؟ فوقعت عين البتكين على « سبكتكين » وجرى على لسانه ان منحتها هذا الغلام • فقال الحاجب : ياسيدى لم يمض على شراء هذا الغليم أكثر من ثلاثة أيام حتى الآن ، ولم يكمل فى الخدمة حتى الآن سنة واحدة وينبغى أن يخدم سبع سنين حتى يصل الى هذه المنزلة ، فكيف يليق له هذا ؟ فرد عليه البتكين : اقد قلت ذلك ولقد سمع الغليم كلامى وانحنى لى ، ولن استرجع منه عطائى • ثم اعطى سبكتكين امتعة رئيس الغلمان التى هى ثمرة خدمته ومنزلته طوال سبع سنين •

ثم فكر البتكين فى نفسه [كيف] [(٢)] يليق أن تصل منزلة خدمة سبع سنين الى غلام صغير جديد الشراء ؟ فلربما كان هذا الغليم من ابناء البيوتات العريقة بتركستان او انه سيكون محظوظا ويرتفع شأنه • ثم أخذ يختبره فكان يرسله الى كل شخص برسالة ويقول له أعد ما قلت لك فيعيده عليه جميعه بحيث لا يغلط ابدا • ثم يقول له

---

(١) ترجمة « رخت » التى من معانيها الامتعة والفرس • [المترجمان]
(٢) الزيادة من نسخة مدرسى وبها يستقيم المعنى • [المترجمان]

اذهب وجئنى بالجواب فيأتيه بالجواب فورا اكثر ضبطا واتقانا مما كان قد بلغ بهالرسالة.

فلما وجده « البتكين » بالتجربة كل يوم أحسن منه [فى سابقه] احبه فعينه ساقيا له ثم خادماً خاصاً به وجعل فى معيته عشرة غلمان وصار يرفع شأنه يوماً بعد يوم .

فلما بلغ (سبكتكين) الثامنة عشرة من عمره كان على رأس مائتى غلام شجاع ، وكان قد اقتبس صفات البتكين وعاداته جميعها وذات يوم عين البتكين مائتى غلام وأرسلهم الى الخلج [١] والتركمان ليحصلوا منهم الضرائب المستحقة عليهم وكان بينهم (سبكتكين) فلما وصلوا اليهم رفضوا أن يعطوا الضريبة بتمامها فغضب الغلمان وهددوهم قاصدين محاربتهم واخذ الضريبة منهم بالقوة . فقال سبكتكين : انى على كل حال لا احارب ولا اؤيدكم فى هذا العمل فسأله اصحابه : لماذا ؟ فقال : أن سيدنا لم يرسلنا للحرب بل قال : اذهبوا وائتوا بالضريبة فان نحاربهم ويغلبونا يكن ذلك شيناً وعاراً عظيماً علينا وانتقاصاً لهيبة سيدنا ثم انه سيقول : لماذا حاربتم بلا أمر منى ؟ ولن نتخلص من هذا اللوم والعقاب حتى الموت وليس لنا طاقة لعقاب . فلما قال سبكتكين هذا الكلام قال أكثرهم : الصواب ما يقول ؛ وحصل خلاف بين الغلمان . وفى الاخير صرف النظر عن الحرب وعادوا . فلما مثلوا بين يدى البتكين قالوا : أن « القوم » قد عصوا ولم يدفعوا الضريبة . فقال البتكين : لماذا لم تلجأوا الى السلاح وتأخذوها منهم بالحرب ؟ فقالوا : اننا اردنا الحرب غير ان سبكتكين لم يدعنا لها (حال بيننا وبينها) وخالفنا فى رأينا . فلما أصبحنا فئتين عدنا وقال لسبكتكين : لِمَ لم تحارب، ولم تذر الغلمان يحاربون ؟ فقال سبكتكين : لان سيدنا لم يأمرنا بذلك . ولو كنا قد حاربنا بلا أمر صار كل منا سيدا وعلامة الاطاعة هى أن ينفذ الجميع ما يأمر به السيد . فان (حاربنا) وغلبنا فلابد ان يسألنا الامير : من كان قد امركم ان تحاربوا ؟ ومن يطيق هذا العقاب ؛ وان كنا قد تغلبنا عليهم فلا جرم ان خلقا (منا) كانوا سيقتلون ولم يكن لنا (حينذاك) منة وشكر ووجه الينا اللوم . اما الآن فان يأمر (سيدنا) بالحرب نذهب

---

(١) خلخ او خرلخ أو قرلق كان اسم طائفة من أتراك ما وراء سيحون وبحيرة خوارزم (اورال) - اقبال - ويرى آخرون ان المخلج قبيلة من العرب أقامت فى زاولستان وصاهرت التركمان وأمدت آسيا الوسطى بجماعة من القادة العظام منهم - محمد بن بختيار - الذى استقل فى سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) وأسس أسرة انتهت فى سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م) . الخشاب : حكايات فارسية ص (٦٤) . [المترجمان]

ونحارب ونأخذ الضرائب ، ونفده بالارواح • فاعجب البتكين (هذا الكلام) وقال : انك لتقول الحق • وهكذا كان يرفع قدر (سبكتكين) حتى بلغ الامر ان جعل فى سريته ثلاثمائة غـــلام •

وتوفى امير خراسان نوح بن نصر ، وكان البتكين فى نيشابور فكتب اليه خواص الامراء من العاصمة (بخارا) يخبرونه ان أمير خراسان قد مات ، وانه قد ترك أخاً عمره ثلاثون سنة وولداً عمره ست عشرة سنة فان تستصوب واحداً من هذين أجلسناه فى مكانه فأنت عماد المملكة • فسيّر اليهم رسولاً فى الحال وكتب : ان كلاً منهما يليق بالعرش والملك وهما من ابناء السادة والملوك ، غير ان الاخ رجل كامل وقد خبر الحياة وذاق خيرها وشرها وعرف الناس جيداً وقدر كل واحد منهم ومنزلته ، ويحفظ حرمته وان الولد (لا يزال) طفلا لم ير الدنيا وانى اخشى انه لا يستطيع رعاية الناس ولا يمكنه اصدار الاوامر كما يجب فلعل الاصوب ان تجلسوا الاخ على العرش •

ثم بعث برسالة اخرى فى هذا المعنى مع (رسول) آخر •

وبعد خمســة ايام وصل رســول يحمــل البشرى بتتويج ابن الملك • فخجل (البتكين) من هاتين الرسالتين اللتين كان قد ارســل بهما • وقال : كيف يعمل هؤلاء الاشرار الجهلاء هذا العمل ؟ ولم استشاروني وهذان الاميران بمنزلة نور العين • وانيى ليزعجني أن أشرت (بمبايعة) الأخ فحين تصل رسالتي الى هناك لن يعجب ابن الملك أمرها ، وسـيظن ان ميلي انما هو للأخ فيسـتاء مني ويحقد علي ، فيجد المغرضــون مجالاً للكلام ، ويجعلونه ذا غيظ علي • فسيّر على الفور ، خمس جمازات [1] وقال : حاولوا ان تدركوا الرسولين قبل ان يعبرا نهر جيحون وارجعوهما • فأسرع الجمازون حتى ادركوا احد الرسولين فى صحراء آموية ، اما الآخر فكان قد عبر جيحون •

فلما وصلت رسالة البتكين الى بخارا لم تعجب مؤيدى ابن الملك ، فقالوا : انــه قد اساء باشارته بالاخ ، وان الميراث للولد لا للأخ وكانوا يعيدون الحديث فى هـــذا المعنى كلّ يوم لكي يزداد قلب هذا الصبي غيظاً على « البتكين » ، فطلب المعـذرة كثيراً وأرسل بالهدايا ، ولكن دون جدوى لأن الغيظ قد ملأ قلب ابن الملك واستمر المغرضون بالدس والوقيعة ، فصار هذا كلّ يوم أكثر غضباً منه فى سابقه ، وازدادت وحشته

(١) الجمازة : الناقة الشديدة العدو • وجمز الرجل ركب الجمازة • (معجـــم البستان) مادة جمز • [المترجمان]

بالدس والوقيعة ، فصار هذا كل يوم اكثر غضبا منه فى سابقه ، وازدادت وحشته وحقده .

وكان « احمد بن اسماعيل » قد اشترى البتكين ، وخدم ولده نصرا فى آخر عمره سنين عدة [١] ووصل رتبة قيادة « سبه سالارى » خراسان فى أيام نوح [٢] فلما توفى بويع على السلطنة « منصور بن نوح » هذا [٣] ، فلما مضت على سلطنته ست سنين وكان البتكين خلالها يبذل الاموال ويعمل كل جهد ممكن ، لم يستطع ان يستميل قلب (منصور بن نوح) بأية حال بسبب دسائس المغرضين . وكان وكيل البتكين يكتب له عن كل ما يحدث فى بخارا . ثم قال (المغرضون) لمنصور : انك لن تكون ملكاً وتنعم بالسلطنة ما لم تقتل البتكين . انه يملك ويحكم فى خراسان منذ خمسين سنة ، ويكدس المال والثروة ويطيعه الجيش فاذا قبضت عليه امتلأت خزائنك بماله ، وارتحت منه ، والتدبير هو ان تدعوه الى البلاط وتتظاهر له قائلا : انك لم تأت الينا منذ أن جلسنا على العرش ولم تجدد لنا العهد واننا مشتاقون اليك لأنك عندنا بمثابة الاب الكبير ، ومع أن قاعدة ملكنا ودولتنا قد ازدانت بك ، ومدار مملكتنا عليك ، انتشرت الأقاويل حولك لعدم حضورك الينا ، فينبغي عليك أن تأتي الى بلاطنا بالسرعة المستطاعة ، وتعيد كل ما كان قد اضطرب فى قصرنا وبلاطنا الى قاعدته حتى يزيد اعتمادنا عليك وينقطع لسان السوء عنك . وحين يأتى الى هنا ، تدعوه الى خلوة وتأمر ان يقطع رأسه ،

وهكذا فعل الامير منصور ، فدعا البتكين الى البلاط وكتب اليه [وكلاؤه]

---

(١) وردت هذه الحكاية مختصرة جدا فى كتاب (زين الاخبار) وهذا يدلنا على انها فى – فى الظاهر – ليست اسطورة لا أصل لها . (من حواشى نسخة مدرسى) .

(٢) تذكر المصادر التاريخية ان البتكين عينه الامير – عبد الملك بن نوح – حاجبا فى بلاطه سنة ٣٤٤ هـ أى رئيس ديوان وليس سبه‌سالار أى : قائد جيش . ثم صار حاكما لهراة ولكنه أقصى بعد وفاة الامير فذهب الى غزنه وحكمها خلفا لأبيه سنة ٣٥٢ هـ [المترجمان] . تاريخ الاسلام : حسن ابراهيم حسن ج ٣/ ٨٥ ودائرة المعارف الاسلامية .

(٣) هذا غلط تاريخى ، فان الذى خلف نوحا بن نصر على العرش هو ابنه عبد الملك بن نوح (٣٤٣ – ٣٥٠ هـ) وخلفه بعده أخوه منصور بن نوح (٣٥٠–٣٦٦هـ) (من حواشى نسخة مدرسى) نقول : ومن المحتمل ان كانت عبارة بهذا المعنى فى الاصل ثم سقطت على يد النساخ . [المترجمان] .

المخبرون يعلمونه بما يدبر له من مكيدة ، فأعلن لرجاله ان تهيأوا لنذهب الى بخـــارا وارتحل من نيشابور وجاء الى سرخس يصحبه ثلاثون الف فارس تقريبا ، وكان برفقته كل امراء خراسان ، فلما اقام ثلاثة ايام دعا امراء جيشه وقال لهم : لى معكم كلام فاذا قلته لكم فأشيروا عليّ بما هو الصواب فاننا نعلم ان كل ما هو صواب ، نحن وأنتم فيه (سواء) ، فقالوا : سمعا وطاعة • فقال : اتعرفون لاى شيء يدعونى الامير منصور ؟ فقالوا : ليراك ويجدد العهد بك وأنت له ولآبئه بمكانة الاب • فقال : لا ليس الامر كما تظنون ، ان الملك يدعونى ليفصل رأسى عن جسدى ؟ لانه طفل لا يعرف قدر الرجال ، وأنتـم تعرفون اني حافظت على ملك السامانيين منذ ستين سنة ، واني قد تغلبت على بعض خانات التركستان الذين هاجموا الدولة وقهرت الخارجين عليها فى كل جانب ، ولم اعصـهم طرفة عين ، وقد حافظت على السلطنة لجده وابيه وكانت مكافأتى فى الاخير هى قطـع رأسى ، انه لا يعرف حقا ان مملكتـه كجسد انا رأسـه فكيف يبقى الجسـد اذا ذهب الرأس ؟ فماذا ترون الآن ؟ وما العلاج لدفع هذه الملمة ؟ فقال له الامراء : علاج ذلك السيف • اذا كان الملك يضمر لك هذه النية فماذا نتوقع منه ؟ فلو كان شخص آخر فى مكانك لاخرج الملك من ايديهم منذ خمسين سنة • اننا جميعا نعرفك ولا نعرفه ولا نعرف أباه ، وان أرزاقنا وجاهنا وحشمتنا ونعمتنا وولايتنا بفضـلك ، ولا نجد شـخصاً أليق منك ، واننا جميعاً نطيعك ، وان خوارزم وخراسان ونيمروز خاضعة لك • فاعلن خلعك لمنصور بن نوح ، واجلس انت نفسك سلطانا ، وان ترد فامنحه بخارا وسمرقند وان ترد فخذهما ايضا لنفسك فلما سمع البتكين مقالتهم هذه قال برغبة تامة : عفا الله عنكم ، انى أعلم انكم قلتم ما قلتم عن صدق واعتقاد خالص • وهذا هو ما اتوقعه منكم جزاكم الله عنى خيرا ! فارجعوا اليوم (الى اماكنكم) لنرى ما يبدو لنا غدا • وفى هذه الحال كان مع البتكين ثلاثون ألف فارس محارب ولو أراد لبلغ عدد اتباعه مائة الف فارس • وفى اليوم الآتى جاء الامراء جميعهم الى البلاط فخرج اليهم البتكين ، وجلس وقال : لقـد أردت من كلامي معكم أمس أن أختبركم لأعلم أمخلصون أنتم لي أم لا ، وان وقع لي حـــادث أفتظاهـــرونني وتثبتون معي أم لا • وقد سـمعت منكـم الآن كل ما يليق بنبلكم ووفائكم وقد أديتـم حق نعمتي وسررتموني ؟ فاعلموا وعوا أني من بعد هـــذا لن أدفع شر هذا الولد عن نفسي بالسيف ، وهو طفل لايعرف حق أحد ، وقد ألقى السمع الى ألسنة السوء من أراذل الناس ، لايميز بين الصالح منهم والطالح ، فهو يترك رجلاً مثلي أرسى

(ملك) أسرته ، اما الشرذمة السيئة التى تسعى الى فساده وفساد ملكه والتى لا تقدر ان تدفع اقل اضطراب يظهر فى المملكة ــ فيعـدهم اصـدقاءه ، ويسعى فى هلاكى ، انى استطيع ان آخذ منه الملك ، واجلس عمـه فى مكانه (على العـرش) او ان اسـتأثر به لنفسى ، ولكننى أخشى ان يقول الناس عنى : « قد حافظ البتكين على الاسرة السامانية الذين هم اسياده ــ ستين سنة ، واخيرا حين بلغ عمره الثمانين خرج على أبناء سيده وهو شيخ هرم واغتصب منهم الملك بالسيف وجلس مكانهم (على العرش) وكفر بنعمتهـــم عليه ، وقد قضيت عمري كله طيب السمعة ، حسن النية ، والآن وقد بلغت حافة القبر لا ينبغى ان ادنس سمعتى • ولو علمتم ان الذنب ذنبه ولكن جميع الناس لا يعرفـون ذلك ، وستقول فئة منهم انه جرم الامير ، وستقول اخرى : انه اثم البتكين • ومع انى لا اطمع فى ملكهم ولا اريد كرههم لن تفتر ألسنة الشر ما دمت فى خراسان وستفسد بيني وبين الأمير كل يوم فاذا غادرت خراسان وخرجت من ملكه لم يبق مجال لتقولات المغرضين وقد وجب عليّ الآن ــ اضافة الى ذلك ــ ان أشهر سيفي فى وجه الكافرين لأحصل على رزقى وأقضى بقية عمرى حتى انال الثواب ، فاعلموا ان خراسان وخوارزم ونيمروز وما وراء النهر ملك للأمير « منصـور » وعليكم جميعاً طاعته ، وقد جمعتكم من أجله ، فانهضوا واذهبوا الى بلاطه وزوروه [1] وجددوا العهد [2] له وكونوا فى خدمته فأنى سأذهب الى الهند وانشغل بالجهاد والغزو ، فان أُقتل أكن شـهيداً وان أوفق أجعل من دار الكفر داراً للاسلام مؤملا جنة الله والرسول • وان أكن طيباً أو رديئاً يسترح مني قلب امير خراسان وينقطع القيل والقال وحينئـذ يزداد معـرفة بحقيقتى هو والجيش والرعية • ثم نهض وقال للامراء : تقدموا الى واحدا واحدا لاودعكم ، ومع ان الامـراء قالوا (كثيرا لصرفه عن نيته) لم يفد ذلك شيئا ، واستولى عليهم البكاء ، فجاءوا اليـــه منتحبين ، وودعوه ، ورجعوا وذهب هو الى فسطاطه • ومع ذلك لم يكن أى شخص يصدق انه سيترك خراسان ويذهب الى الهند ، لانه يملك فيها وفى ما وراء النهر خمس مائة قرية ، وله فى كل مدينة منها قصر وبستان وخان وحمام وله مستغلات كثيرة ومن الضان ألف ألف ومن الخيل والبغال مائة ألف فى ملك آل سامان • وذات يوم سمعوا صوت الطبل يتعالى وان البتكين يرتحل مع غلمانه وحاشيته تاركا جميع ذلك ، فذهب

---

(١) فى الاصل وانظروه [المترجمان] •

(٢) فى الاصل وجددوا الاوامر (المنشورات) أى أوامر التعيين • [المترجمان]

امراء خراسان كلهم الى بخارا ، فلما بلغ البتكين بلخا نوى الاقامة هناك شهرين حتى يتجمع كل من عزم على الغزو ، من ما وراء النهر وختلان وطخارستان وحدود بلخ ، ثم توجه نحو بلاد الهند •

اما المفترون والمخالفون فقد حرضوا المنصور (قائلين) : ان البتكين ذئب هرم ولست بمستطيع ان تأمنه ما لم تهلكه ، فيجب ارسال الجيش فى اثره ليلقوا القبض عليه ويأتوا به فارسل اميرا الى « بلخ » مع ستة عشر ألف فارس ليقبضوا عليه ، فلما وصل العسكر الى ترمذ (١) وعبر جيجون ، ارتحل البتكين واتجه نحو خلم ، وبين خلم (٢) وبلخ واد ضيق طوله اربعة فراسخ يسمى وادى خلم ، وعلى جانبيه قرى على اليمين وعلى اليسار •

فنزل البتكين فى ذلك الوادى وكان له مائتا غلام رقيق من الاخيار الطيبين ، وقد التحق به للغزو ثمان مائة مجاهد من سائر البلاد ، فلما وصل عسكر امير خراسان الى المضيق نزلوا فى الصحراء لانهم لم يستطيعوا دخول الوادى ، واقاموا على هذه الحال شهرين وحينئذ كانت نوبة استطلاع « سبكتكين » فلما بلغ باب المضيق رأى الصحراء قد اصبحت معسكرا ورأى طلائعهم متربصة للقتال فأخذ يفكر ويحدث نفسه : ان سيدنا هذا قد ترك أمواله ونعمته لامير خراسان وتوجه للغزو ، وهم ـ (اى عسكر الامير) يبغون قتله وهلاكنا • وان سيدنا لما يتحلى به من وفاء يحفظ لهم حرمتهم ، وانى اخشى ان يوردونا جميعا موارد الهلكة ولن يدفع هذا الخطر الا بالسيف ، وما دمنا ساكتين لن يرجعوا من تعقبينا وليس لنا احد الا الله ـ عز وجل ـ وهم كلهم ظلمة ونحن مظلومون والله ـ تعالى ـ نصير المظلومين ، ثم التفت الى الغلمان الذين هم فى سريته وقال : ان هذه حالنا فان غلبونا لم يبق منا احد حيا وانى لابادئهم اليوم ، (ولأر) ما سيحدث رضى سيدنا بهذا أم لم يرض وليكن ما يكون • قال هذا وهجم على الطلائع مع ثلاثمائة من غلمانه ، وتغلب عليهم ، واوقع ضربه فى معسكرهم حتى هربوا باسلحتهم على ظهور الخيل وسقط على الارض من قتلاهم اكثر من ألف رجل ، ولما كرو عليه بقوة تراجع بخفة الى المضيق •

(١) ترمذ : مدينة على ضفة جيحون فى شمال بلخ وهى تسمى الآن بهذا الاسم فى جمهورية تاجيكستان فى نهاية خط حديدى يبدأ من عاصمة تلك الجمهورية ويصل الى هذا المكان والى حدود الافغان (اقبال)

(٢) كانت خلم مدينة صغيرة تبعد عن بلخ عشرة فراسخ وكانت احدى شعب جيحون تمر من هناك وتسمى بهذا الاسم ايضا • [اقبال]

وأخبر البتكين ان « سبكتكين » قد قام بهذا العمل وقتل اناسا كثيرين منهم فأستدعاه وقال له : لماذا تسرعت وقد كان ينبغي التذرع بالصبر ؟ فقال له : يا سيدى الى متى اصبر وقد نفذ صبرى ، انا يجب علينا الدفاع حفظا على أرواحنا ، ولن يكون هذا الا بالسيف ندفع به عنك ما دامت لنا ارواح وليكن ما سيكون • فقال : الآن وقد أثرت (الحرب) ينبغي ان نعمل ما هو احسن من هذا التدبير ، فقل (للعسكر) يقلعوا الخيام ، ويحزموا حمول (المتاع) ، وليكن الرحيل عند صلاة العشاء ، وليأخذوا معهم الحمول وليخرجوا معهم « الامتعة والاموال » [١] ويجب ان يتخذ (طغان) مع الف رجل مدجج طريق اليمين من الوادى الفلانى ، واذهب انت نحو اليسار من الوادى الفلانى مع الف غلام أما انا فسأخرج بالامتعة والاموال من المضيق مع الف فارس [٢] وأقف فى الصحراء ، فاذا جاءوا فى اليوم الآخر الى رأس المضيق ولم يروا احدا ، قالوا : لقد هرب البتكين فيركبون (خيولهم) دفعة واحدة ، ويتعقبون أثرنا ، ويدخلون المضيق وحين يخرج اكثر من نصفهم من المضيق ويروننى واقفا فى الصحراء ، اخرجوا من اليمين ومن اليسار وانزلوا فيهم السيوف • وحين تتعالى الاصوات ، يتراجع أمامى بعض هذا العسكر الذى يكون قد خرج من المضيق ليروا ماذا حدث ، واما الذين هم فى المضيق فيلوذون بالفرار منسحبين ويكون بعضهم طعمة لسيوفكم ، واحمل انا عليهم من الامام ، وانطلقوا انتم من المضيق [٣] لكي نحيط بمن هم فيه ونعمل فيهم السيف ما داموا يقاوموننا وحين يدركنا الليل نفتح لهم طريق الهزيمة لكى يهربوا ، وحينئذ نخرج من المضيق ونهجم على معسكرهم فنأخذ مافيه غنيمة •

وهكذا فعلوا ، وخرجوا من المضيق ، وفى اليوم الاخر تسلح عسكر امير خراسان عند الفجر وتهيأوا للحرب وجاءوا الى رأس المضيق فلم يروا هناك من احد فظنوا ان جيش البتكين قد هرب فقالوا للعسكر سوقوا (خيولكم) حتى نتعقبهم فاذا خرجنا من

---

(١) هذا تصحيح أخذناه من نسخة مدرسى وهو كلمة (بنه) وفى الاصل بند ولا يستقيم به المعنى • [المترجمان]

(٢) يلاحظ هنا تناقض فى تعداد الجيش فقد سبق أن ذكر ان فى معيته مائتين من غلمانه والتحق به ثمانمائة من سائر الانحاء بينما يكون عدد الذين معه الآن ثلاثة آلاف • [المترجمان] •

(٣) تركنا هنا سطرين من الاصل وهما تكرار للسطرين السابقين ، وقد حصل هذا الوهم فى الطباعة لتشابه الكلمات • [المترجمان]

المضيق الى الصحراء قضينا عليهم فى ساعة واحدة وقبضنا على (البتكين) ثم ساقوا العسكر مسرعين وامامهم نخبة رجالهم فلما خرجوا من المضيق رأوا البتكين قد وقف فى الصحراء ومعه الف فارس وقليل من المشاة ، وحين خرج نصف العسكر من المضيق هجم عليه « طغان » من الجهة اليسرى للوادي ومعه الف فارس ووضع السيف فيمن كان فى المضيق حتى اخذ العسكر يتراجع ويشيع فيه الاضطراب ، ثم يلوذ بالفرار ، وقتل منهم جماعة وانطلق عليهم (سبكتكين) من الناحية اليمنى[1] ووضع فيهم السيف واتصل به طغان ايضا وخرج كلاهما من المضيق وراء العسكر وهجم البتكين من الامام ، وفى ساعة واحدة قتلوا منهم فئة وطعنوا امير العسكر برمح فخرج السنان من ظهره وسقط (على الارض) ، ولاذ العسكر بالفرار وتهازموا فى كل مكان يجدون اليه سبيلا • وخرج غلمان البتكين من المضيق ، وتهافتوا على معسكرهم « معسكر العدو » واخذوا كل ما وجدوا فيه من خيل وبغال وجمال وفضة وذهب ودنانير وغلمان • وتركوا الخيام والفرش وامثالها الى قرويي بلخ يتناهبونها طوال شهر • وأحصى القتلى فكانوا خمسين وسبعمائة واربعة آلاف رجل غير الجرحى •

وارتحل البتكين فى ذلك اليوم عن خلم ، وأتى الى باميان[2] فحاربه أميرها « شير باريك »[3] فأسر فعفا عنه البتكين وخلع عليه • ودعاه ابنه ، ثم ذهب البتكين من هناك الى كابل ، وتغلب على اميرها واسر ولده وكان صهر ـ لويك ـ ، ثم تلطف معه وأعاده الى والده • ثم قصد غزنين ، فهرب أميرها الى سرخس فلما بلغ البتكين بابها خرج اليه « لويك » وحاربه فأسر ابن امير كابل مرة ثانية • وهرب امير غزنين وحاصر المدينة « البتكين » ، وخافه أهل زاولستان[4] فأمر مناديه أن ينادي : ألا يغتصب أحد من أحد شيئا ابدا ، ولا يشتري الا بالذهب فاذا علمت بغاصب عاقبته • وقد وقعت عين (البتكين)

---

(١) ولعل الصواب ـ اليسار ـ وفى سابقتها اليمنى ليتسق المعنى مع ما جاء آنفا فى الخطة العسكرية كما أشرنا سابقا [المترجمان]

(٢) باميان من المدن القديمة بولاية طخارستان ، تقع على طريق بلخ الى غزنة فى الشمال الغربى من كابل الحالية • [اقبال]

(٣) كان اللقب لامراء باميان فى القديم هو شيرباميان أو شارباميان وأن كلمة باريك التى قرئت هكذا لم يعرف أصلها وهى فى الظاهر الاسم الشخصى لهذا الامير (اقبال) نقول ولعلها فى الاصل : شيرباميان ثم دخلها التصحيف • [المترجمان]

(٤) أقليم يسمى ايضا بزابلستان ويطلق على المناطق المرتفعة ، الممتدة فى أعالى نهر هيلمند ونهر قندهار • انظر : لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٣٨٨ ط بغداد •

يوما على غلام تركى من غلمانه قد ربط كيس تبين ودجاجة على نطاق السرج فقال : اجلبوا لى هذا الغلام ، فاحضروه أمامه وسأله : من أين اتيت بهذه الدجاجة ؟ فقال : أخذتها من رجل قروى فقال له : الا تتسلم راتبك منى كل شهر ؟ فاجابه : بلى ! أتسلمه. فقال له : اذن لماذا لم تشترها بالذهب ، وأخذتها ظلماً مع اني أعطيه لكم لكيلا تغتصبوا شيئا من فقير ، وأمر بأن يشطروا ذلك الغلام فورا شطرين وعلقوه فى المكان نفسه على قارعة الطريق مع كيس التبن ذاك . ونودى ثلاثة ايام أن من يغتصب مال المسلمين أعمل معه ما عملته مع خاصة غلمانى . فخافه العسكر خوفا شديدا وأمن الناس والرعية وكان قرويو تلك الناحية يجلبون الى المعسكر كل يوم مقادير عظيمة من النعمة لاحصر لها ولكنه لم يسمح بأن يأخذوا منها تفاحة واحدة الى المدينة فلما رأى الناس ذلك الامن والعدل قالوا : يجب أن يكون لنا ملك عادل نأمن به على أرواحنا ونسائنا وأولادنا وأموالنا، سواء أمن الترك كان أم العرب المولدين ، وفتحوا كل ابواب المدينة وجاءوا الى البتكين. فلما رأى « لويك » الامر على هذه الحال لاذ بالفرار واعتصم بالقلعة ، وبعد عشرين يوما أستسلم لالبتكين ، فمنحه معاشا . ولم يؤذ « البتكين » أى انسان ، وجعل غزنين مقامه الخاص وانطلق منها الى بلاد الهند وجلب منها الغنائم .

وكان بين غزنين و (بلاد) الكفار مسيرة اثنى عشر يوما ، وانتشر الخبر فى خراسان وما وراء النهر ونيمروز ان البتكين قد فتح ابواب الهند ، واستولى على نواح كثيرة منها ، وحصل على ذهب وفضة ومطايا وعبيد وغنائم عظيمة . وتوجه اليه الناس من كل جانب ، حتى اجتمع حوله ستة آلاف فارس وطهر (البلاد) حتى مدينة برصابور (١) وسيطر على الولاية وخرج اليه ملك بلاد الهند مع خمسين ومائة الف فارس وراجل ، وخمس مائة فيل لكى يخرجه من ديار الهند او يقتله ويهلك عسكره .

ومن تلك الناحية أرسل أمير خراسان ، لغضبه على انكسار عسكره وهلاكه على باب بلخ وخلم ، شخصا لمحاربة البتكين ، اسمه « ابو جعفر » مع خمسة وعشرين الف فارس ، وترك ابا جعفر يصل الى بعد فرسخ واحد من غزنين ومنها انطلق عليه مع تلك

(١) هى مدينة بيشاور الحالية من بلاد الشمال الغربى للهند فى ولاية البنجاب (اقبال) وفى نسخة مدرسى ضبطت الكلمة هكذا : بيقابور . وفى الترجمة الانكليزية بشاور : وقد جعلها سبتكتكين حاضرة لدولته ثم اتخذ من غزنة مركزا لغزواته . [المترجمان]

الآلاف الستة من الفرسان وهجم على ذلك العسكر ، وقتل خمسة وعشرين الف فارس في ساعة واحدة فكان الأمر أسوأ مما كان فى بلخ الف مرة[(١)] ، أما أبو جعفر فهرب ، وذهب « متخفيا » الى مكان كان فيه وحيداً ، فعرفه القرويون ، وقبضوا عليه ، وسلبوا منه حصانه فمشى متنكراً الى بلخ ، ولم يستطع أمير خراسان ، بعد الآن أن يناوىء البتكين . وبمفارقته للأسرة السامانية استولى عليها ضعف عظيم ، فهجم عليها خوانين التركستان ، واستولوا على ولايات كثيرة .

فلما فرغ البتكين من « ابى جعفر » انصرف الى ملك الهنود فكتب الرسائل الى خراسان والى كل ناحية طالبا المدد ، فتوجهت اليه جماعات من الناس لاتحصى ، طمعا فى الغنائم . فلما عرض العسكر كان خمسة عشر الف فارس وخمسة الاف راجل ، كلهم شباب شاكوا السلاح . فتقدم (البتكين) الى ملك الهند مرة ثانية وفاجأ الطلائع بالهجوم فقتل عددا عظيما منها ، ولم ينشغل بالغنائم بل تراجع . فاقتفى عسكر الملك أثره فلم يدركوه ، وكان هنالك جبل شاهق فى وسط واد ، وكان طريق ملك الهند فى ذلك الوادى الذى قد ربض « البتكين » فى رأسه .

فلما وصل الى هنالك ملك الهند لم يستطع المرور ، فنزل فى ذلك المكان وبقى فيه شهرين ، فكان « البتكين » كلما انطلق هاجما قتل جماعة من الهنود . وقد بذل « سبكتكين » جهداً كبيراً فى هذه الحرب ، وقام بعدة أعمال مجيدة ، وعجز ملك الهند فى أمره ، فانه لم يستطع التقدم ولم يكن يمكنه الرجوع بغير ان يطمئن ويحقق قصده ، واستقر (رأى) ملك الهند فى أن قال أخيراً : انكم قد أتيتم من خراسان الى هنا من أجل الرزق وانى امنحكم ارزاقكم ، وأسلم اليكم القلاع وتكونون من عسكرى فتأكلون وتقضون الايام نائلين مرادكم ، فأبدوا الرضا بهذا ، غير ان ملك الهند كان قد قال لقواد القلاع سراً : اذا رجعت فلا تسلموها لهم ، فلما رجع ، ذهب « البتكين » الى أبواب القلاع فلم تسلم اليه ، فقال : هم نقضوا العهد الآن لا انا . فهجم مرة ثانية وأخذ يفتح المدن ، ويحاصر هذه القلاع . وتوفى فى هذه الاثناء فبقى العسكر والغلمان فى حيرة ، وكانت جيوش الكفار بهم محيطة ، ثم جلسوا للتفكير والتداول (فى امرهم) ، اذ لم يكن

---

(١) ومعنى ذلك انه أباد الجيش السامانى كله فى ساعة واحدة وان هذه النكبة لأبى جعفر تعادل سابقتها الف مرة .. وهو من أساليب المبالغة التى عرفت بها اللغة الفارسية . [المترجمان]

لالبتكين ولد يعينونه فى مكانه [١] ، فقالوا : ان لنا فى بلاد الهند حشمة واحتراما وشرفا، وقد اوقعنا فى قلوب الهنود هيبة عظيمة جدا فاذا شغلنا انفسنا بأن يقول هذا : انى أكثر حشمة واحتراما ، وان يقول ذلك : انى اولى من غيرى ، هتك سرنا وتغلب علينا عدونا ، فاذا ظهر الخلاف بيننا صار بعضنا يضرب بعضا بهذا السيف الذى نضرب به وجوه الكفار، فتخرج من ايدينا هذه الولاية التى استولينا عليها ، والتدبير هو ان نختار من بيننا من هو لائق (لرياستنا) ونجعله قائدنا ، ونرضى بكل ما يأمرنا به ونحسبه كأنه هو البتكين نفسه، فقبلوا جميعا بهذا الرأى • ثم احصوا اسماء الغلمان المقدمين فكانوا يذكرون لكل واحد عيبا فيسقطون اسمه حتى وصلوا الى اسم « سبكتكين » فلما ذكروه سكتوا جميعا (فلم يتذكروا له عيبا) ثم قال واحد منهم :

لا يليق لهذا العمل الا « سبكتكين » ، اذ هو أقدم من أشترى [من المماليك] وحقه فى الخدمة اكثر من غيره وقال آخر : ان سبكتكين مقدم على الجميع فى المبارزة والمروءة والسخاء وطيب الخلق والخوف من الله والوفاء وحسن معاشرة الاصحاب ، وقد رباه سيده ، واعماله مستحسنة مقبولة ، وهو يقتدى بسيرة البتكين وينهج نهجه ، ويعرف اقدارنا ومراتبنا معرفة جيدة ، وقد قلت كل ما عرفته عنه ، وانتم اعرف منى وظلوا مدة يتداولون الحديث ويتبادلون الرأى على مختلف وجوهه ، ثم اتفقوا اخيرا ان يؤمروا « سبكتكين » عليهم ، فكان يعتذر ويتنصل ، حتى ألزموه « بالقبول » [٢] فقال : اذا لم يكن من الامر مفر فلابد من الموافقة بشرط الا يكون اعتراض على كل ما اعمله واقوله • • •

وان تتفقوا معى على كل من يخالفنى ويعصينى ويتماهل فى (تنفيذ) امرى ، فتقتلوه ، فأقسم الجميع على ذلك ، وعهدوا له بالبيعة وحملوه واجلسوه على مسند البتكين ، وسلموا عليه سلام الامارة ونثروا عليه الدنانير والدراهم • وكان سبكتكين كلما عمل تدبيرا جاء

---

(١) ذكر المؤرخون ومنهم : ابن الاثير انه كان لالبتكين ولد اسمه اسحق وذكر ان الجيش وقع فى حيرة بعد وفاته اذ لم يخلف ـ اسحق ـ من أهله وأقاربه من يصلح للحكم •• فاتفقوا على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومرؤته •• وحلفوا له وأطاعوه• انظر الكامل ج ٢٤٧/٨ [المراجعان]

(٢) المعروف عند المؤرخين لدولة الغزنويين أن ـ البتكين ـ توفى سنة ٣٥٢ هـ ٩٦٣ م وخلفه ابنه ـ اسحق ـ ثم انتقلت السلطة الى أحد المماليك وهو ـ بلكاتكين ـ فى مدينة فاروان من أقليم هندوكوش ولكن نفوذهما كان قصيرا ثم ولى بعدهما ـ سبكتكين ـ مولى البتكين وزوج ابنته • [دائرة المعارف الاسلامية] •

صواباً . وتزوج ابنة حاكم زاولستان ، فولد له منها (محمود) ولذلك يدعى بمحمود الزاولى . فلما كبر شارك أباه فى عدة غزوات وكان يرافقه فى السفر كثيرا . ولقبه خليفة بغداد بناصرالدين (١) بعد أن قام بأعمال جليلة كثيرة وتغلب فى معارك طاحنة فى ديار الهند . ولما توفى سبكتكين خلفه محمود (٢) .

وتعلم شؤون الملك جميعها تعلما حسنا ، وكان يستمع دائما الى اخبار الملوك ، ويحب ذلك ، وسار سيرة حسنة . وذهب ففتح ولاية نيمروز وأخضع خراسان (٣) وتوعل فى بلاد الهند حتى استولى على سومنات وخرب بيت الأصنام (٤) وقتل ملك الهنود ، وبلغ به الأمر ان أصبح سلطان الدنيا (٥) .

والقصد من هذه الحكاية هو أن يتضح لسيد العالم ـ خلد الله ملكه ـ (٦) كيف

---

(١) الذى ذكره المؤرخون بهذا الصدد : ان الامير نوح السامانى هو الذى منح سبكتكين هذا اللقب على أثر مناصرته له فى محاربته فخر الدولة بن ركن الدولة البويهى وقضائه على أبى على ابن سيمجور واستيلائه على نيسابور سنة ٣٨٥ هـ . ويضيف الى لقبه هذا لقبا له آخر كاتبه أبو الفتح البستى الشاعر فى مرثيته له :

قلت اذ مات ناصر الدين والدو   لة حياه ربه بالكرامة
وتداعت جموعه باقتراف   هكذا هكذا تكون القيامة

أنظر ابن الاثير الكامل ٩/٣٨ ، ٤٨ . والعتبى تاريخ اليمينى ج ١/٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ وابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢/٨٤ . [المترجمان] .

(٢) كانت وفاة سبكتكين عام ٣٨٧ هـ وقد عهد بالملك لابنه الاصغر اسماعيل وبعد معركة دارت رحاها بظاهر غزنة انتصر محمود وقبض على أخيه بعد حكم دام سبعة أشهر .

انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة ـ محمود ـ وتاريخ الاسلام لحسن ابراهيم حسن ج ٣/٨٧ . [المترجمان]

(٣) تم فتحه لنيمروز سنة هـ واخضاعه لخراسان سنة ٤٢٠ هـ انظر ابن الاثير : الكامل ج ٩/١٤١ـ١٤٢ . [المترجمان]

(٤) كان استيلاؤه على سومنات وحصنها الكبير فى ١٦ ذى العقدة سنة ٤١٦ هـ ـ يناير سنة ١٠٢٦ م . انظر تفصيل ذلك فى ابن خلكان الوفيات ج ٢/٨٤ ، ٨٥ . [المترجمان]

(٥) ذكر المعنيون بسيرة السلطان محمود الغزنوى انه توفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠م) ومعنى ذلك انه كان معاصرا لمؤلف كتاب السياسة اذ كان عمره آنذاك « حين وفاة السلطان زهاء ١٣ عاما ومن غير المعقول انه كان يجهل من استخلف (سبكتكين) ومن قبله (البتكين) وهو الرجل السياسى المثقف الذى عنى بسير الحاكمين وتاريخ الماضين . [المترجمان]

(٦) يقصد بذلك السلطان ملكشاه الذى ألف الكتاب بناء على طلبه . [المترجمان]

يكون العبد الطيب . ولا ينبغى السعى لايذاء العبد الذى قدم خدمة محمودة مرضيــة ، ولم تصدر عنه خيانة قط ، ولم ير منه نقض لعهد ، والذى به قواعــد الملك راسخة ، والدولة مباركة ، ولا ينبغى الاستماع الىٰ كلام أى شخص يذمــه ، ويجب أن يزيـد الاعتماد عليه كل يوم ، فان الاسر والممالك والمدن تكون مرتبطة برجل ما بحيث اذا زحزح عن منصبه حل الخراب بتلك الاسر والمدن ، وانقلب ذلك الملك . وهكذا كان «البتكين» الذي كان عبداً (مخلصاً) وكان ملك السامانيين به راسخاً ، (غير أنهم) لم يعرفوا قدره وحاولوا القضاء عليه ، فلما ذهب هو من خراسان زالت الدولة من الأسرة السامانية . وينبغى الانتظار طويلا ، وان يساعده الدهر حتى يحصل على عبد لائق خبير . وقد قالت العلماء ان الخادم والعبد اللائق خير من الولد ، ولا يجب أن يضيع من اليد خادم وعبد . والشاعر يقول :

وان غلاماً مطواعاً واحداً خير من ثلاث مائة ولد ، فان هذا يريد الموت لوالده وذلك يريد طول العمر لسيده ...

العلاقات المكانية لملوحة التربة فى العراق*

الدكتور حسن طه نجم
مدرس بقسم الجغـرافية

مقـدمة :

يتناول هذا البحث دراسة تباين التوزيع الجغرافى العام لملوحة التربة فى العراق وتوضيح العوامل التى ترتبط به • فالمعروف ان معظم جهات العراق تقع ضمن المنطقـة الجافة وشبه الجافة وعليه فان الانتاج الزراعى فيه يتعرض لنفس المشاكل التى تتعـرض لها الزراعة فى هذه المناطق ، ويمكن ان نحصر هذه المشاكل فى نقطتين رئيستين ، هما :

(١) كيفية الحصول على مياه الرى اللازمة لادامة المحاصيل الزراعية •

(٢) التخلص من المياه الزائدة عن الحاجة بعد عملية الرى وبعد ان تصل رطوبة التربة حد الاشباع • وذلك لان بقاء المياه الزائدة فى التربة بعد حد الاشباع يعنى وجود مستوى المياه الباطنية قريبا من السطح وهذا ما يعرض هذه المياه الى التبخر عن طريق الخاصية الشعرية تاركة وراءها الاملاح التى كانت مذابة فيهـــا مسببة بذلك مشكلـــة الملوحة (١) •

ان المشكلة الثانية ذات مساس مباشر بدراستنا الحالية ولذا فانها ستكون المـــدار الرئيسى للبحث •

ان تكون ملوحة التربة ليست بنتيجة لعملية واحدة فقط وانما هى حصيلة لتداخل عوامل طبيعية وبشرية معا • ويرجح ان العامل البشرى واستخدام اساليب الرى الخاطئة

---

* يود الكاتب ان يعرب عن جزيل شكره وامتنانه الى جميع اعضاء قسم الجغرافية بكلية التربية لمساعدتهم اثناء كتابة هذا المقال ، وخاصة منهم الدكتور على المياح للاقتراحات البناء التى ابداها بهذا الخصوص ، والسيد مكى محمد عزيز المعيـد لقيامه برسم الخرائط •

(١) يجب ان يفهم بان مياه الرى فقط هى التى تحمل املاحا ذائبة او غير ذائبة ، بينما تعتبر مياه الامطار نقية من هذه الاملاح ، ولذا فان تجمعها لا يسبب مشكلة فى التربـة •

أكثر خطورة فى هذا المجال ، اذ يعتقد ان ليس هنالك تربة مالحة بطبيعتها وانما نتيجة لاستغلال الانسان لها وارووائها دون تفادى خطر تجمع الرواسب الملحية التى كانت مذابة فى مياه الرى هو الذى يؤدى الى تدميرها بهذا الشكل .

ان تكون الملوحة فى التربة العراقية لايختلف بأسبابه عما ذكر أعلاه : فهو أيضاً حصيلة التعاون بين الظروف الطبيعية الملائمة - المتمثلة فى سوء تصريف التربة وجفاف المناخ وحرارته - والبشرية ، المتمثلة باستغلال اراضى وادى الرافدين بشكل غير وقائى لفترة طويلة من الزمن : منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، كانت نتيجته تفاقم هذه المشكلة بدرجة اصبحت معها تهدد الزراعة العراقية - وهى الركن الاساسى للاقتصاد العراقى - بخطر الدمار . اننا على يقين من أن كثيراً من مساوىء الزراعة حالياً فى العراق ، مثل قلة معدلات الانتاج وعدم تنوع الحاصلات والتنقل الزراعى ، تستمد معظم اسبابها من وجود هذه المشكلة . فاذا كان هذا واقع الحال ، اليس الاجدر بنا ان نولى هذا الموضوع غاية الاهتمام ؟

ليس المقصود من هذا البحث الموجز بيان اسباب تكون الملوحة فى التربة العراقية بشكل مفصل ، ولكننا نجد من الضرورى لكى نفهم التوزيع الجغرافى العام لهذه الظاهرة ان نعرض هذه الاسباب بصورة موجزة اولا .

أ : العوامل الطبيعية - العوامل الطبيعية التى لها علاقة بتكوين ملوحة التربة هى التى تتصل بشكل السطح وبالمناخ وبالتربة وبالهيدرولوجى .

١ - شكل السطح :- ان انبساط السطح وقلة انحداره يؤديان الى فقر عملية التصريف الطبيعية فتبقى المياه فى التربة لفترة طويلة تتعرض خلالها الى التبخر تاركة وراءها الذوائب الملحية التى كانت تحملها بشكل رواسب .

بتذكر هذه الحقيقة نتمكن ان نحدس لاول وهلة على ان التربة فى العراق سيتزايد تعرضها لتكون الملوحة كلما تقدمنا نحو الجنوب حيث يزداد انبساط الاراضى وتناقص درجة انحدارها . وبصورة ادق ، فان الاراضى الواقعة الى الجنوب من الخط الوهمى الواصل بين مدينتى سامراء على دجلة وهيت على الفرات - حيث يبدأ السهل الرسوبى

الحديث ـ تصبح الظروف فيها اكثر ملاءمة لظهور الملوحة ، ولذا فان هذه الظاهــرة تتزايد من حيث سعة الانتشار ودرجة التركز في التربة ، حتى اذا ما وصلنا الى المنطقة الواقعة الى الجنوب من مدينة العمارة على دجلة والديوانية على شط الحلة ، حيث يقــل انحدار الاراضي عن ١/٢٤٠٠٠ ، ولا يزيد ارتفاع السطح على ١٠ أمتار فوق مستوى سطح البحر (انظر الشكل رقم ١) ، يقترب مستوى المياه الباطنية من الســطح أكثر فأكثر وتتفاقم الملوحة بشكل يصعب معها ان نجد اليوم مســاحات مقبولــة من الاراضي الزراعية خالية من الملوحة بشكل من الاشكال .
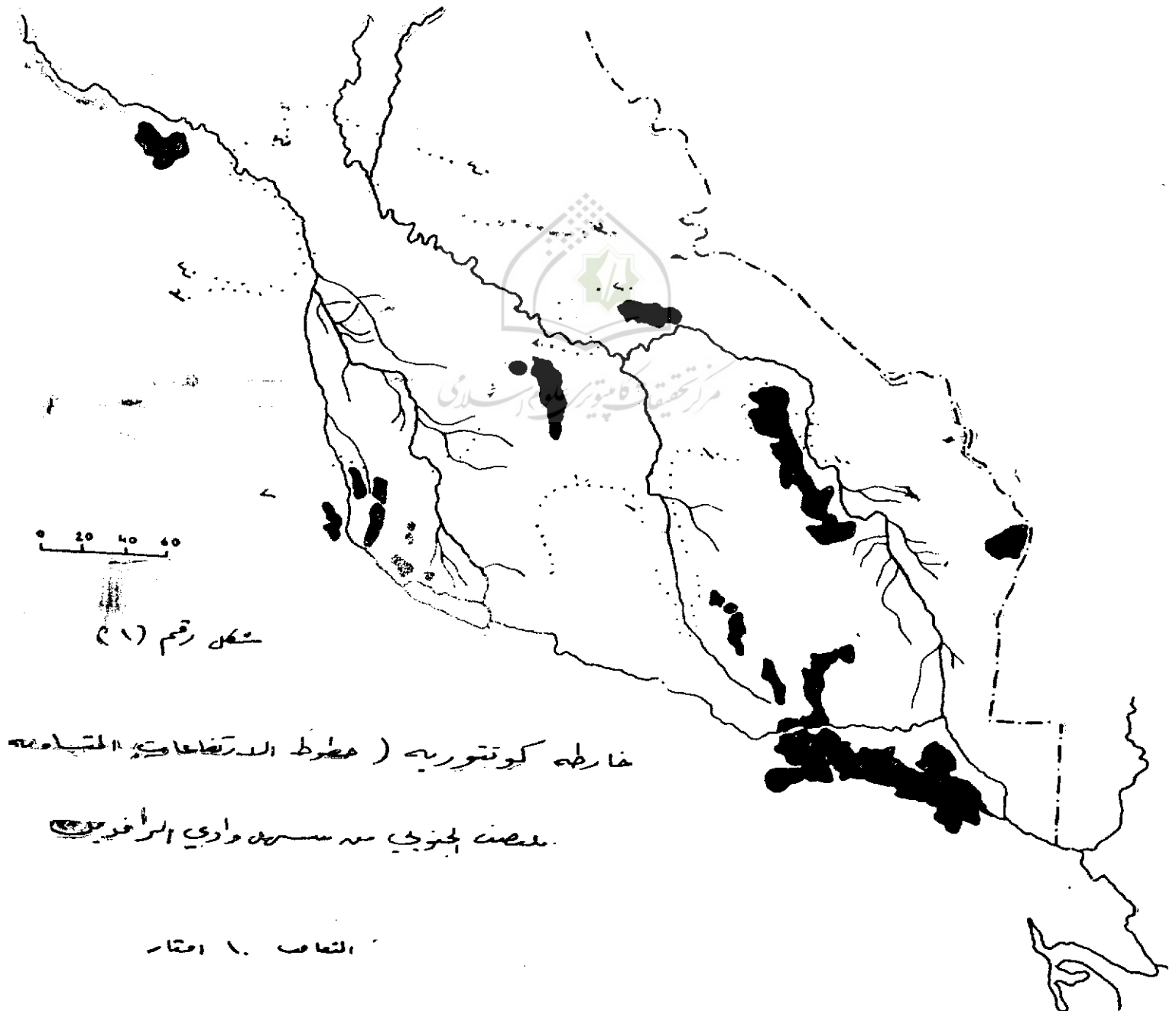
مما يجدر ذكره هو ان السهل الرسوبى الجنوبى ليس على درجة واحدة من الانبساط : بصورة عامة نلاحظ ان الاراضى المحاذية لمجرى النهر والمسماة «بجسر النهر Natural levee » مرتفعة نسبيا ، وهى تتدرج بالانخفاض كلما ابتعدنا عن مجرى النهر بالاتجاه العرضى ، ويصل انخفاض الاراضى ادناه فى منطقة منخفضات حوض النهر Basin Land حيث كثيرا ما تشغل هذه المنخفضات بالمياه الآسنة طيلة السنة او بعضها • ان ذلك يعنى بان درجة التصريف الطبيعى فى اراضى السهل الرسوبى الحديث تختلف ما بين جيدة فى اراضى جسر النهر وسيئة فى اراضى حوض النهر •

٢ – المناخ : يتعاون عامل المناخ مع عامل السطح على كيفية ونوعية توزيع الملوحة فى التربة العراقية بنفس الاتجاه الآنف الذكر • فمن المعلوم اننا كلما توغلنا جنوبا فى العراق تناقصت كميات المطر السنوى وتزايد عامل التبخر • يكفى ان نذكر بان معدل البخر السنوي فيجنوب العراق يبلغ ١٠٠٠ ملمتر بقليل بينما معدل كميات سقوطالمطر تتراوح بين ١٠٠ و٢٠٠ ملمتر • ان زيادة التبخر على كميات سقوط المطر بهذا الشكل تؤدى الى زيادة تركز الملوحة فى المياه وهذا مما يجعلها اقل صلاحية للرى • كما انها تؤدى الى كثرة فقدان المياه من التربة وترك الرواسب الملحية التى كانت تحملها مذابة فيها •

ان مما يؤدى الى زيادة فقدان المياه بعامل البخر فى جنوب العراق هو تعرض مساحات واسعة من سطحها للتبخر بسبب وجود المستنقعات • ولاجل ان نقدر مدى اثر هذه العملية فى تزايد الملوحة يكفى ان نذكر بان مياه شط العرب ، التى هى غالبا حصيلة تصريف المستنقعات الجنوبية ، تحمل من الاملاح الذائبة ما يقدر بـ ٧٤٦ جزء فى المليون ، وهذا يمثل ضعف معدل النسبة التى تحملها مياه دجلة والفرات فى مجاريهما الوسطى •

ان حصيلة عملية التبخر الهائلة فى جنوب العراق هى ترك رواسب ملحية فى هذا

الجزء من البلاد تقدر بحوالى ٢٢ مليون طن سنويا ، يضاف معظمها الى التربة ، وبذلك يكون العراق من اكبر معامل الملح الطبيعى فى العالم (١) .

٣ - التربة : يرتبط وضع التربة فىالعراق بعاملى السطح والمناخ بدرجة غير قليلة ، فالترب السمراء او المائلة للاحمرار والمستمدة من اصول كلسية ورملية ، وصخور مجمعة Conglomerate توجد فى المناطق الشمالية والتى يزيد فيها ارتفاع الاراضى على ٢٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر وتزيد معدلات الامطار السنوية على ٢٥٠ ملمتر (٢) . اما تربة السهل الجنوبى الحديث ، فكما يبدو من التسمية ، بانها متكونة من رواسب حديثة جلبتها بصورة رئيسية مياه دجلة والفرات بشكل طمويات او رواسب فيضية ، والتى فى كلتا الحالتين ادت الى تكون تربة ناعمة النسيج وثقيلة تتصف بضعف التصريف وبقاء المياه فيها مدة اطول من الزمن . كما ان الترب الناعمة النسيج Fine-Textured تزداد فيها عملية الخاصة الشعرية Capillary بالاتجاه العلوى والتى منها تنتج عملية الترسبات الملحية فى التربة .

٤ - الهيدرولوجى : من ملاحظة أثر المناخ ، كما مبين اعلاه ، يظهر ان مياه دجلة والفرات تزداد فيها نسبة تركيز الاملاح كلما توغلت جنوبا ، كما ان تشعب مجارى النهرين قبل دخولهما الاهوار وتوزع مياههما على مساحات واسعة بعد دخولهما الاهوار يؤدى الى تزايد فقدان المياه بالتبخر وبالتالى الى تزايد نسبة الاملاح فيها ، حتى اذا عادت المياه ثانية الى مجارى الانهار اصبحت الملوحة ظاهرة فيها حتى بالنسبة للمذاق المجرد ، ومثل ذلك مياه الفرات عند الناصرية .

من آثار الهيدرولوجى الاخرى المشجعة لتكون ملوحة التربة هى حركة المياه داخل التربة ، ولاسيما فى فصل الفيضان ، وما ينجم عنها من ظاهرة الرشح الظاهرى (النزيز)

---

(١) انظر George B. Cressey, "The Shatt al-Arab", Middle East Journal, Vol. XII, No. 4 (1958), P. 448.

(٢) انظر Burnell West, Interim Report to the Government of Iraq on Soil Survey and Classification. Rome, F. A. O., (Nov. 1955).

في بعض اراضي الجنوب • ففي مجاري دجلة والفرات السفلى غالبا ما نجد الانهار تجري في مستويات اعلى من مستوى الاراضي المجاورة لها في اراضي حوض النهرين ، وهذا مما يؤدي الى احداث حركة مائية داخلية باتجاه قيعان هذه الاحواض [١] • في مناطق الترب الخفيفة والمسامية تصعد المياه الى الاعلى وتترشح على السطح بشكل (نزيز) • ان مثل هذه الحركة مما تؤدي الى عرقلة حركة التصريف وتزيد من ركود المياه في التربة لفترة طويلة حيث تتعرض الى التبخر تاركة وراءها الاملاح في التربة •

ان مما يلفت النظر هو انه رغم اهمية حركة المياه الداخلية في التربة في تكون الملوحة واثرها في مدى نجاح عمليات البزل المقترحة للاراضي الزراعية ، فانه لم تجر دراسات وافية عنها لتعيين اتجاهاتها في مناطق المشاريع الاروائية المختلفة ، حيث لا توجد قاعدة عامة تحكم حركة هذه المياه في هذا الجزء من الارض وذلك بسبب تباين تكوين الطبقات العليا من التربة واختلاف انحدار هذه الطبقات • ويجب ان يعرف لغرض المقارنة بان الجهل بحركات المياه الداخلية في التربة في بعض المشاريع الاروائية في الولايات المتحدةالامريكية قد سبب فشل عمليات البزل والتصريف [٢] •

يبدو لنا من ايجاز العوامل الطبيعية الآنفة الذكر بان جنوب العراق يمثل البيئة المثالية من الناحية الطبيعية لظهور ملوحة التربة ، ان لم يتخذ الانسان احتياطات كافية ضد ذلك • ولعل من سوء الصدف ان يكون العراق الجنوبي الذي استغل زراعيا منذ اقدم العصور التاريخية حتى اليوم قد اهمل فيه الزراع اتخاذ مثل هذه الاجراءات فكانت النتيجة ان كلا من عاملي الزمن واساليب الاستغلال قد اودت بخصوبة التربة في السهل الجنوبي بسبب تفاقم هذه المشكلة ، وبذا يقول البعض بأن مشكلة الملوحة في العراق في الوقت الحاضر عبارة عن حصيلة استمرار عمليات الري في تربته بشكل غير وقائي لفترة طويلة من الزمن [٣] •

---

(١) انظر P. Buringh, "Living Conditions in the lower Mesopotamian Plain in Ancient Times". Sumer, vol. XIII (1957).

(٢) انظر Edward Higbee, American Agriculture, New York, J. Wiley (1958), chapters 8 and 9.

(٣) انظر J. C. Russell, General Soils for Iraq Students, (memeographed), Baghdad, 1956.

(١) عامل الزمن : لاشك ان حضارة وادى الرافدين الزراعية والاروائية هى من بين اقدم حضارات العالم ، وقد اتخذت هذه الحضارة مواقعها باديء الامر عند المجـارى السفلى لنهرى دجلة والفرات فيما يسمى بارض سومر • ثم توسعت شمالا الى بلاد بابل• ولربما يغرب عن بال البعض بان بعض اسباب هذا التحول فى الاستثمار الزراعى هو ظهور الملوحة وتفاقمها فى اراضى ما بين النهرين السفلى • اذ رغم العناية الكبيرة التى كان يبذلها السومريون فى الزراعة فان موضوع التصريف والتخلص من المياه الزائدة فى التربة لم يكن من الامور التى جلبت كثيرا من الانتباه ، فكانت النتيجة ان تراكمت الاملاح فى التربة بمرور الزمن واثر ذلك فى احداث تغييرات كبيرة سواء كان ذلك فى نوعية الحاصلات او فى معدلات الانتاج الزراعى (١) • ولم تكن الحضارات الزراعيـة الاخرى التى تعاقبت بعد السومريين بأكثر دراية فى هذا الموضوع •

ان نتيجة هذا الاهمال فى ارواء اراضى العراق الزراعية أن العراق الحديث استلم تراثا زراعيا مثقلا باخطر مشكلة يمكن ان تصيب التربة وبالتالى تداهم اقتصاده تلك هى مشكلة الملوحة • وحينما باشرت الحكومات الحديثة باحياء الاراضى الزراعية عن طريق تنظيم مشاريع الرى اهملت المشكلة ذاتها ، وهذا مما ادى الى تفاقم الحال فى التربـة العراقية ، حيث ان هذه المشاريع الاروائية قد يسرت مياها وافرة لاراض مصابة بسـوء التصريف ومثقلة بالرواسب الملحية ، لذا وجدنا الآثار السلبية لهذه المشاريع الحديثـة اخذت تظهر واضحة للعيان وبسرعة فائقة الا وهى تزايد الملوحة وتردى الانتـاج الزراعى • وسببت انتقال الزراعة من مكان لآخر ولربما بالتالى الى هجرة انفلاح مـن ارضه نهائيا ، وهذا ما حدث فعلا فى مشروع الدجيلـة • لقـد اوضح بعض الخبراء الذين قدموا العراق مؤخـرا لدراسـة الوضـع الزراعـى والاروائى بان ما بـين ٢٠ـ٣٠٪من الاراضى الزراعية قد هجرت منذ انشاء المشاريع الاروائية الحديثة فى بداية القرن الحالى ، بينما تناقص الانتاج فى المناطق المتبقية بمعدل ٢٠ـ٥٠٪او أكثر ، كل ذلك بسبب تفاقم ملوحة التربة (٢) •

(١) انظر Thorkild Jacobson, "Summary of the Report of the Diyala Basin Archeological Project, June 1957 — 1958", Sumer, Vol XIV (1959).

(٢) انظر I.B.R.D., The Economic Development of Iraq. Baltimore, The Johns Hopkins Press, (1952), P. 17.

(٢) اساليب الاستغلال الزراعى : ان صلة اساليب الاستغلال الزراعى بمشكلة الملوحة فى العراق تتعلق بطرق الرى والتبوير والتسميد •

فمن حيث الرى يلاحظ ان الفلاح العراقى يعتقد بضرورة كثرة استعمال المياه فى الزراعة وخاصة عند ظهور بوادر الملوحة على السطح • كما ان مقياسه فى تعيين موعد الارواء يعتمد على المظهر الخارجي للتربة ، وهو جفاف السطح • ان كلا الاسلوبين غير مقبولين : فكثرة استعمال المياه كثيراً ماتؤدي الى تفاقم مشكلة الملوحة بدل معالجتها وخاصة وان الاراضى الزراعية فى جنوب العراق فقيرة التصريف الطبيعى وخالية من المبازل الاصطناعية • كما ان موعد رى الاراضى بالشكل المذكور اعلاه لا يحدد الحاجة الحقيقية للمياه ، اذ كثيرا ما يبدو السطح جافا بينما الطبقات التى تلى السطح تكون رطبة ومكتفية بالمياه ، وكذا فان اضافة مياه اخرى اليها مما يعرقل وظائف النباتات بان يشبع التربة بشكل غير مرغوب•

لقد يسرت مشاريع الرى الحديثة كميات وافية من المياه لبعض المناطق الزراعية والتى عادة تزود بشكل سيحى وبدون ضابط كما هو الحال فى المناطق المنخفضة • ان مثل هذا الحال مضافا اليه رغبة الفلاح باستعمال كميات وافرة من مياه الرى قد هيأ اسبابا اخرى لتراكم المياه فى التربة وتزايد الرواسب الملحية بين طياتها •

أما التبوير وهو الموضوع الاخر الذى يتعلق بمشكلة الملوحة فى العراق ، فهو من المواضيع التى لاتزال تتطلب الدراسة والتمحيص لاجل بيان ضررها او فائدتها فى الزراعة العراقية • ولعل من الطريف ذكره هو ان الاراء قد اختلفت بهذا الخصوص • فمن قائل بأن عملية التبوير ضرورية لتقليل خطر الملوحة فى التربة حيث انها تيسر الظرف اللازم لخفض مستوى المياه الداخلية فى التربة وتجعله بعيدا عن تأثير البخر الظاهرى [١] • بينما الرأى الاخر يقرر عكس ذلك اذ يبين بأن استثمار الارض الزراعية بشكل متواصل فى الماضى كان من جملة العوامل التى ساعدت على استمرار حركة المياه

---

(١) انظر J. C. Russell, Saline Land Management Practice in Iraq. (Memeographed), College of Agriculture, Baghdad.

نحو الاسفل وبالتالى خروجها من المناطق الزراعية نحو الانهار وبذلك لم يتهيأ لها الظرف اللازم لترك ذوائبها الملحية فى التربة[١] . أما الراجح علمياً فهو ان عملية التبوير ستكون ضارة بالتربة فى حالة تطبيق نظام البزل ، وذلك لان التبوير يساعد على انقطاع تسرب المياه الى المبازل وبذلك سيكون المجال مفسوحا للخاصية الشعرية بأن تأخذ عملها وتنعكس بذلك حركة المياه الداخلية نحو الاعلى وهذا ممـــا يسبب ترك الرواسب الملحيـــة فى التربة [٢] .

الموضوع الثالث الذى يمت الى اثر الاساليب الزراعية فى ظهور الملوحة هـــو التسميد . فعلى الرغم مما يعتقده الفلاح العراقى من ان (السماد يقتل الصبخ) فأن التسميد يعتبر من الامور المهملة فى الزراعة العراقية . يضاف الى ذلك قلة الحشائش الطبيعيـــة وانتشار عمليات الرعى مما يجعل اضافة عضويات نباتية الى التربة بعيدة الاحتمال .

أن وجود الاسمدة فى التربة ، اضافة الى انه يجدد نشاط التربة وخصوبتها ، فانه يساعد كثيرا على تقليل خطر تكون الملوحة بأن يزيد من القابلية الرشحية للتربة وذلك عن طريق زيادة المسام بين ذراتها وهذا مما يفسح مجالا اكبر لحركة المياه بينها . والواضح انه كلما زادت حرية حركة المياه فى التربة ساعد ذلك على سرعة انصرافها من اقســام التربة العليا وقل أثر الخاصية الشعرية وتبخير المياه الداخلية .

بعد هذه اللمحة الموجزة لعوامل تكون الملوحة فى التربة العراقية يجدر بنا الان ان نستعرض على ضوء ذلك موضوع التوزيع الجغرافى لهذه المشكلة .

التوزيع الجغرافى لملوحة التربة فى العراق

مما سبق بحثه تتضح لنا حقيقتان هامتان ، هما :ـ

(١) ان العوامل البشرية قد هيأت الظروف اللازمة لظهور الملوحة فى معظم اجزاء السهل الرسوبى الحديث من العراق وذلك بالنظر لكون الزراعة الاروائية قد شملت هذا

---

(١) انظر C. R. Wimhurst, "Agricultural Problems in Alluvial Iraq,, Journal of the Central Asian Society, Vol. XI, No. 4 (1924).

(٢) مثل هذه النتيجة توصلت اليهـا تجارب الصرف والبزل التى جرت مؤخـرا فى مشروع رى الدجيلة .

الجزء من البلاد منذ فجر التاريخ حتى هذا اليوم ، ولذلك فان هذه الاسباب البشرية يمكن اعتبارها العامل الثابت فى تكون هذه المشكلة .

(٢) ان العوامل الطبيعية : طبوغرافية ومناخية ، قد أثرت فى تباين توزيع درجة الملوحة ومساحات الاراضى المالحة تبعا لاختلاف هذه العوامل من منطقة الى اخرى فى العراق .

ونتيجة لتداخل العوامل البشرية والطبيعية نجد ان توزيع ملوحة التربة فى العراق يأخذ مظهرين رئيسيين هما : المظهر العام والمظهر التفصيلى . ويقصد بالمظهر العام التوزيع الطولى من الشمال الى الجنوب ، بينما يقصد بالمظهر التفصيلى التوزيع العرضى عبر وادى النهرين من الشرق الى الغرب .

بحسب المظهر الاول ، نلاحظ من الخارطة رقم (٢) ان الملوحة فى العراق يزداد اتساعها ودرجة تركزها فى التربة كلما توغلنا نحو الجنوب [١] . ففى الشمال نجد أن توزيع الملوحة يتم بشكل بقع محدودة ومتباعدة تنحصر بصورة رئيسية فى الاراضى المنخفضة والسيئة التصريف ، بينما يتسع هذا التوزيع كلما ذهبنا جنوبا حيث يشمل مساحات اوسع فاوسع عندما ندخل السهل الرسوبى الحديث الى الجنوب من خط سامراء .

أن أسباب اختلاف التوزيع بهذا الشكل العام تتعلق بصورة اساسية بالعاملين الرئيسيين : السطح والمناخ . فالمعلوم أن سطح العراق يميل الى الانخفاض والانبساط كلما ذهبنا جنوبا ، ومعنى ذلك أن قابلية التصريف الطبيعى للتربة تزداد سوءا وفقرا بهذا الاتجاه . ان مدى العلاقة بين شكل السطح وتوزيع الملوحة العام فى العراق يمكن توضيحه من مقارنة الشكلين (١و٢) ، حيث يمكن ان نلاحظ جليا بأن هنالك علاقة كبيرة بين درجة هذا التوزيع ومستوى الارتفاع العام للاراضى . فالخط الذى يفصل التوزيع الخفيف عن التوزيع المعتدل للملوحة الظاهر على شكل (٢) يتطابق بدرجة غير قليلة مع خط ٣٠ متر الكونتورى (شكل رقم ١) ، بينما الخط الذى يفصل بين مناطق الملوحة المعتدلة عن المناطق الشديدة الملوحة يحمل مثل هذه الدرجة من التطابق مع خط ١٠ أمتار الكونتورى . والواقع انه الى الجنوب من خط ١٠ الكونتورى تداهم الملوحة النسبة الساحقة من مساحات الاراضى الزراعية وبصورة خطرة . ويعتقد بعض المعنيين بأن سبب تفاقم الملوحة فى هذا الجزء من جنوب العراق لا يعود فقط الى انبساط الاراضى وانخفاض

---

(١) انظر Knappen, Tippetts, Abbett, and McCarthy, Report on the Development of the Tigris and Euphrates River System, (1952), Plate V - 3.

مستواها العام ، بل أيضاً الى قربها من مياه الخليج العربى المالحة (١) .

كذلك يجب ان لاننس أثر تزايد نعومة نسيج التربة وثقلها باتجاه الجنوب فى تزايد ظهور الملوحة وتفاقم مشكلتها .

شكل رقم (٢)

خارطة توضح التوزيع العام للملوحة في العراق

المصدر: تقرير K.T.A.M.

(١) لقد ورد مثل هذا الرأى فى الحلقة الخاصة بملوحة التربــة فى العراق مــن المؤتمر العلمى الاول لجامعة بغداد الذى عقد خلال العام الدراسى الماضى . فى رأينا ان هذا الرأى يحتاج الى دراسة عميقة لبيان مدى العلاقة بين بقايا الاملاح

أما اثر المناخ فى التوزيع العام للملوحة ، فمن المعلوم ان مناخ العراق يزداد جفافا وحرارة باتجاه الجنوب ايضا ، وهذا ما يؤدى الى زيادة التبخر من التربة بواسطة تزايد فعاليات الخاصية الشعرية Capillary Action والذى يؤدى بالتالى الى تراكم الاملاح . لبيان مدى العلاقة بين اختلاف المناخ ودرجة اتساع وتركيز الملوحة فى التربة العراقية بهذا الاتجاه ، يجدر بنا ان نلاحظ فيما يلى الجدول رقم (١) والذى اقتبسناه من احد تقارير مجلس الاعمار السابق بخصوص توزيع الملوحة فى بعض المشاريع الاروائية فى العراق ، من الشمال الى الجنوب [١] .

اسم المشروع	النسبة المؤية من اراضى المشروع المصابة بالملوحة بنسبة ٦ر٠٪	معدل المطر السنوى (ملمتر)	معدل الحرارة السنوية (مؤى)
اسكى كلك	٤ر٠	٣٨٢	١٩ (للموصل)
الاسحاقى	٤٩	١٤٠	٢٢ (لبغداد)
الدجيلة	٨٦	١٣٢	٢٤ (للحى)

جدول رقم (١)
يوضح العلاقة بين الملوحة والظروف المناخية فى بعض مشاريع الرى فى العراق

يبدو لنا مما تقدم بحثه عن التوزيع العام للملوحة فى العراق بأن هذه المشكلة تصبح ذات خطورة حقا فى القسمين الاوسط والجنوبى من البلاد ، حيث مع تزايد انبساط وانخفاض الاراضى يتزايد ثقل التربة وجفاف الجو ومعدل الحرارة العام .

أما المظهر الثانى لتوزيع الملوحة الجغرافى فى العراق ، وهو التوزيع التفصيلى ، فينجم بالدرجة الاولى من اختلافات السطح الموضعية لسهل وادى الرافدين الجنوبى .رغم انبساط السطح العام لهذا السهل فأن الاراضى المحاذية لمجرى النهر - أى جسر النهر - أكثر ارتفاعا من تلك التى توجد بعيدة عن النهر ، وذلك لان الفيضانات المتعاقبة فى هذا الجزء من السهل قد عملت بمساندة الرواسب التى تحملها على بناء مثل هذه الاراضى العالية نسبيا عن مستوى السطح المجاور . بالتبعية اصبحت هذه الاراضى المرتفعة فى منطقة جسر النهر احسن تصريفا للمياه الداخلية وبالتالى اقل ملوحة من تلك التى توجد فى منخفضات حوض النهر ، ليس فقط لانها مرتفعة نسبياً ، بل أيضاً لان نسيج تربتها أخف من تلك الموجودة فى المنخفضات وذلك بسبب كثرة نسبة المواد الرملية فى تكوينها .لعل

(١) انظر Republic of Iraq, Development Board, Dujaila Drainage & Land Reclamation Experiments, Report No. 6, P. 5.

هذا الوضع يفسر لنا سبب كون بعض الاراضى المحاذية للنهر من مجارى النهرين فى اواسط العراق كانت ولا تزال منتجة زراعيا منذ الاف السنين •

أن المخطط المبين فى شكل (٣) يوضح لنا العلاقة بين اختلاف مستويات الاراضى
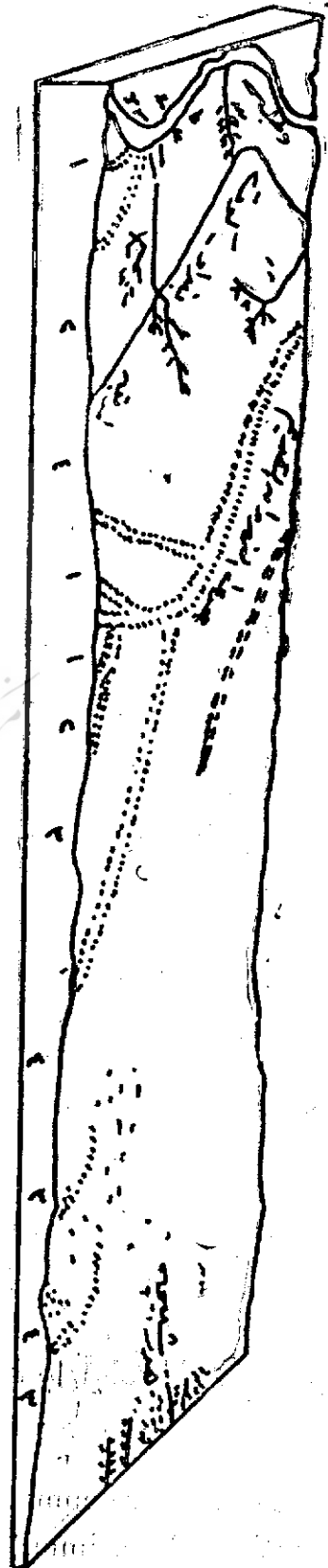
لسهل الرافدين وتباين درجة الملوحة فى تربته • اذ نلاحظ جليا بأن اراضى جسر النهر (الموسومة برقم ١ فى الشكل) اكثر جودة من تلك الموجودة فى منخفضات حوض النهر (والموسومة برقم ٤ فى الشكل) وذلك بسبب تباين درجة الملوحة فى كل منهما •

مما تجدر ملاحظته هو ان القسم الواقع بين بداية السهل الرسوبى الحديث ومنطقة المستنقعات الجنوبية ، او ما يسمى بسهول النهرين الفيضية ، هى التى يلاحظ تطور اراضى جسر النهر Natural levees فيها وذلك بسبب تعاقب الفيضانات فيه ، أما الى الجنوب من منطقة المستنقعات والاهوار فنادرا ما نشاهد مثل هذه الظاهرة السطحية وذلك بالنظر لان معظم طمويات دجلة والفرات تترسب فى المستنقعات ولذا فان النهرين لدى خروجهما من هذه المستنقعات لا يحملان معهما من الرسوبيات ما يساعد على بناء مثل هذه الاراضى العالية • ولعل من المفيد أن نذكر بان نسبة الرسوبيات التى تحملها مياه الرافدين بعد خروجها من الاهوار لا تزيد على ١٠٪ من الكمية التى كانت تحملها قبل دخولها الاهوار [١] • ان انعدام او قلة تكون هذه الظاهرة السطحية فى الجزء الجنوبى من العراق مما يؤدى الى زيادة نسبة الاراضى المنخفضة والفقيرة التصريف ، وبالتالى يزيد من نسبة الاراضى المعرضة لتكون الملوحة اكثر فاكثر •

يمكن ان نلخص ما سبق ذكره عن توزيع الملوحة التفصيلى بانه اضافة الى أن هذه المشكلة تأخذ شكلها الجدى والمؤثر فى النصف الجنوبى من البلاد ، فأن تباين ظروف السطح المحلية فى هذا الجزء تسبب اختلافا فى توزيع وتركيز الملوحة فى التربة •

تباين ملوحة التربة وطرق علاجها :

تختلف طرق علاج ملوحة التربة تبعا لاختلاف مساحة الاراضى المالحة ودرجة تركز الملوحة فيها •

---

(١) انظر Lees and Falcon, "The Geographical History of the Mesopotamian Plains", Geographical Journal, Vol. 118, Pp. 24—39.

ترتبط مشاكل الملوحة فى العراق بالظروف الطبيعية (من سطح ومناخ وتربة) والبشرية (من اساليب رى وطرق استثمار الاراضى) ، حيث قد اوضحنا سابقا أن الظروف الطبيعية فى السهل الرسوبى الحديث ملائمة لظهور الملوحة وذلك بسبب ضعف قابلية التربة على تحريك المياه وصرفها فتتعرض هذه المياه الى التبخر • ولذا فيقتضى لاجل تحسين الوضع زيادة قابلية التصريف فى هذه التربة بصورة اصطناعية عن طريق بناء المبازل والقيام بكل العمليات الاخرى الملازمة لذلك كالغسل والترشيح واضافة الاسمدة• أما الظروف البشرية ، فكما مر بنا سابقاً ، ما لم يتم تبديلها بتعليم الفلاح الاساليب الحديثة فى الاستغلال وتفادى مشاكل الرى فأن نفقات بناء المصارف واحياء الاراضى ستذهب هدرا •

لا يتسع المجال هنا للتفصيل فى هذه المواضيع المختلفة ، ولكن بقدر ما يتعلق الامر بموضوع هذا المقال يكفى بأن نقول بأن تصميم مثل هذه العمليات ومدى الحاجة اليها تتناسب مع درجة ونوعية الملوحة فى التربة فالحاجة اليها فى حالة وجود الملوحة بشكل واسع ومتازم تختلف عما هى فى حالة وجودها بشكل أخف• وعلى أية حال ، فان عمليات الملوحة فى العراق يجب ان تقوم بوظيفتين اساسيتين : الاولى هى التخلص من الأملاح التى تراكمت فى تربة العراق الرسوبية من السهل الجنوبى منذ الاف السنين حتى اليوم نتيجة عمليات الزراعة الاروائية المستمرة طيلة هذه الحقبة الطويلة من الزمن • الثانية ، هى منع حدوث أى تراكم جديد للاملاح لدى استغلالها بعد التخلص من الرواسب •

بالنسبة للوظيفة الاولى ، لقد اوضحنا سابقا بان العمليات الاروائية التى زاولها سكان العراق منذ الاف السنين دون اجراءات احتياطية قد ادت الى تراكم الاملاح التى حملتها مياه النهرين الى التربة ولاعماق بعيدة من السطح ، ولهذا فأن هذه التربة الرسوبية العميقة التى كانت تعمل كمهرب للمياه المالحة والرواسب الملحية التى كانت تتركها عمليات الرى فى بادى الامر لم تعد قادرة فى الوقت الحاضر على القيام بمثل هذه الوظيفة بالنظر لتشبعها بالمياه وبالرواسب الملحية على مر الزمن • ولذا فان اية اضافات جديدة من الاملاح اخذت تظهر على السطح بسرعة فائقة ، وهذا ما نلاحظه اثناء استغلال الاراضى زراعيا حاليا •

استنادا الى هذه الحقيقة فقد اصبح من الضروري لاجل انجاح العمليات الزراعية في الوقت الحاضر القيام بالتخلص من هذه الرواسب من الجزء الاعلى من التربة ، وهو الجزء الذي تنمو فيه الحاصلات الحقلية ، الى الحد الذي يسمح بنمو نوع او انواع معينة من المزروعات وذلك قبل البدء بعملية الزراعة ذاتها . لقد وجد بنتيجة تجارب استصلاح اراضي مشروع الدجيلة مثلا بأن حوالى ٥٥ طن من الاملاح قد ازيلت من عمق المترين العلويين من التربة في المشارة الواحدة بحيث بعدها اصبحت التربة ملائمة لانماء الحاصلات الزراعية [١] ، بينما قدر بانه يقتضي ازالة ما لا يقل عن بليون (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠) طن من الاملاح من ترب جميع المشاريع الاروائية القديمة والجديدة في العراق كي تكون اراضي هذه المشاريع في مستوى ادنى لانجاح العمليات الزراعية [٢]. أن التخلص من فائض الاملاح هذا يستلزم القيام بعمليات الغسل والترشيح والصرف .

اما بالنسبة للوظيفة الثانية ، فانه بعد التخلص من الاملاح الزائدة في التربة ومزاولة الزراعة فيها ، لابد ان تستمر عمليات الترشيح والبزل من التربة وذلك للحيلولة دون تجمع رواسب ملحية جديدة . ان ذلك يستلزم توفير كميات فائضة من مياه الري اكثر من الحد المقرر لاسقاء حاصل زراعي معين بحيث تتمكن معها هذه الزيادة من المياه من النفوذ خلال منطقة الجذور الى المبازل حاملة معها الكميات الزائدة من الاملاح التي تبقت بعد عملية الري . وبكلمة اوضح ، فان الوظيفة الثانية للتخلص من الملوحة هي احلال التوازن في كميات الملح Salt Balance [٣] بين تلك التي تدخل التربة عن طريق الري وتلك التي تخرج بطريق الرشح والبزل .

ان نجاح عمليات علاج الملوحة باداء الوظيفتين الآنفتي الذكر على الوجه المرضي ، اضافة الى انه يستند على عوامل متعددة ، فان له علاقة شديدة بالوضع العام لتوزيع الملوحة . فمن حيث الوظيفة الاولى ، والتي تحتاج الى مقادير اضافية من المياه الى جانب

---

(١) انظر J. Bowmans, Drainage and Land Reclamation Experiments in Dujaila, U.S.O.M., Baghdad (1956), unpublished.

(٢) انظر المصدر السابق الذكر ، Dujaila Drainage . . . etc., Report No. 6P. 7

(٣) اول من اشار الى هذه الفكرة هو المهندس الاميركي Corl Scofield في مقاله : "Salt Balance in Irrigated Areas", Journal of Agricultural Research, Vol. LXI (1940), pp. 17 — 39

حاجات الري ، فان مقدار ما تحتاجه من هذه المياه لغرض غسل الرواسب الملحية من التربة يتناسب طرديا مع نسبة تركز الاملاح في تلك التربة ، كما انه يتناسب بهـذا الاتجاه مع تزايد معدلات درجات الحرارة السنوية ، باعتبار ان زيادة الحرارة تؤدي الى زيادة فقدان المياه بواسطة البخر من تلك الكميات التي تسلط على الحقل لغرض القيام بعمليات الغسل والترشيح . لما كان العاملان المذكوران : تركز الملوحة في التربة وتزايد معدلات الحرارة السنوية في العراق ، يتزايدان باتجاه الجنوب فان الحاجة الى المياه لغرض الغسل والترشيح للمساحة الواحدة من الحقل ستتزايد بهذا الاتجاه ايضا .

ان كميات المياه المفقودة بعامل التبخر لا تتأثر بدرجة الحرارة الجوية السائدة فقط ، بل ايضا تعتمد على سرعة ترشح المياه من التربة . فكلما كانت قابلية التربة على الرشح اكبر كان تعرض المياه الى التبخر اقل ، والعكس بالعكس . هذا يعني بان الترب الخفيفة المسامية تمتص المياه المسلطة عليها بدرجة اسرع من الترب الطينية الثقيلة . فقد وجد بان معامل الترشيح للترب المزيجية من نوع Silt loam يتم بمعدل ٧٥ر٠ متر خلال الـ ٢٤ ساعة ، بينما المعدل للترب الطينية الثقيلة هو ٣٦ر٠ متر خلال الـ ٢٤ ساعة [١] . مع اخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار ، يجب ان نتذكر بان ترب العراق الاوسط والجنوبي تختلف ما بين ثقيلة وخفيفة ، احيانا باختلاف التوزيع السطحي واخرى باختلاف التوزيع المقطعي .

من حيث اختلاف التوزيع السطحي ، يكفي أن نذكر بأنه على وجه العموم توجد الترب الخفيفة المزيجية قريبة من مجاري الانهار الرئيسية وخاصة في منطقة الاراضي المرتفعة من جسر النهر في القسم الاوسط من وادي النهرين ، بينما الترب الثقيلة يتزايد وجودها في الاراضي المنخفضة من حوض النهرين وفي القسم الجنوبي من سهل وادي الرافدين . أما من حيث التوزيع المقطعي (العمودي) ، فانه كنتيجة لتعاقب الفيضانات وتحول مجاري الانهار في القسم الاوسط من الوادي ، فان التركيب المقطعي لنسيج التربة في هذا القسم يختلف ما بين خفيف وثقيل بدون قاعدة معينة . وباختلاف ذلك تختلف درجة سرعة الرشح .

(١) انظر المصدر السابق ذكره J. Bowmans, Drainage and Land . . . etc.

أما بخصوص الوظيفة الثانية من وظائف عمليات معالجة الملوحة فى العراق فأن نجاحها يستند الى امور غاية فى التعقيد اذا ما قورنت بمتطلبات نجاح الوظيفة الاولى • أذ ان مهمة هذه الوظيفة كما بينا اعلاه ، هو احلال التوازن فى ملوحة التربة Salt Balance بحيث يتيسر معه حفظ مستوى هذه الملوحة الى الحد المرغوب والممكن والذى معه يضمن استمرار الانتاج الزراعى فى تلك التربة بنجاح ، وهذا يعتبر من الامور الضرورية جدا لمستقبل الزراعة فى العراق •

أن احلال توازن الملوحة فى التربة يقتضى معرفة كميات الاملاح الداخلة اليها بطريق الرى والمتبقية فيها بعد حصول النباتات على مطاليبها من هذه الاملاح ، والتى هى على أى حال من الاحوال فى غاية القلة • معرفة كميات الاملاح الداخلة الى التربةبطريق الرى تتحقق بمعرفة نسبة الاملاح التى تحملها تلك المياه ، كما انه يتطلب معرفة كميات المياه التى استعملت للرى • بعد ان نتحقق من كميات الاملاح الداخلة الى التربة يجب ان نضمن خروجها والتخلص منها ، وهذا لا يتم الا باستمرار عملية الترشيح Leaching التى تزيح الاملاح الزائدة فى منطقة الجذور الى المبازل •

يبدو لنا مما سبق ذكره بانه لاجل ان نتحقق من كميات الاملاح الداخلة الىالتربة يجب أن نضبط كميات المياه المستعملة للرى فى أى حقل معين وذلك بمعرفة الحاجة الاستهلاكية Consumptive use من هذه المياه التى يتطلبها الحاصل الزراعى ، والتى عادة تختلف من حالة لاخرى بأختلاف نوعية الحاصل والظروف الجوية وظروفالتربة• أما غسل الاملاح المتبقية بعد عملية الرى فيتم بامرار كميات اضافية من المياه الى كميات الحاجة الاستهلاكية بحيث تتمكن هذه المياه الفائضة أن تنفذ خلال منطقة الجذور النباتية حاملة معها رواسب الاملاح المتبقية الى المبازل • لما كانت كميات الاملاح المتبقية فى منطقة الجذور ستختلف من حال لاخر ، تبعا لاختلاف نسبتها فى مياه الرى ولاختلاف شدة التبخر من التربة فأن عملية ازالتها من التربة ستختلف تبعا لذلك • كما ان مقدارالاملاح التى سيسمح لبقائها فى التربة تختلف تبعا لنوعية الحاصل • ففى حالة الحاصلات الشديدة الحساسية للملوحة يقتضى عدم السماح لاية كمية ضارة من الاملاح بالبقاء ، بينما يسمح لبقاء نسبة اكبر من هذه الاملاح فى حالة المحاصيل الاكثر مقاومة للملوحة •

من ذلك يتبين لنا بان كميات المياه الاضافية اللازمة لغسل الملوحة من منطقة الجذور والتى تسمى أيضا بالحاجة الترشيحية Leaching Requirement ستختلف نسبتها تبعا لاختلاف الحالات الآنفة الذكر [١] . ففي حالة وجود نسبة عالية من الاملاح الذائبة فى مياه الرى يجب أن تزداد الحاجة الترشيحية الى كمية الحاجة الاستهلاكية من المياه . كما أن هذه النسبة يجب أن تكون عالية فى حالة زراعة المحاصيل الحساسة للملوحة . أن معنى ذلك كله هو ان كمية المياه المنصرفة من التربة فى هذه الحالات ستكون نسبيا عالية ، والعكس بالعكس .

لدى اخذ هذه الحقائق المتعلقة بموضوع الترشيح واحلال التوازن فى ملوحة التربة بنظر الاعتبار ، يبدو لنا بأن القيام بمثل هذه الوظيفة سوف لن يتم بمقياس واحد في جميع انحاء العراق . فأن الحاجة الترشيحية ستتزايد تبعا لتزايد نسبة الاملاح فى مياه دجلة والفرات أثناء جريانها من الشمال الى الجنوب . لتوضيح فكرة اختلاف نسبة الحاجة الترشيحية تبعا لاختلاف نسبة الاملاح الذائبة فى مياه النهرين ، فيما يلى الجدول رقم (٢) الذى يبين بعض النتائج التى توصلنا اليها لهذه النسب لبعض المواقع فى اواسط وجنوب العراق [٢] .

جدول رقم ـ ٢ ـ
يوضح اختلاف الحاجة الترشيحية بحسب الموقع والحاصل لأواسط وجنوب العراق

الحاجة الترشيحية بالنسبة المؤية للحاجة الاستهلاكية :

الموقع	للمحاصيل المعتدلة المقاومة للملوحة	للمحاصيل الحساسة لتأثير الملوحة
بغداد	٦	١١
العمارة	٩	١٥

(١) انظر

Ronald Reeve, "The Relation of Salinity to Irrigation & Drainage Requirements", International Commission on Irrigation & Drainage, 3rd. Congress, San Francisco, (1957), 10 — 180.

(٢) من رأينا ان مثل هذه الحسابات ضرورية لتقرير كميات المياه الضرورية لادامة الزراعة فى وادى النهرين والتى يجب توفرها فى العراق بصورة ثابتة ، وخاصة وان العراق مقبل على مفاوضات دولية بشأن تقسيم مياه الفرات مع الدول المجاورة .

الفلوجة	٩	١٥
الناصرية	١٢	٢٣
القرنة	١٥	٢٥
البصرة	١٨	٣٠

يبدو لنا من الجدول اعلاه بأن نسب الحاجة الترشيحية لمشاريع رى الفرات اكبر من تلك الموجودة فى حوض دجلة للمواقع المتوازية ، وذلك بالنظر لان مياه الفرات تحتوى على نسب أعلى من الاملاح الذائبة ، كما أن هذه النسب لكلا النهرين تتزايد باتجاه الجنوب وذلك لتزايد التبخر وتركز الملوحة فى مياههما . كذلك نلاحظ بأن هذه النسب تختلف تبعا لاختلاف الحاصلات فيما اذا كانت ضعيفة أم عالية المقاومة للملوحة .

أن تحديد الحاجات الترشيحية لمختلف مناطق العراق بشكل مضبوط ودقيق يقتضى القيام بالدراسات الهيدرولوجيه الدقيقة لمياه دجلة والفرات وخاصة لدى دخولهما السهل الرسوبي الحديث ، كما يقتضى تحديد نوعية الحاصلات الزراعية المراد انتاجها فى مختلف المناطق الاروائية . ان تقرير مثل هذا التنوع الزراعى لايمكن تحديده بصورة ناجحة الا اذا جرى مسح متقن للسطح والتربة لمختلف اجزاء المشروعات الاروائية والذى على أساسه يجب أن يتم تصنيف الاراضى تبعا لقابليتها الانتاجية Land Capabilities

من الامور الاخرى التى تتعلق بمشكلة علاج الملوحة وتتصل مباشرة بعمليات الغسل والترشيح هى بناء المبازل : الرئيسة منها والفرعية . ولعل تصميم المبازل الفرعية فى الحقول الزراعية ذات مساس مباشر اكثر بتوزيع الملوحة وبوسائل علاجها الذى بحث سابقا . وذلك لان عمق وسعة هذه المبازل وابعادها عن بعضها ستختلف تبعا لاختلاف كميات المياه المنصرفة من التربة . فمن حيث عمق المبازل : يجب أن يكون ذلك دون مستوى منطقة الجذور وذلك كى تتمكن هذه المبازل من تحرير التربة العليا من مياه الرى الزائدة والاملاح المتكدسة فيها . ولقد وجد نتيجة التجربة فى العراق بأن عمق المبازل الحقلية يجب أن يتراوح بين متر وربع ومترين [١] . أن لموضوع عمق المبزل

(١) راجع ، Government of Iraq, Development Board, Seminar on Drainge & Land Reclamation. Baghdad (1958), P. 2.

علاقة بقابليته على استيعاب المياه المنصرفة من التربة • فكما بينا آنفا ، يجب أن لا تزيد كميات المياه المنصرفة على القابلية الاستيعابية للمبزل ، والا جعلته غير قادر على اداء وظيفته وسببت تدميره بمرور الزمن ، ولذلك فقد أصبح من الضرورى تحديد مقادير ميـاه الرى المستعملة فى كل رقعة وذلك بتحديد الحاجتين : الاستهلاكية والترشيحية للحقل الواحد •

أما موضوع المسافات التى تفصل المبازل عن بعضها فيتأثر بدرجة ملوحة التربـة وبقابلية التربة الترشيحية • ففى حالة شدة تركز الملوحة وقلة قابلية التربة الترشيحية فأن هذه المبازل يجب أن تكون متقاربة من بعضها ، والعكس بالعكس • لقد وجد بنتيجة التجارب التى اجريت فى اراضى مشروع الدجيلة بأن المسافات التى تفصل المبازل عـن بعضها يجب أن تتراوح بين ٢٥ و٣٠٠ متر •

مما تقدم يبدو لنا بأنه حتى فى تصميم وبناء المبازل فى الاراضى الزراعية فى العراق يجب أن نأخذ موضوع توزيع الملوحة واصناف التربة بنظر الاعتبار ، والتى كما اسلفنا تختلف من الشمال الى الجنوب وتبعا للاختلاف الموضعى للسطح •

نخرج من بحثنا حول عمليات علاج الملوحة فى العراق بحقيقة هامة ، وهى انه من الضرورى جدا وضع ميزانية للاملاح Salt Budget (١) لكل مشروع من المشاريـع الاروائية الحالية او التى يراد احياؤها فى المستقبل ، وذلك كى نكون على هدى ودراية بما يجب اتخاذه لانجاح وادامة الانتاج الزراعى فيها •

خلاصة البحث : هنالك بضعة حقائق يمكن استخلاصها من الدراسة الحالية ، وهذه هى :

(١) ان السهل الرسوبى الحديث لوادى الرافدين هو البيئة الطبيعية المثالية لتكون الملوحة فى التربة ، وان الاساليب البشرية لاستغلال اراضى هذا السهل منذ فجر التاريخ حتى اليوم قد تفاعلت مع هذه الظروف الطبيعية لظهور وتطور المشكلة •

---

(١) لقد اورد اهمية هذه الفكرة استاذنا George B. Cressey فى مقاله : "Water in the Desert", The Annals of the Association of the American Geographers, Vol. 47, No. 2 (June, 1957), P. 115

(٢) أن اختلاف توزيع الملوحة فى سهل العراق الجنوبى من حيث سعة الانتشار ودرجة التركز يعود الى الاختلافات الموضعية للسطح والتربة .

(٣) أن علاجات الملوحة بمختلف المراحل والطرق ، لاجل أن تكون ناجحة ، يجب أن تأخذ هذا الاختلاف فى التوزيع الجغرافى للملوحة بنظر الاعتبار .

(٤) أن ادامة اقتصاد زراعى ناجح فى العراق يعتمد بصورة رئيسة على ضمان ازاحة الترسبات الملحية التى تركتها العصور فى التربة وعلى تفادى أية ترسبات جديدة منها وذلك بحفظ التوازن فى كميات الملح فى التربة . أن ذلك سيتطلب تهيأة ميزانية للاملاح لكل مشروع من المشروعات الاروائية . ولعل اهمال مثل هذه الاجراءات قد يعرض النفقات الهائلة التى تصرف على استصلاح الاراضى فى العراق الى الهدر .

المدرسة النظامية

من مظاهر الحضارة الاسلامية ببغداد

حسين آمين
مدرس التاريخ الاسلامى بكلية التربية

ازدهرت بغداد فى عهد الخلافة العباسية ازدهارا عظيما ، وازدانت بالكثير من المنشآت التى أقامها الخلفاء والامراء والوزراء والتى افتنوا فى بنائها وتجميلها ، وكانت المعاهد من مساجد ومدارس وربط وبيمارستانات من أهم هذه المنشآت ، وقد لعبت دورا كبيرا فى التاريخ الحضارى للدولة العباسية .

الا ان تلك الآثار العظيمة لم تبق على ما كانت عليه فى ايام العباسيين ، لان عوامل الزمن ويد الانسان العابثة قد تظافرت على محقها وتدميرها ، فللأسف الشديد زال اكثر تلك الآثار واندرس أثرها ، ومن تلك الاثار التى اندرست واصبحت أثرا بعد عين ، المدرسة النظامية التى شيدها نظام الملك الوزير السلجوقى سنة ٤٥٩ هـ ، تلك المدرسة التى كان لها شأن خطير فى الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية فى ذلك العصر الذى شيدت فيه وبعده ، وكانت اول مدرسة تشرف عليها الحكومة وتضع لها منهجا خاصا للتعليم .

والمؤسس ، نظام الملك من الشخصيات الكبيرة التى ظهرت على مسرح التاريخ وتركت آثارا خالدة فى حياة الانسانية ، وقد ذاع صيت هذا الرجل نتيجة جهوده العظيمة فى تدبير الدولة وضبط المملكة وفتوح البلدان وعدله وانصافه وتواضعه ورجاحة عقله وتقواه واحسانه .

ولد نظام الملك فى قرية نوقان من نواحى الراذكان على مقربة من طوس يوم الجمعة ٢١ من ذى القعدة سنة ثمان واربعماية للهجرة [١] وقد تدرج فى ادارة الدولة حتى أصبح وزيرا لالب ارسلان وولده ملكشاه مدة تسع وعشرين سنة كان خلالها مثل

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ١ ص ١٨٠ .

الاخلاص فى اداء الواجب والنزاهة فى الحكم والحرص على مصلحة الرعية . وكان محبا للعلم مقربا للعلماء ، ومجلسه عامراً بالفقهاء والصوفية [(١)] . وقد أظهر نظام الملك كفاءة وامانة كبيرتين وابدى من النشاط والهمة وحسن التصرف وحكمة السياسة ما دعا الب ارسلان أن يتخذه وزيرا له ، ثم أصبح وزيرا لولده ملكشاه ، فقام بدولتهما أحسن قيام فشد أركانها وشيد بنيانها واستمال الأعداء ووالى الأولياء واستعمل الكفاة [(٢)] .

والحقيقة ان نظام الملك كان رجل السياسة والحرب والعلم تمكن من السيطرة على شؤون الدولة واصبح هو الآمر المتصرف لا يجرى جليل ولا حقير الا بامره ، مستبدا بذلك واكتفى السلطان بالاسم وبانفاق وقته فى اللذة والصيد [(٣)] . وكان عالماً جواداً حليماً كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت كما كان مجلسه عامرا بالفقهاء والقراء وأئمة المسلمين [(٤)] . ومن أشهر أعماله الخالدة بناؤه المدارس النظامية فى كثير من مراكز العالم الاسلامى واوسع تلك المدارس واكثرها شهرة المدرسة النظامية ببغداد ، وقد بذل عناية كبيرة فى تلك المدارس حتى العاشر من رمضان سنة ٤٨٥ هـ عندما اغتاله رجل باطنى [(٥)] . وبذلك فقدت الدولة السلجوقية أعظم شخصية كانت من دعائم الحكم السلجوقى .

المدرسة التى نتحدث عنها المدرسة النظامية ببغداد والتى سميت بأسم منشئها نظام الملك (قوام الدين ابو على الحسن بن اسحق الطوسى) شرع فى تشييدها فى شهر ذى الحجة سنة ٤٥٧ وتكامل بناؤها يوم السبت العاشر من ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ ، ومن الملاحظ أن معظم المدارس الاسلامية كانت تسمى بأسماء منشئيها مثل التاجية المنسوبة الى تاج الملك أبى الغنائم المرزبان ابن خسرو فيروز [(٦)] . والمدرسة الشرابية التى انشأها شرف الدين الشرابى بواسط سنة ٦٣٢ هـ [(٧)] ، والمدرسة النورية التى انشأها نور الدين

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ١ ص ١٨٠

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٢٨ .

(٣) السبكى : طبقات الشافعية حـ ٣ ص ١٣٩

(٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حـ ٨ ص ١٦٢

(٥) الحسينى : اخبار الدولة السلجوقية ص ٦٧

(٦) ياقوت – معجم البلدان حـ ١ ص ٨١٠

(٧) الحوادث الجامعة ص ٧٦

محمود زنكى سنة ٥٦٣ هـ[١] ، والمدرسة الصلاحية التى بناها السلطان صلاح الدين الايوبى سنة ٥٧٢ هـ[٢] ، والمدرسة المستنصرية التى شيدها الخليفة المستنصر بالله العباسى سنة ٦٣٠ هـ[٣] .

ان المدرسة النظامية تعتبر من المدارس الاولى فى العراق وقد انشئت هذه المدرسة لتدريس الفقه الشافعي خصيصى وشرط الواقف : أن يكون المدرس بها والواعظ ومتولى الكتب من الشافعية أصلا وفرعا[٤] . وأصبحت مدارس نظام الملك نموذجا للمدارس الجديدة ، وغدا نظام الملك نفسه قدوة حسنة يحتذى به كبار رجال الدولة من الوزراء والامراء فى انشاء المدارس ، يقول الاستاذ ارنست دايز Ernest Diez : أن أهمية عمل نظام الملك ترجع الى كونه بداية عصر جديد من الازدهار للمدرسة اذ اصبح السلطان ورجال الطبقه العالية مولعين بتأسيس المدارس كما أن تكوين المدرسة على الوضع الذى رسمه نظام الملك وما الحقه بها من اقسام داخلية لاقامة الطلاب اصبح فيما بعد نموذجا يحتذى به فى سائر المدارس التى انشئت فى العصور التالية[٥] . ومن الجدير بالذكر هنا ان علماء ما وراء النهر ، اصابهم الهم والحزن عندما كوشفوا ببناء المدارس ببغداد وانهم أقاموا مأتم العلم وقالوا كان يشتغل به ارباب الهمم العلية والانفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم ، واذا صار عليه أجرة تدانى اليه الاخساء وأرباب الكسل[٦] .

أن الدافع على ما ارجحه فى تأسيس المدارس النظامية كان مذهبيا وسياسيا ، لقد كان نظام الملك شافعيا اشعريا حريصا على مذهبه ، وعاصرت نظام الملك آراء وافكار متباينة مختلفة كانت منتشرة فى العالم الاسلامى كالمعتزلة والباطنية وبقايا القرامطة وغيرهم من اصحاب الملل والنحل ، وكان نظام الملك يرمى بدرجة كبيرة الى توجيه الرعية وجهة تخدم مصلحة الدولة وتبعث على الاستقرار والسكينة والامن ، لذا كان هم نظام الملك

(١) أبو شامة : الروضتين حـ ١ ص ٢٢٩
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة حـ ٢ ص ١٨٦
(٣) حسين امين : المدرسة المستنصرية ص ٢٨
(٤) ابن الجوزى : المنتظم حـ ٩ ص ٦٦
(٥) Encyclopeadia of Islam: Art Masjid P. 357.
(٦) حاجى خليفة ـ كشف الظنون حـ ١ ص ٥٣

التأكيد فى مواضيع الدراسة على افهام الناس عامة ومنتسبى النظامية خاصة اصول الدين الصحيحة ، ولما كان نظام الملك شافعيا ، كان يرى أن يدرس الفقه والاصول المستمدة من افكار وآراء الشافعية ، وكان من شروط النظامية ان يكون المدرس من الشافعية اصلا وفرعا .

ولما كانت المدارس الحكومية هى فى الحقيقة امتداد لحركة التعليم فى المساجد لذا نرى ان التعليم فى بداية امره فى مدارس نظام الملك كان قائما على العلوم الدينية واللغوية ، واعتقد ان هذا انما كان استجابة لروح العصر الذى شيدت لاجله المدرسة النظامية ، وقد اعتمدت النظامية فى تدريس ونشر وتطبيق الفقه الشافعى واهتمت بتدريس القرآن والحديث والادب واللغة ، ثم اخذت هذه المدرسة تتوسع يوما بعد يوم واخذت العلوم الرياضية طريقها الى هذه المدرسة .

ونلاحظ فى المدرسة النظامية نوعا من الاختصاص فنجد مثلا أبا زكريا التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ استاذا للفقه والادب فى المدرسة[١] ثم أصبح علي بن محمد الفصيحى المتوفى سنة ٥١٦ هـ صاحب ذلك الكرسى بعد وفاة التبريزى[٢] .

وكان ابو المبارك الملقب بالوجيه النحوى متفقها حنفيا ولما شغر منصب تدريس النحو بالمدرسة النظامية وشرط الواقف ، ان لا يفوض الا الى شافعى المذهب فانتقل ابو المبارك الى مذهب الشافعى وتولاه[٣] ، أى تولى تدريس النحو فى المدرسة النظامية ومن هذا نستدل على ان بعض الاساتذة كانوا ينتقلون من مذهب الى مذهب فى سبيل الحصول على منصب رسمى ، كما يدل على اقتصار الشافعية لوظائف المدرسة النظامية ، وهناك اساتذة اختصوا فى تدريس الفقه والحديث والاصول وعلم الكلام والتفسير وغيرها من العلوم .

اما كيفية التدريس فى النظامية ، فان ابن جبير أعطانا صورة واضحة لها حين زار المدرسة اواخر القرن السادس الهجرى وحضر مجلس وعظ فى الخامس من صفر سنة ٥٨٠ هـ ووصف مجالس العلماء انها مجالس علم ووعظ ، وقال عنهم ان لهم طريقة

---

(١) ياقوت : معجم الادباء حـ ١٩ ص ٢٧

(٢) ياقوت : معجم الادباء حـ ١٥ ص ٦٧

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ١ ص ٥٦٢

مباركة ملتزمة [١]، وكان التدريس مرتبطاً على الأكثر بأوقات الصلاة ، خاصة بعد صلاة العصر ، بعد ان يتفرغ اكثر الناس من اعمالهم ، - اقصد هنا دروس الوعظ لعامة الناس - ، يقول ابن جبير : « واول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه النظامية والمشار اليه بالتقديم فى العلوم الاصولية ، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة أثر صلاة العصر من يوم الجمعة [٢] . وطبيعى ان المدرس كان يجلس على مكان عال وهو متطيلس (أى يرتدى الطيلسان) والطريقة المتبعة ان الطلاب يجلسون امامه على شكل نصف حلقة ، ويبدأ الطلاب بالقراءة ، « وكانوا يقرأون بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة » [٣] (ثم يبدأ الشيخ بتفسير الدرس « ويتصرف فى افانين العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وايراد حديث رسوله عليه الصلاة والسلام والتكلم على معانيه » [٤] .

فالظاهر هنا ان الاستاذ يبدأ بشرح الموضوع الذى قرأه الطلاب وعلى ما اعتقده ان الدرس الذى حضره ابن جبير كان درس تفسير القرآن حيث اخذ الطلاب بتلاوة القرآن الكريم بنغمات مطربة كما وصفها ابن جبير .

وبعد ان ينتهى الطلاب من تلاوة الواجب المقرر وبعد ان يشرح الاستاذ ، المقصود من الموضوع ويستعين الشيخ على تفسير القرآن بالاحاديث النبوية ومستشهدا بآراء السلف وكبار العلماء والتكلم على معانيها ، ثم يبدأ الطلاب بتوجيه الاسئلة فى المشاكل وبعد ان ينتهى الطلاب من تقديم الاسئلة الشفوية يبدأ الاستاذ الاجابة على ما قدم اليه من الاسئلة التحريرية بقصاصات من الورق يجيب عليها الواحدة تلو الاخرى وفى ذلك يقول ابن جبير : « ثم رشقت شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر وتقدم وما تأخر ودفعت اليه عدة رقاع فيها فجمعها جملة فى يده وجعل يجاوب على كل واحد منها وينبذ بها الى ان فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجميع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقورا هينا ظهرت منه البركة والسكينة » [٥] .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٧٤
(٢) ابن جبير : الرحلة ص ١٧٤
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر السابق
(٥) المصدر السابق

وكان المدرسون يحترمون الدرس فكان الواحد منهم اذا عزم على الدرس تنظف وتطيب ولبس أحسن ثيابه قاصدا بذلك تبجيل العلم وتعظيم الشريعة ، واذا تعددت الدروس قدم الاشرف فالاشرف والاهم فالاهم ، فيتقدم تفسير القرآن ثم الحديث ثم أصول الدين ثم اصول الفقه ثم المذهب او النحو او الجدل ، والظاهر انه كان هناك شخص يقال له (المرتب) يرتب الحاضرين ومن يدخل عليهم على قدر منازلهم ويوقظ النائم ويأمر بسماع الدروس والانصات لها ، وهذه الوظيفة اى وظيفة المرتب كانت موجودة فى جامع المنصور ببغداد فقد ذكر ابن الاثير : « ان ابا الحسن على بن احمد بن محمد بن علي كان يرتب صفوف المصلين بجامع المنصور[١] ، كما كان أبوالطاهر ابراهيم ابن شيبان النفيلى يرتب فقهاء المدرسة النظامية ببغداد أيام أبى اسحق الشيرازى[٢] .

وكان مجال المناقشة والمحاورة مفتوحا امام الطلاب وكان الواحد منهم لا يقنع بمجرد السمع بل يعتنى بالدراسة والبحث والسؤال والمناقشة ليتمكن من فهم جميع المسائل العلمية ، وكانت للمناقشة بين الاستاذ وطلابه آداب خاصة ، تكفل للاستاذ وقاره وهيبته ومكانته كما تحقق للطالب طريق الفهم والتعليم ، يقول الزرنوجى : « اعلم ان طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به الا بتعظيم العلم وأهله وتعظيم الاستاذ وتوقيره »[٣] ، ومن الآداب المتبعة فى التعليم ، « انه لا يمشى الطالب امام استاذه ولا يجلس مكانه ولا يبتدىء الكلام عنده الا باذنه ولا يكثر الكلام ويراعى الوقت »[٤] كما يجب على الاستاذ ان يحترم تلميذه ولا يهزأ برأيه يقول ابن عبدالبر « ولا يزدرى المساكين من طلابه ولا يختزن علمه »[٥] .

ان تعيين المدرسين فى المدرسة النظامية فى اول تأسيسها كان من صلاحية الوزير ويبدو لنا ذلك واضحا عندما عين نظام الملك ، أبا اسحق الشيرازى للتدريس فى نظامية بغداد[٦] وكما عين هو ايضا الامام الغزالى للتدريس فى نظامية بغداد[٧] .....

---

(١) ابن الاثير : اللباب ص ١٢٢
(٢) ابن الفوطى : تلخيص مجمع الاداب ص ٢٨٥
(٣) الزرنوجى : تعليم المتعلم ، طريق التعلم ص ١٨
(٤) الزرنوجى : تعليم المتعلم ، طريق التعلم ص ١٩
(٥) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله حـ ١ ص ١٣٧
(٦) ابن الاثير : الكامل حـ ٨ ص ١٠٥
(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ١ ص ٥٨٧

او يصدر أمر تعيين الاستاذ من قبل السلطان كما فعل ذلك السلطان سنجر السلجوقي حين فوض الشيخ محمد بن يحى النيسابوري للتدريس فى نظامية نيسابور (١) ، وفى عهود خلفاء بنى العباس المتأخرين وحين اصبح الخلفاء اصحاب السيادة الفعلية ، اخذ الخلفاء يتصرفون فى تعيين من يريدون خاصة فى عهد الخليفة الناصر لدين الله فقد اصبحت المدرسة النظامية خاضعة للخليفة فى ادارتها وخير دليل على ذلك ما ذكره ابن الاثير : « أنه فى المحرم سنة ٥٤٥ هـ جلس يوسف الدمشقى مدرسا فى النظامية ببغداد وكان جلوسه بغير امر الخليفة فمنع من التدريس ، فتقدم السلطان مسعود الى الشيخ أبى النجيب بأن يدرس فيها فامتنع بغير أمر الخليفة فاستخرج السلطان اذن الخليفة فى ذلك فدرس فى منتصف محرم من سنة ٥٤٥ هـ (٢) . وكان الخلفاء العباسيون يرعون هذه المدرسة ، فقد جدد الخليفة الناصر خزانة المدرسة النظامية ونقل اليها الوفا من الكتب الحسنة (٣) » .

لقد اتبع نظام بديع لدجات التدريس فى المدرسة النظامية ، وهو يكاد يقرب من نظامنا الحالى فى جامعات عالمنا اليوم ، فقد كانت درجات المدرسين هى :-

١- المدرسون ، ويحدد القلقشندى (٤) وظيفة المدرس « بأنه الذى يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك » . والحقيقة التى يجب ان نفهمها ان المدرسين فى العادة لا يختارون لمنصب التدريس الا من كانت له شهرة سابقة ومكانة علمية مرموقة تؤهله لهذه المهمة العلمية الجليلة .

٢ - المعيدون : والمعيد دون المدرس وارقى درجة من عامة الطلبة وهو الذى يعيد الدرس بعد القاء المدرس المحاضرة على الطلبة ، « كأنه معين الشيخ على الطلبة » (٥) ومن المعتقد ان هذه الوظيفة ظهرت فى القرن الخامس الهجرى وذلك لعدم ورود مثل هذه الوظيفة قبل هذا التاريخ ، وارجح ان هذه الوظيفة ظهرت وهى على علاقة وثيقة بوظيفة المدرس بعد تأسيس النظامية . وهناك كثير من النابغين من طلاب النظامية الذين

---

(١) احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ١٩٨
(٢) ابن الاثير : الكامل حـ ٩ ص ٢٩
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١٣ ص ٦
(٤) القلقشندى : صبح الاعشى حـ ٥ ص ٤٦٤
(٥) ابن جماعة : تذكرة السامع ص ١٥٠

عينوا بوظيفة معيدين فى المدرسة نفسها ، فعلاء الدين ابو الحرث ارسلان قدم بغداد وسكن النظامية واشتغل ودأب فى علوم الفقه ورتب معيدا بها ثم عين مدرسا للنحو وخازناً للكتب بالخزانة الناصرية [١] ، وكان بالامكان للمعيد أن يرتقى الى درجة مدرس ، فجمال الدين ابو اسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ رتب معيدا فى حلقة أبى الطيب الطبرى ثم أصبح بعد ذلك مدرس الفقه فى النظامية [٢] ، وكذلك الشيخ ابو على بن يحيى بن سلمان بن الربيع العمرى الواسطى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وكان معيدا بالنظامية ثم رتب مدرسا بها[٣] . وكان يشترط فى المعيد « أن يكون من الشافعية أصلا وفرعا[٤] .

وهناك وظيفة الواعظ ، والواعظ وظيفة ، والقصد من الوعظ ، الارشاد نحواتباع الاخلاق الحسنة والاداب الطيبة ، واعتقد ان الواعظ كان يجلس للوعظ بعد اوقات الصلاة ، ومن اشهر الوعاظ فى النظامية الامام ابو نصر عبدالرحيم بن الامام زين الاسلام أبى القاسم القشيرى المتوفى سنة ٥١٤ هـ وقد ورد بغداد سنة ٤٩٦ وجلس فى المدرسة النظامية يعظ الناس واجتمع الناس حوله وحضر أكابر العلماء مجالسه احتراما واكراما لمثواه[٥] . ومن وعاظ المدرسة النظامية ، أبو حفص عمر بن ابى العباس احمد ابن عمر الريحانى الحطبى ، كان فقيها محققا فاضلا فى علم المذهب والخلاف والاصول فصيح اللسان مليح المناظرة حسن الايراد ووعظ بالنظامية مرارا[٦] .

وهناك حقيقة لابد من اقرارها ، أن المدرسة النظامية كانت مدرسة زاخرة بكبار المدرسين وفطاحل العلماء ونحن هنا فى هذه المقالة المقتضبة لا يمكننا ان نتكلم عن اولئك المدرسين والذين كان لهم الفضل الكبير فى نشر الثقافة والعلم فى العالم الاسلامى وجعل المدرسة النظامية من أرقى المدارس وأشهرها فى القرون الوسطى ، وعلى رأس قائمة

---

(١) ابن الفوطى : تلخيص مجمع الآداب ص ٢٠٦
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ١ ص ٥
(٣) ابن الاثير : الكامل حـ ٩ ص ٢٨٤
(٤) ابن الجوزى : المنتظم حـ ٩ ص ٦٦
(٥) اليافعى : مرآة الجنان حـ ٣ ص ٢١٠
ابن الاثير : الكامل حـ ٨ ص ٣٠٢
الاسنوى : طبقات الشافعية مخطوط
(٦) الاسنوى : طبقات الشافعية مخطوط

اولئك المدرسين الكبار ابو اسحق الشيرازى وهو علم من اعلام الاسلام ، تفقه بشيراز وقدم بغداد[١] وتفقه على جماعة من الاعين وصحب القاضى أبا الطيب كثيرا وانتفع به وناب عنه فى مجلسه ورتبه معيدا فى حلقته وصار أمام وقته فى بغداد[٢] وكان ابو اسحق مدرسا ناجحا فصيحا كثير التواضع ، وكانت له مكانة سامية ، لما تحلى به من وفرة فى العلم وسماحة فى الخلق وكرم فى الادب وكانت له المنزلة المرموقة عند الخليفة العباسى المقتدى ، وطبقت شهرته الافاق وخرج مرة برسالة للخليفة ومعه بعض اعيان بغداد منهم أبو بكر الشاشى ، الى بلاد العجم ، وكان كلما دخل مدينة يخرج اهلها اليه بنسائهم وأولادهم يتمسحون بركابه ، ولما وصل الى مدينة ساوة خرج جميع أهلها وسأله فقهاؤها كل منهم أن يدخل بيته فلم يفعل ، ولقيه اصحاب الصناعات ومعهم ما ينثرونه على محفته ، فخرج الخبازون ينثرون الخبز وهو ينهاهم فلم ينتهوا وكذلك اصحاب الفاكهة والحلواء وغيرهم[٣] . لقد كان أبو اسحق بحق استاذ العصر الذى عاش فيه والناس طلابه ومستمعوه ، قال ابو اسحق : لما خرجت فى رسالة الخليفة المقتدى الى خراسان لم أدخل بلدا ولا قرية الا وجدت قاضيها أو خطيبها من تلامذتى[٤] وهذا يبين لنا أثر النظامية وانتشار طلابها الذين اقتبسوا المعارف من مدرسيها فى انحاء العالم الاسلامى . من اشهر مؤلفاته المهذب فى المذهب والتنبيه فى الفقه واللمع وشرحها فى اصول الفقه وغيرها من التصانيف المفيدة ، توفى ابو اسحق رحمه الله ليلة الاحد الحادى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٧٦ هـ[٥] .

ومن اعلام المدرسة الذين درسوا فيها وكانت لهم شهرة كبيرة الامام ابو حامد الغزالى ، وكان بحق علم من اعلام الفكر العالمى وأمام فى البحث والاستقصاء والمناظرة فى علوم الدين والدنيا . ولد الغزالى بطوس سنة ٤٥٠ هـ وبعد ترعرعه قدم نيسابور ولازم ابا المعالى عبدالملك الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ وجد واجتهد حتى برع فى المذهب والخلاف والجدل والاصول والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك وفهم كلام

---

(١) العماد الحنبلى : شذرات الذهب حـ ٣ ص ٣٤٩
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ١ ص ٥
(٣) ابن الاثير : الكامل حـ ٨ ص ٤٧٥
(٤) العماد الحنبلى : شذرات الذهب حـ ٣ ص ٣٥٠
(٥) ابن الاثير : الكامل حـ ٨ ص ١٣٤
ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ١ ص ٥

ارباب هذه العلوم وتصدى عليهم وابطال دعاويهم وصنف فى كل فن كتبا أحسن تأليفها واجاد وضعها وترصيفها[١] • وقد اتصل بنظام الملك حيث حضر مجلسا كان يزخر بكبار العلماء والفقهاء ، ولما وجد فيه من المقدرة والذكاء ، عينه نظام الملك مدرسا فى نظامية بغداد سنة ٤٨٤ هـ وبدأ بالتدريس فاعجب به العراقيون أيما أعجاب ولكنه ترك التدريس سنة ٤٨٨ هـ وقصد الحج ثم توجه الى الشام ثم قصد مصر واقام بالاسكندرية مدة[٢] • توفى الامام الغزالى سنة ٥٠٥ هـ وله مصنفات عديدة دلت على مقدرته الكبيرة وسعة اطلاعه •

ومن مدرسى المدرسة المشهورين ، ابو نصر بن الصباغ وهو اول مدرس فى المدرسة النظامية ، والكيا الهراسى وهو من تلاميذ امام الحرمين الجوينى النجباء ، وأبو بكر الشاشى وكان تلميذا مجدا لاستاذه ابى اسحق الشيرازى ، وابو الحسن على بن محمد الفصيحى استاذ النحو فى المدرسة النظامية[٣] وأسعد الميهنى وكانت طريقته فى التدريس خلابة ناجحة وانتفع الناس به وكان اماما كبيرا فى الفقه والخلاف[٤] وأبو النجيب السهروردى ، عبد القاهر بن عبدالله بن محمد ولى تدريس المدرسة النظامية فانتفع الطلاب بعلمه ، له كتاب اداب المريدين وكتاب شرح الاسماء الحسنى توفى ببغداد سنة ٥٦٣ هـ[٥] • وغيرهم كثيرون من اعلام المدرسين •

ان المدرسة النظامية احتضنت نخبة ممتازة من الطلاب الافاضل الذين كانوا مثلا ساميا فى السعى والاجتهاد ، واصبح لهم فضل فى نقل علوم المدرسة الى خارج بغداد وتولوا وظائف سامية ومن اولئك الطلاب النجباء ، كمال الدين ابو البركات بن ابى سعد الانصارى ، تفقه بالنظامية وبعد أن أظهر براعة والماما عظيمين رتب معيدا بها[٦] • وابو المحاسن يوسف بن رافع المعروف بابن شداد ، قدم بغداد ونزل النظامية وتفقه

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ١٠٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ١ ص ٥٨٧
السبكى : طبقات الشاشعية حـ ٤ ص ١٠٤

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ١ ص ٤٣٣

(٤) الاسنوى : طبقات الشافعية

(٥) ابن خلكان : الوفيات حـ ٢ ص ٣٧٣
السبكى : طبقات الشافعية حـ ٤ ص 256
المنذرى : التكملة لوفيات النقلة ورقة ٢٢ مخطوط

(٦) ابن الفوطى : تلخيص مجمع الآداب ص ٢٠٦ مخطوط

على الشيخ رضي‌الدين القزويني مدرس النظامية ، وقد اظهر ابن شداد رغبة في العلم وسرعة في التعلم ورتب معيدا في النظامية[١] ، ثم تدرج بعد ذلك في وظائف عالية . ومن طلبة المدرسة المشهورين ابو القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي ، دخل بغداد ولزم بها التفقه وسماع الدروس بالمدرسة النظامية[٢] ، ومن الطلبة النابهين أبو عبدالله محمد بن صفي‌الدين ابو الفرج المعروف بعماد الدين الكاتب الاصبهاني ، الذي قدم بغداد وتفقه على الشيخ ابي منصور سعيد مدرس النظامية ، ثم سافر الى دمشق وصار كاتبا عند صلاح الدين الايوبي واصبحت له مكانة مرموقة تضاهي مكانة الوزراء ومن أشهر تصانيفه كتاب خريدة القصر وجريدة العصر وكتاب البرق الشامي وكتاب الفيح القسي في الفتح القدسي وله ديوان رسائل وديوان شعر في اربع مجلدات[٣] .

وهناك اعداد كثيرة من الطلبة النابهين والذين يحتاج الى سفر كبير للتعريف بهم والترجمة لهم .

وفي المدرسة مكتبة فخمة اعتنى بها المؤسس والذين تولوا امرها ، وورد في الاخبار ، ان الخليفة الناصر جدد خزانة كتب المدرسة النظامية ونقل اليها الوفا من‌الكتب الحسنة[٤] وللمكتبة خازن ومشرف ومناولون للكتب وكان لهؤلاء من مغلات وقوف المدرسة لقاء عملهم[٥] ومن أشهر من تولى خزانة المكتبة أبو الحسن يحيى بن الخطيب التبريزي وكان احد الائمة في النحو والادب ، حجة صدوقا ، ولي تدريس الادب في النظامية وخزائن الكتب بها ، وانتهت اليه الرياسة في‌اللغة والادب ورحل الناس اليه[٦] . وممن تولى خزانتها ايضا محمد بن احمد الابيوردي وهو شاعر واديب ، تولى خزانة الكتب بعد وفاة القاضي أبي يوسف[٧] . وكانت خزانة الكتب هذه مليئة بالكتب الثمينة النفيسة في علوم مختلفة في التفسير وعلوم الحديث والفقه والاصول واللغة والادب ، قال ابن الجوزي : ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فاذا به يحتوي

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ٢ ص ٤٦٧
(٢) السبكي : طبقات الشافعية حـ ٤ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤
(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ٢ ص ٩٨ ـ ٩٩
(٤) ابن كثير : البداية النهاية حـ ١٣ ص ٦
(٥) ابن الجوزي : المنتظم حـ ٩ ص ٦٦
(٦) يافوت : معجم الادباء حـ ٧ ص ٢٨٦
(٧) ياقوت : معجم الادباء حـ ٦ ص ٣٤٣

على نحو ستة آلاف مجلد [١] . ومع الاسف الشديد ان هذه الخزانة العظيمة اندثرت وانمحت من الوجود كما انمحى اثر المدرسة العظيمة وبذلك فقدنا تراثا عظيما وكنوزا فى العلم والمعرفة لا يمكننا تقديرها .

لقد ادت المدرسة النظامية رسالتها الثقافية ونشرت العلوم والاداب وكانت خير نموذج للمدرسة وأصبحت مثلاً يحتذى به فى انشاء المدارس الاسلامية ، كما أصبحت نظمها التعليمية والمعاشية تطبق فى المدارس الاخرى التى انشئت بعدها . ان المدرسة النظامية تطور كبير فى النظام التعليمى فقد اصبح للمدرسة نظاما خاصا ومنهجا معينا للدراسة وقد كان التعليم قبل نظام الملك له نظام خاص ينظمه الشيخ فى المسجد وكان هو الذى يتصرف فى مواعيد الدروس وفى تعيين مواده ، وقد عم نظام التعليم الذى استحدثه نظام الملك معظم المدارس التى انشئت بعد عصره كمدارس العراق وايران وسوريا ومصر . وقد تخرج من المدرسة النظامية طلبة كانت لهم الكفاءة والمقدرة على تحمل المسؤوليات السياسية والادارية والثقافية ، فالنظامية حركة مباركة شجعت السلاطين والامراء والوجهاء على بناء المدارس كما شجعت الناس على الدخول فيها للتعلم والتثقف بثقافة العصر ، ولتأمين مستقبل الفرد الذى يريد ان يكون له مستقبلا فى تلك الحكومة التى يعيش فى كنفها ، كما ان المدرسة النظامية هيأت وأعدت للمدارس التى تلتها الاساتذة الكفوئين الذين تعلموا بالنظامية ، كما كان للنظامية فضل كبير فى التقدم الثقافى والاجتماعى .

وقد كانت هناك اتصالات ثقافية بين الشرق والغرب الاسلاميين وكانت بغداد مركز الحركة والانتشار ، فالرحلات التى يقوم بها طلابها للاقطار المختلفة كمصر وسوريا والحجاز والمغرب وفارس وورود طلبة العلم اليها من شتى الاقطار ورجوعهم الى اوطانهم مزودين بالعلم والادب ، كان لذلك كله الاثر البعيد فى نشر ثقافة وتعاليم المدرسة النظامية ، كما انتشرت مؤلفات وابحاث وفتاوى مدرسيها المشهورين كالشيرازى والغزالى والهراسى والشاشى وغيرهم من اعلام الفكر ، وكذلك فان علوم اللغة والادب والفقه

---

(١) ابن الجوزى : صيد الخاطر ص ٣٦٦

والتفسير والحديث والاصول والكلام والفرائض ، تلك التى درست فى النظامية طرأ عليها التعمق والتوسع نتيجة البحث والاستقصاء والمناظرة التى قام بها اساتذة المدرسة النظامية اثناء تعليمهم بها ، ونتج تبعا لذلك ازدهار وتوسع فى الثقافة الدينية والادبية واللغوية .

ان المدرسة النظامية وان زالت آثار ابنيتها من الوجود ولكن آدابها وعلومها واخبارها تنطق بحياتها ومجدها وخلودها فقد كانت والحق ينبوعا من ينابيع الثقافة والمعرفة وكانت والحق مظهرا من مظاهر الحضارة الاسلامية .

حسين أمين

مدرس التاريخ الاسلامى بكلية التربية

اقليم القصب فى جنوب العراق

الدكتور محمد حامد الطائى
الاستاذ المساعد فى قسم الجغرافية

مقـــــدمة

في النصف الشمالى من الكرة الارضيــة ، تمتد منطقة واسعة فى رقعتها ، مهمة فى حضـــارتها تعرف بالعالم الجاف Dry World [(١)] وهذه المنطقة تمتد على وجه التحديد ، من سواحل المحيط الاطلسى الى البحر الاحمر فى افريقيــا الشمالية . وتتجاوز هذا البحر الضيق لتضم جزيرة العرب برمتها ، ثم تستمر فى امتدادها شرقاً فتشمل هضبة ايران وشمال غرب شبه جزيرة الهند وأفغانســتان والجانب الأكبر من شبه جزيرة الانضــول وتركستان الروســية . وأخيراً تتوغل فى منغوليا من الصين الأصلية ، حتى تنتهى على مقربة من سواحل المحيط الهادى .

والعــالم الجاف هذا متباين فى داخــله من ناحية كمية الأمطــار مما جعل بعض أقسامه شبه جافة وغيرها جاف أو شديد الجفاف . ولكن كافة أقسامه تتصف بانخفاض الرطوبة الجويه ، اذ فى كثير من المواقع لاتزيد الرطوبة النســبية فى أشــهر الصيف عن ٥ ٪ وقد تصل فى مواقع أخرى الى ٢٥ ٪ . أما من ناحية درجة الحرارة فهى على العموم وفى كل الاقســام تبقى عالية خلال أشــهر الصيف ، ولكنها تنخفض نسبياً فى فصل الشتاء وقد تصل الى درجة التجمد .

وعليه فان أبرز الظروف الطبيعية السائدة فى العالم هو انخفاض كمية الترسيب Precipitation ورطوبة الهــواء Moisture مع شدة ارتفاع درجـــة الحرارة العليــا Annual Maximum temperature وعظـم المدى اليومى والسـنوى

---

(1) Richard J. Russell, Culture Worlds New York, 1951, P. 251.

daily and annual range of temperature هذا بالاضافة الى انتشار الاراضى القاحلة Arid lauds • وهذا يعنى قلة الغطاء النباتي واقتصاره على النباتات الصحراوية بما فيها الأعشاب الخشنة والأشواك وأنواع متعددة من فصيلة الصبير وبعض أصناف الشجيرات • وهذه النباتات تعرف بأنها غير محبة للماء ، Xerophytes وهى ذات جذور عميقة وحجم صغير وأوراق صغيرة أو بدون أوراق • كما أنها قصيرة العمر جداً • ولكن بالوقت نفسه تكثر الجذور النباتية فى التربة وهى تعتبر مصدراً مهماً يعتمد عليه سكان الصحاري فى الحصول على ما يحتاجونه من مواد الوقود •

وقلب هذا العالم يتميز بشدة الجفاف فى حين أن أطرافه الشمالية والجنوبية تتميز بالصفة الانتقالية بين المناخ الشديد الجفاف والمناخ الرطب • وعليه اشتمل هذا القلب على أشد الصحاري جفافاً فى العالم ، فى حين ان الأطراف تضم ما يعرف بمناطق الأعشاب القصيرة (السهوب) Steppes

ويستثنى من ذلك سفوح المرتفعات وخاصة الجبال المرتفعة التى بحكم ارتفاعها وموقعها تخضع لدرجات حرارة معتدلة أو واطئة وتنال قدراً من الترسيب يكفى لنمو الشجيرات وحتى الأشجار الضخمة • وقد كانت ولا تزال مثل هذه السفوح مصدراً مهماً لتزويد أبناء العالم الجاف بالخشب وهم يستعملونه كوقود فى المنازل ولصنع الأثاث وفى بعض الأغراض الصناعية • وعلى سبيل المثال نذكر المرتفعات الشمالية الشرقية من العراق وجبال لبنان وجبال الاطلس فى بلاد المغرب • التى تصل فى ارتفاعها الى ١٢٫٠٠٠ قدم وتبقى قممها مغطاة بالثلوج طول أيام السنة • ومثل ذلك فى تركيا وايران وأفغانستان وغرب الباكستان حيث تمتد سلاسل جبلية شاهقة الارتفاع تتراوح فى ارتفاعها بين ١٠٫٠٠٠ - ١٩٫٠٠٠ قدم وفى أفغانستان والباكستان تصل جبال هندوكوش الى ٢٥٫٠٠٠ قدم ، وفى كشمير تبلغ قمة كودوين اوستن Mount Godwin Austen ، ثانية قمم العالم ، ٢٨٫٢٥٠ قدم [١] •

---

(1) Jesse H. Wheeler, Regional Geography of the World, New York, 1956, p. 280.

وفى هذا العالم الجاف أيضاً مراكز توفرت فيها موارد الماء مما جعلها مواطن صالحة لسكنى البشر • ومثل هذه المراكز تعرف بالواحات • والواحة فى واقعها جزيرة خضراء وسط بحر من الرمال • وهى لاتتجاوز عادة أكثر من كونها رقعة صغيرة من الارض يرويها مورد مائى محدود ويسكنها قليل من الناس • ولكن بعض الجغرافيين والمؤرخين يتجاوزون هذا التحديد فيطلقون اسم واحة على حوض نهري بكامله • فيقولون مثلاً واحة وادى النيل وواحة الرافدين • وهذا النوع من التحديد يستعمل من باب التجاوز أو انه غير جائز فى وجهة نظر الجغرافية •

والى العالم الجاف تجرى أنهار تقع منابعها فى خارجه فكانت أحواضها مواطن لحضارات قديمة ، وهى اليوم تعيل عشرات الملايين من البشر يمارسون الزراعة رياً وسط عالم ينقصه الماء • ونهر النيل يعتبر أبرز مثال لهذا الصنف من الانهار •

ومن المواقع الجبلية المرتفعة تنبع أنهار مهمة تنحدر من سفوحها بطريقها الى السهول المجاورة فالبعيدة لتصب أخيراً فى بحار خارجية أو داخلية أو لتوزع مياهها فوق رقعة واسعة من الارض مكونة الشطوط والبرك والمستنقعات وهناك نهاية المطاف• والأمثلة على ذلك كثيرة منها نهر السنغال فى جمهورية السنغال ونهر النيجر فى جمهورية مالي • أما المجارى الداخلية فى الجزائر وشط الجريد فى تونس ونهر الأردن فى المملكة الأردنية ونهر العاصى فى الجمهورية العربية السورية والفرات ودجلة فى الجمهورية العراقية ونهر السند فى جمهورية الباكستان وامو داريا وسير داريا فى آسيا الوسطى السوفيتية • وهذه الأنهار أما انها تجد طريقها أخيرا لتصب فى بحار خارجية مفتوحة كالعاصى ودجلة والفرات والسند أو انها تصب فى بحار داخلية مقفلة كالأردن الذى يصب فى البحر الميت وامو داريا وسير داريا اللذان يصبان فى بحر آرال •

وعلى ضفاف هذه الأنهار قامت المدن وازدحم الناس واتسع نطاق الزراعة وربيت الحيوانات • فكانت بعض هذه الاحواض مراكز حضارية قديمة ومواطن استنبت فيها الانسان منذ عهد بعيد مختلف المحاصيل من حبوب وخضروات وفواكه ، واعتنى بتدجين الحيوانات التى استفاد من لحومها وجلودها وشعرها ولبنها • وعن سكان هذه الأحواض تعلم بقية أبناء العالم فنون الزراعة والرعاية •

وساعدت مياه هذه الأنهار فى وسط العالم الجاف المترامي الأطراف ، على خلق بيئات تختلف تمام الاختلاف عن البيئات الموجودة بعيداً عن ضفافها ، ففى الوقت الذى يشتد جفاف الهواء وتغدو التربة قاحلة فى مختلف أنحاء العالم الجاف ، فان رطوبة الهواء ترتفع نسبياً ، كما تزداد درجة الرطوبة فى التربة لدرجة انها تصبح رخوة فى وديان الانهار والمناطق الواقعة تحت تأثير مياهها ، وخاصة حيث يرتفع مستوى المياه الباطنية • هذا بالاضافة الى أن المياه الباطنية تكون عميقة وشحيحة فى مختلف أجزاء العالم الجاف مع ارتفاع نسبة الاملاح المعدنية فيها • فى حين انها تكون قريبة من سطح الأرض ووفيرة وقليلة الملوحة فى الأجزاء الرطبة من هذا العالم •

ولبيان أهمية كل نوع من أنواع المناخ المتمثلة فى العالم الجاف من ناحية سعة الأراضى الخاضعة له ، مع مجموع مساحة أراضى العالم الجاف ، ننقل الجدول التالى[1]

مساحة الأراضى القاحلة فى العالم على أساس الأحوال المناخية السائدة

الصنف	المساحة (بالأميال المربعة)
الأراضى شبه الجافة	٨ر٢٠٢ر٠٠٠
« الجافة	٨ر٤١٨ر٠٠٠
« الجافة جداً	٢ر٢٤٤ر٠٠٠
المجموع الكلي	١٨ر٨٦٤ر٠٠٠

(1) The Future of arid Lauds, Papers and Recommendations from the International Arid Lands meetings, edited by Gilbert F. White, Washingten, D. C., 1956, p. 5.

أما مساحة الأراضى القاحلة فى العالم على أساس نوع النبات الطبيعى السائد فيبينها الجدول التالى (١) • ويظهر من مقارنة الارقام الواردة فى هذين الجدولين ، يتضح ان مجموع مساحة الأراضى القاحلة على أساس المناخ السائد أكبر من مجموع مساحتها على أساس نوع الغطاء النباتى السائد وذلك لسببين : الأول ، استثناء بعض الأراضى الواقعة فىالمنطقة الانتقالية • والثانى ، لأن بعض الأراضى الواقعة ضمن العالم الجاف هى ليست قاحلة وانما مغطاة بغابات كثيفة أو حشائش كثيرة ، وهـذه بحد ذاتها ليست من النباتات الصحراوية • هذا بالاضافة الى نمو أنواع من النباتات المحبة للماء Hydrophytes حيث تكثر المسطحات المائية أو يرتفع مستوى المياه الجوفية بسبب وجود الأنهار والجداول القريبة •

مساحة الأراضى القاحلة فى العالم على أساس النباتات الطبيعية السائدة

الصنف	المساحة (بالأميال المربعة)	
الأراضى شبه الجافة		
ذات الشجيرات القصيرة	١ر١٨٠ر٠٠٠	
غابات شوكية	٣٤٠ر٠٠٠	
أعشاب قصيرة	١ر٢٠٠ر٠٠٠	
المجموع		٢ر٧٢٠ر٠٠٠
الأراضى الجافة		
حشائش السفانا الصحراوية	٢ر٣٠٠ر٠٠٠	
شجيرات صحراوية وحشائش صحراوية	١٠ر٦٠٠ر٠٠٠	
المجموع		١٢ر٩٠٠ر٠٠٠
الأراضى الشديدة الجفاف		
الصحــراوية	٢ر٤٣٠ر٠٠٠	
المجموع		٢ر٤٣٠ر٠٠٠
المجموع الكلي		١٨ر٠٥٠ر٠٠٠

(١) نفس المصدر ، ص ٤ •

في العـــــراق

يتضح من العرض السابق ان العراق يقع ضمن العالم الجاف ، لا بل في قلبه • اذ لو رسمنا خطاً مستقيماً يمتد بين أبعد نقطتين في هذا العالم ، تقع احداهما على ساحل المحيط الأطلسى ، وتقع الأخرى فيالطرف الشرقى منه ، لوجدناه يمر شمال بغداد • وبذلك يقترب نصف العراق الشمالى من المنطقة الانتقالية الواقعة شمال العالم الجاف • في حين أن نصفه الجنوبى يتصل بأشد مناطق هذا العالم جفافاً •

وفي النصف الجنوبى من العـــراق يتمثل المناخ الصحراوى بأمطاره القليلة الشتوية ، وبارتفاع درجات الحرارة في فصل الصيف الطويل مع ملاحظة قصر فصلي الانتقال ، الخريف والربيع • ويكاد هذا النصف برمته يقع داخل خط ٢٠٠ مليمتر للامطار • وان القسم الأكبر منه ينال سنوياً من المطر أقل من ١٥٠ مليمتر • وتهبط هذه الكمية الى ٥٠ مليمتر فقط في المنطقة المجاورة بين العراق والسعودية • فيحين ان النصف الشمالى من البلاد تتراوح أمطاره بين ٢٠٠ و١٠٠٠ مليمتر • وان الجانب الأكبر منه تزيد أمطاره عن ٤٠٠ مليمتر ، وذلك في الاطراف الشمالية والشمالية الشرقية من البلاد [1] •

وفي القسم الجنوبى هذا لاتنعكس الأحوال المناخية في تكوين الظروف الطبيعية والاقتصادية السائدة ، فيما عدا الاراضى الواقعة الى الجنوب والجنوب الغربى من الفرات ، والتيلاتستفيد منمياهه لبعدها عنه منجهة ولارتفاعها بالنسبة لمستوى منسوبه من جهة اخرى • ولذلك فالانتقال أصبح فجائياً من حوض الفرات الى المنطقة الصحراوية القاحلة •وبعبارة أخرى ، انعدام وجود منطقة انتقالية واسعة نسبياً بين الوادى المزروع والهضبة القاحلة المجاورة لها • كما وأصبح الفاصل بينهما خطاً يسير بموازاة الفرات ذاته • وهو نفس الخط الذى يعين الحدود الشمالية الشرقية لهضبة جزيرة العرب والذى يفصل هذه الهضبة عن السهل المكون الحوض الأسفل لدجلة والفرات •

---

(١) الدكتور جاسم محمد الخلف ، محاضرات في جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٩٢ ، (الشكل ١٦)

وفى النصف الجنوبى من العراق تلعب التضاريس الارضية الثانوية والتربة والمياه السطحية والباطنية الدور الرئيسى فى تعيين المزايا الجغرافية ، وبالتالى فى تحديد مدى استثماره وتوزيع سكانه وتشييد البيوت فيهوبناء طرق المواصلات عليه•او بعبارة أخرى حددت هذه العوامل نوع الحياة الاقتصادية والروابط الاجتماعية والتنظيمات السياسية التى خضع لها سكان المنطقة فى الماضى وهم لايزالون الى درجة بعيدة يخضعون لها •

الأهوار والوديان فى الجنوب

فى النصف الجنوبى من العراق حيث يتمثل المناخ الصحراوى الجاف ، فتقل الامطار وتشتد الحرارة صيفاً ، ويعظم المدى السنوى للحرارة وتتعرض المنطقة الى عواصف رملية وخاصة فى الصيف • فى هذا النصف من البلاد تنبسط الأرض وتقل درجة انحدارها فتنساب مياه الأنهار فى الوديان والقنوات والجداول ببطء شديد • كما وتتفرع وديان الأنهار وجداولها متخذة من مجاريها الطبيعية أو الاصطناعية منفذاً للتصريف • وينتهى هذا التصريف فى الخليج العربى أو المنخفضات الداخلية ، بعد أن تكون المياه قد تجولت فوق السهل الرسوبى ، تاركة وراءها الكثير من المواد الطموية والاملاح المعدنية •

ان مثل هذه الظروف الطبيعية تتمثل فى القسم الأسفل من حوضى دجلة والفرات ، أى فى المنطقة الواقعة الى الجنوب من بغداد على دجلة والى الجنوب من الفلوجة على الفرات شمالاً والخليج العربى وهضبة الجزيرة العربية جنوباً ، وبين السلاسل الجبلية فى ايران شرقاً وحافة الهضبة الصحراوية من العراق غرباً •

وتصل المياه الى هذه المنطقة عن طريق الوديان الرئيسية التالية :

١ – وادى نهر دجلة ويتفرع منها عدد من الجداول فى لوائي الكوت والعمارة •

٢ – وادى شط الغراف ، ويتفرع الى فروع تمتد فيما بين دجلة والفرات فى لوائي العمارة والناصرية • وقد اعتبر مصدراً مستقلاً لأهميته فى تكوين أهوار حوضه •

منطقة الأهوار في جنوب العراق
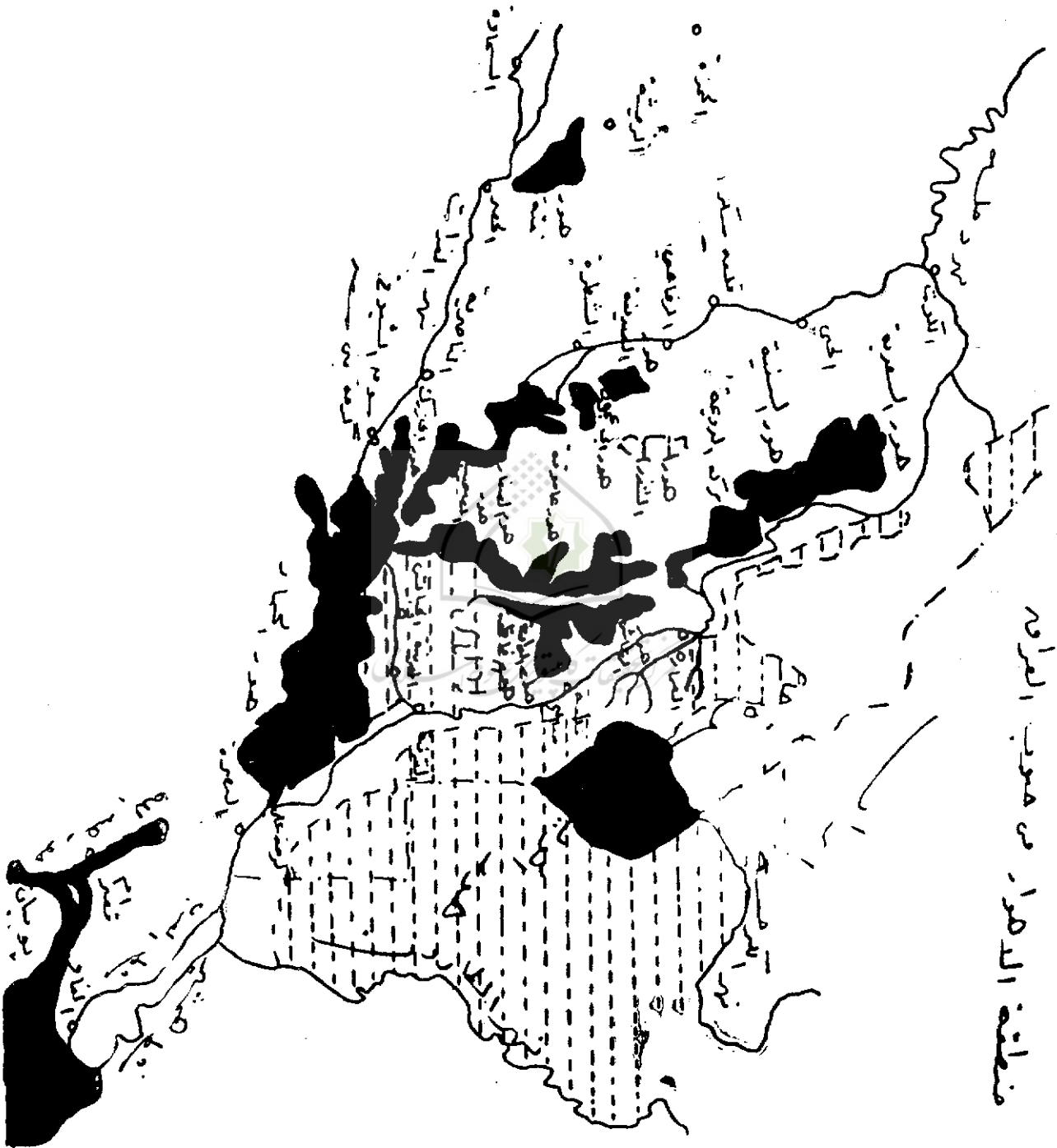
٣ ـ وادى نهر الفرات ويتفرع بذاته الى فروع كبيرة فى ألوية الحلة والديوانية والناصرية •

٤ ـ وادى نهر الكرخة ، وينحدر من مرتفعات ايران باتجاه السهول الرسوبية الواقعة شرق نهر دجلة فى لواء العمارة •

والواقع ان دجلة والجداول المتفرعة منه يعتبر مسؤولاً عن ايصال الماء الى الجانب الأكبر من الحقول الزراعية والمستنقعات والأهوار فى النصف الجنوبى من العراق • أى الى كثير من المناطق الواقعة شرق دجلة وغربه حتى وادى الفرات • فالكثير من الأهوار والبرك والمستنقعات الواقعة جغرافياً ضمن حوضي الغراف والفرات ، تكون دجلة فى الواقع مسؤولة عن تكوينها ودوامها بسبب ما يدفع اليها من مياه سنوياً وخاصة فى موسم فيضانه وطغيان مياهه على حقول واسعة بالرغم من بعدها عن واديه • وفى الوقت ذاته تجرى بعض مياه الأهوار الى دجلة حيث يكون ارتفاعها أعلى من منسوب النهر ، وذلك فى موقعين : الأول ، وفيه تجرى المياه من الأهوار الواقعة شرق دجلة الى النهر فيما بين الكوت والعمارة • والثانى ، وتجرى المياه من الأهوار الواقعة غرب دجلة الى النهر فيما بين العزير والقرنة •

أما الفرات فمسؤول عن ري حوض النهر ذاته وتكوين الأهوار والمستنقعات الواقعة داخل نطاق هذا الحوض • والواقع ان الكثير من المياه الممتدة فوق أراضى حوض الفرات الأسفل ذاته قد انسابت اليها من دجلة عن طغيان فيضاناته المعروفة بشدتها فى بعض السنوات أو من الجداول المتفرعة عنه وخاصة فى لواء الكوت • وعليه فالأهوار والمستنقعات تكاد لاتنقطع من هور الحمّار ومجرى الفرات بين سوق الشيوخ وكرمة علي الى دجلة فيما بين القرنة والصويرة • وهذا ما جعل الانتقال بوسائط النقل المائية الصغيرة متيسراً من هور الحمّار الى الفرات فأهوار لوائي الناصرية والعمارة فدجلة ومنه شرقاً عن طريق المشرح أو الكحلاء الى هور الحويزة فالحدود الايرانية • والطريق

المائى هذا فى قسمه الاخير ، هو الممر الذى يتم عبره الاتصال بين العراق وايران فى هذه المنطقة ، اذ تعقبه دوريات الحدود وشرطة الكمارك وزمر التهريب التى تقوم بتهريب الشاى على الأخص من العراق الى ايران •

وأهوار الجنوب من العراق بعضها متسع المساحة كالحمّار والحويزة والسنية والسعدية والبعض الآخر صغير مثل أهوار الصفار والمصيحيب وفاطمة • كما يسمى غيرها بالبرك (جمع بركة) وهذه التسمية دلالة على صغر المساحة بالنسبة للأهوار الاخرى • ومعها بركة الشطانية وبركة البرهان وبركة العودة • ولا تستعمل كلمة مستنقع هنا للدلالة على مسطح مائى مهما كان عمقه أو سعته • اذ أن استعمال هذا الاصطلاح مقتصر على الكتاب من جغرافيين واقتصاديين ومهندسين • وكلمة مستنقع تطلق عادة على المسطحات المائية المؤقتة والضحلة •

وتبلغ مساحة الأهوار والبرك والمستنقعات فى الألوية الجنوبية الأربعة (العمارة والبصرة والناصرية والديوانية) نحو من ١٠٠٠٠ر١٠ كيلو متر مربع • هذا بالاضافة الى ما هو موجود منها فى لوائي الكوت والحلة ، وما يتكون فى موسم الفيضان من مسطحات مائية صغيرة وضحلة ، والتى تعتبر من بقايا الفيضان فقط • وهى على الرغم من أنها وقتية وضحلة فهى تؤثر فى طبيعة المنطقة الى حد ما وفى استثمار اراضيها الى حد كبير •

هذا وان المسطحات المائية الدائمية تكوّن وحدها نسبة مهمة من مساحة الألوية الجنوبية ، كما هو مبين بالجدول التالى :

المساحة الكلية ومجموع مساحة المسطحات المائية
فى الألوية الأربعة (بالكيلو مترات)

اللـواء	المساحة الكلية	مساحة المسطحات المائية	النسبة المئوية
العمارة	١٨ر٣٩٥	٤٠٧٠	٢٢
البصرة	١٢ر٣٠٦	٣١٧٢	٢٥ر٨

الناصرية	١٤ر٨١٤	١٥٣٨	١٠ر٤
الديوانية	١٥ر١٠٠	٥٤٤	٣ر٦
المجموع	٦٠ر٦١٥	٩ر٣٢٤	١٥ر٣

ملاحظة : نقلت المساحات الكلية والمائية عن أطلس العراق الحديث للدكتور أحمد سوسة ، مطبعة مديرية المساحة العامة ، بغداد ، ١٩٥٣ •

ومن هذا الجدول يتضح أنه نحو من ربع مساحة كل من لوائي البصرة والعمارة تغطية المياه طول أيام السنة تقريباً • أما فى الناصرية فان مساحة الاراضى التى تغمرها المياه تزداد كثيراً فى موسم الفيضان بالنسبة لمجموع مساحة اللواء • وقد تزيد عن ضعف النسبة المئوية فى هذا الجدول • أو بعبارة أخرى ، تغطي المسطحات المائية الدائمية والوقتية نحو من خمس الى ربع مساحة اللواء • لان مياه الفيضان من دجلة عن طريق الجداول المتفرعة منها فى لواء الكوت وخاصة شط الغراف تكون مستنقعات واسعة وتمد بالمياه الأهوار الدائمية فى القسم الشمالى من لواء الناصرية • هذا بالاضافة الى الجداول التى تتفرع من دجلة فى لواء العمارة ، وتجرى باتجاه الجنوب الغربى مكونة البرك والمستنقعات والأهوار المنتشرة فى الجنوب الشرقى من لواء الناصرية •

وأما مياه الفيضان من الفرات فتوسع رقعة هور الحمّار لدرجة أنه يتجاوز فى مقداره مجرى النهر القديم باتجاه الشمال ويتصل فعلاً بالأهوار الواقعة على الطرف الأيسر منه • وعندئذ يصح القول بأن المسطحات المائية تمتد من هور الحمّار فى الجنوب الغربى الى دجلة فيما بين العمارة وعلي الغربى فى الشمال الشرقى وذلك عن طريق أهوار لوائي الناصرية والعمارة • كما وان هور الحمّار يمتد شمالاً عن طريق أهوار ومستنقعات شط الغراف الى الكوت تقريباً •

وهكذا تمتد منطقة الأهوار فى جنوب العراق بين خطي عرض ٣٠° و٣٣° وبين الحدود الايرانية شرقاً وحافة الهضبة الصحراوية غرباً •

ويمكن تقسيم منطقة الأهوار جغرافياً الى قسمين :ـ

١ ـ الأهوار الواقعة شرق دجلة ، وتمتد من الكوت شمالاً الى عربستان فى ايران جنوباً • فى حين أن الحدود الايرانية تكون الحد الشرقى لها ونهر دجلة الحد الغربى لها • وأهم أهوارها هور الحويزة وهو أكبر الأهوار العراقية اطلاقاً وتبلغ سعته داخل العراق ٢٨٦٣ كيلو متراً مربعاً ويشغل الاقسام الشرقية من لوائي العمارة والبصرة • أما هور الشويجة فيقع شمال شرقى مدينة الكوت ، وتجف معظم مياهه فى موسم الصيف وخاصة فى القسم المعروف باسم هور جصان •

٢ ـ الأهوار الواقعة غرب دجلة ، وتضم تلك التى تغذيها مياه دجلة وجداولها والفرات وتفرعاته • وهى كثيرة العدد واسعة الامتداد • وأهمها هور الحمّار وتبلغ مساحته ٢٤٤١ كيلو متراً مربعاً • ويمتد من سوق الشيوخ غرباً الى كرمة علي عند شط العرب شرقاً • ويمر عبره نهر الفرات فى مجراه الحالى والمجرى القديم الذى يلتقي بدجلة عند القرنه • كما أن هناك عدداً كبيراً من الأهوار والبرك والمستنقعات • وقد مرّ ذكر بعضها من قبل •

أما الأهوار الواقعة بين فروع الفرات فى لوائي الديوانية والحلة فهى فصلية فى الغالب أولاً وصغيرة المساحة ثانياً ومحدودة التأثير ثالثاً ومتباعدة رابعاً • لذا ليس من الصواب اعتبارها ضمن منطقة الأهوار المشار اليها فى هذا المقال •

وفى الوقت الذى تكون منطقة الأهوار متصلة ومتسعة فى الجنوب ، فانها تصبح على شكل امتدادين فى الشمال : الأول يمتد مع مجرى دجلة ويتأثر به ، والثانى يمتد مع الغراف ويتأثر به •

حياة السكان فى الأهوار

اذا كانت المشكلة الاقتصادية الرئيسية فى مختلف مناطق العالم الجاف ، ومنه العراق ، تنحصر فى توفير الماء اللازم للزراعة والصناعة والاستعمالات البشرية ، فان

هذه المشكلة فى منطقة الأهوار تصبح كثرة الماء وقلة التربة • ففى هذه المنطقة لاتتوفر الاراضى اللازمة لقيام الزراعة وبناء القرى ومد طرق المواصلات • ولذا اتخذت الحياة فى الأهوار نمطاً يختلف عن ما هو موجود فى المناطق الاخرى • وهذا الاختلاف يشمل نوع النباتات الطبيعية والحيوانات وطراز حياة السكان الاقتصادية والاجتماعية •

ونظراً لاتساع منطقة الأهوار فى العراق ، وتطور حياة سكانها وفق الظروف الطبيعية السائدة فيها ، فقد أصبحت تمثل نموذجاً جغرافياً فريداً من نوعه فى العالم كله • ويظهر التشابه فى بعض الظواهر الطبيعية بين هذه المنطقة ومناطق أخرى موجود فى العالم الجاف ، ونخص بالذكر منها سهل الغاب فى الجمهورية العربية السورية ومنطقة بحيرة الحولة من وادى الأردن وشط الجريد فى الجمهورية التونسية ، والشطوط من الهضبة الوسطى فى الجمهورية الجزائرية ومنطقة بحيرة شاد فى جمهورية شاد والمنطقة المحصورة بين بحر العرب وبحر الجبل فى جنوب الجمهورية السودانية •

وعلى منطقة الأهوار من جنوب العراق يصح القول ان المشكلة تتلخص بالقول (كثير من الماء وقليل من التربة) • فالماء يغطى الآلاف من الكيلو مترات المربعة ، أما الاراضى فلا تتعدى كونها بقعاً صغيرة موزعة هنا وهناك • وهى مع قلتها لاترتفع كثيراً فوق مستوى المسطحات المائية المجاورة لها • ولذا فان هذه الاراضى تبقى عرضة لطغيان المياه عليها فى موسم ارتفاع منسوبها فى الأنهار • كما وتبقى الارض مشبعة بالماء وكثيرة الملوحة •

ان هذه الظروف الطبيعية فى منطقة الأهوار حملت السكان الى السعي لكسب العيش مما ينبت فى الماء من نباتات طبيعية ويعيش فيه من حيوانات مائية وبرمائيه • والسكان لايبذلون أى جهد فى تنمية النباتات أو تكثير الحيوانات ولا فى تحسين نوعها • فهم اذا فى نشاطهم الاقتصادى بدائيون لايعرفون غير الصناعة من الصنف الاول (وهى التى تعتمد على المنتجات الزراعية بصورة مباشرة كصناعة حياكة الحصر). ولا يعرفون فى الواقع الصناعة من الصنف الثانى ولا الأصناف التى تعتبر أرقى منها • ومثل ذلك فيما يخص النشاط الاقتصادى فى حقل الزراعة وتربية الحيوانات ، وحتى فى الصيد والقنص •

أما الحيـاة الاجتماعية فقد بقيت مفتقرة الى كثير من النظم والالتزامات والتقاليد المرعية فى المجتمعات الزراعية والرعوية خارج منطقة الأهوار • وتفتقر حياة سـكان الأهوار أيضا الى النواحى الفكرية والروحية •

واذا كانت الظروف الطبيعية قد لعبت دوراً مهماً فى تعيين نوع الحياة الاقتصادية فى المنطقة ، فان الانعزالية (انعزال المنطقة عن العالم الخارجى) قد لعبت دورها الخطير فى الجمود الفكرى وهذا الجمود يظهر بين السكان فى افتقارهم الشديد الى المعلومات الاولية العامة وفى انتشار الخرافات بينهم • والانعزالية بحد ذاتها طبعت عقيدة السكان بطابع خرافى بعيداً كل البعد عن جوهر هذه العقيدة • هذا بالاضافة الى نمو الأفكار الالحادية عند بعضهم ، تلك الافكار التى قادتهم بالتـالى الى اضمحلال العقيدة الدينية فى نفوسهم وعدم التزامهم الى حد ما بالروابط الاخلاقية والآداب العامة المعروفة فى المجتمعات الاخرى • ومن المؤكد ان انحطاط المستوى المعاشى الناجم عن قلة الدخل السـنوى للفرد له أثره الفعـال فى تكوين ما قد خضـع له هؤلاء السكان فى حياتهم داخل البيت وخارجه •

ومهما قيل عن توسع نطاق اتصال سكان الأهوار بالعالم الخارجى خلال الخمسين سنة الماضية ، فان الانعزلية لاتزال فعالة فى تأثيرها ، وان مجال الاتصال لايزال محدداً الى درجة كبيرة • ويقيد هذا الاتصـال عاملان ، أولهما انخفاض مسـتوى السكان الاقتصادى والفكرى مما جعلهم يشـعرون بالتخلف عن غيرهم من أبناء البلاد ، وهذا الشعور يزيد رغبتهم فى العزلة ، وثانيهما ، صعوبة الاتصـال ببقية أنحاء البلاد بسبب صعوبة أو تعذر استخدام وسائط النقل البرى وتخلف وسائط النقل المائى •

وقد يكون كافياً أن يذكر هنا ان سكان الأهوار يفتقدون فى حياتهم الخاصة الى الكثير مما تيسر لغيرهم فى المجتمعات الاخرى • ففى الوقت الذى يفتقد سكان الأهوار الى نشاط اقتصادى مربـــح والى وسائل التثقيف (سوى قليل من المدارس الاولية) والى مؤسسات اجتماعية تعتنى بتقويم الاخلاق ونشر الفضائل بين الناس ومعالجة العلل الاجتماعية ، والى ممارسة الحياة الدينية بشكلها الصحيح ، لانجد من الغرابة أن يكون

أحدهم مواطناً يختلف عن غيره من المواطنين • فهو لهذا نجده خالي الذهن وسريع التقبل لكل ما يشاع في مجتمعه الساذج هذا من آراء وأفكار • وهذا ما جعل مطالبة سكان الأهوار أن يكونوا مثل غيرهم من المواطنين ، وهم في ظروفهم وأحوالهم تلك ، تعسفاً وتحميلاً لهم أكثر مما في طاقتهم الفكرية والمادية •

وتصف الليدي دراور بعض طباع سكان الأهوار بقولها :(١)

في سكان البطائح شيء كثير من طباع الطيور المائية ، أنهم مرحون ، يستمتعون بالنكتة ، ويكلفون بالضحك ، ويولعون بالغناء • ان موطنهم : اليابسة والماء على حد سواء • وما أن يدرج الصبي الا وتجده سابحاً في الماء ، والرجال أبان نهار الصيف يقضون جل وقتهم فيه أيضاً ، وفي الشتاء لاتجد عليهم الا القليل من اللباس • أما الاطفال في القرى فهم عرايا وحفاة دوماً • ومن ينشأ على مثل هذه الحال لابد أن يكون سليم البدن صلب العود ••• والشائع أن أخلاق هؤلاء الناس متردية ، ولو تأملنا طبيعة سكنهم ، وهذا الجوار المتلاصق ، وطبيعة اولاعهم المحدودة ، ما استغربنا وجود شيء من التعقيد في تصرفاتهم الخلقية •

وفي موضع آخر تقول (٢)

وهنا تذكرت ان عرب الأهوار يولعون بتسمية أطفالهم بأسماء غريبة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وهم يعتقدون أن هذا النوع من التسمية حرز حريز يعمي العين الحاسدة الشريرة ويقي الأطفال ••• والا فهل من قوة شريرة تستطيع أن تصيب من يسمى (حصبة) بشر ؟؟! انها ولا شك « تبتسم » من هذا الاسم وتمر بصاحبه مرّ الكرام ! •

••• لقد عاش سكان البطائح السنين الطوال على هذا المنوال • لايعنيهم من أمر الدين شيء (كذا) ، وان كانوا على المذهب الشيعي • وليست هناك مساجد في قراهم ، وقد يؤمهم (الملا) في صلاتهم ، كما قد تجد هنا أو هناك من زار (العتبات المقدسة) فهو (زاير) تفريقاً عمن زار (مكة) وهو (الحاج) • انهم لايلتزمون بشعائر الدين الاّ قليلاً • والتعليم يكاد يكون مفقوداً بين ظهرانيهم •

---

(١) ليدي دراور ، في بلاد الرافدين ، صور وخواطر ، نقله الى العربية فؤاد جميل ، مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص _ ٢٧٢ •

(٢) نفس المصدر ص _ ٢٨٥

انهم كطيور الماء ، وسيبقون كذلك ، على الراجح أبد الدهر .

التباين داخل منطقة الأهــوار

سبق ان قسمت منطقة الأهوار الى قسمين بالنسبة الىالموقع الجغرافى . وهنا أجد من المفيد توضـيح التباين القائم فى داخـل المنطقة ذاتها . ذلك التبـاين الذى يحدده النشاط الاقتصادى السائد فى مختلف أجزاء المنطقة .

ان ما كتب عن منطقة الأهوار فى جنوب العـــراق لايزال محدداً جداً . وجلّ ذلك لم يتعد الوصف الاجمالى أو التفصيلي وهو وصف أما انه اعتمد على مشـاهدات شخصية أو كشوف هندسية . وعلىالرغم مما تميز به الصنفالاول من طرافة وجاذبية فى الوصف ، فانه يفتقر الى التحليل الاقليمى والعرض العلمى المنظم . وهما أسـاس البحث الجغرافى . ولا غرابة فى ذلك ، لأن الذين تجولوا فى منطقة الأهوار وأقاموا بين سكانها من الاجانب ، كانوا من السواح والرحالة . وقد قصدوا هذه المنطقة بقصد الاطلاع على ما هو غريب فيها من المظاهر الطبيعية والأحوال الاجتماعية . وقد جاءت كتاباتهم فعلاً مقتصرة على هذا الهدف . هذا وان معظم ما قد كتب كان مجرد مقالات عامة [١] . وقد كتبت فصـول خاصـة عن الأهوار فى مؤلفات وضعت عن جغرافيـة العراق وقد وردت اشارة اليها من قبل ، وأخص بالذكر منها كتاب جغرافيـة العراق للدكتور جاسم محمد الخلف وأطلس العراق الحديث للدكتور أحمد نسيم سوسة .

---

(١) وعلى سبيل المثال :

Willred Thesiger, ''marsh Dwellers of Sourthern Iraq'', National Geographic Magazine, Feb, 1958, pp. 205 — 239.

واهم ما فيها الصعور الشمسية وعددها ٢٩ وخاصة الملونة منها ١٨ صورة

Wilfred Thesiger, ''mashmen of Southern Iraq'', Jaurnal of the Royal Geographical Society, September, 1954.

ليدى دراور ، بلاد الرافدين ، صور وخواطر ، نقله الى العربيـــة فؤاد جميل ، مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٦١ . الفصل السادس (سكان البطائح) ص ٢٧١ _ ٢٨٦ .

أما البحوث التفصلية فهى وصفية عامة مع خلوها من تحليل اقليمى [١] • أما البحث التفصيلى العلمى الخاص بحياة سكان جزء معين من منطقة الأهوار (الجبايش) وهو دراسة انثروبولوجية كاملة كتبها الزميل الدكتور شاكر مصطفى سليم [٢] بعد أن قضى فى هذه القرية فصول السنة الاربعة واتصل بأبنائها اتصالاً وثيقاً مكنه من تحليل مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لدرجة ان اطروحته هذه اصبحت فى الواقع مصدراً وحيداً فى موضوعها • وكتب الزميل الدكتور ابراهيم شريف مقالة عن مناطق الاهوار [٣] •

ان منطقة الأهوار تبدو وحدة جغرافية متجانسة الاجزاء ، وعلى هذا الأساس تناولها الكتاب فى أبحاثهم المختلفة • الا أنها فى الواقع تخضع لتباين واضح فى داخلها •

ان ابراز هذا التباين داخل منطقة الأهوار يتطلب فى الحقيقة دراسة تفصيلية حقلية • وعندئذ يتيسر وضع بحث جغرافى شامل لهذه المنطقة الفريدة من نوعها فى العالم •

وقد جعلت كتابة هذا المقال خطوة اولى لدراسة جغرافية منطقة الاهوار دراسة اقليمية مفصلة ، بعد الذى وجدته من فقدان الدراسة الجغرافية بين الابحاث الموضوعة عن المنطقة ، وبعد أن تجولت فى بعض أطرافها وتوغلت فى قلبها واستمعت الى ملاحظات بعض أبنائها • وأية دراسة جغرافية للمنطقة لابد وان تظهر النواحى التى تتباين فيها الاجزاء المختلفة وتعطى لكل جزء صفته الخاصة ، بعد أن تكون قد أظهرت النواحى التى تتشابه فيها هذه الاجزاء • ففى داخل كل وحدة جغرافية لابد من وجود تباين • وهذا التباين هو أساس تقسيمها الاقليمى • وهذا التقسيم الاقليمى هو أساس الدراسة الجغرافية •

---

(١) Gavin maxwell, A Read Shaken by the Wind, Second Impression London, 1958.

(٢) الدكتور شاكر مصطفى سليم ، الجبايش ، دراسة انثروبولوجية لقرية فى اهوار العراق ، جزئين ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، ١٩٥٦ •

(٣) الدكتور ابراهيم شريف ، « مناطق الاهوار فى القسم الجنوبى من العراق » مجلة كلية الاداب الاسكندرية ، ص ٤٥ •

وينظر الكثير من الكتاب الى منطقة الأهوار على أنها متشابهة الاجزاء فى المظاهر الطبيعية والنشاط الاقتصادى ، وهم يفكرون فى انبساط أرضها ووجود المسطحات المائية ونمو نباتات طبيعية كثيفة من القصب والبردي وما فيها من طرق مائية تصل بين مختلف أجزائها • وان سكانها يعيشون على جزر صغيرة أو كبيرة ، بعضها طبيعية كونتها الترسبات والبعض الآخر اصطناعية ، بناها الانسان من القصب • ولكن هذا التشابه يمثل عوامل الانسجام فى المنطقة فقط ، اذ هناك عوامل تباين أيضاً وهى تمثل عوامل الاختلاف بين أجزاء المنطقة •

أعتقد ان السبب الرئيسى لوجود هذا التباين هو توفر الارض الصالحة للزراعة أو عدم توفرها • فالمسطحات المائية العميقة لاتخدم الانسان الا فى ناحيتين ، الاولى كونها طرق مائية صالحة لتنقله من طرف الى طرف ، وأما الثانية فهى كونها مصائد للاسماك والطيور البرمائية • أما المسطحات المائية الوقتية فهى التى تجف مياهها فى موسم الصيهود • وفى هذه الحالة يندفع أبناء المنطقة الى زراعة هذه الارض واستغلالها فى انتاج الرز والذرة من المحاصيل الصيفية • ومثل هذه الاراضى مع حافات الأهوار الدائمية التى تتراجع عنها المياه فى موسم الصيف أيضاً تعتبر المراكز الزراعية الرئيسية فى منطقة الأهوار • وعلى أساس امتداد رقعة الأهوار وتقلصها الموسمى تقوم هجرة بعض سكان الأهوار الموسمية • ويتعرض ماكسويل لوصف هذه الظاهرة بالنسبة لرعاة الجاموس فى هور الحويزة (١) •

أما القصب فمتوفر فى كافة أقسام منطقة الأهوار ، اذ تقوم منابته حيث تتوفر الرطوبة فى التربة والمياه السطحية الضحلة الموسمية • واذا وجد المرعى من القصب الأخضر اليافع وأنواع أخرى من النباتات المحبة للماء ، انصرف الناس لتربية الجاموس بصورة خاصة مع اعداد قليلة من البقر • والعائلة فى مثل هذه الأقسام قد تمتلك عدداً من الجاموس يزيد عن الخمسين • وهى تبيع انتاجها من الدهن المستخرج من الحليب بالاضافة الى الذكور الصغار (العجول) • وتتنقل العائلة مع حيواناتها من بقعة الى أخرى سعياً وراء المرعى • وتحمل الزوارق أفراد الأسرة ومتاعها القليل مع المواد التى تبنى منها بيتها من القصب والحصر •

---

(1) Gavin maxwell A Read Shaken by the Wind, p. 151.

اقاليم منطقة الاهوار من جنوب العراق
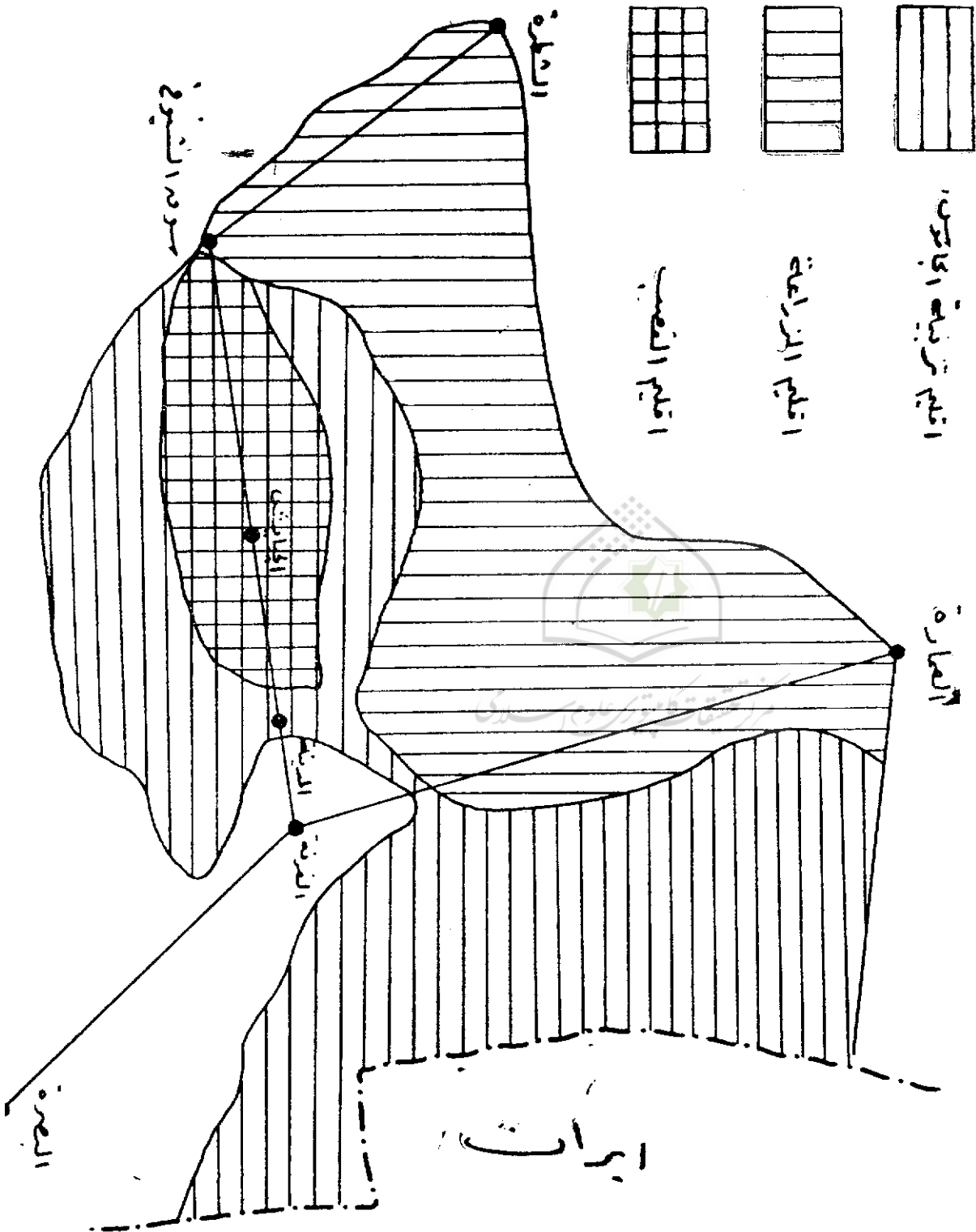
أما منابت القصب الكثيفة والموجودة في قلب منطقة الأهوار فهي تكون اقليماً يختلف عن بقية أقسام المنطقة • وفيه يعتمد السكان بالدرجة الاولى على قطع القصب وحياكة الحصر • ويبيع أبناء هذا الاقليم انتاجهم في داخل المنطقة وفي خارجها •

وعلى ضوء هذا التباين يمكن تقسيم منطقة الأهوار الى :

أولاً - اقليم الزراعة : وفيه ينصرف السكان بالدرجةالاولى لانتاج الرز والذرة أو الشعير أو التمور • ويمتد في أطراف هور الحويزة والاقسام الغربية من الناصرية (قضاء سوق الشيوخ بناحيتيه كرمة بني سعيد وعكيكه) حيث يزرع الرز كمحصول رئيسي ومعه الذرة كمحصول ثانوي • أما الاراضي المجاورة لدجلة وجداوله في لواء العمارة (المشرح والكحلاء والمجر الصغير والمجر الكبير) فتستغل في انتاج الشعير والتمور كمحصولين رئيسين • ومثل ذلك في جانب من حوض شط الغراف الأسفل • ويضاف اليها الاراضي الممتدة بين القرنة والمدينة في لواء البصرة حيث تكون التمور المحصول الرئيسي •

ثانياً - اقليم تربية الجاموس • ويشمل بالدرجة الاولى هور الحويزة شرق دجلة ، مع امتدادين ثانويين له يعبران دجلة من جنوب لواء العمارة (قضاء قلعة صالح) ويمتد أحدهما الى أهوار الغراف السفلى وأما الآخر فيمتد الى هور الحمّار جنوب مجرى الفرات القديم •

٣ - اقليم القصب • ويمثل قلب منطقة الأهوار • وهو يمتد من المدينة شرقاً الى كرمة بني سعيد غرباً ويحدده من الشمال والجنوب الامتدادان المذكوران لاقليم تربية الجاموس • وبذلك ينحصر في مجرى الفرات القديم مع الأهوار الممتدة على طرفيه •

اقليم القصب

يظهر في المخطط المرسوم لبيان مواقع الاقاليم الثلاثة في منطقة الأهوار من جنوب العراق ، ان هناك اقليماً مرتبط الاجزاء ، محدود المساحة ، متوسط الموقع وهو يتميز عن غيره بوفرة منابت القصب فيه • ولذا فقد سميناه باقليم القصب (Reed Belt) ويضم هذا الاقليم حزامين من منابت القصب الكثيف ، الاول ويقع الى اليسار من
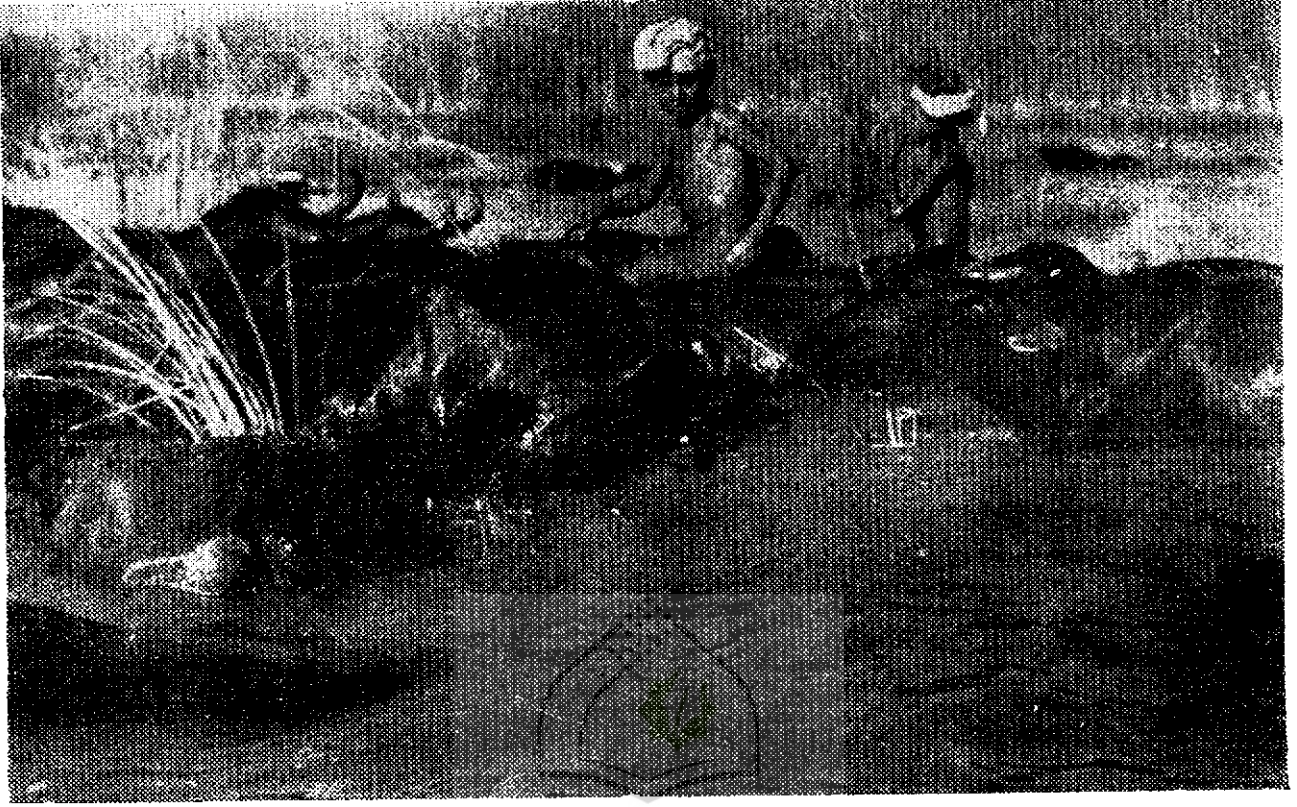
تربية الجاموس فى الاطراف الشمالية لاقليم القصب

(نقلا عن مجلة ناشنال جيوكرافيك)

مجرى الفرات القديم والثاني يقع الى اليمين منه • ونظراً لقلة الاراضى الصالحة للزراعة فيه فقد باتت الاعمال الزراعية ثانوية جداً فى أهميتها الاقتصادية • كما وان أبناء الاقليم لايربون الجاموس ترفعاً ، ويعتبرون رعاية الجاموس من اختصاص المعدان وحدهم • لذا فقد اختصوا بقطع القصب وحياكة الحصر (البوارى) منه • ومن هذه الحرفة يستمدون القسم الأكبر من مدخولهم السنوى •

وسكان اقليم القصب من المستقرين شأنهم فى ذلك شأن الفلاحين سكان المناطق الزراعيه ، وهم يختلفون عن رعاة الجاموس (المعدان) الذين هم من المتنقلين • والمعدان يستغلون القصب وهو لما يزل أخضر طرياً لعلف حيواناتهم • فى حين أن سكان اقليم القصب (العرب) يتركون القصب حتى يبلغ فى نموه قدراً يصبح معه صالحاً لنسج الحصر وبناء البيوت •

وأبناء اقليم القصب ، على الرغم من اعتمادهم على نباتات طبيعية لايبذلون جهداً فى انمائها أو تحسينها فهم من الجماعات المستقرة التى جمعت فى فعالياتها الاقتصادية بين حرفتين ، حرفة الجمع وحرفة الصنع • وهم يجمعون القصب من منابته فى موسم معين وينسجون الحصر فى الموسم الذى يليه • وعليه فانهم من الجماعين - الصناع • أى انهم يجمعون بين حرفتي جمع القصب من منابته البعيدة وحياكته فى مراكز عملهم فى القرية •

وهؤلاء الجماعة من سكان العراق لايختلفون فى طبيعة مهنتهم عن سكان مناطق الغابات الصنوبرية فى شبه جزيرة اسكندنافية ، رغم الفوارق الكبيرة بين مناطق الأهوار ومناطق الغابات من ناحية الظروف الطبيعية السائدة • فسكان اقليم الغابات يذهبون الى مراكز قطع الاشجار فى موسم الصيف والخريف ، وبعد الانتهاء من أعمال القطع تحمل هذه الاشجار الى معامل قطع الخشب واعداده للتصدير • وكذلك يذهبون أبناء اقليم القصب فى سفرات قصيرة أو طويلة ليقطعوا القصب من منابته فى موسم معين (تموز الى تشرين الاول) ويجمعونه هناك أو ينقلونه يومياً بالمشاحيف أو الطرادات الى مركز عمل الحصر (الجبايش) وهنا يقوم الصناع (الصوانيع) بانجاز عمليات التقشير والتفشيق والدق ثم الحياكة •

صيد السمك فى مجرى الفرات القديم جنوب قرية الجبايش

(نقلا عن مجلة ناشنال جيوكرافيك)

هذا وان سكان اقليم الغابات يستفيدون من خشب الاشجار التى يقطعونها للبيع وللوقود ولعمل البيوت التى يسكنونها والاثاث التى يستعملونها ، وكذلك فان سكان اقليم القصب من الأهوار يستعملون القصب لعمل الحصر التى يبيعونها وللوقود ولبناء الصرائف وعمل الاثاث وعلفاً للحيوانات ، وحتى فى اقامة الجزر (عملية التجبيش) التى يعيشون عليها فى أهوارهم •

يبدأ هذا الاقليم من مركز ناحية المدينة(التابعة الى قضاء القرنة من لواء البصرة) شرقاً الى كرمة بني سعيد (مركزالناحية التابعة الى قضاء سوق الشيوخ من لواء الناصريه) غربا • ويتوغل شمال مجرى الفرات القديم الى داخل أهوار جنوب الغراف ، والى جنوبه فى داخل هورالحمار وبذلك يدخل ضمن نطاقه مجرى الفرات القديم والحديث مع الأهوار التي تقع بينهما والتى تصل بينهما عملياً فى موسم الفيضان ، هذا بالاضافة الى بعض الاهوار التى تكونها مياه الغراف عند نهايته • وتقدر مساحة هذا الاقليم الكثيف فى قصبه بنحو من ١٨٠٠ كيلو متراً مربعاً • أى ٣٠ كيلو متراً فى العرض و٦٠ كيلو متراً فى الطول •

وتنتشر فى هذا الاقليم مجموعات عديدة من الجزر حتى تبلغ الآلاف فى عددها • وتفصل بينها ممرات مائية تعرف باسم (كواهين) ، وهى الطرق الوحيدة التى تربط مختلف أجزاء الاقليم ببعضها كما وتربط الاقليم بالخارج ، وتسلكها الزوارق التى يندفع فوقها جمّاعو القصب الى داخل الاقليم لقطع القصب وحزمه ثم نقله الى الجبايش •

وتغطي مياه الاقليم نباتات مائية كثيفة ذات أوراق عريضة تطفو على وجه الماء وأوراد زاهية الألوان • كما ترتفع فوقه سيقان القصب الطويلة الى جانب البردى •

ويتراوح القصب فى ارتفاعه بين ٥ أقدام قرب مجرى الفرات القديم الى ٣٠ قدماً فى داخل الاهوار •

ويتركز نمو القصب حول قرية الجبايش[١]، ولكن حزامه يمتد شمالاً حتى أهوار العمارة ويعبر مجرى الفرات القديم باتجاه الجنوب الى داخل هور الحمار • وفي داخل الحزام ذاته يتعذر نمو القصب أو البردي في المياه العميقة •

ويستطيع المسافر من المدينة باتجاه الجبايش ملاحظة بداية اقليم القصب بوضوح • اذ أن اقليم الزراعة (بساتين النخيل) ينتهي فجأة وتختفي من الأفق أشجار النخيل • ويظهر القصب على اليمين وعلى الشمال من الفرات • كما ويستطيع ملاحظة الممرات المائية التي تمتد على الجهتين من الفرات وخاصة في موسم ارتفاع مستوى المياه في المنطقة (كانون الثاني الى مايس) • ويشاهد المسافر عشرات الزوارق تجري على الفرات ومنه تتجه صوب اليمين أوالشمال نحوالجزر المنتشرة فوق هذه الرقعة الواسعة من المياه التي توحي للناظر بأن لا نهاية لها ، وان مشكلة العراق هي وفرة المياه وليست كثرة الاراضي القاحلة • وهكذا ينسيه هذا المنظر وجود الصحارى الرملية الشاسعة ، لتحل محلها في مخيلته صورة المسطحات المائية الواسعة • ومما يلفت نظر المسافر ان أغلب الزوارق تسيرها النساء ، مما يدل على أن المرأة في هذا الاقليم ، كما في بقية أنحاء منطقة الأهوار ، تقوم بالكثير من المسؤوليات خارج البيت • وهي فعلاً تشارك الرجل في قطع القصب ونقله وفي اعداده وحياكته • كما تقوم بزيارة سوق القرية لبيع بعض منتجات العائلة وشراء ما تحتاجه من المواد الغذائية والمصنوعات • واذا ما جنّ الليل اندفعت الزوارق من الحزام القصبي الى مجرى الفرات أو الى البرك العميقة • وعلى كل فيها رجلان يتولى أحدهما دفع الزورق بعمود من القصب (المردي) ويقوم الثاني بصيد السمك • ويوضع عادة على مقدمة الزورق مشعل نفطي لأن الضياء يجذب السمك • ولا يعرض من هذا الصيد للبيع الا القليل جداً • أما الباقي فهو للاستهلاك العائلي •

---

١ — كانت قرية الجبايش مركزا لناحية الجبايش التابعة لقضاء سوق الشيوخ من لواء الناصرية • وفي عام ١٩٥٩ فصلت ناحية الجبايش عن القضاء واصبحت قضاء يعرف باسم (قضاء الجزائر) ومركزه قرية الجبايش • وشكلت فيه ناحية تعرف بناحية الجزائر تابعة لمركز القضاء • وفي عام ١٩٦١ تشكلت ناحية الفهود ومركزها قرية الفهود ، نظرا لاتساع ناحية الجزائر • وبذلك اصبح قضاء الجزائر يتألف من ناحيتين الجزائر ومركزها قرية الجبايش والفهود ومركزها قرية الفهود •

وبعد سفرة نهرية من المدينة تستغرق نحو من ساعتين بالزورق البخارى ، يصل المسافر الى قرية الجبايش التى تعتبر مركز اقليم القصب وأوسع قرية فيه • ويبلغ عدد سكانها ٦٢٩ نسمة (احصاء ١٩٥٧) فى حين ان مجموع سكان قضاء الجزائر يبلغ ٣٦٫٦٨٧ نسمة • أما الموقع الذى بنيت عليه الجبايش فيتألف من عدد كبير من الجزر ، اتخذت شكلاً مستطيلاً يبلغ فى طوله ما يزيد عن ١٣ كيلو متراً • وفى وسطه يقع السوق والمدرسة ومركز قائمقامية القضاء والمستوصف وأمامها جميعاً حديقة وكورنيش • والأخير حديث الانشاء يستند على حائط من الطابوق يصل اليه الماء فى موسم ارتفاع منسوب الفرات ويصبح بينه وبين النهر شاطىء رملي فى الصيف ، وقد يستغل هذا الشاطىء فى زراعة بعض الخضروات • ولا يزيد عرض القرية فى أكثر الاقسام عن ٢٠ متراً وقد يكون بضعة أمتار فقط ، ويليها برك من الماء الاسن ، تقوم حولها جزر صغيرة ربما لاتتسع الواحدة منها لأكثر من بيت واحد (صريفة) • وتنمو على حافاتها أشجار النخيل • والنخلة تخرج من كومة من التراب يحيط بها الماء الضحل • وتتوسع الكومة وتزداد ارتفاعاً حين يعمل الفلاح على تعميق القنوات وحفر البرك والقاء التراب حول جذوع الاشجار • ومثل هذه الطريقة تتبع فى مختلف أنحاء منطقة الأهوار ، نظراً لضحالة المياه من جهة وقلة الارض اليابسة من جهه ثانية • لذلك فان الاشجار فى بساتين النخيل ترتفع على خطوط متقاربة من الاكوام من التراب • ويفصل بينها قنوات من المياه الضحلة أو العميقة نسبياً • والأخيرة هى الطرق المائية التى تربط قرية بقرية ومزرعة بمزرعة •

وفى قضاء الجزائر يزرع الرز والذرة ولكن الانتاج محدود ولبيان حالة الزراعة فى اقليم القصب ننقل ما قاله الدكتور شاكر مصطفى سليم (١)

« وما دامت الزراعة تعتمد اعتماداً كلياً على انحسار الماء فهى غير مضمونة مطلقاً • وبما انها مقصورة على زراعة محاصيل صيفية متأخرة تعطى انتاجاً ضئيلاً فهى اذاً غير مريحة كذلك • ولذا فان أهل الجبايش يقولون أنهم لايزرعون طلباً للربح بل لأنهم

١ ــ الدكتور شاكر مصطفى سليم ، الجبايش ، دراسة انثروبولوجية لقرية فى اهوار العراق الجزء الثانى ، بغداد ، ١٩٥٧ ، ص ٢٨٨ •
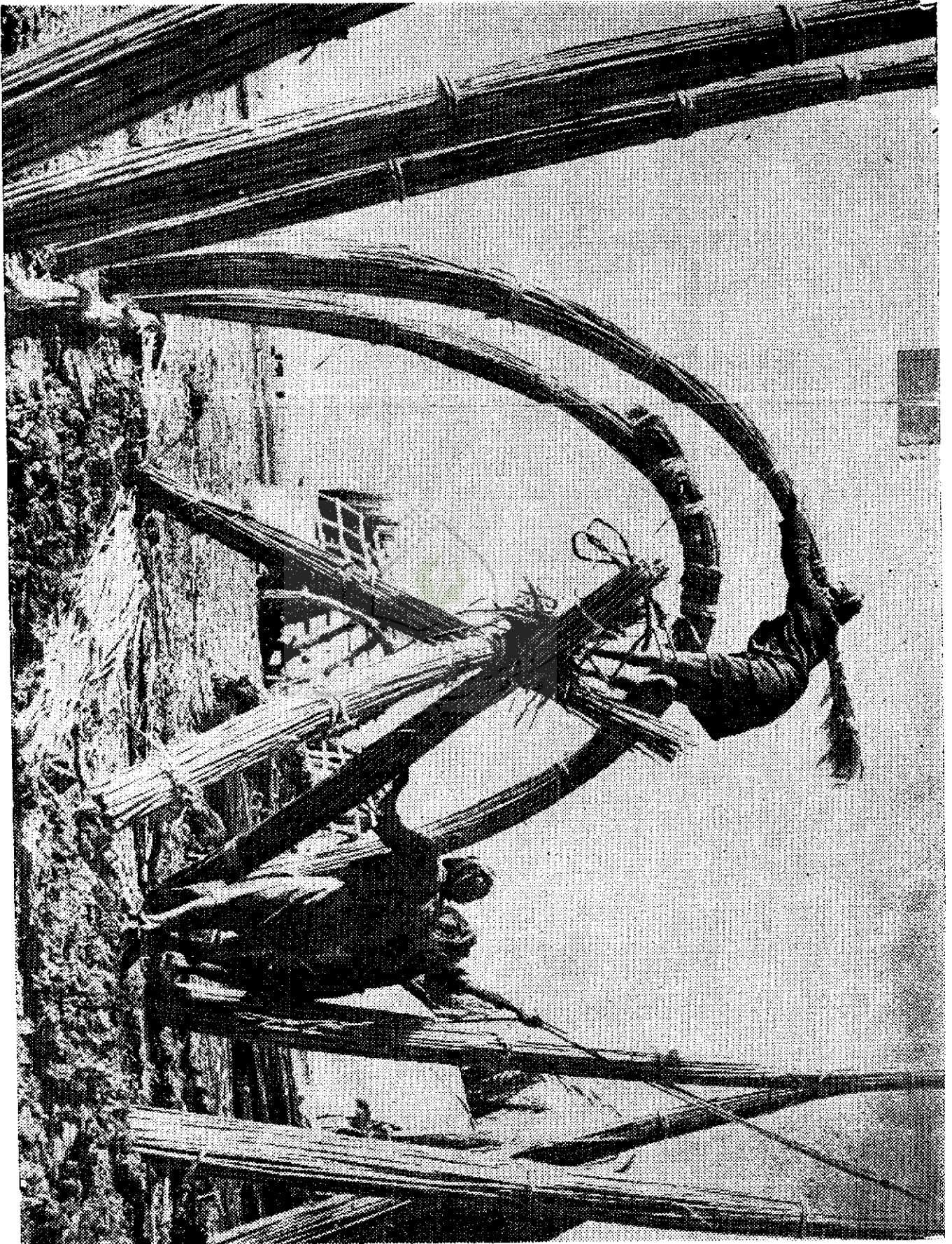
ـ اقامة الاقواس من القصب عند بناء البيت في منطقة الاهوار

(نقلا عن مجلة ناشنال جيوكرافيك)

جياع • ولهذا فقد تركت كثير من العوائل الزراعية ومتاعبها وربحها غير المضمون ولجأت الى جمع القصب وحياكة الحصر لأنه مضمون الربح ، رغم انه سبيل شاق للعيش • »

فالقصب اذاً هو العنصر الأساسي في الكيان الاقتصادي لهذا الاقليم • وهو بالوقت نفسه المادة الخام الوحيدة للصناعة التي تخصص بها هذا الاقليم وأتقنها دون غيره من أقاليم منطقة الأهوار من جنوب العراق •

وعلى الرغم من هذا التخصص الاقليمي والتخصص المهني فان معدل الدخل اليومي للفرد الواحد من العوائل المشتغلة بقطع القصب وحياكة الحصر أقل من ٥٠ فلساً • وان الانتاج من الحصر يصل الى ما يقرب من المليون حصيرة في السنة •

وان هذا الدخل ، على ضآلته ، جعل من أبناء الاقليم في مستو معاشي أحسن بكثير من مستوى غيرهم من أبناء منطقة الأهوار • كما وان الامكانيات المالية لدى عدد لابأس به منهم أكبر بكثير مما هو لدى أمثالهم من سكان المنطقة • ولذا فان سكان اقليم القصب يعتبرون أهل ثروة ، وان تجارهم يعتبرون من كبار الممولين في المنطقة •

ويضيف سكان اقليم القصب الى مواردهم الاقتصادية ، ما يحصل عليه بعضهم من العمل في مواسم الحصاد بالهجرة الى حوض الغراف الاسفل والى العمارة أو في مكابس التمور في البصرة في موسم الكبس •

أما الصيد النهري فمحدود جداً في اقليم القصب ، رغم توفر السمك في مياهه العميقة ، وامكانية توسيع نطاق الصيد • وجل ما يصطاده الأهلون من السمك يستهلك في البيوت ولا يعرض منه للبيع الا القليل • هذا وان أبناء قرية الجبايش ينفقون جانباً مهماً من دخلهم لشراء السمك من بعض الصيادين المحليين أو من المعدان الذين يأتون بالصيد في الصباح من مياه الأهوار العميقة •

وأما صيد الطيور البرمائية ، فمتيسر جداً في هذا الاقليم ، وخاصة في موسم الشتاء • ولكن الصيادين يذهبون للصيد هواية والاستفادة مما يصطادونه في استهلاكهم

المضيف ـ وما اكثر المضايف فى الجبايش وغيرها من قرى الاهوار
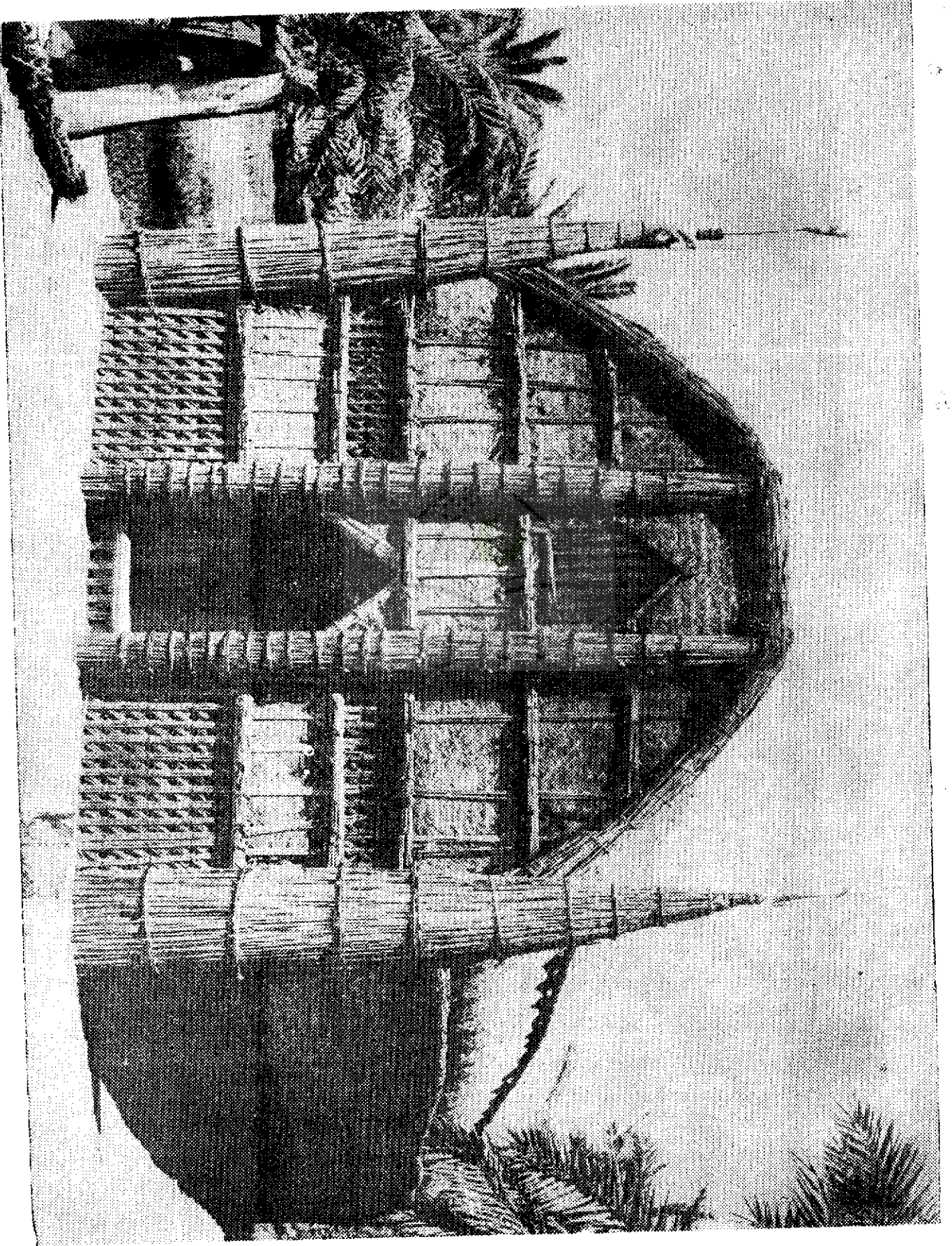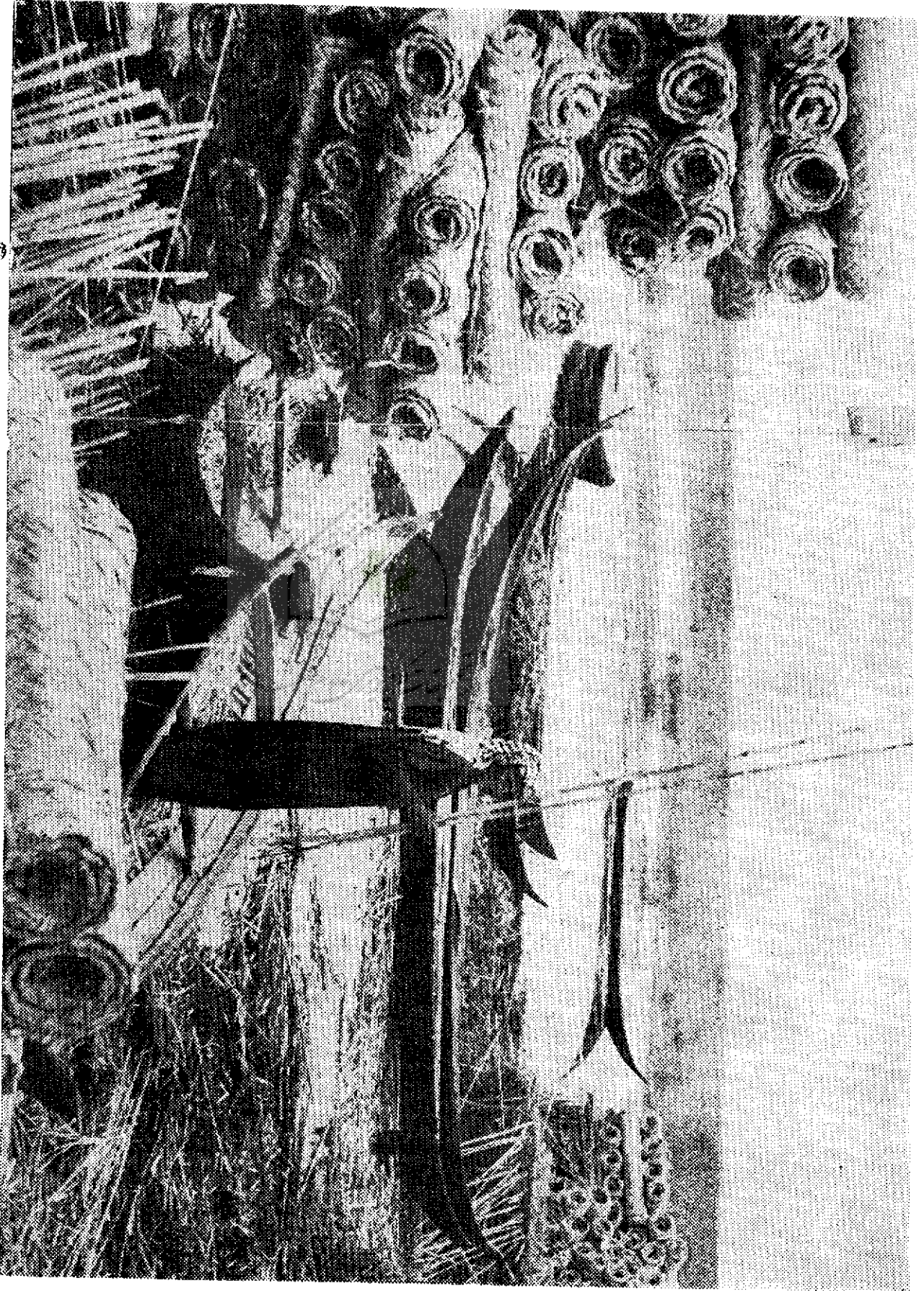
الحصر بعد جمعها واعدادها للتصدير
(نقلا عن مجلة ناشنال جيوكرافيك)

البيتي • وهم يترفعون عن بيع الصيد فى السوق مع أنه يمكن أن يضيف الى دخل العائلة مورداً لايقل أهمية عن موردها من جمع القصب وحياكة الحصر أو العمل فى الخارج •

ان أبناء اقليم القصب يجهزون مئات الآلاف من سكان الصرائف من العراقيين بالحصر والقصب لبناء مساكنهم وبامكانهم أن يقدموا للعراقيين أيضاً قسما مهما مما يستهلكون من اللحوم البيضاء (لحوم السمك والطيور) • هذا فى الوقت الحاضر ، وأما فى المستقبل فباستطاعة اقليم القصب أن يجهز المادة الخام الضرورية لقيام صناعة الورق فى العراق ، نظراً لوفرة النباتات الطبيعية الصالحة لعمل عجينة الورق •

الخلاصـــــــة

ان منطقة الأهوار فى العراق التى تكون نسبة مهمة من مساحة الألوية الجنوبية الاربعة ، تضم اقليماً فريداً من نوعه فى العراق وفى العالم أجمع ، وهو ما سميناه باقليم القصب ، نظراً لوفرة القصب فيه من جهة ، ولكونه قوام الحياة الاقتصادية لسكان هذا الاقليم •

ان وجود ما يزيد عن ١٠٠٠٠ كيلو متر مربع من أرض البلاد تغطيها المياه العميقة أو الضحلة بصورة دائمية أو وقتية ، أمر يتطلب دراسة علمية مفصلة من النواحى الفنية والاقتصادية والاجتماعية • كما ويتطلب توجيه عناية خاصة لاستغلال الموارد المتوفرة فى هذه المنطقة الواسعة من العراق ، تلك المنطقة التى عرفت بوفرة مائها وقلة أرضها • وهذه الظاهرة هى على النقيض مما هو موجود فى مناطق شاسعة اخرى من بلادنا حيث الاراضى الكثيرة والمياه القليلة • فالمشكلة الاقتصادية فى منطقة الأهوار تنحصر بقلة الاراضى اللازمة لقيام الزراعة وبناء المدن والقرى ومد الطرق ، فى حين انها تنحصر فى المناطق القاحلة بقلة المياه اللازمة لسد حاجة السكان من المزروعات •

وتحتاج منطقة الأهوار بما فيها اقليم القصب وهو بمثابة القلب منها الى :

أولا - رفع مستوى حياة السكان فيها ، الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . ولا يتيسر ذلك الا بعد ربط مختلف أجزائها بالطرق الصالحة لحركة السيارات طول السنة . فالجبايش مثلاً كانت معزولة في كافة الفصول عن بقية أنحاء البلاد حتى الشهر الماضي ، اذ تم ربطها بسوق الشيوخ بطريق السيارات . كما وتحتاج المراكز الاخرى الى مد طرق للسيارات ، تكون مرتفعة عن مستوى الاراضي المجاورة لها لتجنب التخريب الذى قد يسببه طغيان المياه .

ثانياً - السيطرة على مجاري الأنهار ، اذ أن طغيان مياهها وبصورة خاصة في مواسم الفيضان يؤدي الى بقاء الأهوار وتوسيع رقعتها في بعض السنوات . وأكثر هذه المجاري خطراً نهر دجلة وشط الغراف . والواقع ان معظم أهوار لواء الناصرية وعلى الرغم من وقوعها ضمن حوض الفرات ، تستمد قسماً مهماً من مياهها من دجلة ذاته ، ومن مواقع تبعد مئات الكيلو مترات عنها . وبعد أن انشأت مشاريع خزن المياه على دجلة والفرات ، باتت السيطرة على الأنهار والجداول أكثر يسراً ، وكل ما تتطلبه هو المحافظة على السدود الممتدة على جوانب الأنهار والجداول بوضع يحول دون طغيان المجرى على الاراضي المجاورة له .

ثالثاً - تجفيف كافة المستنقعات وجانب كبير من الأهوار . ويتيسر ذلك بعد السيطرة على مجاري الأنهار والجداول بسحب المياه عن الاراضي سواء عن طريق حفر الترع للتصريف أو السحب بالمضخات . وهذا المشروع قد يبدو متعذراً ولكن من المعلوم ان عصر انجاز المشاريع بسرعة وبتكاليف محدودة قد ذهب . وبات عصرنا اليوم يتميز بالمشاريع الطويلة الأمد والباهضة التكاليف .

وعن طريق التجفيف ستتوفر مساحات واسعة من السهول الرسوبية الغنية بالمواد العضوية ، وبعد استصلاحها ستصبح صالحة للزراعة .

رابعا ـ استثمار الموارد الاقتصادية المتوفرة فى المنطقة الآن بدرجة واسلوب يضمنان الحصول على الحد الاقصى من الانتفاع منها ، وأهمها النباتات الطبيعية وخاصة القصب والبردي ، وهما يصلحان لعدد من الصناعات المحلية بالاضافة الى عمل عجينة الورق ، والعراق يفتقر لهذه الصناعة الضرورية وخاصة بعد أن تضاعفت الحاجة الى استهلاك الورق فى البلاد • أما الثروة الحيوانية من الطيور والاسماك فيمكن استثمارها والعناية بها لسد جانب مهم من الاستهلاك الداخلى من اللحوم البيضاء • هذا بالاضافة الى امكانية توسيع نطاق تربية الجاموس والبقر فى المنطقة لتوفير الألبان ومنتجاتها فى البلاد •

موارد الثروة

دراسة لبعض موارد الثروة فى العراق

الدكتور وفيق الخشاب
قسم الجغرافية ـ كلية التربية

ماهو مـورد الثروة

لقد وردت عدة تعريفات لمورد الثروة ، منها ما أورده زمرمان (Zimmerman) من ان مورد الثروة كل شيء موجود فى الطبيعة ، يعتمد الانسان عليه فى معاشه وسعيه [(١)] • وقد اكد برويك (Broek) هذا التعريف الى حد كبير ، الا أنه ذكر ان مورد الثروة لا يصبح موردا بالمعنى الصحيح الا بعد ان يقوم الانسان باستغلاله لصالحه [(٢)] •

ومن البديهى أن الانسان لا يقوم باستغلال اى شيء فى الطبيعة الا بعد ان يتحقق من فائدته له ، سواء اكان ذلك بصورة مباشرة او غير مباشرة •

تصنيف موارد الثروة

وقد تم فى عام ١٩٥٤ ، فى المؤتمر الجغرافى الاميركى ، وضع تصنيف اولى وعام لموارد الثروة • وبموجب هذا التصنيف أمكن تمييز ثلاثة أنواع من الموارد : (١) موارد الثروة الطبيعية ، لا تمت للانسان او غيره بصلة ؛ كالارض والماء والاشجار والاسماك وباقى الحيوانات والمعادن على اختلاف اشكالها • (٢) موارد الثروة البشرية ، وتتمثل هذه الموارد فى طاقة الانسان على اعتبار أن هذه الطاقة تساعد الانسان نفسه او غيره على انجاز الاعمال المفيدة والمنتجة التى تسهل له سبل العيش ؛ (٣) موارد الثروة الحضارية وتتمثل هذه الموارد فى مهارات الانسان وانجازاته وكل ما يتصل بحضارته كالطرق والجسور والمدارس والافكار والمؤسسات [(٣)] •

يتقدم كاتب المقال بجزيل شكره لاعضاء الهيئة التدريسية فى قسم الجغرافية الذين ابدوا ملاحظاتهم وتوجيهاتهم اثناء كتابة المقال ؛ ويخص فهم بالذكر الدكتور ابراهيم شريف الاستاذ فى القسم المذكور لما قدمه من مساعدات قيمة والسيد مكى محمد عزيز المدرس المعيد فى قسم الجغرافية لقيامه برسم الخرائط والاشكال •

(١) Preston E. James and Clarence F. Jones; Editors; (American Inventory and prospect) Syracuse Univ Press - 1954, p. 226

(٢) Broek J. O. M., (The Relation between History and geography) Pacific Historical Review 10, 1941, pp. 321 — 325.

(٣) Preston E. James and Clarence F. Jones; op. cit. p. 226.

فاذا كان تحقيق الفائدة من الشيء ضروريا لاعتباره موردا ، فحينئذ لا تعتبر المساحات الواسعة من الاراضى غير المستغلة مورد ثروة بالرغم من خصوبة تربتها وذلك لانها لا تدر فائدة او منفعة للانسان • ولا تعتبر الطاقة البشرية المتمثلة باعداد كبيرة من السكان موردا كذلك الا اذا استغلت هذه الطاقة فى الاعمال المنتجة • ولا تعتبر الطرق البدائية التى علمها استمرار التنقل عليها موردا للثروة الحضارية الا بعد أن يشق الطريق ويعبد بحيث يضمن سهولة عملية الانتقال وسرعتها •

على أن استغلال كل مورد من الموارد السالفة يخضع الى قواعد اقتصادية معينة تعتمد على كمية المورد ذاته ؛ كمدى توفر المساحات اللازمة من الارض للزراعة ، ومدى توفر الماء لعمليات الرى وتوليد الطاقة الكهربائية ؛ كما وتعتمد ايضا على نوعية المورد ، كارتفاع او انخفاض نسبة المعدن فى الخامات ، او انخفاض نسبة الكبريت فى البترول ، أو ارتفاع نسبة الشباب بين سكان البلد ؛ حيث يعنى ذلك توفر كمية كبيرة من الطاقة البشرية للعمل ، ومدى خصوبة الارض الصالحة للزراعة ؛ وتعتمد على سهولة استغلال المورد ونقله ؛ كوجود الفحم والحديد على عمق يسير من سطح الأرض ، أو وقوع الغابات على مقربة من الانهار لكى يسهل نقل الاخشاب بواسطة المياه •

وما دام الشرط الرئيسى فى المورد هو تحقيق فائدة للانسان ، وما دام تمييز هذه الفائدة لا يكون الا عن طريق الانسان نفسه ، ولما كان الوصول الى الفائدة نفسها لا يتأتى الا عن طريق مهارات الانسان وفنه ، فانه من الصعوبة جدا الفصل بين هذه الانواع الثلاث من الموارد بالنظر لتداخلها مع بعضها واعتماد كل نوع منها على النوع الآخر اعتمادا يكاد يكون كليا • على اننا لا ننكر بأن فوائد الموارد للانسان كانت ، ولا تزال ، بمثابة الحافز الاول لموارد الثروة البشرية ، طاقة الانسان ، لكى تعمل لجنى هذه الفوائد وبناء حضارة الانسان التى شكلت بدورها موردا خاصا من موارد الثروة •

فتسلسل أهمية الموارد اذن تأتى فى الأصل من وجود مورد طبيعى جلب نظر الانسان فأستغله بسعيه ونشاطه ومهارته (طاقته) لكى ينتج اشياء كثيرة (حضارته) لفائدته وفائدة الاجيال الاخرى • فمن الظاهر أن موارد الثروة الطبيعية هى الحجر الاساس الذى انبثقت عنه أهمية الجوانب الاخرى من الموارد ، البشر والحضارة •

تصنيف جديد

وتحوى الموارد الطبيعية انواعا متباينة من حيث صفاتها وخصائصها • وعلى الرغم من كونها جميعاً مفيدة للانسان ، فان أهم ما يجب أن تتصف به هو استمرارية وجودها • وعند تطبيق هذا المبدأ نلاحظ أن بعضها يتصف باستمرار توفره ، أما البعض الاخر فلا يتصف بذلك ؛ مما جعل الاختلاف بينهما واضحا من حيث مدى الفوائد التي يحققها كل منهما لمن يعتمد عليها من البشر • وعلى أساس هذه الصفة الزمنية يمكن تمييز صنفين رئيسين من الموارد : موارد قابلة للنفاد (Non-renewable Resources) وموارد باقية (غير قابلة للنفاد) Renewable Resources .

ويشمل الصنف الاول جميع المعادن كالبترول والحديد والرصاص ••• الخ • وتتميز هذه الموارد بقابليتها على النفاد في مدى زمني معين ، يختلف باختلاف ماهو متوفر منها (احتياطي) ودرجة استغلالها الحالي • ومهما كان الاحتياطي كبيرا ، ومهما كانت درجة الاستغلال قليلة فان هذه الموارد سوف تفنى لا محالة •

أما الصنف الثاني من الموارد الطبيعية فانه يتميز باستمرارية توفره وعدم نفاذه • وتتمثل هذه الموارد في التربة والماء وضوء الشمس والنبات والحيوان • فدورة الماء في الطبيعة باقية ، وكذلك التربة ، كما يتكاثر النبات والحيوان باستمرار • ومن الملاحظ أن هذه الموارد لا تزيد ولا تنقص عند استغلالها ، انما قد تتأثر بعض صفاتها العامة نتيجة لذلك ، كتناقص خصوبة التربة لكثرة استعمالها ، ومدى توفر الماء في فترة معينة من السنة ، واندثار الغابات نتيجة الحرائق والمرض ، وتناقص عدد الحيوان لكثرة الصيد ، على انه من الممكن تلافي معظم ذلك وارجاع الموارد الى حالتها الطبيعية عن طريق مهارات الانسان ومدى تقدمه الفني ؛ وفي ذلك دليل على أن استغلال الموارد الطبيعية يتصل اتصالا وثيقا بالموارد البشرية والحضارية • فمن الملاحظ ان الانسان يعالج التربة المعرضة للارهاق اثناء الاستغلال عن طريق مهارته في اضافة انواع خاصة من الاسمدة او اتباع اسلوب معين من الدورة الزراعية • والماء ايضا يتعرض للنفاذ او النقص في كميته خلال وقت الجفاف ، ولكن الانسان يستطيع أن يدخره في وقت الفيضانات باقامة الخزانات ومشاريع الري •

المفاضلة بين الصنفين

وعند مقارنة هاذين الصنفين من الموارد بعضها تظهر بينها فروقا اساسية واضحة فى نوعية المكانة التى تحتلها فى حياة الانسان والمجتمع • فالموارد القابلة للنفاد قد تصلح أن تتخذ اساسا لتخطيط اقتصادى معين فى البلاد ، الا ان الخطة الاقتصادية التى تبنى على هذا النوع من الموارد يكون مصيرها التغير والزوال بزوال هذا المورد وحتى تناقصه • ولدينا شواهد كثيرة عن مدن قامت على أساس توفر معدن من المعادن ، ثم اندثرت واصبحت أشباحاً على أثر نفاد هذا المعدن ؛ كما هى الحال فى غرب الولايات المتحدة الاميركية (٤) • وتحت مثل هذه الظروف لا يبقى أمام هذا المجتمع سوى وسائل محدودة لاستمرار كيانه الاقتصادى ، كالسعى لتبديل اقتصاده بحيث يستند على مورد آخر متوفر لديه ، او السعى للتعويض عن هـذا المورد بمورد آخر يحل محله ؛ وفى جميع هـذه الحالات يكون الانتقال والتعويض والتبديل تدريجيا والا تعرض المجتمع الى هزات اقتصادية عنيفة نتيجة لعدم تهيأوه لمثل هذه التغيرات بصورة فجائية آنية •

أما الموارد الباقية ، غير القابلة للنفاد ، فانها تصلح أن تتخذ أساساً للتخطيط الاقتصادى على مدى زمنى طويل ، وذلك بحكم توفرها واستمرار وجودها • فالمجتمع الذى يرتكز فى حياته الاقتصادية على هذه الموارد يشعر بنوع من الاطمئنان والثبات وذلك لتوفر اركان حياته الاقتصادية فى كل الاوقات • فالمجتمع الزراعى يستطيع أن يحسن تربته الزراعية اذا اصابها نوعا من التدهور ، ولكن المجتمع الصناعى الذى يعتمد على الفحم والحديد فى فعالياته الاقتصادية لايستطيع أن يخلق هذه الموارد اذا ما نفدت او كان أمر استيرادها باهضا او صعبا • والمجتمع الذى يستند الى البترول او الذهب او النترات كأساس للجزء الاكبر من دخله القومى ، قد يعجز عن توفير نفس المستوى من الدخل عند نفاد هذه الموارد •

ومن ناحية أخرى ، تتميز الموارد القابلة للنفاد بوجودها ، أو بالاحرى ، تركزها فى جهات معينة من العالم ؛ كانتشار الفحم فى اوربا واميركا الشمالية وانتشار خامات الحديد فى اوربا والولايات المتحدة ، وانتشار البترول فى الشرق الاوسط واميركا

---

(٤) Parson R. L., Conserving American Resources
pp. 451 — 452.
Englewood cliffs, N.J. 1958.

الكاربية ، وتركز النترات في شيلي • وبالنظر لكون هذه الموارد تقع في جهات معينة بالذات ، فانها قد تتميز بخضوعها للاحتكار والاهواء من قبل من يمتلكها • وعليه فانها قد لا تستغل لخير اكبر عدد ممكن من البشر • وعلى العكس من ذلك ، نلاحظ أن الموارد الباقية تتميز بانتشارها في اغلب جهات العالم ، على الرغم من التفاوت الواضح في كميتها ودرجة صلاحيتها للاستغلال واعطاء الفوائد • فلا يعدم اى جزء من اجزاء المعمورة من تربة صالحة لزراعة انواع معينة من المحاصيل ، او غابات ، او ماء بشكل من الاشكال ، او حيوانات من نوع معين ؛ ولذلك فهي في متناول يد عدد كبير من سكان الارض • وفي عين الوقت فانها لا تكون عرضة للاحتكار او الاهواء الخاصة •

وفوق كل ذلك فان ندرة وجود الموارد القابلة للنفاد قد تغري بالطمع • فتقوم جهات معينة تحتاج الى هذه الموارد بالسعي للحصول عليها حتى ولو كان ذلك عن طريق الاصطدام المادى ، الحرب ، مع من يمتلكها ، ومن مثل ذلك الحرب اليابانية التوسعية • بينما نلاحظ ان كثرة الموارد الباقية وانتشارها تخفف من احتمال كونها حافزا للاعتداء والحرب كما حدث في بعض اجزاء المنطقة القارية في جنوب شرقي اسيا (٥) •

ان هذا الاستعراض الموجز لابد وان يسترعي الانتباه الى كون الموارد الباقية ذات تأثير اعم وأشمل في حياة الانسان ومجتمعه نظرا لاستمرارها وتوفرها مما يدفع الى الاطمئنان في اتخاذها أساساً للتخطيط والبناء الاقتصادى • ويظهر في العراق ، كغيره من بلاد الشرق ، تأكيدا خاصا على ذلك ، حيث يعمل الجزء الاكبر من الايادى العاملة في البلد في أمور تتصل في الزراعة وما تعتمد عليه من موارد باقية ، ولا يعمل في الصناعة والمنافع العامة سوى ٥٪ من مجموع الايادى العاملة في القطر (٦) •

وعليه ، فمن الواضح أن استمرار الجانب المادى من حضارة الانسان تعتمد الى حد كبير على مدى استثمار هذه الموارد ، او تحويلها بطريقة من الطرق بحيث تجهز الانسان بالغذاء والمسكن والملبس والحاجات الضرورية الاخرى • وما دامت هذه الموارد على هذا الجانب من الاهمية في حياة الانسان المادية ، افليس من الضرورى اذن ان تحضى بالقسط

---

(٥) N. Ginsburg; Editor, (the pattern of Asia) P. 392, 1959; prentice Hall inc.

(٦) F. A. O. Mission to Iraq; (The Key to a prosperous Agriculture in Iraq). 1960. pp. 1, 2. 3.

الوافر من اهتمامه ونشاطه ومهارته لتحسين استغلالها والحفاظ عليها من التبذير ؟ ومما لاجدال فيه أن اليوم الذى سوف تفنى فيه الموارد القابلة للنفاد آت لامحالة ، وحينئذ سوف يزداد اعتماد الانسان على التربة والماء والنبات والحيوان كدعامات ثابتة لتقدم الحضارة البشرية • أضف الى ذلك أن تزايد السكان فى العالم ، وتزايد الحاجات البشرية تبعا لذلك، سوف يظهران عظم الضغط على هذه الموارد بصورة ادق واوضح •

تشاؤم وتفائل وتعقل

لقد شغلت فكرة نفاد الموارد أو عدم نفادها وعلاقة ذلك بعدد الانسان وحاجاته ، اذهان كثير من المسؤولين والمفكرين ؛ فمنهم من تشائم فرسم صورة قائمة تمثل المصير المحتوم الذى سوف يجابه العالم عند ازدياد سكانه على أساس عدم قدرة الموارد الطبيعية على سد حاجاته ، كمالثوس مثلا (٧) • ومنهم من تفائل استنادا لما تتمتع به بعض هذه الموارد الطبيعية من صفة عدم النفاد ، فراح يستغلها على اعتبارها معين لاينضب (٨) • وكلا الفريقين ، على ما يظهر ، ذهبا الى التطرف الذى لا يستند الى أساس علمى واضح فى البرهنة والتدليل • فقد نسى الفريق الاول أن هناك مساحات واسعة من اليابس والبحر يمكن استغلالها عند الحاجة وحين توفر التقدم الفنى اللازم (٩) • فليس من المستبعد أن يبتكر الانسان وسائل مشجعة على سكنى واستغلال الجهات الباردة فى العالم ، او الجهات الحارة ؛ او انه قد يبدأ بتحوير وتحسين طرق استغلاله الحالية للموارد ، كالارض والماء والغابات ؛ او قد يسعى الانسان الى تدجين بعض الحيوانات المتوحشة حاليا والاستفادة منها • كما نسى هذا الفريق التقدم الحضارى المضطرد واحتمال نجاح الانسان فى التوصل الى بذور قد تنجح فى جهات أقل فى معدلات درجات حرارتها وكمية مطرها ؛ كما أن احتمال تجفيف المستنقعات سيزيد من مساحات الارض المهيأة للزراعة؛ كالذى حدث فى هولندة (١٠) •

---

(٧) Kliman, Starkey, and Hall; Introduction to Economic Geography) Chap. 3, pp. 19 20. New York, Harcourt and Company, 1940

(٨) Parson, L.R., op. cit. p. 468.

(٩) G. E. White; (Toward an appraisal of world Resources), New views of Conservation problems.
Geographical Review, oct, 1949, pp. 629 — 634.

(١٠) هربرت اديسون : (الارض والماء والغذاء) ترجمة الدكتور محمد عطانى ومراجعة الدكتور محمد محمد حسان • سلسلة الالف كتاب رقم ٣١٣ ص ٦٦-٦٧ • دار الفكر العربى ١٩٦٠ •

وفى الوقت ذاته نسى الفريق الثانى أن فلسفتهم هذه تستند الى التبذير الذى قد يحرم الكثيرين من البشر من فوائد أعم وأشمل قدتتوفر لعددأكبر من الناس فيما اذا تم استغلال هذه الموارد بطريقة من التعقل والحكمة والبعد عن الانانية على اعتبار أن هذه الموارد ليست ملكاً لجيل واحد وانما لأجيال أخرى آتية أيضاً •

ماذا تعنى صيانة الموارد

ومن ثم برزت فكرة ثالثة الى حيز الوجود كرد فعل لتطرف الفكرتين السابقتين ؛ تؤكد هذه الفكرة على استغلال الموارد الطبيعية لكى تؤدى الى تحسين حياة الانسان ورفع مستواها على مدى زمنى اطول مما هى عليه الان • ويعنى ذلك استغلال هذه الموارد وعدم تركها عاطلة او خزنها لاستعمال اخر فى المستقبل • ومن البديهى أن هذه الجماعة تسعى الى استغلال الموارد بطريقة بحيث أنها تعطى أقصى الفوائد للانسان عن طريق أعقل سبل الاستغلال • وقد جرت العادة اطلاق اصطلاح الصيانة (Conservation) على هذا الاسلوب فى النظر الى الموارد (١١) • فيصبح هدف من يتبنى وجهة النظر هذه بذل أقصى الجهود فى عمليات الاستغلال للحصول على أتم الفوائد من موارد الثروة • فعلى هذا الأساس تصان التربة حينما تحرث وتزرع بحيث تعطي أحسن الغلال وفى الوقت ذاته تبقى محتفظة بخصوبتها • وتصان الغابات حينما تعطى جيلا يلو الجيل من الاخشاب بصورة منتظمة ، وتستغل فى نفس الوقت كمجال للترفيه والترويح عن النفس ؛ ويصان الفحم الحجرى عند حرقه فى افران دقيقة وليس عند تركه فى الارض • وبعبارة أدق يسعى من يعتقد بمبدأ الصيانة الى استخلاص أتم الفوائد الممكنة من موارد الثروة القابلة للنفاد قبل نفادها ، كما يسعى الى الحصول على أتم الفوائد من الموارد الباقية مع الاحتفاظ بها على نفس المستوى من القابليات •

من الذى يساهم فى عمليات الصيانة

وتختلف عمليات الصيانة باختلاف الموارد الموجودة فى اية منطقة من المناطق • ويظهر التفاوت واضحا فى مدى تنوع الجهود التى تبذل فى عمليات الصيانة بين الجهات التى تتنوع فيها موارد الثروة وتلك التى لا يوجد فيها الا نوعا واحدا او بضعة انواع من

وكذلك Josúe De Castro; (Geography of Hunger)
chapt. VII pp. 235 — 237.
London, Victor Gollencz Ltd. 1953

(١١) Parson R. L. op. cit. pp. 5 — 6.

الموارد • ففى المناطق الثانية تكون الحاجة الى الاختصاصيين فى الموارد والعمال الماهرين محدودة ، وتتخلص هذه الجهات نوعا ما من المشاكل الفنية والادارية لعمليات الصيانةفيما يتعلق بالمهارة والادارة • أما النوع الاول فعلى الرغم من أن تنوع الموارد يضفى على الاقتصاد نوعا من التأمين والاستقرار وزيادة الفوائد ، الا ان عمليات الاستغلال والصيانة تحتاج الى عدد كبير من الأيادي الفنية والاختصاصيين والى جهاز اداري على حظ عال من التنظيم لتوحيد وتنسيق جهود الاختصاصيين المتعددين • ففى الجهات الزراعية وحيث تحتل التربة المرتبة الأولى فى الأهمية بين موارد الثروة ، يعمل فى حقل الصيانة اختصاصيون ماهرون فى مختلف حقول المعرفة ؛ كالمختصين بالمياه والحيوانات والغابات ، بالاضافة الى المختصين بأمور التربة • ان هؤلاء الاختصاصيين يختلفون كما هو واضح فى حقول اختصاصاتهم ، وقد يبدع كل منهم فى حقل اختصاصه فيما يعهد اليه من أعمال دون أن يمس بقليل أو كثير طريقة ونتيجة بحوث الاختصاصيين الآخرين ؛ هذا فيما يختص بمورد واحد • أما اذا تنوعت الموارد فى المنطقة الواحدة ؛ كالتربة والماء والغابات والحديد والنرول ••• الخ فمن المؤمل أن يزداد عدد الاخصائيين الذين يعملون فى حقل الموارد • وفى كلتا الحالتين تبقى نتائج ابحاث وجهود هؤلاء المختصين بعيدة عن الانسجام والتناسق والارتباط حتى فى مرحلتها النهائية •

على ان الاستفادة من هذه الابحاث والاراء لا تتم الا اذا تهيأ جهاز ادارى عام لتوحيد هذه البحوث والدراسات للافادة منها بصورة مجتمعة وبنسب معلومة لحل أية مشكلة من المشاكل التى تعترض سبل استغلال الموارد وصيانتها• فبينما يوجه الاختصاصيون اهتمامهم الى حقلهم العلمى والفنى يصبح واجب الاداريون تحديد وتخطيط عمليات الصيانة على نطاقها الواسع استنادا للمعلومات التى توفرت من دراسات الاختصاصيين فى حقول الموارد المختلفة • وعلى هذا الاساس يضاف الى الاختصاصيين فى امور الموارد رجال للادارةا والتصميم يعملون فى حقل الصيانة والاستغلال ومدربين فى امور الصيانة عامة (Generalists) دون التأكيد على معرفة دقائق مورد معين بالذات • ولا تتعدى المعرفة العامة فى امور الموارد معرفة الجغرافية الاقليمية لمنطقة من المناطق كالصفات الطبيعية والبشرية وأنواع الموارد ومدى استغلالها كدليل لوضعية الحاجات فى تلك المنطقة • فالعنصر الادارى فى عمليات الصيانة اذن يستدعى التسلح بالمعرفة الجغرافية للمنطقة او المناطق التى يجرى استغلال وصيانة الموارد فيها • وليس من شك فى أن

هؤلاء الاداريين الجغرافيين يساهمون فى مستقبل الموارد فى المنطقة على نفس المستوى الذى يساهم به المختصون فى حقول المعرفة المتصلة بالموارد ذاتها •

الصيانة ضرورية دائمـا

فالصيانة شيء ضرورى اذن كوسيلة الى مضاعفة الفوائد والمكاسب من موارد الثروة • وتشتد هذه الضرورة حينما يكون التبذير واضحاً كما تشير اليه كمية الفوائد المجناة من الموارد المتوفرة فى أى اقليم من الاقاليم • ويعنى التبذير هنا جنى فوائد قليلة من وحدات كبيرة من الموارد فى اية منطقة من المناطق • وتفسير ذلك أن الموارد فى بلد معين بالذات لا تستغل بطريقة بحيث انها تعطى اتم الفوائد لسكان ذلك البلد ، او ان الحياة الاقتصادية فى ذلك القطر او غيره قد اعتمدت على مورد واحد للثروة ، بعد ان أهملت الموارد الأخرى ؛ أو انها أكدت على فائدة معينة من مورد معين دون النظر الى احتمال جنى اكثر من فائدة من المورد عينه •

ماذا عنـدنا فى العراق

والعراق مبدئياً بلد غني بموارد ثروته الطبيعية ؛ الأرض والماء والمعادن • وتوجد فيه مساحات لا بأس بها من الغابات (١٧٫٧٧٦ كيلو متر مربع) [١٢] ، كما ويحتمل وجود أنواع عديدة من الحيوانات فيه • فالعراق اذن لايعاني فقراً بأى شكل من الأشكال بل فيه قابليات لغنى أكثر وأعم بحيث يشمل سكان الأرياف والمدن كذلك[١٣] • على أن عمليات الاستغلال فى البلاد تجرى بصورة غير متناسقة وبشكل يؤكد على الموارد القابلة للنفاد أكثر بكثير مما يؤكد على الموارد الباقية ؛ غير القابلة للنفاد • فيعتبر البترول من أكثر موارد العراق استغلالا فى الوقت الحاضر بدليل معدل الانتاج السنوى (٥٠ مليون طن) [١٤] وما تساهم به عوائد هذا المورد فى الدخل القومى (حوالى ١٠٠ مليون دينار لعام ١٩٦٠ _ ١٩٦١) • ومن الواضح ايضا ان هذه العوائد تصرف الآن بطريقة تحقق الفائدة والرفاه لاكبر عدد من ابناء الشعب وذلك عن طريق القيام بالمشاريع

(١٢) الجمهورية العراقية ، وزارة الزراعة ، مديرية الغابات والتشجير العامة (التقرير السنوى لسنة ١٩٥٩_١٩٦٠) • ص ٩ • مطبعة الحكومة _ بغداد • ١٩٦١ •

(١٣) F. A. O. Mission to Iraq; (The Key to a prosperous Agriculture in Iraq). op. cit. p. 2.

(١٤) جريدة البيان ، العدد ٤٨٠ ، التاريخ ١٩/١٢/١٩٦١ • ص ١ • (بغداد) •

العديدة المتنوعة ؛ وفي ذلك تطبيق أصيل لمبدأ الصيانة حيث حقق هذا النوع من التصرف أحد أركان الصيانة عن طريقة استخدام المورد القابل للنفاد بحيث يعطي أقصى الفوائد قبل نفاده • على أن ترك جزء كبير من احتياطي هذا المورد بشكل غير مستغل يجعله بعيد عن متناول يد التصميم وجني الفائدة ؛ وفي ذلك ابتعاد عن سياسة صيانة الموارد واقرب الى باب التبذير • كما ان عدم استغلال الغاز الطبيعي على نطاق واسع ، في الوقت الحاضر ، دليل ثان على تزايد التبذير في هذا المجال •

وفيما عدا البترول لا تتوفر لدينا معلومات مضبوطة وكافية عن المعادن الاخرى في العراق • وكل ما لدينا من معلومات يشير الى احتمال وجود الكبريت والفحم والحديد والملح والقير في بعض اجزاء البلاد ؛ واغلبها غير مستغل حاليا (١٥) • فتنقصنا الدلائل الكافية عن طبيعة هذه الموارد ، كمياتها ، مناطق وجودها ، نسبة المعدن في الخامات ، سهولة استغلالها ••• الخ لكي نقرر فيما اذا كان أمر استغلالها اقتصادياً ، وحينئذ يكون عدم استغلالها في الوقت الحاضر تبذيراً أو خلافه ، ان أيدت المعلومات الآنفة الذكر ذلك • وكل الذي نستطيع ذكره فيما يختص باستغلال المعادن في العراق أن الاهمال يكاد يكون واضحا في احتياطي البترول والمعادن الاخرى وذلك عن طريق عدم زيادة الانتاج من المورد الاول ، وعدم توفير المعلومات الكافية لدراسة وضعية الثانية للعمل على تقدير الربح والخسارة من استغلالها او عدمه •

اما فيما يختص بالغابات والثروة الحيوانية فان المعلومات المتوفرة عن هذين الموردين ليست بأكثر وضوحاً من المعلومات الأخرى عن المعادن • فأغلب تقارير الدوائر المسؤولة عن الغابات لا تعطي اكثر من احصائيات عامة عن المناطق التي تتوفر فيها ومدى ما انجز من مسحها ولا تتطرق الى القابليات الاقتصادية او كمية الانتاج منها لبيان مختلف الاحتمالات في استغلالها او صيانتها • اما الثروة الحيوانية فالمعلومات المتوفرة عنها هزيلة جدا لا تكفي المسؤولين او الجغرافيين او غيرهم لابداء التوصيات والنصح بهذا الخصوص •

---

(١٥) الدكتور ابراهيم شوكت وجماعته ، (جغرافية العراق) ، مطبعة الشعب ، (بغداد) ص ٧٢ ، ١٩٦٠ • وكذلك الدكتور جاسم محمد الخلف (محاضرات في جغرافيه العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية) •

من منشورات جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العليا _ ١٩٥٩ • ص ٢٧٠ _ ٢٧٥ • (القاهرة)

حضت الارض وحضى الماء بدراسات محلية تفصيلية ودراسات عامة قليلة .

على ان هناك دراسات عديدة تفصيلية عن وضعية الارض والماء فى العراق . وأغلب هذه الدراسات محلية تتناول مشروعا معينا ، او جزءا من اجزاء البلاد . وتتسم هذه الدراسات بكونها وصفية اكثر من كونها تحليلا شافيا عن وضعية استغلال هاذين الموردين الرئيسين فى البلاد . على أن الدراسات القليلة العامة التى تنظر الى هذين الموردين نظرة شاملة متكاملة ، تؤكد ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، على أن استغلالهما فى الوقت الحاضر بعيد جد البعد عن مبدأ الصيانة .

ففيما يختص بالارض ، تشير الاحصائيات الى ان مساحة العراق تبلغ حوالى (١١٢٫٠٠٠٫٠٠٠) مشارة ، وان مساحة الأراضى الصالحة للزراعة ، والتى يمكن اعتبار تربتها موردا للثروة ، تصل الى حوالى (٤٨٫٠٠٠٫٠٠٠) [١٦] مشارة ؛ (١٦٫٠٠٠٫٠٠٠) مشارة فى المنطقة المطرية و (٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠) فى المنطقة الاروائية . الا ان ماهو مستغل من هذا المورد لا يزيد على (١٢٫٠٠٠٫٠٠٠) مشارة الا بقليل ؛ (٢٫٤٠٠٫٠٠٠) مشارة فى المنطقة المطرية [١٧] ، وحوالى (٩٫٦٠٠٫٠٠٠) مشارة فى المنطقة الاروائيـة [١٨] (شكل ١) . وعلى الرغم من أن ما يصيب الفرد الواحد فى العراق من الارض المزروعة فعلا هو اكثر بكثير مما يصيب الفرد الواحد فى مصر واليونان مثلا (شكل ٢) [١٩] ، فان التبذير يبدو واضحا حينما نقارن الارقام الآنفة الذكر لنرى ان حوالى (٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠) مشارة من الأرض مهملة ؛ (٢٣٫٠٠٠٫٠٠٠) مشارة فى المنطقة الاروائية ، وحوالى (١٣٫٠٠٠٫٠٠٠) مشارة فى المنطقة المطرية ، على الرغم من كونها صالحة للزراعة ولزيادة الدخل . ويبدو التبذير على أشده عند دراسة طبيعة الاستغلال فى الارض المزروعة فعلا ، حيث يتبين لنا ان نصف الاراضى المزروعة فعلا (٥٣٪) تبقى عاطلة كل سنة من السنوات [٢٠] . (شكل ٣) .

---

(١٦) Ahmed Sousa; (Iraq Irrigation Handbook) part I. Iraqi State Railway Press 1944. pp. 2 — 3.

(١٧) I bid. p. 2

(١٨) K. T. A. McCarthy Engineers; (Development plan for the Tigris and Euphrates Rivers, Iraq). (Baghdad, The Development Board, 1955) chapt. V. pp. 24—26.

(١٩) F. A. O. Mission to Iraq; op. cit. p. 3.
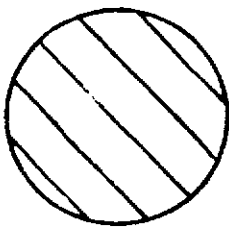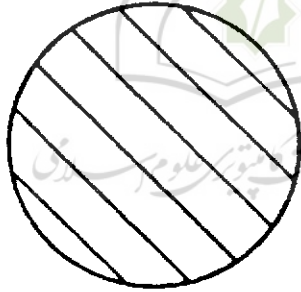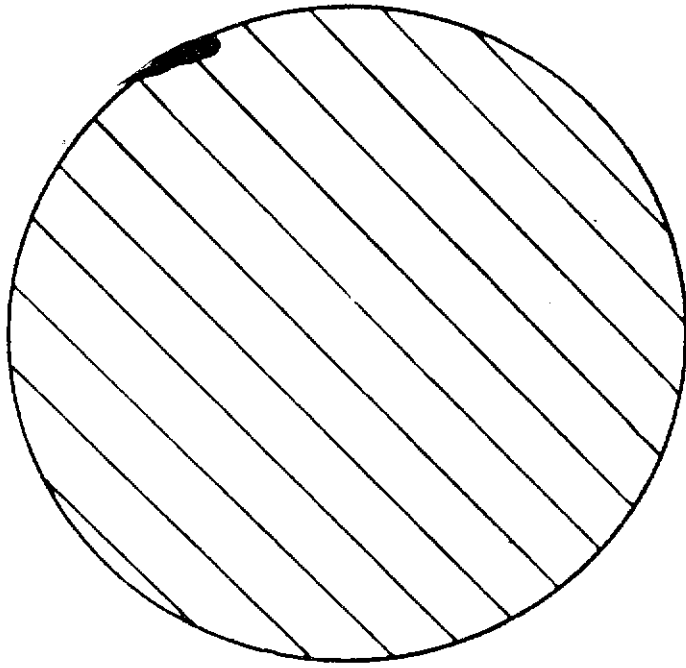
(٢٠) I bid; p. 4.

استغلال الاراضي الزراعية في العراق

مساحة العراق بالم

الاراضي الصالحة للزراعة

الاراضي المزروعة فعلا

الاراضي الصالحة للزراعة ولكنها مهملة

شكل – ١ – استغلال الأراضي الزراعية فى العراق

يمثل الشكل ما يصيب الفلاح الواحد من الأراضي المطرة والمروية في البلدان المذكورة (بالهكتارة).

المنطقة المطرة ☐ المنطقة المروائية ■

العراق - ٣,٥

اليونان - ١,٦

الجمهورية العربية المتحدة - ٠,٧

شكل - ٢ -
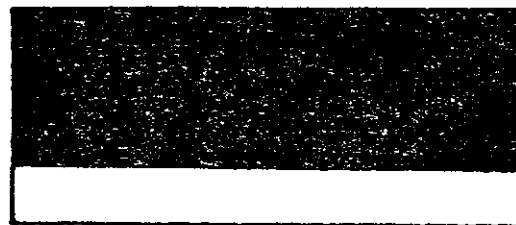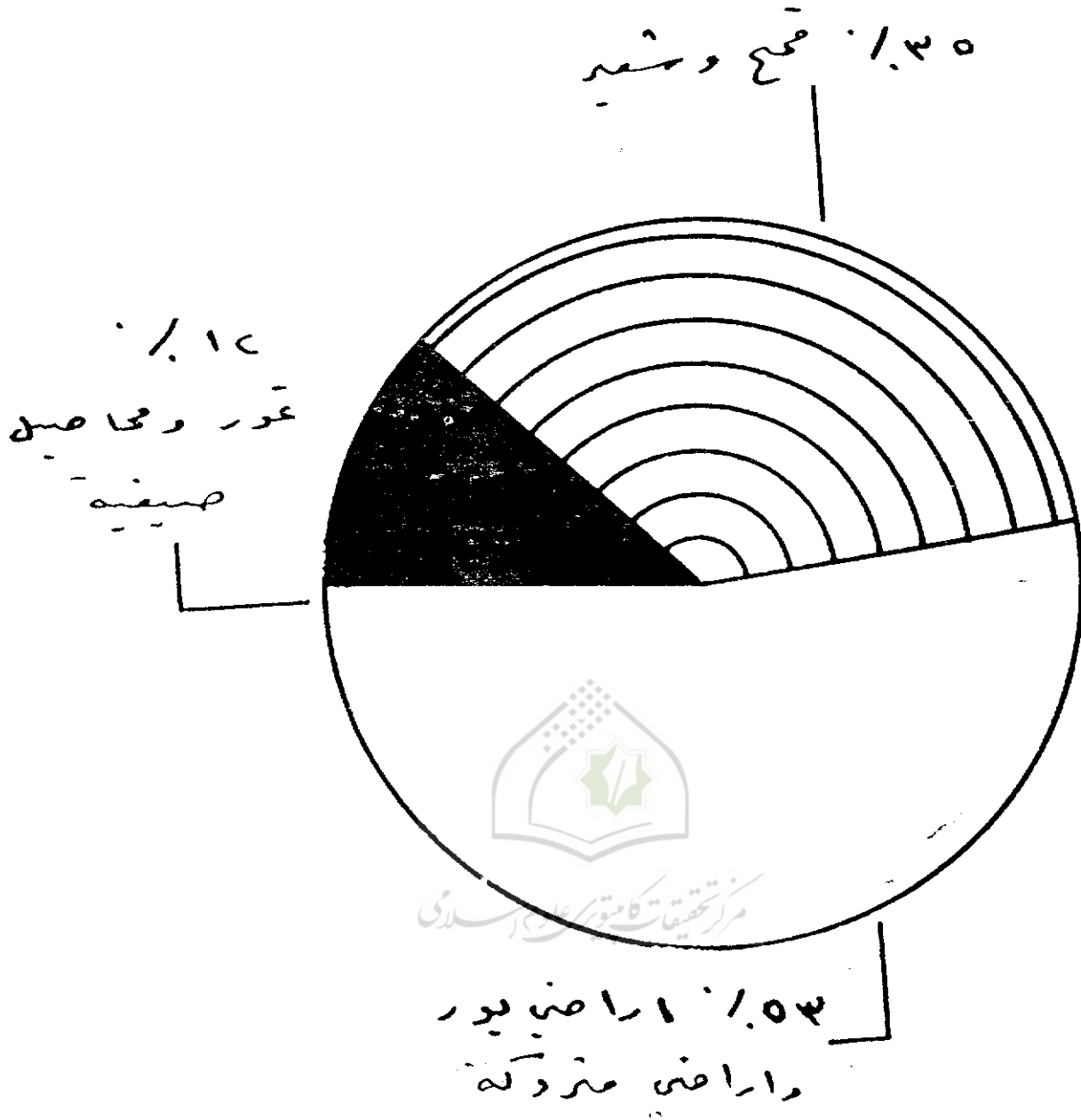
شكل - ٣ - طبيعة استغلال الأراضى المزروعة فى العراق

مـاء كثير وظمأ شـديد

وتظهر صفتا التبذير وعدم الصيانة بصورة واضحة كذلك فى استغلال مـوارد الثروة المائية فى البلاد • فتشير اغلب الاحصائيات الى ان مجموع ما يتوفر من الميـاه داخل حدود العراق يربو على (٧٣) بليون قدم مكعب [٢١] • اما مجموع الكمية التى تضيع داخل حدود العراق نتيجة للاستهلاك والتبخر والضياع داخل الارض ، فيصل الى حوالى (٥٦) بليون قدم مكعب سنويا ؛ على أساس الفرق بين ما يدخل العراق من الماء وما يصب فى شط العرب فى طريقه الى خليج البصرة [٢٢] • ويشكل الرى الجهة الرئيسة التى تستغل فيه اكبر كمية من المياه • فقد قدرت هذه الكميـة بحوالى (٤٨) بليون قدم مكعب سنويا [٢٣] • اما الباقى فيستغل فى اغراض اخرى • وقد يعود قسم من الميـاه المسـتعملة الى وديان الأنهـار عن طريق الجـريان الباطني ، على اننـا لو اخذنا مدى الحاجة الفعلية من المياه للاستعمالات الحالية لوجدنا ان جزءا كبيرا من الكمية المستعملة هى تبذير لهذا المورد ليس غير • فقد دلت بعض الدراسات الحديثـة على ان مجموع الكمية اللازمة لسد جميع الحاجات المائية الحاضرة داخل القطر لا تزيد على (٦) بليون قدم مكعب سنويا [٢٤] • وعلى هذا الاساس تكون كمية المياه المبـذرة سنويا فى البلاد تعادل حوالى (٥٠) بليون قدم مكعب • وهذه كمية كبيرة يمكن خزن أغلبها واستعمالها فى اغراض اخرى لجلب فوائد اعم واشمل • (شكل ٤) ؛ كأستخدامه فى توليد الطاقة الكهربائية على نطاق واسع أو ارواء الزراعة الصيفية أو المواصلات المائية •

خلاصتين :

يتضح لنا مما سبق وبالنسبة لموارد العراق ما يأتى :

لاتتوفر لدينا معلومات كافية عن الموارد القابلة للنفاد فى العراق فى الوقت الحاضر • أما ما هو مستغل منها حاليا فلا يتعدى البترول والملح والقير • وفى هذا الخصوص يظهر

---

(٢١) K. T. A. McCarthy Engineers; op. cit. Chapt. iii pp. 21 — 38.

(٢٢) Al-Khashab W. H; (The water Budget of the Tigris and Euphrates Basin). Univ of Chicago Dept. of Geography; Research paper No. 54, 1958, p. 87.

(٢٣) Ibid, pp. 88 — 89

(٢٤) I bid; p. 65.

شكل – ٤ – استغلال الموارد المائية في العراق
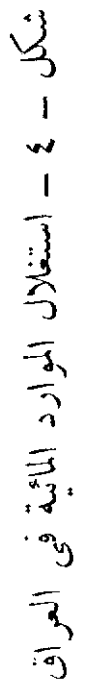
التبذير واضحا في ناحيتين اولهما قلة ما ينتج سنويا من البترول بالنسبة للاحتياطي (٣٥٠٠) مليون طن [٢٥] ، وثانيهما اهمال دراسة ما قد يحتمل وجوده من المعادن الاخرى في ارض البلاد .

وتتوفر الموارد الباقية ، غير القابلة للنفاذ ، بكثرة في العراق ، وهي على كثرتها هذه لاتحض من الصيانة الا بقسط يسير وتظهر فيها صفات التبذير بوضوح .

الحاجة ماسة الى فلسفة خاصة لادارة الموارد في البلاد

ولتجنيب التبذير في كلتا الحالتين ، ولتحقيق اعم الفوائد لاكبر عدد من ابناء البلاد ، يصبح من الضروري وضع فلسفة خاصة تعالج ، بحكمة ، استغلال الموارد القابلة للنفاد من جهة وتعمل على تقليل التبذير في الموارد غير القابلة للنفاد من جهة أخرى .

وليس من الضروري تحديد اسباب موجبة لوضع فلسفة كهذه ، فمن الواضح الان أن هناك علاقة بينة بين الانسان وبين الموارد بنوعيها . وفي نفس الوقت أصبح من المؤكد أن كمية ونوعية موارد الثروة لها علاقة وثقى بقوة الدولة . فالطريقة التي تدار بها الموارد اذن لها تأثير واضح على طبيعة الدفاع عن الدولة ذاتها وصيانة سكانهاومبادئها. وعلى هذا الاساس يصبح استغلال الموارد دون التمشي مع فلسفة وخطة خاصة يعني السعي وراء افق ضيق ومحدود قد يدر فوائد آنية في حينه ، ولكنه يجلب المتاعب وعدم الاستقرار على المدى الزمني الطويل . وفي عين الوقت يصبح استغلال وادارة الموارد وفق خطة مصممة يعني تعقلا وحكمة وايثارا ، كما يعني السعي وراء كيان اقتصادي ثابت ومتين يحقق الفوائد لاكبر عدد ممكن من الناس ولمدى زمني طويل .

الاقناع والتثقيف اولا

وقبل البدء باقتراح أسس وبنود هذه الفلسفة من الضروري اقناع المسؤولين والافراد بضرورة تبني سياسة معينة في الصيانة تجاه موارد البلاد . واذا تسلح رجل الصيانة بالمعرفة الجغرافية للمنطقة فليس من الصعوبة اقناع الناس أن أعمال الصيانة المختلفة تعني خدمة جميع الافراد بصورة مباشرة وغير مباشرة ، عاجلا او آجلا . فالتربة الجيدة في الجهات الزراعية وحسن استغلالها تعني اعمالا ناجحة في المدن المجاورة

---

(٢٥) جريدة البيان ، العدد ، ٤٨٠ التاريخ ١٩/١٢/١٩٦١ ص ١

لهذه الجهات والتى تغذيها بما تحتاجه من مهمات ومتطلبات ؛ والحشائش الجيدة فى المراعى تعنى لحوما فاخرة فى البلدة ؛ اليوم وغدا ؛ والغابات الجميلة باشجارها الباسقة تعنى طمأنينة لسكان السهول الفيضية فى درء خطر الفيضان الفجائى المدمر . فليس من الصعوبة اذن اقناع المسؤولين وغير المسؤولين بأن صيانة موارد البلاد تعنى وسيلةمضمونة للاعمال الناجحة فى الوقت الحاضر وفى المستقبل ، ولسنوات عديدة آتية . فاذا اقتنع المسؤول او الفرد بضرورة صيانة موارد بلاده فانه يصبح رجل صيانة من تلقاء نفسه دون أن يربط نفسه بجماعة او اية جهة اخرى (٢٦) . على ان تداخل اجزاء الطبيعة مع بعضها البعض واعتماد جماعات متعددة على موارد معينة بالذات سيؤدى فى النهاية الى توحيد هذه الجهود الفردية وتراوحها ضمن اطار عام من فعاليات الصيانة . فالثقافة والتوجيه تولدان الرغبة التى هى بدورها تدفع الى العمل ، وهذا العمل بالذات ، سواء أجاء عن طريق المسؤولين او الافراد او الجماعات ، هو الذى يؤدى الى الوصول الى النتائج المرغوبة . وتتوفر فى الوقت الحاضر وسائل كثيرة لتحقيق هذا التثقيف والاقناع كالصحافة والراديو والتلفزيون والخيالة (السينما) والمؤسسات الأخرى . فاذا ما ضمنا هذه الخطوة فى تحفيز المسؤولين والافراد أمكن بعد ذلك القيام بخطوات الصيانة الرئيسة .

خطوات تسبق فعاليات الصيانة

ومن الضرورى القيام بعمليات تقدير وتخمين لكميات الموارد الموجودة فى البلاد ، وانواعها ، ان وجدت . ويكون تحقيق ذلك بواسطة تشجيع الدراسات الجدية من قبل الاختصاصيين والفنيين والمتضلعين بالموارد (٢٧) . وتهدف هذه الدراسات الى تحديد مواضع الموارد ، كميتها ، انواعها ، ومدى امكان استغلالها من الناحية الاقتصادية ، سواء أكان ذلك لسدالحاجات الحالية أوالحاجات المتزايدة فىالمستقبل . فتقديرالموارد وتخمينها سيحدد طبيعة ونوع العمل الذى يتخذ بشأنها .

---

(٢٦) Parson, R.L; op. cit. p. 458

(٢٧) Wilma Belden Fairchild; Renewable Resources a world dilema; Recent publication on Courervation. Geographical Review; Jan. 1949, pp. 86 — 98.

ومن المستحسن أن يدرس كل مورد من الموارد على انفراد وبصورة تفصيلية ؛ فتبدأ دراسات شاملة عن صلاحية أرض العراق للزراعة ، وتصنف الاراضى الى انواع واصناف بالنسبة لدرجة صلاحيتها للاستغلال ؛ كما تبدأ دراسات اخرى عن انواع التربة وتوزيعها ، ودراسات اخرى عن الغابات • وتختص بعض الدراسات بكل ما يتعلق بالثروة المائية ؛ كميتها ، مدى استغلالها الحالى والاستغلالات الممكنة الاخرى • ومن الضرورى أيضاً أن تتفرغ بعض هذه الدراسات لسبر غور العراق للكشف عن المعادن الموجودة فى البلاد ، صفاتها وكمياتها ومدى استيعاب الاسواق المحلية لانتاجها ، لا بل وحتى الاسواق العالمية •

ان تيسير المعلومات بهذا الشكل يوفر على رجل الصيانة والمخطط الاقتصادي جهد البحث والتنقيب ، ويكفيه مؤونة الدراسة الحقلية فى البحث عن هذه المعلومات • وتشكل هذه الدراسات الحجر الاساس فى فعاليات وخطط الصيانة التى تستند الى الصفات الطبيعية للمورد ذاته •

تحديد الغايات من استثمار الموارد

أما الخطوة التالية التى يجب التفكير فيها ، بعد معرفة مجمل ما يتعلق بالمورد ، فهى وضع سياسة واضحة لطبيعة استثمار كل مورد من الموارد • وتتوقف هذه السياسة على تعيين الغايات التى يبتغيها المسؤولون والأفراد والجماعات من استغلال مورد بعينه • ففيما يختص بصيانة الاراضى الزراعية ، مثلا ، يمكن توضيح الغايات من صيانتها بالسعى لزيادة الانتاج الزراعى وعدم تبذير الارض ، او القيام بعمليات التصريف الواسعة للتغلب على مشكلة الملوحة والاحتفاظ بخصوبة التربة عن طريق اقتراح نظام خاص للدورة الزراعية ، او استعمال الاسمدة بانواعها المختلفة ، او السعى للحفاظ على التربة من الانجراف لصيانة الانهار والخزانات من الرواسب والسيطرة على مياه الفيضان • كما يمكن تحديد اهداف صيانة الموارد المائية بتوفير المياه لعملية الرى باستمرار ، وتهيأة المياه الصالحة للشرب دائما ، او العمل على استغلال الموارد المائية لاكثر من غاية واحدة• ويمكن تعيين الغايات من استغلال الغابات وصيانتها بالسعى لزيادة انتاج هذه الغابات وامكانية استخدامها كوسيلة للترفيه • ويمكن توضيح اهداف صيانة البترول والمعادن الاخرى بالعمل على جعل عوائد انتاجها تتناسب طبيعيا مع معدل الصرف على المشاريع

الانشائية في البلاد كشق قنوات الري واحياء الأرض وتعبيد الطرق ونشر الثقافة ..الخ .
وعلى هذا الاساس يساعد توضيح الاهداف والفوائد التى يسعى المجتمع لتحقيقها من الموارد على تقرير خطة العمل لتحقيق الفلسفة الخاصة بالموارد ؛ حيث يساعد وضع الاهداف بدقة ووضوح على حصر الجهود وعدم تبديدها لانجاز العمل البناء بصورة مباشرة .

اسلوب العمل

ان تقدير الاهداف والغايات من استغلال الموارد يستدعى تعيين الاسلوب الذى يمكن اتباعه لتحقيق هذه الاهداف . ومن الواضح ان اجزاء البلاد تتباين فى كمية وانواع الموارد التى توجد فيها ، هذا فضلا عن انتشار الموارد بشكل لا يمكن تحديده بالحدود الادارية الحالية ، بل يتعدى ذلك ليشكل كل مورد امتدادا طبيعيا بحد ذاته .
وعليه فان تحديد الجهة التى سوف تجرى فيها فعاليات الصيانة امرا ضروريا قبل البدء بالفعاليات ذاتها . ولما كان حوض النهر (River Basin) يشكل نوعا من انواع المناطق الطبيعية ، فان استخدامه كمجال لممارسة الصيانة والاستغلال امرا مستحسنا(٢٨).
وتبقى الصعوبة فى هذا المجال محدودة فى كيفية العمل على جمع المعلومات الضرورية على أساس هذه الحدود الطبيعية ، خصوصا وأن الحدود الادارية الحالية لا تتمشى مع هذا التقسيم الطبيعى ، (شكل ٥) .

هيئة الموارد العراقية

ولابد من تشكيل هيئة خاصة للعمل على تحقيق الاهداف والغايات المتوخاة من استغلال الموارد وصيانتها ، والسير بموجب السياسة الخاصة التى وضعت متضمنة هذه الاهداف . ومن المحبذ أن تكون هذه الهيئة مشكلة من مجموعة من الاختصاصيين فى انواع الموارد وفى حقل الصيانة عامة وحرفيين متعددين ، على ان يطلق على هذه التشكيلة أسم (هيئة الموارد العراقية) . وبالنظر لتعدد المناطق الطبيعية التى تجرى فيها عمليات استغلال الموارد وصيانتها ، فمن الضرورى أن يكون هناك مركزا محليا ممثلا لهذه

(٢٨) Burgers and Group; (A water policy for the American people).
Vol I. p. 32.
U.S. Government printing office; Washington D. C. 1950
وكذلك
Stephen Raushenbush; (Our Conservation Job) Report No. 4 P. 56.
The public Affairs Institute. Washington D.C. 1949.
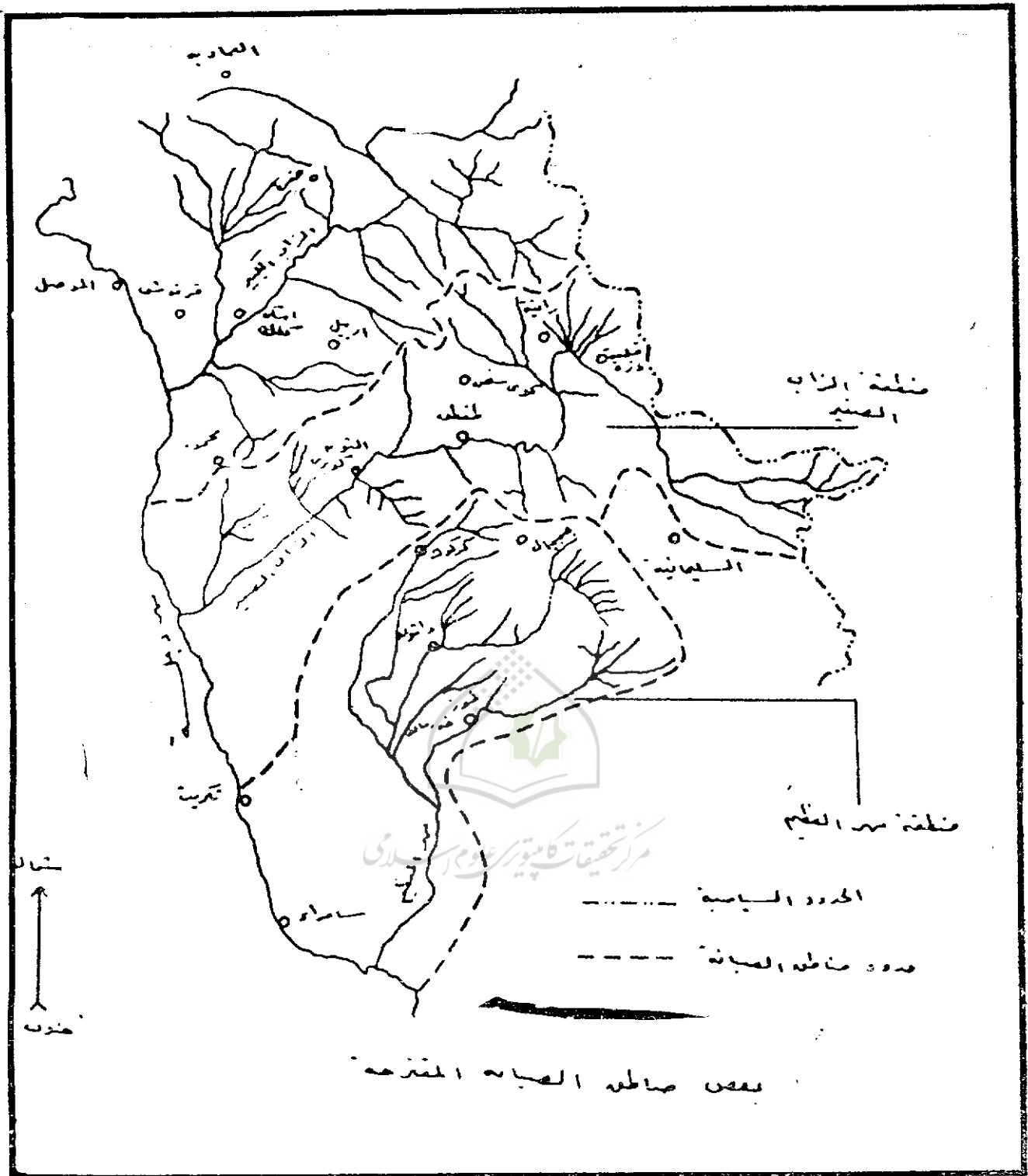
شكل - ٥ - بعض مناطق الصيانة المقترحة فى العراق

الهيئة فى كل منطقة فى المناطق على أن تكون الدوائر التابعة للهيئة العامة والمراكز المحلية على الشكل التالى :

هيئة الموارد العراقية

١ ـ المركز العام

مجلس التقرير العام

مجلس البحوث والتصميم العام

دائرة الاحصاء العامة

٢ ـ المراكز المحلية ؛ ويتشكل كل منها على الوجه التالى

مجلس التقرير المحلى

مجلس البحوث والتصميم المحلى

دائرة الاحصاء المحلى

٣ ـ هيئة التعاون العربى والدولى

٤ ـ هيئة التثقيف والنشر

وتكون وظيفة مجلس التقرير العام المصادقة النهائية على المشاريع التى تخص استغلال الموارد وصيانتها • وتكون وظيفة مجلس البحوث والتصميم العام تقديم الاقتراحات والخطط والمشاريع المتعلقة بالموارد ورفعها الى مجلس التقرير العام لمناقشتها والمصادقة عليها • أما مجالس التقرير المحلية فتكون وظيفتها دراسة واقرار المشاريع التى تقدمها لها مجالس البحوث والتصميم المحلية ، ومن ثم رفعها الى مجلس التقرير العام للمصادقة عليها عن طريق عرضها على مجلس البحوث والتصميم العام اولا • ويضاف الى هاتين الدائرتين فى المركز العام والمناطق المحلية ؛ دوائر للاحصاء وظيفتها جمع الاحصائيات والمعلومات والقيام بالاستفتاءآت الخاصة بالموارد لمساعدة مجلس البحوث والتصميم العام والمجالس المحلية الاخرى فى اقتراح مشاريعهم والاستناد الى أسس احصائية واضحة •

ومن الواضح ان مجلس البحوث والتصميم العام او المجالس المحلية المماثلةستكون أكثر فعالية من أية لجنة او دائرة فى هذه الهيئة العامة المقترحة ؛ ذلك لانها تقوم بدراسة طبيعة الموارد فى كل منطقة فى البلاد وتقديم الاقتراحات التى تكفل تحقيق اتم الفوائد

منها وصيانتها ، كتوسيع نطاق استغلال بعض الموارد ، او البدء باستغلال البعض الاخر ، او تنويع الاستغلال ، او الاكتفاء بوجه واحد من وجوه الاستغلال او حتى تغيير طبيعته .

على أن مجالس البحوث والتصميم المحلية ستسعى ، دون شك ، الى اقتراح أقصى ما يمكن اقتراحه من المشاريع ضمن منطقتها . وقد تكون مدفوعة في ذلك بحب تحسين منطقتها . ولذلك فان وجود مجلس البحوث والتصميم العام لغرض اعادة النظر فيأسس وطبيعة المقترحات والمشاريع المقررة من قبل مجالس التقرير المحلية يفسح المجال للتروي والتأكيد من فائدة هذه المشاريع ومدىانسجامها مع استغلال بقية المواردفيالمنطقة ذاتها ، او المنطقة المتاخمة لها ، ومع بقية المشاريع المتعلقة باستغلال الموارد وصيانتها في البلاد عامة . فلا يصبح المشروع ، في اية منطقة من المناطق نهائيا ، الا بعد أن يوافق عليه مجلس تقرير المنطقة ذاتها ، وبناء على اقتراح وتوصيات مجلس بحوث وتصميم المنطقة نفسها ، ومن ثم مصادقة مجلس البحوث والتصميم العام عليه ، مشفوعا بتأييد ومصادقة مجلس التقرير العام لهيئة الموارد العراقية .

ولعل التروى لتجنب الاخطاء ، والتغلب على النعرات الاقليمية في انجاز مشاريع محلية قليلة الفائدة ولا تنسجم مع المشاريع العامة في البلاد ، كلها فوائد تشفع لطول العمليات التى تصاحب تنفيذ أى مشروع معين في اية منطقة معينة لاستغلال موارد تلك المنطقة وصيانتها .

دائرة الاحصاء في الهيئة

وتحتاج هيئات البحوث والتصميم الى معلومات واحصائيات دقيقة تستند عليها في اعمالها ووضع خططها . ولذلك فلابد من وجود دائرةخاصة في الهيئةالعامة وفيالمراكز المحلية لجمع هذه الاحصائيات وترتيب المعلومات اللازمة فيما يختص بالموارد . انطبيعة ونوع الاحصائيات والمعلومات تقررها طبيعة المورد ذاته . ان دائرة الاحصاء العامة في الهيئة هي المسؤولة عن تنسيق احصائيات الموارد في البلاد عامة لبيان اتجاه الاستغلال وطبيعته وتمثيل الفوائد على أساس ترتيبها الزمني بصورة احصائية .

تعاون عربي ودولي

ومما لا يخفى أن وضعية موارد العراق بشكلها الحالي تحتاج الى كثير من العناء والجهد المتواصل لصيانتها وتنظيم وتنسيق استغلالها ؟ كما وتحتاج الى عدد كبير من

الاخصائيين والفنيين لهذا الغرض مما قد لايتوفر بتمامه فى العراق حالياً • ولما كانت طبيعه اغلب الموارد فى العراق متشابهة مع مثيلاتها فى البلاد العربية ، وعندما تكون اهداف هذه البلدان السعى الى التكامل الاقتصادى عن طريق تبادل المنافع ، فان الاستفادة من الاختصاصيين فى البلاد العربية ، والاعتماد على التجارب المتوفرة فى هذه البلدان أقرب للفائدة للعراق من اختصاصيين وتجارب من جهات أخرى • وعليه فان من الأوفق أن تلحق بالهيئة العامة دائرة خاصة لتنسيق التعاون مع البلاد العربية بشأن استغلال الموارد وصيانتها • وليس أفيد من تأسيس لجنة خاصة فى جامعة الدول العربية مهمتها جمع المعلومات وتنسيق كل ما يتعلق بالموارد فى البلاد العربية ، والاشراف على تبادل الخبراء والاختصاصيين حسبما تستدعى الحاجة •

وقد تتوفر بعض الخبرات والمهارات الضرورية فى بعض المؤسسات الدولية ذات العلاقة ؛ ولذلك فلا بأس من أن توسع لجنة التعاون نطاق عملها ليشمل الاستفادة من الهيئات الدولية المتخصصة فى حقل الموارد او المتعلقة بها ؛ كمؤسسة الغذاءوالزراعة الدولية ، ومؤسسة الانواء الجوية الدولية ، وغيرها من المؤسسات المفيدة الاخرى •

ضرورة السند الشعبى

ومن الضرورى أن يحضى المشروع ، بعدما يوافق عليه مجلس التقرير العام نهائيا ، بتأييد وحضوة شعبية • وللوصول الى هذه الغاية ينبغى عكس المشروع على الجمهور بأسلوبهم الخاص وبالوسائل المتوفرة للجنة خاصة للتثقيف والنشر ملحقة بالهيئة العامة للموارد • فتكون هذه اللجنة ، فى الواقع ، حلقة وصل بين الهيئة من جهة وبين المجتمع من جهة اخرى ؛ ذلك لان قناعة الجمهور وحرصه وسيلتان رئيستان لانجاح المشروع وكماله (٢٩) • وتساعد النشرات والصحافة والراديو والتلفزيون وبعثات الاقناع على تحقيق هذه الغاية •

هذا اقتراح موجز من المرجو أن يحضى باهتمام المسؤولين والناقدين على حد سواء ، علما بأن تحقيقه لا يخلو من صعوبات لاعادة التنظيم المالى والادارى ، الا ان الفائدة او الفوائد التى قد تنجم عن تحقيقه ، على مدى زمنى طويل ، قد تشجع على اخذه بنظر الاعتبار والتفرغ لدراسته •

---

(٢٩) G. F. White; op. cit. p. 639.

راجح الحلي

٥٧٠ ـ ٦٢٧ هـ

جواد احمدالعلوش
المدرس فى قسم اللغة العربية

سيرتـــــه :

هو شرف الدين ابو الوفاء راجح بن ابى القاسم اسماعيل الاسدى الحلى ، فهو من بني أسد الذين سكنوا حلة بني مزيد فنسب اليها •

ولد راجح فى مدينة الحلة فى الخامس عشر من ربيع الآخر سـنة سـبعين وخمسمائة للهجرة (٥٧٠ هـ) اى سنة اربع وسبعين ومئة بعد الالف ميلادية (١١٧٤م) ونشأ فيها محبا للادب مغرما بالشعر فدرسه على من كان فى الحلة من المشاهير ، وحفظه ورواه ، ثم تفتحت قريحته وظهرت مواهبه ، فقال الشعر الرقيق الجميل ، فذاع صيته فى البلاد ، وطارت شهرته فى الآفاق • ولما كان ذا همة عالية وطموح عظيم ابى ان يظل مقيما فى الحلة ، وهى يومذاك ولاية تابعة لبغـــداد ، ليس فيها غير ولاة العباسين الذى يعطون بقدر ، ويهبون ضمن حدود ، وهم ان كانوا اليوم فى الحلة فلا يدرى اين مقرهم غدا • فلم تعد الحلة عاصمة بنى مزيد اولئك الامراء الكرام الذين اسسوهـا سنة خمس وتسعين واربعمائة (٤٩٥ هـ) ونزلوها فكانت مستقلة عن الدولة العباسية ، يجتهد امراؤها فى تشجيع الحركة الادبية ورعاية الادباء ، فحين توفى الامير (عـلى بن دبيس) سنة خمس واربعين وخمسمائة (٥٤٥ هـ) دالت دولة المزيـــديـين وانتهى امرهم ، فخضعت الحلة لبغداد ، واصبحت كأى جزء من اجزاء الدولة الاسلامية التابعة للعباسيين • وكان من جراء هذا ان بدأ عهد جديد فى هذه الامارة ، وطرأ تبدل فـى حياة العلماء والادباء ، وأصيبت الحيـاة الفكرية فيها بهزة من جراء هذا الحدث • فبينما كانت مطمح العلماء والادباء ومحط رحالهم ، اذا بتلك الآمال تتقوض وتنهار • ولاشك ان هذا يؤثر فى روح الادباء ، ولا ريب انهم يبدأون البحث عن مواطن اخرى غـير

الحلة يجدون فيها البيئة الصالحة والمربع الخصيب والامراء الاكفاء ، ليشبعوا طموحهم الى المجد المؤثل ونهمهم الى العطاء الوفير ، فضرب كثير من الادباء والعلماء الحليين فى الارض متجهين صوب الحواضر الاسلامية المختلفة ، والمدن الكبيرة الشهيرة منتجعين من يتوسمون فيهم رعاية العلماء والادباء من الامراء والوزراء ، وبذلك ازداد الاتصال الثقافى والارتباط الفكرى بين الحلة وغيرها من المدن العربية الاسلامية ، واصبح بامكاننا ان نسمى هذا الدور الذى تمر به الحلة الآن دور الارتحال • فقد رحل الى بغداد شرف الكتاب محمد بن احمد بن حمزة المتوفى سنة (٥٧٩ هـ) ، ومثله الشيخ ابو الحسن على بن حمدون الحلى الذى رحل الى بغداد ثم الى الشام ، وهناك مهذب الدين ابو الحسن على بن الحسن بن عنتر الملقب بشميم الحلى المتوفى سنة (٦٠١ هـ) اذ رحل الى بغداد ثم الى الشام وغيرها واخيرا استقر به المقام فى الموصل ، كما رحل الى أربيل ابو سعيد محمد بن على بن عبدالله بن ابى الهيجاء بن حمدان المتوفى سنة ،٥٦١ هـ، • وكذلك مهذب الدين محمد بن على بن على بن الخيمى الذى سافر الى بغداد للدراسة ثم غادرها الى الشام ومنها الى مصر ومات فيها عام (٦٤٢ هـ) وهناك كثير غير هؤلاء من العلماء والادباء والكتاب والشعراء •• وقد كانوا خير سفراء للحلة الفيحاء فى الحواضر المختلفة •

وكان من بين هؤلاء السفراء (راجح الاسدى) الذى تاقت نفسه الى السفر والانطلاق فى الآفاق الواسعة ، والبلدان العظيمة ، فبدأ اولا يتردد على بغداد مقر الخلافة وقبلة الابصار ومحط رحال رجل الفكر وطلاب المال • واتصل بولاتها ووزرائها وعظمائها ومدحهم فنال شهرة كبيرة وتناقل القوم اشعاره •

ولم يطل به العهد فى بغداد ، فقد غادرها متجولا فى البلاد المختلفة فذهب الى الجزيرة الفراتية ، وحلب ، ودمشق ، ووصل الى مصر • واتصل بامراء هذه البلاد ومدحهم فاعجبوا به ايما اعجاب •

ففى الجزيرة الفراتية اتصل بالملك الاشرف (موسى بن الملك العادل) ومدحه كثيرا • ومما قاله فيه قصيدة يبدأها بالغزل :

من اطلع البـــدر فى ديجـــور طرته   واودع الســـحر فى تكســـير مقلتـــه
مـــالى ومالرشـــادى فيـــه انشـــده   والفى يقتـــاد قلبـــى فى ازمتـــه
يا مرسل الصدغ ما هذا الدلال وقـــد   بلغت عـــن طرفـــه آيات فترتـــه

وفى حلب اطال المقام فارسل منها اعذب الانغام ، حتى لقب بالحلبى لطول مكوثه فيها ، وهذا جائز ، وجائز ايضا ان يكون هذا من خطأ النساخ لقرب صورة (الحلبى) من (الحلى) ولقد لقى من ملكها (الظاهر ابى الفتح غياث الدين غازى بن صلاح الدين يوسف بن ايوب) كل تقدير واكرام ، ونال منه رعاية عظيمة وعناية فائقة ، وقد اعجب بشعره ايما اعجاب ولم يعدل به شاعرا من شعراء عصره على كثرة من كان يحيط به من الشعراء ، وذلك لما كان يتمتع به راجح من الخلق الكريم والفضل العميم ، والادب المطبوع ، والذكاء الفطرى ، والهمة العالية . فاجزل له العطاء مما يليق بمنزلة امثالـه ويسمو سمو اشعاره التى كان يرسلها فى مدحه ومدح ابنائه . فكان الملك الظاهر اذا اعجب بابيات لشاعر ما طلب من راجح ان ينظم على غرارها شعرا لانه لا يريد ان يعجب الا بشعره ، ولا يردد غير شعره .. فقد قرأ احدهم على الملك الظاهر قصيدة مطلعها :

كأنـــى لســـت أعشـــقه   أقطب حـــين أرمقـــه

فأعجب الظاهر بها وطلب الى راجح ان ينظم على وزنها وقافيتها فأجابه راجح الى ذلك فى الحال بقصيدة طويلة منها :

لمن ســـهم تفوقـــه   الى قلبـــى فيرشـــقه
وما حب عـــلى خمـــر   رضـــا بـــى يعتقـــه
ومن هـــذا الـــذى ابـــدى   يذيـــع الســـحر منطقـــه
وماذا طـــارحت عينـــاه   قلبـــاً بـــات يعشـــقه

وحين توفى (ابو الحسن على بن الخليفة الامام الناصر لدين الله احمد) وولى عهده سنة (٦١٢ هـ) اقام الملك الظاهر غازى فى حلب حفلة عزاء كبرى فانشد راجح فيها قصيدة من اروع القصائد منها :

اكذا يهد الدهر اطـواد الهـدى ... ويرد بالنكبـات شاردة الـردى
يا للرجـال لنكـة نبويـة ... طوت العـلا قلبا عليهـا مكمـدا
لو كنت بالشـهباء يوم تواتـرت ... انباؤهـا لرأيت يومـا اسـودا
يوما تزاحمت الملائكـة العـلى ... فيـه فعزت عن (على) (احمدا)

وحين توفى الملك الظاهر غازى سنة (٦١٣ هـ) رثاه راجح بقصيـدة عظيمـة يقول فيها :

سل الخطب ان أصغى الى من يخاطبـه ... بمـن علقت أنيابـه ومخـالبه
فشـلت يمـين الخطب اى مهنـد ... برغـم العـلا سلت وفلت مضاربـه
فانى يلـذ العيش بعـد ابن يوسـف ... اخو امـل اكـدت عليـه مطالبـه
لى اللـه كم ارمى بطـرفى ضلالـة ... الى افق مجـد قد تهاوت كواكبـه
فمالى ارى الشهباء قد حـال صبحهـا ... عليّ دجـى لا تسـتنير غياهبـه
احقا حمى الغـازى الغيـاث بن يوسف ... أبيح وعـادت خائبـات مواكبـه
فمن مخبرى عن ذلك الطود هل وهت ... قواعـده ام لان للخطـب جانبـه

وواضح ما فى هذه الابيات من صدق العاطفة وشدة اللوعة على هـذا الملك العظيم الذى كان يحسن اليه وينعم عليه ويقدمه على غيره . ولكن الشاعر لم ييأس ، فهناك ولدا الفقيد وهما : الملك الصالح والملك العزيز ، وقد ذكرهما فى هذه القصيدة ومدهما :

وحسـب الورى من أحمـد ومحمـد ... مليـكان من عاداهمـا ذلّ جانبـه
همـا احرزا عليـاء غـازى بن يوسـف ... ومـا ضيعـا المجد الـذى هو كاسـبه

وهكذا ارتفع نجم راجح عند هؤلاء الملوك ورجحت كفته ، وظـل متصلا بهـم يمتدحهم فيقربون مجالسه ويعلون منزلته ويكثرون عطاءه ، فاثار ذلك حفيظة الشعراء الذين كانوا يأملون فى ان ينالوا ما ينال ، ولكنهم غلبا ما يردون خاسرين ، وان نالوا شيئا فلا يمكن ان يصلوا ما يصل اليه راجح . فناصبوه العداء ، وهجـاه كثير منهم ، فهذا الشاعر الهجاء المشهور (بدر الدين عبدالرحمن بن ابى القاسم بن غنائم الكنانى العسقلانى) المتوفى سنة (٦٣٥ هـ) يهجوه قائلا :

يقـــولون لى ما بال حظـــــك ناقصـــاً   لدى راجـــح رب الفهاهـــة والجهـــل
فقلت لهـــــم انى ســـمى بن ملجـــم   وذلك اســـم لا يقـــول بـــه حلى [١]

فنرى من هذين البيتين ان العسقلانى حين لم يحصل على ما يطمع به من راجح من صداقة وعنايه واهتمام ، وسئل عن سبب ذلك فقال انه راجع الى اسمه (عبدالرحمن) وهو اسم (ابن ملجم) قاتل الامام على ، والحليون يكرهون هذا المجرم الذى قتـــل امام المسلمين ، ولا يحبون اسمه . هكذا روى بعضهم هذين البيتين ، ولكن هناك من يـرويهما على انهما مديح لراجح ، فابن شاكر الكتبى رواهما على الشكل التالى :

يقولـــون لى ما بـــال حظـــك ناقصاً   لدى راجـــح رب السماحة والفضـــل
فقلت لهـــم انى ســـمى ابن ملجـــم   وذلك اســـم لا يقـــول به حـــلى [٢]

وظاهر هنا انه يمدح راجحا بالسماحة والفضل ، ويتمنى ان يكون حظه من وده موفوراً لا ناقصـاً .

ولم يقتصر الاعجاب براجح وبشعره على الامراء والملوك فحسب بل تعداهـــم الى كثير من العلماء الاعلام والادباء الافاضل فقد كانوا يخطبون وده ويرغبون فى صداقته ويثنون عليه منهم ممن عاصره - كعبدالرحمن العسقلانى - ومنهم من غير رجال عصره من شعراء وكتاب العصور المتأخره .

فهذا الشاعر المصرى جمال الدين محمد بن نباتة المتوفى سنة (٧٦٨ هـ) وقد كان معاصرا لصفى الدين الحلى عبدالعزيز بن سرايا المتوفى سنة (٧٥٠ هـ) وصديقا حميما له ، يمدح الصفى ويقرنه براجح فيقول :

يا ســـائلي عن رتبة الحلى فى   نظم القريض وراضيا بى احكـــم
للشعر حليـــان ذلك راجـــح   ذهب الزمـــان به وهذا قيم [٣]

ولا يخفى ما فى هذين البيتين من تقدير لراجح ، فهو يرى ان ليس للشعر الا حليان هما (راجح) و (صفى الدين) .

(١) اعيان الشيعة للسيد محسن الامين العاملى ج ٣١ ص ٧٦ .
(٢) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٥٧ .
(٣) ديوان ابن نباتة المصر ص ٤٧٨ .

واذا كان المؤرخ الاديب المصرى (صلاح الدين الصفدى) قد عرض براجح حين ترجم لصديقه صفى الدين اذ قال فى كتابه (اعوان العصر واعيان النصر) : « ... واصبح به - يعنى صفى الدين - راجح الحلى ناقصا وكان سابقا فاصبح على عقبه ناكصا ... » فقد اعترف له ايضا بالسبق والفضل ، لانه قال « وكان سابقا » الا ان الصفى بزه وفاقه ، وفضله وسبقه .

وفى مصر كان يلقى كل اعظام واكبار من ملكها (الكامل ناصر الدين محمد بن العادل ابى بكر بن ايوب) فكان يمدحه بشعر كثير مما جعل الملك الكامل يفضله على غيره من الشعراء ويلتجىء اليه وقت الحاجة الى الشعر والشعراء . فحين فشل الفرنج فى فتح دمياط ارسلوا يطلبون الصلح من الملك الكامل محمد فى الثالث من رجب سنة (٦١٨ هـ) ، وكان الملك الكامل قد صمم على النصر ، ولو اقاموا يومين لاخذ برقابهم ، ولكنه اجابهم الى الصلح فتم لهم ما ارادوا ، وارسل لهم ابنه (الملك الصالح نجم الدين ايوب) وابن اخيه (شمس الملوك) وجاء ملوكهم الى الملك الكامل فاحسن لقاءهم وانعم عليهم [١] . فكانوا يثنون عليه كثيرا . ولما تم هذا النصر حضر الملك الكامل محمد ومعه اخواه : (الملك المعظم عيسى) صاحب دمشق ، و (الملك الاشرف موسى) صاحب حلب وماردين [٢] فرحلوا جميعاً الى (المنصورة) وكان معهم ملوك الفرنج [٣] .

فاجتمعوا فى القصر العظيم الذى انشأه الملك الكامل محمد فى المنصورة وعقدوا مجلس الشراب والطرب ، وقد مد لهم سماط عظيم فيه كل مالذ وطاب من طعام وشراب، وجلسوا للمنادمة والاستماع الى موسيقى العازفين وغناء المغنيات ، واحضر الملك الاشرف موسى جارية تغنى على عود ، فحركت اوتار العود وانشدت تقول :

---

(١) النجوم الزاهرة لابى المحاسن جمال الدين بن نغرى بردى ج ٦ ص ٢٤٢ .

(٢) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لمحمد بن احمد بن اياس ج ١ ص ٨٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤٢ .

ولما طغى فرعون (عكا) ببحره   وجاء ليسعى بالفساد الى الارض
أتى نحوه (موسى) وفى يده العصى   فاغرقهم فى اليم بعضاً على بعض(١)

فطرب لذلك الملك الاشرف موسى طربا عظيما ، وشق على اخيه الملك الكامل محمد وتألم كثيرا ، واسرها في نفسه ، ثم طلب من شاعره (راجح الحلى) ان يجيب هذا المعنى فنظم الحلى بيتين ، فأمر الملك الكامل باحضار جارية تضرب بالعود فحضرت في اليوم الثاني وغنت قول راجح :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا   لما قد جرى فى عصرنا وتجددا
الا ان موسى قد اتانا وقومه   وعيسى جميعا ينصرون محمدا

فلما سمع الملك الكامل محمد ذلك طرب طربا شديدا ، وامر لراجح الحلى بجائزة سنية ، ولكل جارية بخمسمائة دينار (٢)

وصاحب (النجوم الزاهرة) يقول ان شاعر الملك الكامل محمد وهو (راجح الحلى) كان حاضراً في المجلس فلما رأى امتعاض الكامل من غناء جارية أخيه موسى قام فأنشد(٣):

هنيئا فان السعد راح مخلدا   وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا آله الخلق فتحا لنا بدا   مبينا وانعاما وعزاً مخلدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه   واصبح وجه الشرك بالظلم اسودا
ولما طغى البحر الخضم باهله الطغاة   واضحى بالمراكب مزبدا
اقام لهذا الدين من سل سيفه   صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم تر الا كل شلو مجدل   ثوى منهم او من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الارض رافعا   عقيرته فى الخافقين ومنشدا :
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه   وموسى جميعا ينصرون محمدا(٤)

ولا ريب ان كلا من الروايتين تدل دلالة واضحة على المكانه العظيمة التى كان يتمتع بها راجح الحلى ، فاذا كانت الرواية الاولى ترينا ان راجحا كان مرجع الملك الكامل فى لحظات الشعر الحرجة اذ ارسل اليه دون غيره يطلب منه شعرا يرد به

---

(١) ويروى هذا البيتان على هذا الشكل :
ولما طغى فرعون (عكا) ببغيه   وجاء الى مصر ليفسد فى الارض
اتى نحوهم (موسى) وفى يده العصا   فاغرقهم فى اليم بعضا على بعض
(٢) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ، ص ٨٠ — ٨١
(٣) النجوم الزاهرة ج٦ص ٢٤٤ .
(٤) يقول صاحب النجوم الزاهرة انها قصيدة طويلة .

على شعر مغنية اخيه ، فان الرواية الثانية تبين لنا ان راجحا كان الى جانب الملك الكامل في تلك اللحظة فهو من أقرب خاصته وأعز ندمائه .

ولابد لنا ان نشير هنا ان بعض الرواة ينسبون هذه الابيات الى القاضي هبة الله بن محاسن قاضي غزة[1] ، غير ان الاكثرية الساحقة ترويها لراجح الحلي .

ولعل هذا الموقف والجائزة التي فاز بها راجح فيه من المواقف التي كثيرا ما أثارت حفيظة الشعراء وشنآنهم فحسدوه وكرهوه وخاصموه وهجوه ... وقد امتد هذا ـ مع الاسف شديد ـ الى الشعراء الحليين ايضا ؛ فهذا الكاتب (نجم الدين ابو الحسن علي بن يحيى بن بطريق الحلي) الذي كتب بالديار المصرية ايام الدولة الكاملية ومات ببغداد سنة (٦٤٢هـ) حين بلغه أن الملك الاشرف موسى انعم على راجح بسيف محلى فتقلد به ، قال يهجو راجحا :

تقلد راجح الحلي سيفاً محلى واقتنى سمر الرماح
فقال الناس فيه ، فقلت : كفوا فليس عليه في ذا من جناح
ايقدر ان يغير على القوافي واموال الملوك بلا سلاح ؟ [2]

وهكذا كان راجح الحلي يتنقل بين دمشق وحلب والقاهرة والمنصورة وغيرها ، فيلقى كل تقدير واعجاب ، ويتقلب بين الملوك الايوبيين فينال منهم اجزل العطاء واعظم الثناء ، ويغدقون عليه الاموال مما يستحق اشعاره ، فينوع انغامه واوتاره ، ويرفل في نعيم قصورهم العظيمة فيصفها بشعر رائع بديع .

وقد ظل يرقى مدارج الرجحان ، في دنيا الادب والفن ، وعالم السياسة والاجتماع ، حتى وافته منيته في دمشق في ليلة السابع والعشرين من شعبان عام سبعة وعشرين وستمائة للهجرة (٦٢٧هـ) اى في عام اربعة وسبعين ومائة والف بعد الميلاد (١١٧٤م) وقد بلغ من العمر سبعة وخمسين عاما (٥٧) وقد اتفق على تاريخ وفاته هذا جميع الكتاب والمؤرخين فلم يشذ منهم احد . الا انهم اختلفوا في مكان دفنه ، فقد قال ابن خلكان انه دفن بظاهر دمشق الى جوار مسجد التاريخ شرقي مصلى العيد . الا ان البدري الدمشقي صاحب كتاب (سحر العيون) يذكر انه دفن بقبة (القلندرية) في مقبرة الباب الصغير[1] . رحم الله راجحا وتغمده برضوانه .

---

(١) ادب الحروب الصليبية للدكتور عبداللطيف حمزة ص ١٦١
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٨٧ .

شـــــعره :

من المؤسف جدا ان يضيع ديوان راجح فلا نجد لـه اثرا • ومن المؤلم حقـا ان نفقد اكثر شعر راجح ولا نعثر عليه ؛ فليس من المعقول ان تكون هذه القصائد القليلـة والمقطوعات الضئيلة كل شعره ، وهو شاعر يعد من اكبر شعراء عصره ، ذلك ما شهد به كثير ممن عاصره ، ومن جاء بعده • ومن العجيب ايضا ان لا نجد عنه شيئا في كتب التاريخ والادب الا النزر اليسير • فقد ترجم له صاحب (شذرات الذهب) بسطر ونصف ، ومثله (مرآة الزمان) واما الكتب الاخرى ، التي جاء ذكره فقد الممت به الماماً سريعا جدا ولم تذكر من اشعاره الا مقطوعة واحدة او اكثر بقليل • وكثير من هذه الكتب ذكره في ترجمة ملك من ملوك الايوبيين او حادثة من الحوادث التي له فيها شعر ذكره فاشار الى قائله اشارة عابرة • ولولا كتب التراجم لما استطعنا ان نجمع هذا النزر اليسير من اشعاره ، ولبقي راجح مجهولا ، وهو الذي يقول فيه (ابن نباته) انه احد فرسي رهان من شعراء الحلة اذ يقول :

للشـــعر حليـــان ذلـك راجـــح ذهب الزمـــان بـه وهـــذا قيم

ولا تحسـبن راجحاً شـاعراً صغيراً صغير الشأن ضعيف الشعر ، ولهذا ضـاع اكثره ، كلا ، فما هكذا كان ، اذ كان شاعر الايوبيين الاول الذي يقدمونه على كـل شاعر ، ويفضلون شعره على كل شعر • فابن خلكان حين يتحدث عمن رثى (الملك الظاهر ابى الفتح غياث الدين غازى بن صلاح الدين يوسف)صاحب حلب يقول: "ورثاه شاعره الترف راجح بن اسماعيل •• » وقال ايضا : « وهو من مشاهير شعراء عصره » وقد كان راجح مختصا بالملك الظاهر ، وكانت اكثر مدائحه فيه • وفي مصر كـان يتصل بالملك (الكامل ناصرالدين محمد بن العادل ابى بكر) بل كان يقضي كثيرا مـن اوقاته معه وينادمه في مجالس شربه • وقد رأينا كيف ان الملك كامل التجأ اليه في الرد على غناء جارية اخيه موسى حين غنت تمدحه في قصره بالمنصورة سنة (٦١٨هـ) فمدحه راجح بقوله :

أعبـاد عيســى أن عيسـى وحزبه وموســى جميعـاً ينصـرون محمدا

اجل لقد كان راجح شاعرا كبيرا ، ضاق به افق الحلة الضيق فطوف في البلاد ، وجال في الاقطار ، وأرتحل شرقا وغربا • ولاشك ان هذا اوسع افقه ، وفتق شاعريته ، ولكنه قد يكون من الاسباب التي عملت على فقدان شعره او عدم جمع ديوانه ، فلم نجد له ذكرا في اى كتاب •

وقد ساعده على نمو شاعريته ايضا ، بالاضافة الى مامر ، والى الموهبة الفطرية والقريحة السمحة التي انعم الله بها عليه ، نشأته في بيئة ادبية ، فمما لاشك فيه ان تلك الروح التي بثها المزيديون بين أهل الحلة ، من حب للعلم والأدب ، ورعاية للعلماء والادباء ، لابد تثمر وتؤتي اكلها في هذا الدور • فنشأ جيل فيه ادباء وعلماء ومفكرون ، وفيه كثيرون يترسمون خطى الامراء في رعاية رجال الفكر • واذا كان الكثير منهم قد هاجر فهناك غيرهم لم يهاجر ، حتى ان اصول كثير من الاسر العلمية في الحلة المشهورة بدأت في هذا العهد ، ومنهم : آل طاوس ، وآل المطهر ، وآل نما ، وآل سعيد وغيرهم •

لقد كان شعر راجح سهلا محببا الى القلوب مؤثرا في النفوس ، جزلا رصينا محكم السبك ، قوى العبارة متين التركيب ، بالرغم من الفساد الذي دب في شعر معاصريه والخور الذي هد نفوسهم واخمد انفاسهم ، وغلبة البديع والتصنع على شعرهم تقليدا للقاضي الفاضل والاصفهاني ، ولا عجب فراجح شاعر سما على كثير من الشعراء بقوة شعره الذي خلصه من هذه العيوب ، لانه ترسم خطى من سبقه من الشعراء القدامى ، فكان يمثل شعر العراق يومذاك « وهو شعر يبدو انه امتن نسجا واسمح طبعا من الشعرين المصرى والشامى ، وهما اللذان غلب عليهما اذذاك البديع وسارا بتأثير العماد الاصفهاني والقاضي اشواطا بعيدة في هذه السبيل[١] »

وكان راجح يعلو بخياله الى اسمى الآفاق ، ويغوص الى اقتناص المعاني الجيدة الى الاعماق ، معبرا عن معانيه الرائعة باسلوب سهل جميل شرق الديباجة ، يمتاز بالرقة والليونة ، ويتسم بالقوة والجزالة ، ويخلو من التعقيد والعسر ، ويبرأ من التصنع والغلو في التجميل ويصبه في قوالب متناسقة من الالفاظ الجميلة البديعة ، بعبارات موسيقية يتأنق في اختيارها ، ويطيل التأمل في تقدرقتها وجرسها وبريقها •

---

(١) اعيان الشيعة ج ٣١ ص ٧٥ •

استمع اليه يقول فى وصف الربيع

نبــه بحى هـــلا عــلى الصهبـــاء — من كــان قد اغــفى من الندمـــاء
فالفجر قــد قبض الدجنــة باسـطا — للشمــس طـرة رايــة حمــراء
والغـرب منـه طعينـة احشـــاؤه — بأسـنة مـن انجـم الجـوزاء
رقصت قـدود الروض نصب عيونهـــا — وبـكت جفـون الديمــة الوطفـــاء
والورد يقطـر مـاؤه مـن حـوله — والجـو لابـس حلـة دكنـــاء
وغصونهـــا نشـوى رضـاع غمـامة — وسـماع شـدو حمامـة ورقـاء
واسـتعجل السـاقى الاغر يديرهـا — فى مســتنير الروضــة الغنـــاء

وبالرغم من خلو اكثر شعر راجح من التصنع الا ان هنــاك بعض الابيــات طرزها ببعض انواع البديع جاءت طبيعية جميلة لا تكلف فيها :

مـاء الجفـون بوجهـة قد أشـرقا — كـم ناظـر بدموعـه قـد أشرقا
رشــأ يفـوق من قسى حــواجب — نبــلا بغير تعاتــلى لا يتقــى
كالبـدر يسـرى فى نجـوم قلائد — متبلج من فــوق غصـن فى نقـا
قمـر سـقيم الطـرف عقرب صدغه — يثنى عزائمنـــا ويهـــزأ بالرقـــى

وغير خاف ما فى هذه الابيات من محسنات وبديع .

ولقد طرق راجح اكثر اغراض الشعر ، فقال فى المديح والرثاء والغزل ووصف الطبيعة ووصف الخمرة ، وغير ذلك . ومن يدرى لو كان ديوانه بين ايدينا لاطلعنا على اشياء اخرى هذا الرجل الموهوب المظلوم ، ووضع بين ايدينا شعرا فى اغراض اخرى ، فانه لمن المدهش الا نجد له شعرا فى الحماسة ووصف الحروب ، والمعارك الطاحنة التي كانت تدور رحاها بين جيوش العرب والمسلمين بقيادة الملوك الايوبيين وبين الجيوش الفرنجية ولابد لراجح ان يعبر عما يحس به فى هذه الحروب بشعر قليل أو كثير .

اما مديحه فقد أتبع فيه ما اتبعه شعراء العرب منذ القديم فى هذا الفن . وقد قال المديح اول ما قاله فى امراء بغداد ، ثم جاء الشام فقال الشعر فى مدح آل ايوب وبخاصـــة

---

(١) ادب الحروب الصليبية للدكتور عبداللطيف حمزة ص ١٢١ ـ ١٢٢

(الملك الظاهر غازی) صاحب حلب • وهو يبدأ مديحه بالغزل ثم ينتقل الى المديح مبدعا فی حسن الانتقال • فحين مدح (الملك الاشرف موسى) بدأ مدحه بالغزل ثم انتقل الى المديح بقوله :

واجعـل غنـاءك لى لتحمـى مهجتـى ... بمديـح (موسـى) ذى اليـد البيضـاء

ويمدحه فی قصيدة اخرى يبدأها بالغزل ايضا :

من اطلـع البدر فی ديجور طرتـه ... واودع السـحر فی تكسـير مقلتـه

ثم ينتقل الى المديح بعد ان يقول :

ما حـرم العذل الا فی الغـرام بـه ... ولا التهتـك الا عنـد جفوتـه
ولا أرانـا يـدا بيضـاء من كـرم ... ترجى وتخشى سوى (موسى) وآيتـه

وهكذا ينتقل من الغزل الى مدح الامير عمادالدين داود :

فيا زمـان الصبا هـل انت مرتجـع ... حتى اقـول لايام الحمـى عـودى
غاداك دانی المدى يروى الصدى كندى ... يـد الامير عمـاد الـدين داود
اغرينجاب جلباب الـكلام بـه ... مـورث المجـد عن آبائـه الصيد
تنفى اليـه ركـاب المجـد ظاميـة ... ترتاد دين هدىً فـى منبـع الجـود

ونرى من هذا انه ينعت ممدوحه بالجود والكرم ، فهو يبل الصدى وينقع الغلة • كما انه يمدح الملوك الايوبيين بانهم يهدمون الشرك ويحمون خمی الاسلام كما فی قوله :

تهـلل وجـه الدهـر بعـد قطوبـه ... وأصبح وجـه الشـرك بالظلم أسودا
ولمـا طغـى البحـر الخضـم بأهلـه ... الطغـاة وأضحى بالمراكب مزبـدا
أقـام لهذا الدين من سـل سـيفه ... صقيـلاً كما سـل الحسام مجـردا

ومما يؤسف له انه لم يقع بين ايدينا من مراثی راجح الحلی سوى مرثيتين : اولاهما القصيدة التی قالها فی رثاء (ابی الحسن علی بن احمد الناصر لدين الله) ولی عهد الخلافة العباسية الذی توفی فی ذی العقدة من عام (٦١٢ هـ) وقد القاها راجح فی الحفل الذی اقامه (الملك الظاهر غازی) فی حلب • ومطلعها :

اكذا يهد الدهر اطواد الهدى ويرد بالنكبات شاردة الردى

وهي قصيدة قوية جزلة يصور فيها شدة وقع الخطب على المسلمين وعظم المصيبة خاصة في حلب الشهباء :

يا للرجال لنكبة نبوية طوت العلا قلبا عليها مكمدا
لو كنت بالشهباء يوم تواترت انباؤها لرأيت يوما اسودا
يوما تزاحمت الملائكة العلى فيه فعزت عن (على) احمدا
ما للخلافة اصبحت مفجوعة باعزها حسبا وازكى محتدا

والقصيدة الثانية هي التي رثى بها (الملك الظاهر غياث الدين غازى بن صلاح الدين) واولها :

سل الخطب ان اصغى الى من يخاطبه بمن علقت انيابه ومخالبه

وهي قصيدة طويلة تقع في حوالى (٤٠) بيتا . ويبدو راجح في هذه القصيدة حزينا كئيباً متألماً ، فرثاؤه صادق العاطفة ، لانه يرثي رجلا تربطة به اوثق العلاقات ؛ فهو ملك كريم احسن اليه واكرمه ، وقربه منه ، لهذا نراه يحس بالم ممض من هذا الخطب :

فشلت يمين الخطب اى مهند برغم العلا سلت وفلت مضاربه
فانى يلذ العيش بعد (ابن يوسف) اخو امل اكدت عليه مطالبه
مضى من اقام الناس فى ظل عدله وآمن من خطب تدب عقاربه
ارى اليوم دست الملك اصبح خاليا اما فيكم من مخبر اين صاحبه ؟

فها هو يرى ان عيشه لن يكون سعيدا بعد ان فقد من كان يسعده ويجعل حياته هانئة لذيذة .

ويمدح الفقيد بالصفات المحببة من شجاعة وكرم وغير ذلك :

فكم من حمى صعب اباحت سيوفه ومن مستباح قد حمته كتائبه
ارى الشمس اخفت يوم فقدك نورها فلا كان يوما كاسف الوجه شاحبه
فكيف نبا سيف اعتزامك اوكبا جواد من الحزم الذى انت راكبه

فمـــن لليتــامى يا غيــاث يغيثهـــم ... اذا الغيث لم ينقع مدى العــام ســاكبه

ومن للمــلوك كنت ظــلا عليهـــم ... ظليلا اذا ما الدهـــر نابت نوائبــــه

ثم يدعو له فيقول :

سقت قبـــرك الغر الفـــوادي وجـــاده ... مـــن الغيث ساريـــه لملت وساربــــه

ولم ينس راجح مع كل هذا الحزن والالم ان يمدح ولدى الفقيد وهما : الملك الصالح احمد والملك العزيز محمد ، ويرى ان وجودهما يخفف المصاب ويهون النازلة ويدعو الى التصبر :

فان يك نور مـــن شـــهابك قـــد خبا ... فيا طالما جلى دجـــى الليـــل ثاقبــــه

فقـــد لاح بالملك العـــزيز محمـــــد ... صباح هــــدى كنا زمـــانا نراقبــــه

وحسب الــورى من (احمد) و (محمد) ... مليكـــان مـــن عاداهمـــا ذل جانبــه

همـــا أحـــرزا عليـــاء غازى بن يوسف ... وما ضيعـــا المجـــد الذى هو كاســبه

فيا قمـــرى ســـعد اطلا عـــلى الدجى ... فولى وما اقـــوى على الأرض هاربـــه

ثم يسألهما في آخر القصيدة عما يفعل ايغادر حلب الشهباء اذ توفى مليكه الذى طالما وقف لمديحه وتهنئته ام يبقى لانهما يمكن ان يعاملاه معاملة ابيـه ثم يدعو لهمـــا بالبقـــــاء :

أيمكث فى الشهبـــاء عبـــد أبيكمـــا ... ومادحـــه أم تســـتقل نجائبــــــه ؟

فان شـــئتما بعـــد الغيـــــاث اغثتما ... مصـــاب ســـهام فوقتهـــا مصائبــــه

كأن لـــم اقف اجلـــو التهانى امامـــه ... وتضحك فى وجـــه الامـــانى مواهبـه

فهنئتمـــــا مانلتـــما وبقتمـــــا ... لا بقـــاء ملـــك ســـاميات مراتبــــه

وغزل راجح كثير نسبيا ؟ فهناك مقطوعات غزل صغيرة ، وهناك الغزل الذى يبدأ به قصائد المديح ، وهو غزل رقيق ، استمع اليه :

يا ســـعد تلك رســـوم ســـعدى ... فاحبس فمـــا المعيـــس مغـــــدى

قف لي ارجـــــع أنـــةً ... بعراصهـــــا وأبث وجـــــدا

دمـــن بهـــا مـــاء الجفـــون يزيـــد ... نـــار القلـــب وجـــــدا

سقيا لهـا حيث الظبـا ء يصدن باللحظات اسدا
وبكـاء عـين سحا بهـا يستضحك الزهر اندى
ايـام اجنـى لهـوهـا غضا فاقنـى العيش عبدا

وهو يكثر من وصف محاسن المحبوب ، ولا يتخلى عن وصف وجهه بالبدر وقامته بالغصن :

كالبدر يسرى فى نجوم قلائد متبلج من فوق غصن فى نقا
وبدت لنا آيات حسن لم يقم برهانها الا وكنت مصدقا
فبلحظه وبوجنتيه وثغره راح سكرت بنشرها مستنشقا
يا مثنيا من حسنه عطفا على قلب يبيت من التصبر مملقا

ويقول ايضا :

واغن يمزج عجبه ودلاله بالوصل حدا
كالحقف ردفا والقضيب تأوداً والورد خدا
سامى اللواحظ كم رنا متعطفا لو كان اجدى

ومحبوبه ناعس رقيق لكنه قاسٍ فى معاملته :

من لى بأغيد ساجى الطرف اجيده لا يرضيه شىء سوى ذلى لعزته
يحنو النسيم عليه من لطافته والدهر ألين منه عند قسوته
لم أنسه والدجى مرخى الأزار وقد زار اختلاساً فأحياني بزورته
ثنت شمائله كأس الشمول فما قابلت منتبهـا الا بمقلته

وقد ابدع راجح فى الوصف ، وكيف لا وقد عاش فى بيئة جميلة ذات مناظر فتانة توحى بالشعر منذ كان فى الحلة الى ان تنقل بين دمشق وحلب والقاهرة والمنصورة وغيرها من المدن ذات الطبيعة الخلابة ، استمع اليه يصف الفجر :

فالفجر قد قبض الدجنة باسطا للشمس طرة راية حمراء
والغرب منه طعينة احشاؤه باسنة من انجم الجوزاء

والصورة التى يرسمها راجح مجسمة وتسرى فيها الحياة ،

والارض ذات خمائل تمشى الصبا فيها فتثنيها من الخيلاء

رقصت قدود الروض نصب عيونها ... وبكت جفون الديمة الوطفاء
فاعتل خفاق النسيم وقد جرى ... متعثرا بمساقط الانواء
والورد يقطر ماؤه من حوله ... والجو لابس حله دكناء
وغصونها نشوى رضاع غمامة ... وسماع شدو حمامة ورقاء

وقد يصل راجح فى تصويره الى ادق المعانى ويدخل فى كثير من التعليل الغريب استمع اليه فى وصف عريشة كرم :

ايا لله يوم صح فيه ... سروري وهو معتل النسيم
وصبح الشمس يطلع شمس راح ... تنير على ندامى كالنجوم
نقبلها ويسترنا ابوها ... فكم للكرم من فعل كريم

ولوصف الخمرة قدر لابأس به من الاهتمام عند راجح ، ولا غرو فهو نديم ملوك يجلس معهم ويطارحهم الشعر فلابد ان يبدع فى ذلك ، ولهذا وجدنا عنده الكثير من الصور الجميلة التى تنم عن تجربة صادقة فى وصف الخمرة ومجالسها وكؤوسها وحببها واثرها فى انفوس

وازل خساسات النفوس فانها ... صدأت وما غير الكؤوس جلاء
فينا من الماء القراح وشربه ... ري ونحن الى المدام ظماء
فاكس الكؤوس بها وحي لعل ان ... تحي المدامة ما امات الماء
وادر من الراح الشمول حشاشة ... تسري بها فى روحي السراء
عذراء كللها الحباب بتاجه ... فاتتك توهم انها شمطاء

وهو يعرف ان لشرب الخمرة شروطا فيقول :

فعلام نومك والمدام شروطها ... ساق اغن وروضة غناء

وهو يشرب هذه الخمرة فى كل مناسبة لانه ينتهز الفرص ليشبه بها فى الرياض وفى ايام الربيع : ...

واغنم على وجه الربيع وحسنه ... فى صدر يومك بهجة الصهباء

هذه هى خاتمة القول فى راجح الحلي وشعره وعسى ان لا يكون هذا آخر ما يكتب عنه ، بل يكون فاتحة لدراسة هذا الشاعر المجهول .

جواد احمد علوش

الحالة الثقافية فى الحجاز قبيل الاسلام

بقلم : عبدالله الفياض
المدرس فى قسم التاريخ

قد يكون من الضرورى ان نشير هنا الى ان المصادر المتوفرة لدينا عن العهد الجاهلى قليلة جدا ، ولهذا لا يستطيع الباحث ان يطمأن الى كل ما يتوصل اليه من نتائج فى هذا الموضوع . وقد جابه هذه المشكلة كثير ممن بحثوا فى حياة عرب الجاهلية [١] . ونعتقد ان ندرة مصادر العهد الجاهلى ناتجة عن الاسباب التالية :ـ اولا ـ ان الكتابة فى ذلك العهد كانت قليلة الانتشار ، وكان من نتيجة ذلك ان انعدمت المدونات التى تعود لهذا العصر ما عدا مجموعة من النقوش المبعثرة عثر عليها فى بعض نواحى الجزيرة كاليمن وبلاد الانباط وتدمر وغيرها . ويظهر انه لم تجر تنقيبات حديثة فى الحجاز ، وبالتالى لم يسعفنا هذا المصدر بشيء ذى اهمية عن الحياة الثقافية فى هذه البلاد . ثانيا ـ ان كثيراً مما سجل عن التراث الثقافى لعرب الجاهلية ، رغم تأخره فى الزمن حيث انه يعود للقرنين الثانى والثالث للهجرة ، قد تعرض ، كما تعرض التراث الثقافى الاسلامى عامة ، للتلف والضياع على ايد التتر فى الشرق والاسبان والنورما نديين فى الغرب . وقد يقدر القارىء مبلغ الضرر الذى اصاب التراث الثقافى من جراء ضياع المخطوطات اذا علم ان ذلك حصل فى عهد لم تكن فيه الطباعة معروفة ، ومن ثم فأن ما تلف من مخطوطات نادرة لا يمكن تعويضه باية وسيلة كانت . ثالثا ـ ان معظم الكتاب المسلمين وجهوا جل اهتمامهم لتدوين الحضارة الاسلامية ، ولم يولوا ثراث العرب الثقافى فى الجاهلية ما يستحق من الاهتمام ، يضاف الى ذلك ان هؤلاء المتعصبين على الجاهلية تنكروا لـ « ديانات الجاهلية ، وعملوا على محو آثارها وتعاليمها ... والاشعار التى قيلت فيها ، وكل شيء يمت اليها بسبب ، فاذا اردنا ان نعرف شيئا من ذلك عز علينا ، ولم نظفر منه بطائل » [٢] . والواقع ان معظم

---

(١) انظر فى هذا الصدد :

Lewis, B., The Arabs in History, New York, 1950;

العلى ، صالح احمد ، محاضرات فى تاريخ العرب ، بغداد ، ١٩٥ ؛ الهاشمى ، على ، المرأة فى الشعر الجاهلى ، بغداد ، ١٩٦٠ .

(٢) الهاشمى ، على ، المرأة فى الشعر الجاهلى ، بغداد ، ١٩٦٠ ، ص ٦ .

ما سجله لنا المؤرخون المسلمون عن الجاهلية ماهو الا اشارات مقتضبة لا تمكن الباحث الحديث من رسم صورة واضحة لما بلغه المجتمع العربى ، وخاصة فى الحجاز ، من تقدم فى مضمار الثقافة .

وبالرغم مما سبق نرجو ان يكون فيما نورده هنا من آراء ، وما نسجله من معلومات ، ما يساعد على ازالة بعض ما يكتنف هذه المشكلة من غموض وما يحيط بها من ملابسات .

كانت الحجاز فى العهد الجاهلى متصلة بمراكز الحضارة العالمية ، كالشام واليمن والحيرة ، وعن طريق الحيرة خاصة انتقلت الثقافة المسيحية الى قريش سكان مكة (١) . ويظهر ان الحيرة كانت من المراكز الحضارية الهامة فى هذه الفترة وان اهلها بلغوا درجة كبيرة من الرقى والرفاه ، يدل على ذلك ما ورد على لسان حنين بن بلوع الحيرى الذى كان من سكان الحيرة :

انا حنين ومنزلى النجف ... وما نديمى الا الفتى القصف
اقرع بالكأس ثغر باطية ... مترعة تارة وأغترف
من قهوة باكر التجار ... بيت يهود قرارها الخزف
والعيش غض ومنزلى خصب ... لم تغذنى شقوة ولا عنف (٢)

اما من الناحية الثقافية فقد قطعت الحيرة شاؤا بعيدا فى هذا المضمار ، اذ كان اهلها يدونون اخبار ملوكهم « فى كنائسهم واسفارهم . » (٣) ويظهر ان الثقافة غير منحصرة فى رجال الدين حيث كان اهل الحيرة يرسلون ابناءهم الى الكتاب يعلمونهم القراءة والكتابة العربية ، كما كان بعضهم يختلفون الى الكتاتيب الفارسية (٤) . وعندما شعر المنذر برغبة ولى العهد بهرام فى اكتساب العلم ارسل « من اتاه برهط من فقهاء الفرس ومعلمى الرمى والفروسية ومعلمى الكتابة ... وجمع له حكماء من حكماء فارس ومحدثين من العرب ... (٥) »ومن هذا يظهر ان الحيرة كانت على درجة لا يستهان بها

---

(١) انظر :

Obermann J., The Arab Heritage, ed. by Nabih Faris, P. 60.

(٢) الاصفهانى ، الاغانى ، ج ١ ، ٠ بيروت ، ١٩٥٤ ص ٢٣٥ .

(٣) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٩ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١

(٤) الاصفهانى ، الاغانى ح ٢ ، القاهرة ، ١٣٢٣ ، ص ١٩ .

(٥) الطبرى ، ١ : ٥٠٢ .

من الرقى المادى والفكرى . وبعد هذا نقول ماذا نقل اهل الحجاز من الحيرة ؟ يظهر ان الخط العربى ، كما تشير المصادر العربية المتوفرة لدينا ، من اهم ما نقل من الانبار والحيرة الى مكة . فذكر ابن النديم ان نفرا من اهل الانبار من اياد القديمة وضعوا حروف الالفباء العربى ، وان هذه الكتابة انتقلت من الانبار الى الحيرة . وقد ورد ذكر اياد هؤلاء بأبيات من الشعر يستدل منها على اهتمامهم فى الكتابة :

قومى اياد لو انهم امم — او لو اقاموا فتهزل النعم
قوم لهم ساحة العراق — اذا ساروا جميعا والقط والقلم [١]

ويوضح البلاذرى كيفية نشوء الهجاء العربى فى الحيرة بقوله : اجتمع نفر من طي فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه قوم من الانبار ثم نقل الى الحيرة ومنها نقله بشر بن عبدالملك النصرانى وعلمه لاهل مكة [٢] . ويؤيد ابن النديم انتقال الكتابة من الحيرة الى قريش [٣] .

ورغم تأكيد المصادر العربية على نشوء الخط العربى فى الانبار ثم الحيرة فان الكشوف الحديثة تشير الى ان الخط العربى مشتق من الخط النبطى ، وان النقوش التى عثر عليها فى منطقة النمارة بشرق الاردن تؤيد ذلك . ولا يهمنا هنا المصدر الذى تعلم عنه اهل الحجاز الخط العربى ، بل الذى يهمنا بالدرجة الاولى وجود الخط وانتشاره فى الحجاز وخاصة فى حواضره المهمة مثل مكة والمدينة ووادى القرى .

ويبدو ان انتشار الكتابة فى مكة قبيل ظهور الاسلام كان اوسع بكثير مما تصوره لنا المصادر العربية ، فالبلاذرى يقول ان الاسلام دخل « وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتبون ... » [٤] ويجعل القلقشندى عدد الذين يكتبون « بضعة عشر » [٥] . ويظهر ان هذه الروايات غير دقيقة للاسباب الآتية : اولا — ان مكة مدينة تجارية ووجود

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ٤٨ .
(٢) فتوح البلدان ، الطبعة الاوربية ، ص ٤٧٦ — ٧ .
(٣) الفهرست ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ص ٧ .
(٤) البلاذرى ، المصدر السابق ، ص ٤٧٦ — ٧ .
(٥) صبح الاعشى ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩١٧ ، ص ١٥ .

عدد كبير ممن يستطيعون القراءة والكتابة امر ضروري لكل مجتمع تجاري • ولا نرى ضرورة للتدليل على اهتمام اهل مكة بالتجارة لان المكيين احتفظوا بتقاليدهم التجـــارية حتى بعد نزوحهم الى المدينة عندما هاجروا اليها بعد ظهور الاسلام ، حيث « كان يشغلهم الصفق بالاسواق عن سماع الحديث » (١) • ثانيا ــ ان وجود اشارات فى القرآن الكريم لمواد الكتابة كالقلم والقط وكاتب ، وضرورة كتابة عقد الدين ٢ يدل على ان المجتمع المكى كان يعرف هذه المصطلحات ويألفها •

ثالثا ــ كانت قريش تعتبر من يعرف الكتابة والقراءة من الكملة (٢) فليس من المحتمل ان يكون الكملة فى المجتمع القرشى سبعة عشر نفرا فقط عند ظهور الاسلام •

رابعا ــ لقد وجد بين قريش من يعرف غير الخط العربى حيث كان ورقة بن نوفل، وكان ذا علم من اهل النصرانية (٣) « يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب بالعبرانية من الانجيل ما شــاء ان يكتب ••• » (٤) •

ويظهر ان الانشاء العربى ومفردات اللغة قد بلغت درجة كبيرة من الرقى فى هذا الدور اذ ان ورقة بن نوفل نفسه قد استطاع ان يترجم التوراة الى العربية فى العهـد الجاهـلى (٥) •

خامسا ــ ان وجود عدد من المتعلمات بين المكيين يدل على ان معرفة الكتابة لم تقتصر على بعض رجال قريش بل كان بين النساء من يتقنها •

ويبدو ان بعض النساء كن يقرأن بالسور ، ولم يرغب عبيــد بن حصين ان يرى المرأة التى يعرفها من اللواتى يقرأن بالسور فقال :

---

(١) العسقلانى ، ابن حجر ، شرح البخارى ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٢٥ ص ١٥٣ •

(٢) البلاذرى ، نفس المصدر ، ص ٤٧٤ •

(٣) الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣ •

(٤) الاصفهانى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٤ •

(٥) انظر :

Hamidullah, M., "The Educational System in the time of the Prophet," Islamic Culture, Vol. 13, No. 1 January, 1939, P. 50.

هن الحـــرائر لاربات اخمـــرة

سود المحاجر لايقرأن بالسور[١]

ووجد من بين النساء من يقرأن الكتب مثل فاطمة بنت مر التي كانت « امـــرأة متهودة قد قرأت الكتب » [٢] . وكانت الشفاء كاتبة في الجاهلية وكذلك كانت حفصة بنت عمر ، وان ام كلثوم بنت عقبة كانت تكتب . أما عائشة وام سلمه فكانتا تقرآن ولا تكتبان [٣] . ولما دخل عمر بن الخطاب على بيت اخته وجدها وزوجهـا يقرأن سـورة طه . وكان عمر يقرأ الكتب فقال اعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فاقرأه [٤] .

سادسا ـ لقد ورد ت اشارة في البلاذري يستدل منها على وجود مؤسسات للتعليم الاولى في مكة وجوارها . فيروى ان رجلا اتى وادي القرى « فاقام بها وعلم الخط قوما من اهلها » [٥] . ويعتقد الاستاذ حميد الله ان نوعا من الكتاتيب للتعليم المختلـط كانت موجودة في جوار مكة . وان امرأة من قبيلة هذيل كانت تفتخر بأنها كانت شغوفةبغمس الاقلام في المحابر واخراجها منها عندما كانت تحضر امثال هذه الكتاتيب [٦] . ومن هذا يظهر ان مؤسسات للتعليم ، على قلتها وبساطتها ، كانت موجودة في الحجاز حول مكة . اما وجودها في المدينـة فهو امـر اكيـد لوجـود اليهـود في يثرب وهـم ذوو تقاليـد ثقافية لانهم كموحدين لابد ان يوجد بينهم من يعلم الكتاب المقدس وشروحه ، يضاف الى ذلك أن اشارات قد وردت عن وجود بيت المدراس وهو المحل الذي يعلم فيه الـكتاب المقدس وشروحه [٧] . ونعتقد ان الكتابة كانت منتشرة في الحجاز بين عدد كبير من السكان ، وكان اهل مكة « يؤرخون في كتبهم وديونهم من سنة الفيل ... » [٨] ، وان الشخص الذي اشار اليه البلاذري في النص السابق واعتبره اول من اتخذ تعليم الخـط

(١) نعمة الله ، الانوار النعمانية ، طبع حجر ، ايران ، ص ١٩٦ .
(٢) الطبري ، ج ٢ ، ص ٦ .
(٣) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ٤٧٧ .
(٤) ابن سعد ، الطبقات ، ج٣ ، الطبعة الاوربية ، ١٣٢٢ ، ص ١٩٢ .
(٥) فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٠١ ، ص ٤٧٧ .
(٦) انظر : Hamidulla, M., Op, cit, XIII, P. 50.
(٧) انظر : Hamidulla, M., Op. cit, P. 50.
(٨) الازرقي ، تاريخ مكة ، القاهرة ، ١٣٥٢ ، ص ٩٦ .

مهنة له في جزيرة العرب لايمكن ان يكون الاول ولا الوحيد لان الخط صناعة حضرية كما يقول ابن خلدون فلا بد من وجوده وتعدد امكنة تعليمه بين اهل الحجاز لان معظم سكانه ، وخاصة اهل مكة ويثرب ، من الحضر [١] .

ويبدوا انه رغم وجود اليهود في يثرب ، فأن الكتابة فى مكة كانت اكثر انتشارا لان اهل مكة ، كما يقول ابن سعد ، يكتبون واهل المدينة لا يكتبون [٢] . ونعتقد ان سبب ذلك يعود بالدرجة الاولى الى ان مكة كانت بواد غير ذى زرع وان امتهان اهلها التجارة جعلهم يهتمون بتعليم الخط لانه من مستلزمات مهنتهم .

واما اهل يثرب فكانوا يمتهنون الزراعة فى الغالب لخصوبة ارضهم ووفرة المياه اللازمة لاروائها لذا كان اهتمامهم فى تعلم الخط اقل من اهتمام اهل مكة رغم وجود اليهود بينهم . ويظهر أن تأثير اليهود الثقافى كان محدودا ومنحصرا فى الدوائر اليهودية ولم يعم جميع سكان يثرب والمناطق المجاورة لها .

ولم تقتصر ثقافة اهل الحجاز قبيل الاسلام على تعلم الخط بل وجد بينهم من عرف بـ « الحكم والعلم » كهرم بن قطبة ، وحمزة بن ضمرة الذى كان خطيبا وشاعرا ، وسلمه بن الخرشب ، الذى قال سهل بن هروان عندما سمع كلامه من الجاحظ : « والله لكأنه قد سمع رسالة عمر بن الخطاب الى ابى موسى الاشعرى فى سياسة القضاء وتدبير الحكم ... » [٣] . واعتقد ان التدقيق يقتضى بأن نقول ان عمر بن الخطاب ربما تأثر فى آراء سلمة بن الخرشب لان عصره سابق لعصر عمر .

والى ما سبق ذكره فقد ظهر فى قريش جماعة « كانوا رواة الناس للاشعار وعلماءهم بالانساب والاخبار . » ومن هؤلاء مخرمة بن نوفل ، وابو الجهم بن حذيفة ، وحويطب بن عبدالعزى ، وعقيل بن ابى طالب [٤] .

ويظهر ان جماعة ممن عرفوا بالعلم والثقافة كانت موجودة بمكة قبيل ظهور الاسلام

---

(١) المقدمة ، القاهرة ، ١٩٣٠ ، ص ٣٩٤ .

(٢) الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٢٣٧ - ٣٨ .

(٤) الجاحظ ، المصدر السابق ، ٢ : ٣٢٣ - ٢٤ .

فيروى اليعقوبى ان ابا طالب عندما اخبره اصحاب الكتب بدنو بنوة محمد (ص) شاور « من كان بمكة من اهل العلم » (١) حول هذا الموضوع .

وكان للعرب فى الجاهلية مواضع يجتمعون بها تسمى الاسواق ، وكانت اسواق العرب عشرة اسواق «يجتمعون بها فى تجاراتهم ويأمنون فيها على دمائهم واموالهم .» (٢) ولعل اهم هذه الاسواق هو سوق عكاظ الواقعة بأعلى نجد وتحضرها قريش وسائر العرب « وبها كانت مفاخرة العرب وحمالاتهم ومهادناتهم . » (٣)

ومن هذا يظهر ان سوق عكاظ كان بمثابة مؤتمر ادبى للعرب ينشدون فيه اشعارهم ويتبارى فيه خطباؤهم ويعالجون المواضيع التى تتناول مشكلات عصرهم . ويعتقد الاستاذ حميد الله ان سوق عكاظ كان ذا اهمية كبيرة فى تنظيم لغة العرب وتوحيدها . (٤) وقد يكون لهذه المؤتمرات الادبية اثرها فى توحيد اللهجات العربية وايجاد لغة ادبية تستعملها اكثرية العرب ، وربما كانت هذه اللهجة هى لهجة قريش التى كتب لها أن تنتصر وتعم بعد ان نزل فيها القرآن الكريم .

ولم تكن هذه الاسواق هى الوحيدة التى تقوم مقام المؤتمرات الادبية بل ان بعض الاشخاص كانوا يعقدون امثال هذه المؤتمرات والاجتماعات فى مدنهم او بيوتهم الخاصة . ويروى ان غيلان بن سلمه الثقفى كان يعقد اجتماعا اسبوعيا تلقى فيه القصائد وتجرى فيه المناقشـات الادبيه (٥) .

اما الشعر العربى فى هذه الفترة التى هى مدار بحثنا ، فقد بلغ درجة كبيرة من النضج ، ويمكن ان يتخذ دليلا واضحا على رقى ثقافة المجتمع الذى انتجه . وفن الشعر ، كما يقول ابن خلدون « من بين الكلام كان شريفا عند العرب ولذلك جعلـوه ديوان علومهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطائهم واصلا يرجعون اليه فى الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم ...» (٦) .

---

(١) اليعقوبى ، التاريخ ، ج ٢ ، النجف ، ١٣٥٨ ، ص ١١ .
(٢) اليعقوبى ، التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .
(٣) اليعقوبى ، المصدر السابق ، ١ : ٢٢٧ .
(٤) انظر : Islamic Culture, 1939, XIII, P. 50.
(٥) انظر : Islamic Culture, Jan., 1939 XIII, P. 30.
(٦) المقدمة ، القاهرة ، ص ٥٧٠

ولا نرى ضرورة للتفصيل فى مقام الشعر كأثر ثقافى من آثار العرب فهو اشهر واخطر من ان نعالجه فى هذه العجالة ويستطيع القارىء ان يتتبع هذا التراث الثقافى فى المؤلفات التى خصصت لهذا الغرض (١) .

ولكننا نود ان نشير هنا الى ان الشعر الجاهلى كان بمثابة سجل عام حفظ لنا كثيرا من تراث العرب فى هذا الدور ، وقد يقدر القارىء قيمة الشعر كمصدر من مصادرتدوين التاريخ عند العرب اذا علم اننا نفتقر الى المدونات التى تعود لهذا الدور ولا يعنى هذا ان الشاعر كان ينشد شعره ليسجل التاريخ ، كلا انه ليس بمؤرخ ، وكان هدفه الاول نظم القصيدة وانشادها حتى تنتشر فى انحاء الجزيرة ، وعلى هذا فأن القصائد لم تكن تواريخ تبحث عن الحوادث بتفصيل تام ، بحيث تكون هذه الحوادث مسجلة تسجيلا متقنا ومحلله تحليلا كافيا مع ربط علل الحوادث واسبابها .

ولم يقتصر تراث عرب الجاهلية الثقافى على ما ذكرنا بل ان ما خلفوه من قواعد وعادات وتقاليد ، خاصة ما يتعلق بنظرتهم الديمقراطية الى الحكم ، كان لها اثر كبير فى نظام الحكم والتشريع الاسلامى الذى استوعب كثيرا من عرف وتقاليد الجاهلية بعد ان حورها ونظمها حسب قواعد الدين الجديد . وبعد ، فهذه آراء وملاحظات عن تراث عرب الحجاز الثقافى قبيل الاسلام عرضناها هنا لكى يشاركنا القارىء فى التفكير بما تعالجه من مشكلات ولست بموضع من يقول انها كانت شاملة لجميع نواحى الموضوع او انها نهائية لان مصادرنا عن الموضوع ، كما اسلفت ، ناقصة وستبقى الكتابة فيه ناقصة حتى يتم العثور على جميع المصادر .

---

(١) الهاشمى ، على ، المرأة فى الشعر الجاهلى ، بغداد ، ١٩٦٠ ؛ ويموت ، بشير ، شاعرات العرب فى الجاهلية والاسلام ، بيروت ، ١٩٣٤ ؛ والحوفى ، احمد ، الحياة العربية فى الشعر الجاهلى ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٤٩ وغيرها .

الوراثة والمحيط

HEREDITY & ENVIRONMENT

الدكتور أحمد حسن الرحيم
الاستاذ المساعد فى قسم
التربية وعلم النفس

الوراثة والمحيط من الموضوعات التى كثر فيها الجدل فى التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع ، وتعددت فيها وجهات النظر لدى الباحثين • وقد درس كل منهما دراسات دقيقة لبيان أثره وأحواله •

١ – الوراثــة :

وهي نوعان اجتماعية وبايولوجية

فالمقصود بالوراثة الاجتماعية انتقال العادات والتقاليد والنظم والدين وغيرها مما يأخذه الفرد عن محيطه اما الوراثــة البايولوجيــة فهي كمــا يذكــر الاستاذ هري فيرچايلد Herry Fairchild : (انتقال صفات الوالدين البايولوجية وبضمنها الصفات النفسية الفطرية الى ذريتهم بواسطة التناسل) [1] والوراثة البايولوجيةعلى نوعين وهما :

١ – الوراثة المباشرة وهي ان يرث الفرد صفات عن والده وأمه مباشرة •
٢ – الوراثة غير المباشرة وتسمى Atavism وهي ان يرث الفرد بعض الصفات لا من والديه بل من اقاربه كاعمامه وعماته واجداده وجداته او اقاربه الآخرين ممن يلتقي معهم فى أصل واحد •

فالوراثة ميل فطرى يسبب مشابهة الفرع للأصل الذى انبثق منه • فأما ان يرث الفرد عن أصله صفات سوية أو مرضية أو كليهما معاً • والصفات السوية هي لون الجلد والشعر والعينين وامتداد القامة او قصرها وغير ذلك اما الصفات المرضية فهي كالصلع والاستعداد للعته والجنون ومرض الهيموفليا وهو مرض عدم تخثر الدم •

(1) Hery Pratt Fairchild, Dictionary of Sociology, 1957, P. 140.

وما يرثه الفرد قد يكون صفات جسدية كالطول والقصر وشكل الانف والجبهة وقد يكون صفات عقلية كالذكاء والبلادة او استعدادا لصفات خلقية كالثبات والجلد وقوة الارادة او الكسل والتردد وغير ذلك •

تنتقل الوراثة البايولوجية _ كما مر _ بواسطة التناسل أى باتصال حويمن الذكر بالبويضة الانثوية ليلقحها وتسمى حينئذ بالزيكوت Zygote اى البويضة الملقحة• والبويضة او الخلية التناسلية الانثوية صغيرة جدا تقدر بـ ١/١٢٥ او ١/١٣٠ من الانج وهو يساوى (٢ر٥٤سم) • أما الحويمن او الخلية التناسلية الذكرية فهو اصغر من البويضة بثلثمائة ألف مرة كما تذكر المصادر • والبويضة والحويمن خليتان تختلفان عن الخلايا الاخرى بانهما خليتان تناسليتان • ولكل خليـة نواة تحتـوى على عـدد من الكروموسومات Chromosomes وهى أجسام صغيرة او عصيات دقيقة تكون ازواجا متماثلة وعددها محدود حسب نوع الحيوان ، فعدد الكروموسومات فى نـواة خلية البقرة (١٩) زوجا وهى فى الخيـل (٣٠) زوجا وعنـد الانسان (٢٤) زوجا • وتختلف الخلية التناسلية عن الخلية الاعتياديـة اى الجسديـة لحيوان ما بأن عـدد الكروموسومات فى الخلية التناسلية هو نصف عدد الكروموسومات فى الخلية العادية وذلك لما هو مقدر للخلية التناسلية من الاتصال بخلية تناسلية اخرى عند التقليح ليكونا معاً عدداً من الكروموسومات يساوى عدد الكروموسومات فى الخلية الجسدية وتحتوى الكروموسات على الجينات Genes وهى اجسام صغيرة غير مرئية باقوى المجهرات ولكن وجودها مقبول لدى البايولوجيين وقد تم اثباتها مؤخرا بصورة علمية • ومـن عجب ان ينشأ من اتحاد هذين الجزأين الصغيرين : (الحويمن والبويضة) كائن حي كبير له ما لوالديه او أسلافه من صفات وخصائص وله قدرة على النمو والتكاثر فما يرث الفرد من صفات الام او أحد أصولها يكون من جينات البويضـة وما يرث من صفات والده او احد اصوله يكون من جينات الحويمن •

وان أسبق من بحث فى الوراثة النباتية بحثا علميا واستقرأ احوالها وقوانينهـا راهب سويسرى هو يوهان مندل Johann Mendel (١٨٢٢ _ ١٨٨٤م) • وقد كان قسا فى مدينة برن واشتغل فيها بتدريس العلوم الطبيعية والوراثة النباتية • ولم يكتب لأبحاثه التقدير الا منذ بداية القرن العشرين •

وقد اصبحت للوراثة قوانين قيمة ذات تطبيقات علمية وتربوية واجتماعية اهمها ما يأتي :

١ - قانون تماثل النسل مع الاصل : والمقصود به ، سواء أكان ذلك فى النبات أم الحيوان ، أن يكون النسل مماثلاً لأصله يرث عنه الصفات المختلفة وهى فى الانسان صفات جسدية وعقلية ونفسية • ولذلك يشاهد اثر وراثة الزوج فى اطفاله من امرأتين مختلفتين او نساء مختلفات • كما لو زرعنا بذرتين مختلفتين فى حفرة واحدة وسقيتا بماء واحد لنبتت من كل منهما شجرتها المعهودة بحكم وراثتها ، ومن قديم قيل (لا تلد الحية الا حية) و (من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا) اى أن الحية تنسل الحية ولا ينبت الشوك الا شوكا • ولا يرث الانسان عن والديه الصفات الجسدية فحسب بل الصفات العقلية كذلك وقد تواترت الادلة والبينات على ذلك بصورة مقنعة • ولهذا القانون وهو قانون مماثلة النسل للأصل حدان اى ان الذرية ترث عن آبائها واجدادها الصفات الحسنة والرديئة وقد دلت بحوث عديدة على ذلك فقد درست اسرة رجل أمريكى جنت عليه الوراثة اسمه ماكس جوكس Max Jokes وكان قد تزوج شابان من أولاده بأمرأتين ذاتى وراثة رديئة فنسلتا فى ٧٥ سنة عدداً غفيراً من المتسببين والقتلة واللصوص وغيرهم فكبدت جرائمهم خزانة الدولة الامريكية طيلة المدة المذكورة مبلغاً يزيد على ربع مليون دينار •

ومثل هذه الدراسة اجريت على أسرة شخص اسمه مارتن كليكاك Martin Klikak وهو امريكى ايضا وكان قد تزوج امرأة ضعيفة العقل ، فظهر فى نسلهما خلال عشرات السنين عدد كبير من ضعاف العقول والمصابين بالصرع والعته والخارجين على القانون والاخلاق ثم تهيأ لمارتن هذا ان يتزوج أمرأة اخرى من أسرة محترمة فجاء من نسلهما أفراد عاديون وآخرون لهم بعض التميز اشتغلوا بالطب والمحاماة والتعليم وغيرها من المهن المحترمة وجاوز بعضهم هذا المستوى فى وظائف ادارية وعلمية•
والقانون الثانى من قوانين الوراثة هو

٢ - قانون انماط مماثلة النسل لأصله • وهذا القانون يفصّل الأنواع أو الانماط التى تجرى فى عمليه الوراثة وهى ثلاثة :

أ — الوراثة الانحيازية : ويقصد بها أن يأخذ الطفل من أحد أبويه أكثر صفاته الجسمية والعقلية فينشأ شديد الشبه بأحد والديه اى أن وراثته انحازت او مالت الى احد الطرفين اكثر من ميلها الى الطرف الآخر •

ب — الوراثة المتعادلة أو المؤتلفة : وهى التى تكون فيها صفات النسل وسطا من صفات والديه او اجداده فلا تطغى صفات احدهما على صفات الآخر ، فاذا تزوج رجل أبيض امرأة زنجية فجاء ولدهما وسطاً بين صفات البيض والسود فوراثته متعادلة • أما اذا تغلبت فيه صفات أحد والديه فهى حينئذٍ وراثة انحيازية •

ج — الوراثة الاقتباسية او الوراثة بالاقتباس وكيفيتها أن ياخذ النسل من احد والديه بعض صفاته من دون ان يعتريها تغيير يميل بها الى الاعتدال ويأخذ من الثانى بعض صفاته على حالتها من دون تغيير كذلك فينشأ الطفل وقد اقتبس صفات من والديه وصفات من أمه من دون أن تمتزج هذه الصفات مع بعضها لتكون وسطا معتدلا بين الطرفين او أن يطغى بعضها على بعض • فكأن النسل قد اقتبس بعض صفاتهما اقتباسا • والمعروف ان سواد الشعر وطول القامة من الصفات المتفوقة فى الغالب على ما يخالفهما من الصفات فيغلب منها الاقتباس المذكور •

٣ — قانون الرجوع الى التوسط : اى أن ذرية ذوى الصفات البارزة كالطول المفرط او القصر المفرط والتأخر او التفوق العقلى تميل الى أن تأخذ هذه الصفات لا كما هى موجودة فى والديهم ، بل بصورة معتدلة أى من دون جنوح الى التطرف •

٤ — مبدأ او قانون الازمنة المتحدة فى الوراثة : يطلق فى « علم الحياة » اسم الوراثة ذات الازمنة المتحدة على نوع من الصفات تظهر فى النسل عند بلوغهم مرحلة معينة من العمر • فقد ظهر ان بعض الامراض التى تصيب الوالدين كالصلع والصرع وبعض الامراض العصبية تظهر فى الذرية عند بلوغها مرحلة من العمر كالمرحلة التى ظهرت إبانها فى آبائهم أو أجدادهم • فقد يبدو الصلع فى رأس شخص ما فى الثلاثين من عمره ثم يبدو على ولده فى الثلاثين كذلك أو فى سن قريبة منها •

هذه هى أنماط الوراثة ولننتقل الآن الى القسم الثانى وهو المحيط •

٢ ـ المحيــط Environment

ويقصد به البيئة الجغرافية التى يسكنها الفرد اى طبيعة الارض التى يسكنهـا الفرد سواء أكانت جبلية او سهلية وطبيعة جوها من حيث الحرارة والبرودة وخصوبة تربتها وجد بها كما يقصد به البيئة الاجتماعية أي طبيعة المجتمع الذى يلتقى باعضائه من حيث الثقافة والتقاليد والمستوى الاقتصادى مما هو جزء من المجتمع الانساني • وتأثير المحيط فينا تأثير واضح اثبته علم النفس منذ أمد بعيد • ولعلنا اذ نسأل أيهما أهم فى التربية الوراثة أم المحيط ؟ فكأننا نسأل أيهما أهم للآلة محركها ام الوقود الذى يولد الطاقة فيها ؟

وقد تضاربت الاراء قديما وحديثا فى تحديد تاثيرهما وتعيين المستوى الذى يبلغه كـل منهمـا • فقـد اعتقـد البـاحث الفرنسـى اوكست كومت August Comte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) والمـربى الانكلـيزى هربرت سـبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) بتحكم الوراثة وسيطرتها على الفرد •

ومن الوراثيين المعـاصرين الاسـتاذ رودولف بنتنر Rudolf Pintner وهو القائل (ان قدرة المحيط ليست عظيمة كما تتصور ، لأن قابليات الطفل محدودة بأسلافه (يقصـد وراثته) وكل ما يستطيع أن يفعله المحيط هو أن يوفر الفرصـة لتنمية هـذه القابليات الا أنه لايستطيع أن يخلق قوى جديدة ولا قابليات اضافية) (٢) •

ويفهم من اقوال الوراثيين انهم لا يرون للتربية جدوى مهما كانت مقصودة او غير مقصودة ما لم يكن للفرد استعداد أو تقبل يؤهله للاسـتفادة فذلك الاسـتعداد هو كرأس المال الذى من دونه لا يمكن انشاء تجارة أو صناعة فى حياتنا العملية •

وتطرقت طائفة أخرى من المفكرى فزعمت الاهمية للمحيط وحده ونسبت اليه كل ما يملك الفرد من صفات جسمية او عقلية او نفسية اعتياديـة او شاذة سليمة او مرضية • فمن القدامى الفيلسـوف الانـكليزى جـان لوك John Locke

(2) S. S. Sargent, Basic Teachings of Great Psychologists, New York, Burnes & Nobles, inc., 1951, P. 79.

(١٦٣٢ - ١٧٠٤) وقد اعتقد ان عقل الطفل صفحة بيضاء غير مزودة باستعدادات ، أياً كانت ، وان التربية تنقش عليها ما تشاء من صفات حسنة أو رديئة • ويقول الاستاذ الامريكي جان برودس واتسن John Brodus Watson مؤسس المدرسة السلوكية فى علم النفس ليدلل على أن المحيط هو العامل الوحيد المتحكم فى نمونا (اعطني اثنى عشر طفلاً فى حالة سليمة وهيىء لي محيطاً خاصاً لتربيتهم وسوف أضمن أنى آخذ أحدهم على غير تعيين وادربه ليصبح أى اختصاصى اشاء طبيبا او محاميا او فنانا او تاجرا وحتى اذا شئت فشحاذا او لصا بغض النظر عن مواهب وميول وقابليات ومهن ورس (Race) اسلافه) (٣)

ولصعوبة هذه التجربة التى طلب القيام بها الاستاذ واتسن ليثبت أثر المحيط وهو الأثر الوحيد على زعمه ، وخطورة أن نخضع اثنى عشر طفلاً بشرياً لتجربة مدة طويلة من السنين وان نهيئى لهم محيطا خاصا ، فقد مر هذا الادعاء الخلاب من دون تجربة تثبته او تفنده ، وان كان اكثر الباحثين يرون فيه ادعاء جريئا لا يحمل الا بعض الحقيقة •

والواقع ان كلاً من الوراثة والمحيط يشتركان فى كل صفة فينا وفى هذا المعنى يقول الاستاذ روبرت ودورث Robert Woodworth (ان الوراثة والمحيط ضروريان للنمو وان اية صفة فى اى فرد ما هى الا ثمرة الوراثة والمحيط) (٤)

ومثل هذا ما ذكره الاستاذ نيوكارتن اذ يقول (اننا نستطيع القول ، الى درجة معقولة من اليقين ، ان الوراثة هى العامل الرئيس ، ولكن وجود التشكيلة الخاصة الممتازة من الجينات ليس ضمانا اكيدا لظهور عبقرى ، فمن المحتمل ان عددا كبيرا من العباقرة لم يتح لهمالظهور اذ حالتظروف بيئية غير مواتية دونالكشف عما يستطيعون عمله) (٥) او تنميته نموا كافيا • ومن المسر المشجع ان نشاهد قدرة الانسان على تغيير او تخفيف مصاعبه اصالحه فى كثير من الحالات • فليس الانسان متأثرا بميحطه فقط بل

---

(3) S. S. Sargent Loc. Cit. المصدر السابق فى الصفحة نفسها

(4) R. Woodworth & Marquis, Psychology New York, Henry & Co., 1947. 5 ed. P. 194.

(٥) برينس ينوكارتن - الطفل والوراثة ، ترجمة ابراهيم حافظ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٧٠-٧١ •

مؤثر فيه كذلك ، وعلى هذه الصفة أو الارادة التى يمتاز بها الانسان فى مقاومة الظروف علقت الآمال فى تغيير الأحوال وتحسينها .

المصادر العربية

١ - شارلز سكنر ، أبحاث علم النفس فى التربية والتعليم ، ترجمة أدمون عبدالنور ، بأشراف قسم التربية بالجامعة الامريكية ، القاهرة ، ١٩٤٠ .

٢ - احمد عزة راجح ، اصول علم النفس ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، الاسكندرية ، ١٩٦٠ .

٣ - صالح عبدالعزيز وعبدالعزيز عبدالمجيد ، التربية وطرق التدريس ، ج١ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦١ .

٤ - على عبدالواحد وافى ، الوراثة والبيئة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٠ .

٥ - حامد عبدالقادر ، المنهج الحديث فى أصول التربية وطرق التدريس ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

المصادر الاجنبية

1 — Gates, A. Psychology for Students of Education, MacMillan Co., New York, 1933.

2 — Hughes A. g., & E. H. Nughes, Learning and Teaching, Longman, Green & Co. London, 1959.

3 — McDougall, William, Psychology, Oxford Universty, Press, London, 1945.

الجذور الاجتماعية للتوتر النفسى عند الافـراد

– القسم الثانى –

الدكتور محمد جواد رضا
المدرس فى قسم التربية وعلم النفس

–١–

لاحظنا فى القسم الاول (*) من هذا الحديث ان المصادر الاجتماعية للتوتر النفسى عند الافراد هى اربعة على ما يبدو

(١) الصراع الثقافى (او التناقض فى القيم الخلقية)

(٢) الصراع الاقتصادى

(٣) التعميمات الفكرية والاجتماعية Stereotypes

(٤) المواقف النفسية عند الافراد Attitudes

وناقشنا فى ذلك القسم المصدرين الاول والثانى • وسيكون المصدران الثالث والرابع موضوع بحثنا الآن •

–٢–

التعميمات الفكرية والاجتماعية

Stereotypes

لقد قادت الدراسات النفسية فى معنى الـ Stereotypes الى أتفـاق الباحثين النفسيين على أن اوضح ما تعنيه هذه الكلمـة هو الاشـارة الى « صـورة فى اذهاننا a picture in our minds » عن شىء معين او أناس معينين • ونحن نعنى هنا وفى حدود هذا الاطار بالصور التى يحملها الناس فى عقولهم عن أنفسهم وعـن

(*) نشر القسم الاول من هذا الحديث فى المجلد التاسع من مجلة « الاستاذ » (١٩٦١) ص ص ٢٠٦ ـ ٢١٦ •

الاخرين بقدر ما تعمل هذه الصورة على معاناة الفرد من التوتر • ذلك أنه قلما يبرأ مجتمع من المجتمعات الانسانية من ذيوع هذه الصور فيه وهيمنتها على عقول افراده • وغالبا ما تكون هذه الصور مبسطة الى درجة كبرى oversimplified ومناقضة للحقائق الموضوعية • الا أنها تمثل على اية حال الاعتقادات والآراء التي تحملها القوميات المختلفة بعضها عن بعض او الفئات الاجتماعية المتباينة بعضها عن بعض • ويستوى في هذه التعميمات الجماعات والافراد •

لقد نظمت أحدى الدراسات الشهيرة في هذا المجال من قبل برناد بيرلسون Bernard Berelson وباتريشيا سولتر Patricia J. Salter • قام هذا الباحثان بتحليل عدد كبير من القصص والروايات في المجلات الشعبية بغية تفهم بعض عوامل التعصب والتمييز غير المقصود - ولكن الثابت - ضد جماعات الاقليات والاميريكيين الهجناء (١) •وقد خلصا الى ان ثلاثة ارباع الشخصيات القصصية المنحدرة من الاقليات او الاجانب صورت وفقا لتعميمات أجتماعية Stereotypes منتشرة على نطاق واسع بين الاميريكيين • وقد أشتملت الامثلة المختارة لهذه الدراسة على الزنجي الغبي بشكل مضحك والايطالي المجرم واليهودي الخبيث والبارع ، والايرلندي المتهور عاطفياً والبولندي البدائي المتأخر • ومثل الاميريكيون شخصيات مقبولة بشكل اكثر من الغرباء • وبين العناصر الاجنبية أحتلت الجماعات الانكلوسكونية والاسكدنافية مكانة أرفع من الجماعات المغتربة الاخرى • وكانت الشخصيات الاميريكية في هذه القصص تتمتع بمكانة اجتماعية واقتصادية أرفع كما أنها كانت تمارس حرفا أشرف من الحرف التي كان الآخرون يمارسونها • وفي الاغلب كان الاميريكيون - في هذه القصص - يعملون من اجل المثل العليا بينما كان الآخرون يسعون في الغالب من أجل أغراض مادية • وقد خرج الباحثان من هذه الدراسة بنتيجة خطيرة وهي ان القصص والروايات الشعبية تتجه الى زيادة ميل قارئها الى اصدار الاحكام العامة غير المستندة الى حقيقة ما عن جماعات المغتربين كما انها تعطيه انطباعا بانه قد وجد « البرهان » على ما كان يحمله من شعور بالزراية والاعلوية أزاء المغتربين والاقليات • يعتقد هذان الباحثان ان وجود

(1) Public Opinion Quarterly, No. 10 (1946) pp. 168 — 190

مثل هذه التعميمات فى المجلات القصصية يعمل ـ من الناحية الاجتماعية ـ كحافز على التطرف فى التعصب الوطنى أو القومى وبغض الاجانب وكراهيتهم Xenophobia (*)

ولا تتسبب هذه التعميمات فى خلق العداوات والتوترات على الصعيد الوطنى او القومى وحسب ، ولكنها تفعل الشىء ذاته على الصعيد الدولى أيضا • فى الحق ان تأثير هذه التعميمات على العلاقات الدولية اعظم خطرا من تأثيراتها على العلاقات الوطنية والقومية • ويبدو أنها مسؤولة الى حد بعيد عن التوترات التى تهدد عالمنا اليوم وتنذر بالحرب • وقد كشفت بعض الدراسات عن أثر هذه الصور الوهمية على تدهور العلاقات بين القوتين الدولتين الرئيستين فى عالم اليوم ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى •

وقامت الدراسات التى اجريت فى هذا الصدد على مقارنة « الصور » التى أعطتها جريدة أزفستيا Izvastia لقرائها عن الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها بالصور التىأعطتها جريدة النيويورك تايمزNew York Times لقرائها عن الاتحاد السوفياتى قبل الحرب وخلالها وبعدها ، ودلت النتائج على التشويه الكبير الذى تقوم به الصحافة فى هذا الصدد • لقد تم اختيار فترتين أمد كل منهما ستة أشهر لدراسة ما فعلته الازفستيا ،الاولى من كانون الثانى الى حزيران من عام ١٩٤٥ والثانية من كانون الثانى الى حزيران ١٩٤٧ • ووجد انه فى الفترة الاولى كانت الاخبار المذاعة عن الولايات المتحدة ميالة الى التأكيد على أن الولايات المتحدة كانت قد رمت بكل قوتها المالية والعسكرية والصناعية والاخلاقية فى الجهاد العام ضد النازية والفاشستية • وعلى العموم كانت الصورة المعطاة عن الولايات المتحدة للقراء الروس خلال هذه الفترة صورة محببة ، وبأستثناءات قليلة كان البلد كله يقف قلبيا وراء الجهود الحربية والحكومة الاميركية تخوض جهادا مقدسا من اجل السلام • ولكن •• بعد مرور سنتين فقط على هذه الصورة بدأت اعمدة الاخبار فىالازفستيا تعطى قراءها صورة

(*) يلاحظ ان الامثلة الايضاحية او الدراسات المشار اليها هنا كلها أجنبية وهذه حقيقة مؤسفة يضطر الباحث العراقى والعربى الى مواجهتها نظرا للافتقار الى الامثلة المنتزعة من بيئة هذه الاقطار • ولعل النفسانيين العرب عموما والعراقيين على وجه التخصيص يتداركون هذا النقص عن طريق دراستهم للواقع النفسى لشعوب هذه البلدان والخروج بامثلة حية منها •

مغايرة كل المغايرة للصورة الاولى • وفى هذه الفترة برزت أربعة خطوط رئيسية عن الولايات المتحدة هى (١) ان اميريكا منهمكة في بناء جهازها العسكرى وفى البحث عن القواعد العسكرية وتطوير فنونها الحربية (٢) الاقليات السياسية والعنصرية لا تتمتع بحقوق متكافئة مع حقوق الجماعات الاخرى وأصوات المعارضة تكبت بقسوة (٣) الرجعيون يحاولون تحطيم اتحادات العمال (٤) تشير الاضرابات والارتفاع المستمر فى تكاليف المعيشة والمشاكل الاقتصادية الى عدم الاستقرار فى النظام الرأسمالى •

وقامت دراسة اخرى بتحليل الاخبار المعطاة عن الاتحاد السوفياتى فى النيويورك تايمز خلال الفترة الواقعة بين ١٩١٧ - ١٩٤٦ • ولم تكن مكتشفات هذه الدراسة لتشير الى اختلاف فى سلوك النيويورك تايمز عن سلوك الازفستيا • فقد كان هنالك ميل غالب لنشر الافكار الآتية عن الاتحاد السوفياتى :

القادة السوفييت متحللون خلقيا •• وهم ظلمة •• غير متعقلين •• الحكومة السوفيتية لا تمثل الشعب السوفيتي ولن يكتب لها البقاء ••• الاتحاد السوفياتى دولة تقوم على البطش وقادتها السياسيون غامضون ومعقدون • اما خلال سنوات الحرب فقد شيد بالتعاون السوفياتى مع الحلفاء ضد المحور وبصفات الكفاح الصامد للشعب السوفياتى والحكومة السوفيتية • ولكن باستثناء هذه الفترة فان الاخبار غير المحبية عن الاتحاد السوفياتى كانت تفوق الاخبار المحبية • ويعتقد منظمو هذه الدراسة بان النيويورك تايمز كانت ميالة ابدا الى استقاء اخبارها عن الاتحاد السوفياتى من مصادر متحيزة ضده كما انها كانت ميالة الى اختلاق الازمات فيه • (٢)

على ان الصحف والمجلات القصصية الشعبية ليست - على ما يبدو - المجال الوحيد لمثل هذه التعميمات • فقد وجد ان الكتب المدرسية والأفلام السينمائية تعتبر من بين

(2) Klienberge, Otto, Tensions Affecting International Understanding, Social Sciences Research Council, New York, 1950, pp 96 — 101.

اهم الحقول التى تتوسط فى نقل التعميمات الى عقول الناس والاطفال بصورة خاصة • ويشير كلاينبرغ الى دراسة رئيسة فى هذا الصدد فى حقل الكتب المدرسية وقد قامت بها بسى بيرس Bessy N. Pierce وعنوانها « المواقف المدنية فى الكتب المدرسية الاميريكية Civil Attitudes in American School Textbooks»

« وقد كشفت هذه الدراسة عن الكثير من التصوير المتحيز للاقليات • فقد صور الاسبانيون على انهم غلاظ الاكباد وبطاشون ، والايطاليون على انهم متهورون عاطفيا ولو أنهم يقظون وحذرون ، والاتراك قساة متخلفون •• وهكذا •

-٣-
المواقف Attitudes

يعرف كوردن البورت Gorden W. Allport فى كتابه « الموجز فى علم النفس الاجتماعى A Handbook of Social Psychology » « الموقف Attitude» على انه حالة من الاستعداد العقلى والعصبى منظمة من خلال التجارب الماضية للفرد وهى ذات أثر توجيهى او حركى على استجابة الفرد الى كل الاشياء او الحالات التى ترتبط بها الاستجابة » (*) • ويعطى كل من ميرفى G. Murphy وميرفى L.B. Murphy ونيوكومب T. M. Newcomb فى كتابهم « علم النفس الاجتماعى التجريبى Experimental Social Psychology » تفسيرا مماثلا فيتكلمون عن « الموقف » باعتباره « ابتداءاً طريقة من طرق التحفز لبعض الأشياء أو ضدها » • وعلى اية حاله فان الدراسات التى اجريت فى معنى « الموقف » تشير الى ان هذا الاصطلاح غالبا ما يستعمل ـ وخصوصا فى الولايات المتحدة ـ للدلالة على ذات الشيء الذى تدل عليه كلمة « رأى opinion » مع تمييز واحد هو أن كلمة « رأى » تشير الى الجوانب العقلية ، على حين أن كلمة « موقف » تشير الى الجوانب السلوكية من الحدث ذاته (٣) •

(*) النص الانكليزى لهذا التعريف هو كما يلى :ـ

"A mental and neural state of readiness, organized through experience, exerting a directive or dynamic influence upon the individual's response to all objects and situations with which it is related."

(٣) كلاينبرغ ••• ص ١٣٥

ان المواقف التى تتخذها جماعة من الشعوب ازاء جماعة اخرى او يتخذها شعب معين ازاء شعب آخر غالبا ما تكون - وخصوصا عندما تكون مواقف غير ودية - حواجز مانعة تتمخض بالضرورة عن تضييق التواصل والتفاهم بين الشعوب ومن ثم تقود الى سوء التفاهم والشك • لقد قامت مجلة « الرأى العام العالمى World Opinion'' » فى عددها الصادر فى تشرين الاول من عام **١٩٤٧** بطرح السؤال التالى على قرائها فى اقطار مختلفة :

« هل هناك دولة معينة تريد ان تهيمن على العالم واذا وجدت فأية دولة هى هذه الدولة ؟ » وكانت الاجابات على النحو التالى • فى الولايات المتحدة اجاب اكثر من ثلاثة ارباع المجيبين بالاثبات وقالوا ان روسيا تريد الهيمنة على العالم ولكن المجيبين الآخرين ذكروا المانيا وانكلترة واليابان والولايات المتحدة نفسها • وفى بريطانيا قالت الاكثرية أن روسيا تريد السيطرة على العالم ولكن ثلث المجيبين ذكروا ان الولايات المتحدة تريد السيطرة على العالم • أما فى فرنسا وهولندا فقد ورد اسم روسيا مشتركاً مع اسم الولايات المتحدة بكثرة • وفى النرويج قالت جماعات كثيرة ان روسيا تريد السيطرة على العالم ولكن نصف المجيبين ذكروا ان روسيا والولايات المتحدة كليهما تريدان السيطرة على العالم • وفى كندا قال ثلاثة ارباع المجيبين ان روسيا تحاول السيطرة على العالم ولكن اسم الولايات المتحدة ورد فى هذا السبيل ايضا •

ومما يلفت النظر فى هذا الصدد انه حتى بين الشعوب التى ترتبط بعضها بالكثير من الود والتعاون يوجد مقدار كبير من الريبة وسوء الظن • وقد اتضح هذا فى الاجابة على سؤال متصل بالسؤال السابق قامت المجلة بطرحه على قرائها فى عشرة اقطار بين **١٧** شباط و **١٦** آذار من عام **١٩٤٨** وقد صيغ السؤال بالشكل الآتى : « اذا قدر لك **أن تترك وطنك فأين تفضل أن تعيش ؟ » وكانت الاجابات فى سبعة أقطار على الشكل التالي :**

فرانسا	سويسرا	١٥٪	الولايات المتحدة	١٤٪	المستعمرات	١٤٪
كندا	الولايات المتحدة	٦١٪	بريطانيا	٩ ٪	فرانسا	٧ ٪
الولايات المتحدة	كندا	٢٤٪	بريطانيا	٩ ٪	استراليا	٦ ٪
بريطانيا	استراليا	٢٠٪	جنوب افريقيا	٢٠٪	كندا	١٣٪
ايطاليا	الولايات المتحدة	٣٢٪	الارجنتين	١٩٪	سويسرا	١٥٪
السويد	الولايات المتحدة	٤٠٪	سويسرا	٨ ٪	الارجنتين	٧ ٪
سويسرا	الولايات المتحدة	١٧٪	فرانسا	١١٪	بريطانيا	٧ ٪

من الممتع ان يلاحظ على هذه الارقام ان جميع المجيبين لم يبدو أية رغبة في الذهاب الى روسيا كما لم يبد اى انكليزى رغبة فى الذهاب الى الولايات المتحدة .

ان هذه الظاهرة تثير سؤالا اساسيا هو كيف ولماذا تتكون « المواقف » ؟ وهناك أتفاق نسبى بين الباحثين النفسيين على اربعة مصادر لتكوين المواقف . فهناك اولا وقبل كل شيء ما يدعوه ألبورت بـ « تراكم التجارب ''accretion of experience. اى تراكم عدد كبير من استجابات معينة وتوحدها مع بعضها . مثلا اذا الف الرجل الابيض فى بعض ولايات الجنوب الاميريكى التعامل مع السود بصفتهم خدما فمن العسير عليه أن يكيف نفسه للتفكير فيهم فى ضوء علاقة اخرى . هنا يكون تراكم التجارب هو الذى يقرر طبيعة « الموقف » المتخذ من الزنوج .

وفى المنزلة الثانية هناك مايدعى: «الافراد individuation (بكسر الهمزة) والمخالفة ''differentiation » وهذا يعنى كما يقول كلاينبرغ ان التجارب الاضافية تجعل الموقف اكثر تحديدا وتميزه من المواقف الاخرى المرتبطة به . والسبب الثالث المقترح لنشوء المواقف يتمثل فى التجارب العنيفة trauma التى يمر بها الانسان فاذا روع الانسان من جريمة ارتكبها فرد من افراد احدى القوميات أو من الناحية الاخرى - اذا انقذ من جريمة كبرى على يد احدهم - فان موقفا قويا يتكون لدى الفرد ازاء الجماعة التى ينتسب اليها فاعل الجريمة او المنقذ منها . واخيرا قد تتكون المواقف عن طريق التقليد للاباء وغير الآباء من الراشدين كالمعلمين مثلا أو الاقران .

وليس هناك ما يميز أيا من هذه العوامل باهمية اعظم من أهمية غيره • على أن ألبورت ينفرد بالتأكيد الذى يضعه على العلاقة بين فلسفة الفرد فى الحياة وبين مشاعر العداء التى يجعلها البعض اساسا يبنون مواقفهم عليها • وهو يلاحظ فى هذا الصدد ان الذين يخافون الحياة ويقولون بان العالم مكان اعتباطى والناس شريرون من حيث الجوهر، هؤلاء الأفراد يتميزون بقسط أعظم من التعصب العنصرى فى وطنيتهم أو قوميتهم ولا يحبون الكاثوليك والزنوج واليهود ويتميزون بالتطرف فى وطنيتهم او قوميتهم ولا يجدون الشعور بالامن الا فى « قوتهم » القومية او الوطنية ، والا فى الاندماج الـــكلى فى المنظمات التى ينتسبون اليها وفى ارتباطاتهم الجماعية الضيقة وهم متصلبون بشكل خاص فى مقارباتهم للمشاكل العملية حتى فى حلهم للمسائل الرياضية • ويضيف البورت الى هذا قوله بان هذا النمط من التصلب والجمود يميز الشخصية الاعتدائية ويعطى أصحابه فلسفة عدوانية فى الحياة • ان التفاهم على الصعيد الوطنى والقومى والعالمى يتطلب درجة من الاسترخاء relaxation وقدرا من سلام الانسان مع نفسه وهذا ما تفتقر اليه شخصيات من هذا القبيل (٤) • ويضيف نيوكومب الى هذا ملاحظته بان بعض الناس يشعرون أنهم وجماعتهم ذوو أهمية خاصة ؛ ولكل جماعة طريقتها فى تقييم نفسهـــا وافرادها لا ينظرون الى أنفسهم بطريقة خاصة وحسب بل هم يريدون او يتوقعون من الآخرين أن ينظروا اليهم بذات الميزان او بطريقة توافق ما يحملونه عن أنفسهم من صور وهذا توقع لا يتحقق دائما (٥) •

لقد حاولنا فى الفقر المتقدمة ان نشير الى الجذور الاجتماعية للتوتر النفسى عند الافراد • وعلى الرغم من شعورنا بان هذه المحاولة كانت استطلاعية فى طبيعتها فقـــد أستطعنا ان نحدد بشكل مبدأى بعض مصادر هذا التوتر • والسؤال الذى ينبغى أن يجاب عليه الآن يتعلق بالجوانب التربوية من التوتر النفسى • كيف تتعلم الاجيـــال الناشئة التعصب ضد الآخرين ؟ كيف يتعلمون اصدار الاحكام المطلقة وكيف يكونون مواقفهم ؟ هل فى المستطاع عمل شىء ما لمواجهة هذه المشاكل ؟ هل تستطيع التربية ان

(4) Cantril, H., Tensions That Cause Wars, University of Illinoise Press, (1950), pp 65 — 66.

(5) Newcomb, T.N., Social Psychology, the Dryden Press, (New York — 1950), P. 594.

تسهم بشكل ايجابى فى حل هذه المشاكل ؟ وهل تستطيع التربية ان تصبح وسيلة فعالة فى تنمية السلام والتفاهم بين الشعوب فى عالمنا المضطرب هذا ؟ هذا ما سنلتمس الاجابة عليه فى الفقر التوالى •

ان احدى الحقائق المهمة حول التوتر هى إن كل العوامل التى تقود اليــه هى مكتسبات اجتماعية • فالتعميمات والمواقف والقيم الثقافية والصراع الاقتصادى كلهــا أمور مكتسبة من المجتمع وتشير الدراسات فى هذا الصدد الى ان هناك عملية مستمرة - واعية حينا وشبه واعية حينا - لنقل الانماط الثقافية من الراشدين الى الاجيــال الناشئة • ومن هذه الدراسات دراسة تناولت احوال الطبقة الوسطى لزنوج مدينتى ناشيز Natchez فى حوض المسيسيبى ونيواورلينز New Orleanze فى ولاية أريزونا • وكان بعض ما كشفت عنه هــذه الدراســة ان أفراد هــذه الطبقــة كانوا يفرضون أنماطهم الثقافية بصورة واعية على اطفالهم • وكانوا يستعملون التهديد ازاء محاولة االاطفال العصيان او الخروج على تلك الانماط • وفى حالات العصيان المكشوف كان الطفل يهدد بالحرمان من السند الاقتصادى من لدن العائلة [٦] • وسجلت دراسة أخرى زيادة مطردة فى تكوين التعميمات مع التقدم فى العمر • بعبارة اخرى ان الاطفال كلما تقدموا فى العمر وقعوا تحت التأثير المباشر للراشــدين •

لقد عنى علماء النفس بالطريقة التى ينقل بها المجتمع انماطه الثقافية من جيل الى جيل وقدمت تفسيرات عديدة لذلك • ويقدم الاستاذ نيوكومب اكثر هذه التفســيرات وضوحا وهو يعتقد بان هناك ثلاث مراحل تتم بها عملية نقل الانماط الثقافية •

المرحلة الاولى

يمر الاطفال فى اى مجتمع من المجتمعات فى تجارب معينة بشكل منتظم نسبيــا وينجم كثير من هذه التجارب العامة من طبيعة النظام العائلى ومن طريقة الراشدين فى التعبير عن حبهم للصغار واساليب ضبطهم ومن تفكير الراشدين فى طبيعة الاطفال ومن الحاجات الشخصية • وعن طريق هذه التجارب يصف الراشدون للاطفال الدور المقرر لهم فى المجتمع ويحددون علاقاتهم بهم ويكيف الاطفال أنفسهم لهذه الأدوار كما يعينها لهم الراشدون •

---

(٦) نيوكومب •••• ص ٤٣٠

المرحلة الثانية

ونتيجة لهذه التجارب العامة يكون الاطفال تشابهات فى شخصياتهم وتنبثق هذه المميزات الشخصية عن تعريض الأطفال لأنواع معينة من السلوك هى ليست محض ردود فعل مجردة او سلبية للبيئة • ويمثل التعرض لهذه الانواع من السلوك حاجة حية للسلوك مع الآخرين ولاستجابتهم للفرد •

المرحلة الثالثة

وتقود الادوار السلوكية الثابتة الى أستمرارية الانماط الثقافية المكتسبة مع تحويرها بين آن واخر (٧) •

يضاف الى هذا ان الانماط الثقافية والمواقف الاجتماعية والتعميمات تتميز بمقدرة واسعة عن التبدل والتحوير • وقد نظمت دراسات خاصة لتقرير ثبات الانماط الاجتماعية وأظهرت نتائج هذه الدراسات أن هذه الانماط الأجتماعية دائمة التبدل • ومن الامثلة الشهيرة فى هذا الصدد التبدل الذى اكتشف فى المواقف المتخذة ازاء الصينيين فى ولاية كاليفورنيا • فقد تبين انه عندما كانت هناك حاجة الى هؤلاء الناس - عندما كان المهاجرون البيض فى تلك الاصقاع متلهفين الى الغنى السريع وعندما لم تكن هناك مشاكل عمل او عمال فى مصانع السيكار - كان الصينيون موضع ترحاب • وكانت الصحف والمجلات خلال هذه الفترة تتحدث عنهم باعتبارهم من بين « أعظم مواطنينا الجدد قيمة » و « أنهم أحسن المهاجرين فى كاليفورنيا » وكانوا يذكرون بالعمل الشاق وحسن التدبير والرشد وعدم التقلب واللاعدوانية واطاعة القانون ؟ وأنهم « أظهروا مقدرة غير محدودة » و « استعدادا يقصر من دونه كل ثناء » للعيش بسلام مع الآخرين • أنتشرت هذه الصورة الاطرائية خلال فترة طويلة • ثم جاء العقد السابع من القرن التاسع عشر وتبدلت الحالة الاقتصادية فى كاليفورنيا واخذت جماعات جديدة من النازحين تفد اليها لتنافس الصينيين على مراكزهم التى كانوا يحتلونها فتبدلت طريقة التفكير فى الصينيين والشعور نحوهم • ففى انتخابات **١٨٦٧** مثلا ادخل كلا الحزبين السياسيين فى برامجهما الانتخابية تشريعات لـ « حماية كاليفورنيا من المنافسة المغولية » ، وغدا الصينيون يوصفون بأنهم « شعب مختلف » « غير قابل

(٧) نيوكومب •• ص ٤٤٥ •

للانسجام » وهم « السبب فى انحطاط مستوى الحياة فى كاليفورنيا » وأنهم « متعصبون مجرمون حقراء خداعون وشريرون »(٨) •

فى هاتين الحقيقتين من حقائق الانماط الاجتماعية ، حقيقة الانتقال وحقيقة التبدل ، تستطيع التربية ان تجد لها فرصة ممتازة لتسهم فى تقديم حل أصيل لمشاكل التوتر • واذا استطاعت التربية ان تحمى عقل الطفل ضد سموم الانماط الاجتماعية واذا استطاعت ان تغرس فى الافراد طريقة التفكير العلمى الموضوعية فأنها تكون قد فعلت الكثير لتحقيق هذا الغرض والوسيلة الى ذلك تتمثل ـ عندى ـ فيما يلى :ـ

١ ـ اننا لا نستطيع ان نقلل باى شكل من الاشكال أهمية العوامل الاقتصادية فى هذا المجال • وعلى هذا يجب على المربين من خلال فلسفاتهم التربوية وتطبيقاتها ان يؤكدوا على الحاجة الى عدالة اجتماعية حقيقية توفر للفرد المزيد من الشعور بالامن وتقلل من توجسه من التهديد وبهذا نلغى مصدرا عظيما من مصادر التوتر •

٢ ـ ان التربية يجب ان تجاهد لتقلل من الحواجز بين الجماعات والشعوب فلن يستطاع التوصل الى أية تسوية للصراع فى عالمنا المضطرب ما دام الناس معزولين عن بعضهم البعض بحواجز صفاق من سوء الظن والتشويه فى المفاهيم •

٣ ـ يجب ان تسعى التربية للسيطرة على السلوك الانسانى من خلال تزويد الفرد بقيم ثقافية سليمة وتنمى فيه المواقف الايجابية التى لا تنجم عن الهوى بل عن الحقيقة الموضوعية •

الدكتور محمد جواد رضا

كلية التربية
جامعة بغداد

---

(٨) كلاينبرغ ٠٠٠ ص ١١٥ •

المراجــع

1. Allport, G. W., A Handlbook of Social Psychology, Clark University Press, (1935).
2. Allport, F. H., Social Psychology, Houghton Mifflin, (1924).
3. Brown, J. E., The Psychology of Social Order, (1936).
4. Cantril, H., The Psychology of Social Movements, (1941).
5. .... Tensions That Cause Wars, University of Illinois Press, (1950).
6. Davis, A., & J. Dollard, Children of Bondage, (1940).
7. Davis A., & B.B. and M.R. Gardner, Deep South, University Press, (1941).
8. Dollard, J. and Associates, Frustration And Agression, (1939).
9. Klienberg, Otto, Tensions Affecting International Understanding, Social Sciece Research Coucil, Bulletin 62 New York, (1950).
10. Lewin, K., Resolving Social Conflicts, Harper & Brothers, New York, (1948).
11. Landies, K., & D. Page, Modern Society And Mental Diseases, New York, Farrary & Rinehart, (1938).
12. Murphy, G., In The Minds of Men, Basic Books, Ince., New York, 1952.
13. Newcomb, T.M., Social Psychology, The Dryden Press, New York, (1950).
14. Rogers, G.R., Dealing With Social Tension, (1948).
15. Stagner, R., Psychology of Personality, New York, McGraw-Hill Book Company, Inc., (1948).
16. Webster, New International Dictionary, Second Edition.

العلاقة بين مدارس علم النفس والتطبيقات التربوية[١]

ارنســـــت هيلغارد
ترجمة أمجد حسين

ثمة مدارس تعددت فى علم النفس • وثمة وجهات نظر تباينت حول كيفية الاستفادة منها فى التطبيق التربوى • وازاء هذا وذاك لايملك المدرس الا ان يتلمس دربه بصعوبة بين مفاوزها واجماتها • وفى المقال التالى يلقى البروفسور هيلغارد ، عميد قسم علم النفس بجامعة ستانفورد ، ضوءا على المشكلة • ويظل المقال ، وان كتب قبل اكثر من ثلاثة عقود ، رائعا فى تشخيص القضية ورسم الاسلوب السليم لتناولها •

أ • ح •

ان شيوع مدارس علم النفس ، الـذى أدى الى ظهور كتب تحمـل عناوين « مدارس علم النفس لعام ١٩٢٥ » ، « مدارس علم النفس لعام ١٩٣٠ » و « مدارس سبع لعلم النفس » لينعكس بصورة مهمة على الوضع العلمى لعلم النفس • ترى ، هل يميل علماء النفس الى المنافسة فيما بينهم ، بحيث يتعين على عالم النفس الذى يسعى الى النجاح أن يبتدع مدرسة خاصة به ؟ هل انتظمت الحقائق المدروسة بشكل مقنن بحيث صار بمقدوره ان يتناولها وفقا لاهوائه الشخصية ؟ تلك هى الأسئلة التى يطرحها المرء اذ يطلع لاول مرة على خصام علماء النفس • ان صراعاً مميتاً كهذا قمين بالحاق الاذى بسمعة علم النفس فى مجال المهنة التربوية ، حيث كانت سمعته فى الاوج على مر الزمن • ان التربية بحاجة الى علم النفس ، اما اذا استمر علماء النفس على وضعهم المهزوز هـذا بشأن علمهم فقد يصبح لزاما على التربية ان تقيم لها علم نفس خاصا بها •

---

(١) المقال مترجم عن كتاب •

Educational Psychology, edited by Arthur, P. Colodaric, Dryden Press, 1955.

العلاقة بين علم النفس
والتطبيقات التربوية

لقد كانت تأثيرات علم النفس على التربية مهمة في الماضي • وقد تصلح ثلاثة امثلة اساسا لتشخيص طبيعة مساهمات علم النفس هذه •

١ - تطبيق اختبارات الذكاء :-

لنتدبر ، كمثال اول ، الدور الذى لعبته حركة اختبارات الذكاء • لقد جذبت اختبارات الذكاء الانتباه بصورة قوية ، اكثر من اى عامل آخر ، الى حقيقة الفروق الفردية ، والى ضرورة اخذها بنظر الاعتبار • وهذه ادت الى تجميع الطلاب حسب المقدرة ، كشكل واحد من اشكال الاجراءات الادارية التى تستهدف خلق الانسجام مع الظروف • وبصرف النظر عما اذا كان هذا ناجحا أم لا ، او كانت نتائجه مرغوبة أم لا ، فليس من شك فى اناختبارات الذكاء هى التى أدت الى اعادة النظر فى تقسيم الطلاب الى مجموعات • وهناك أثر آخر لاختبارات الذكاء هو اشاعة الاهتمام فى نمو المقدرات العقلية ، المعروفة اليوم بالنضوج ، بحيث صار لزاما - مثلا - ان تقنن النشاطات ، كالشروع فى القراءة ، وفقا للمقدرات المتطورة بشكل سليم •

ليست حركة اختبارات الذكاء وقفا على اية مدرسة واحدة • اذ ان هناك تناقضات متعددة داخل الحركة نفسها ، يأج أوار بعضها هذه الايام بسبب - الى حد ما - من الاكتشافات غير السليمة التى وجدت فى آيوا • على ان الدراسات التى اجريت فى شيكاغو وستانفورد وآيوا وفى اى مكان آخر ، لا يمكن ان تصنف على اساس انها دراسات سلوكية أو من رأى التنبيه - الاستجابة أو كشتالتية • انها ابحاث مخلصة استعملت فيها اساليب مقبولة لدى المنطق العلمى ولا يمكن انتقادها الا من زاوية كفاءة القائمين بها لا من زاوية النظرية النفسية العامة التى تكمن وراءهم •

٢ - الصحة العقلية :-

وكمثال ثان لتوضيح مساهمة علم النفس فى التربية ، يمكننا أن نذكر حركة الصحة العقلية وتأكيدها على علم النفس التكوينى ، وبصورة خاصة على دور الانفعال • لقد أسهم علماء نفس عديدون فى هذا المجال كستانلى هول Hall وواطسون Watson وبيرنام Burnham ، وبشكل غير مباشر فرويد Freud وان كان عبر آراء هؤلاء • ولربما لم تكن لاية تجربة نفسية مفردة من الاهمية المدرسية ما توازى اهمية الشرطية

الانفعالية لخوف الصبى البرت من الجرذى • فهذه التجربة وان لم تكن مقنعة جدا من الناحيةالعلمية ، لكن الدرس الذى قدمته كان من الوضوح بحيث لعب دوراً ، شبيهاً بدور خرافة عيسوب [٢] ، فى حث المدرس على الاحتراس من بث الاتجاهات السيئة لدى المتعلم وفى مراقبة الآثار الانفعالية ودرجات تحصيله • فالتأكيد الحالى على استمرارية نمو الشخصية وعلى اعتبار الطفل كلا ينحدر بصورة كبيرة من حركة الصحة العقلية •

فالصحة العقلية ، مثلها مثل اختبارات الذكاء ، لا تخص أيا من مدارس علم النفس المتباينة • واذا كان لاية مدرسة الحق فى ادعاء ملكيتها فهذا الحق يخص علماء التحليل النفسى ، بالرغم من ان فرويد هو أقل من يلقى اهتماما فى صفوف علم النفس التربوى دون علماء النفس الآخرين • لقد كان واطسون والسلوكيون على جانب كبير من الأهمية فى تقديم وجهة نظر فرويدية بقالب معدل • كما ان التفسير السلوكى المنظم لفرويد يستمر على الظهور فى الوقت الحاضر ، كما فى المؤلف الاخير فى الموتورية (الصراع) frustration الصادر عن جامعة ييل [٣] • ولكن حركة الصحة العقلية ، فى معظمها ، كانت حركة مستقلة عن النظريات عموما ، فقد تطورت عن الخبرة المستقاة من دراسة الحالات الخاصة اثناء العمل الاجتماعى ، ومن دراسات الطفولة والمراهقة ، ومن الخبرة العملية لمرشدى المدارس • والواقع انه ليس ثمة سوى حاجة قليلة لتعريف المدرسة النفسية المسؤولة عن مفاهيم الشخصية المتكاملة ، أو الطفل ككل ، هذه المفاهيم الشائعة اليوم • لكن البعض يحلو له أن يفترض احيانا بأن هذا التأكيد متأت كجزء من رد الفعل الذى حدث لدى الكشتالت ضد تجزيئية السلوكيين • ان هذا افتراض خاطىء تأريخيا • اذ يستطيع المرء فى الواقع ان يجد تعابير « الكائن الحى ككل » و « الشخصية المتكاملة » فى مقدمة كتاب « علم النفس من وجهة نظر سلوكى » الذى كتبه السلوكى المتطرف جون بى • واطسون قبل عشرين عاما [٤] • ولقد مر أجل طويل منذ ان اصبحت هذه المفاهيم جزءا من علم النفس الحياتى لادولف مير meyer ، هذا المذهب النيورو سايكياترى neuropsychiatric ذو الأثر الجسيم فى هذه البلاد •

---

(٢) Aesop = كاتب خرافات اغريقى عاش بين ٦٢٠ - ٤٥٦ ق٠ م٠ -المترجم- ٠

(٣) J. Dollard and Others, Frustration and Aggression, Yale Univ., 1939.

(٤) John B. Watson, Psychology from the Standpoint of a Behaviorist, Philadelphia : J. B. Lippincott Co., 1919.

٣ - رد الفعل ضد الضبط الرسمي (٥) :-

لعل اكثر الاصلاحات التربوية اهمية في هـذا القرن كان رفض مفهوم الضبط الرسمي ، اضافة الى ماتلا ذلك من اغناء المنهج المدرسي بالفعاليات والخبر التي تنتقى - بصورة رئيسة - لا لكي تدرب العقل ، ولكن لاسباب اخرى ، وفي الغالب بسبب من اهميتها العملية في الحياة اليومية • ان هذا المثال الثالث على التبدلات التي احدثها علم النفس في حقل التربية قد حصل في نفس الوقت الذي رفض فيه ما يسمى بعلم نفس الملكات ليحل محله علم نفس (التنبيه - الاستجابة) الذي كان ثورندايك أبرز مؤيديه • فلو كانت تجارب ثورندايك - التي بدأها مع وودورث عام **١٩٠١** - قد انتهت الى نتائج مغايرة لكان من المحتمل جدا ان يتبدل اتجاه التطبيقات التربوية • أي ، لو اظهرت التجارب بأن المواد المدرسية التقليدية ، كاللاتينية والرياضيات ، أفضل من المواد المدرسية الاخرى من ناحية امكانياتها في التدريب ، لكان من المحتمل أن تستطيع الفئات المؤيدة لهذه المواد أن تحول التيار بنجاح الى صالح مواد جديدة • لقد كان لمبدأ ثورندايك أثر مهم على هذه المدارس ، هذا المبدأ الذي أوجز محتواه الى ان صار يعبر عن مبدأ « اننا لا نتعلم سوى الاشياء التي نمارسها » • لقد كان له أثر مفيد بصورة متميزة في تشجيع الفعاليات المهمة ذات الدلالة • وكان له الناتج الثانوي السيء في التأكيد على الفصل بين الفعاليات ، حيث لم يكن من المفروض تعلم اكثر من بضع علاقات واضحة لا غير •

ان المثال الثالث يبدو وكأنه يناقض نتائج المثالين السابقين من ان التقدم التربوي قد حصل بمعزل عن اية مدرسة معينة من مدارس علم النفس • اذ ان رد الفعل ضد الضبط الرسمي يبدو مرتبطا ارتباطا وثيقا بنمط ثورندايك في التفكير السايكولوجي •

مرة اخرى ، ان هذا الاستنتاج غير صحيح تأريخيا • فان تجارب ثورندايك لم تخلق الحركة المناهضة للضبط الرسمي ، اذ انها لم تفعل سوى ان قدمت دعما علميا للحركة التي كانت قد اتخذت مجراها حتى قبل ثورندايك بزمن ليس بالقصير • ولنتدبر الفقرة التالية من السياسة التربوية :

---

(٥) يقصد بالضبط الرسمي = formal discipline = ويترجمه البعض « الترويض العقلي » ، وقد ارتأيت التزام الحرفية هنا في محاولة لتثبيت المدلول اللفظي للمصطلح ، بدلا من « الترويض العقلي » لافتقار هذا الى الشمول •

- المترجم -

« ان المنجنى الطبيعى والخاصية المتميزة لعقل كل طفل يجب ان يؤخذا بنظر الاعتبار كأشياء مقدسة فى تربيته . ان تقسيم العمل العقلى - هذا الشيء الجوهرى فى المجتمعات المتمدينة لاجل ان تنمو المعرفة ويزدهر المجتمع - يقتضى اعطاء هذا الاعتبار لتكوين كل عقل ، بقدر ما تعطى سعادة أقرب الناس الينا من اعتبار » (٦) .

لقد كان الاعتراف بواقع الفروق الفردية واهمية التربية للمجتمع والسعى الى اسعاد المتعلم ، قد اقترحه تشارلس دبليو . اليوت عام ١٨٦٩ ، أى قبل انتخابه رئيسا لجامعة هارفرد . وفى غضون السنوات القليلة التى تلت ذلك أقيم فى هارفرد نظام الدروس الاختيارية . ولاشك ان آثار ذلك على اسلوب التربية كانت أكثر أهمية فى مجال استبدال الضبط الرسمى من التجارب القليلة التى اجريت فى مجال نقل التدريب بعد ثلاثين سنة ، وعلى وجه التأكيد أكثر أهمية من قبول قواعد ثورندايك النظرية الخاصة .

ويبدو ، بعد ذلك ، ان هناك مبررات للاستنتاج بأن عددا اكبيرا من - ان لم يكن اغلب - المساهمات التى قدمها علم النفس الى التطبيق التربوى لا يعتمد على صحة اى من المدارس المختلفة دون الاخريات .

تأثير « مدارس »
علم النفس

لم يعمد المربون لحد الان الى العمل وفقا لهذا الاستنتاج . وكقاعدة ، فانهم لايرضون بتبنى مساهمات علم النفس التى تعتمد على التجارب الممحصة فى شؤونهم ، لكنهم سعوا الى ربط التطبيقات التربوية بشكل مطلق الى هذه او تلك من مدارس علم النفس الشائعة فى الوقت الحاضر . ان هذا الاتجاه الرامى الى الاعتماد المطلق على وجهة نظر متحيزة قد ادى الى عدد لا حصر له من المواقف المحرجة حينما يتضح للعيان بأن المدرسة المتحيز لها لم تعد جديرة بذلك . ان من نتائج هذا الهوس السايكولوجى انه يجعل من الكتب المدرسية المقررة عديمة النفع فى الظروف المستحدثة ، ومن المبررات التى اعطيت لتطبيقات مقبولة غير ذات قيمة دفاعية ، وتؤدى الى اشاعة الموتورية لدى المعلم الذى يصبح علم نفسه متاعا قديما . ولنستعرض بعضا من الكلمات الرنانة التى

---

(٦)
Charles W. Eliot, "The New Education"; Atlantic Monthly, Feb., 1869.

عزفتها مختلف مدارس علم النفس ، كل في حينها ، وكان القصد منها ان تكون النغمة الاساسية في البرامج التربويه : فثمة اولا «الادراك الحسي الحاد apperception» الذي تقادم عليه الزمن بحيث لم تعد الخطوات الخمس لتستعاد اليوم الا لغرض دراستها كجزء من تاريخ التربية . ولكن هذا كان علم نفس صحيحا في مدارس التربية ، ولابد ان كان هناك من المدرسين من كانوا يشعرون بتخلخل في اساليبهم التعليمية اذا ما هوجمت تلك القواعد الاساسية . ثم جاءت الغرائز بعد ذلك ولبثت زمنا ما . وقد اعطت الغرائز شيئا من الضمان لدعاتها ، فان في الطبيعة الاصلية للطفل اشياء معينة يمكن الاستناد اليها في هذا المجال . ثم سرعان ماغدت الغرائز شيئاً محرماً . وحل ربيع مبدأ (التنبيه ـ الاستجابة) وقواعد ثورندايك في الاستعداد والتمرين والتأثير . وصار القارىء لاكثر الكتب المقررة شيوعا في اوائل العشرينات ، يجد فيها دعوة ضمنية الى رفع مبدأ (التنبيه ـ الاستجابة = S—R) شعارا في جميع صفوف علم النفس . ثم جاء « الفعل الانعكاسي المشروط » لينحي ثورندايك جانباً ، وصار كل ما على المعلمين فعله هو أن يطوفوا هنا وهناك ليقولبوا الطلاب وفق هذا المبدأ . ثم جاء الدور لاستبداله بمدرسة الكشتالت او Organismic Psychology (٧) مع كلمة الاستبصار insight كلازمة لها . وفي الوقت نفسه كان لنا شأن مع العقد وادوات الدفاع عن الذات defense mechanisms وما شابهها ، لكن هذه ظلت بصورة ما في اطراف الدراسة .

ان قائمة بهذه المصطلحات التكنيكية تظهر لنا مدى الزيف الذي قد تؤول اليه خدمات علم النفس للتربية لو قبلت هذا الخدمات من غير نقد . فالمعروف ان في التربية حساسية خاصة اتجاه الصور الجديدة التي تصاغ بها حقائق قديمة ، ومرد تلك الحساسية ، ربما ، الى انتشار نفوذ معاهد المعلمين التي لاتني تطالب باساليب تعليمية جديدة . ليس هناك من ضرر يتأتى من الاساليب الجديدة ، اذ غالبا ما يكون لصياغة الاشياء صياغة جديدة أثر نافع . لكن الخطر كامن في القول بأن علينا ان ننبذ القديم من أجل الجديد ، أو في ايهام الآخرين بوقفية التطور العلمي في حين اننا نؤكد طوال الوقت على استمرارية نمو الفرد . وان من الخطأ الافتراض بأن لاية مدرسة نفسية

---

(٧) يبدو ان تطورات قد تمت فيما بعد باعدت بين الكشتالت وعلم النفس الاورغانيزمي ، فلم يعد بالامكان استعمال احد المسميين بدل الآخر ـ المترجم

جديدة تأثيرا آنيا شديد العمق على التطبيقات التربويــــة ، حتى ولو افلحت فى تغيير القاموس التربوى تغييرا كبيرا • ولاجل ان نثبت ملاحظاتنا هذه ، لنتفحص الادعاءات التى تنطلق الآن على لسان الكشتالت أو علم النفس الاورغانيزمى •

لقد قدمت مدرسة الكشتالت مساهمات مهمة متعـــددة الى التجريب النفسى والى النظرية النفسية • ما فى ذلك شك • على ان النقطة المراد بحثها الآن هى : الى اى مدى تأثرت التطورات التجددية (٨) الحالية فى التربية بالتبدلات التى طـــرأت على الآراء النفسية بسبب من مدرسة الكشتالت ؟

هناك عدد من الادعاءات • منها اولا – استبدال التأكيدات السابقة على الجزئية بمفهوم الكلية • ثانيا – الميل لاستبدال تمارين التكرار مع محاولـــة لبث الفهـم أو الاستبصار • ثالثا – توجيه الاهتمام بالنضوج ، ومن ثم بالتطور الذاتى ، كنقيض للقدرات الجامدة • رابعاً – مفهوم الفرد على أنه شخصية غائية مجتهدة ، لا متعلم سلبى • ويتضمن الاخير اهمية العوامل الداخلية فى الدافعة كنقيض للعوامل الخارجية • وثمة ادعاءات اخرى ، على ان هذه تمثلها جميعا • وفيما له علاقة بالتقدم التربوى الذى حصل بنتيجة هذه الادعاءات ، هناك ثلاثة اسئلة يمكن طرحها • أولاً – هل يقدم مذهب الكشتالت معالجة ملتزمة واحدة لهــذه التبدلات المطلوبة فى التطبيق التربوى ؟ ثانياً – هل لمذهب الگشتالت أى ادعاء مطلق فى ابتداع هذه المقترحات ؟ ثالثاً – هل جرت التحقيقات لمعرفة ما اذا كانت هــذه المقترحات ذات نفع للمعلم أم لا ، تحت تأثير مذهب الكشتالت ؟ •

فى الجواب على السؤال الاول يمكن الاعتراف بان من الممكن ارساء قواعـــد فلســفة مربوية تجددية باستعمال لغة الگشتالت • وقد كان هذا فى الواقع هو الشيء الاول الذى جذب مدرسة الگشتالت الى النظريين التربويين • على ان هناك تحفظـــا واحدا فى هذا المجال ينبع من حقيقة ان علم نفس الگشتالت نفسه ليس عـــلى نمط واحد ، وان جميع العلماء الگشتالتيين لا يتفقون • وهكذا ، فليس ممكنا ان تنحـــدر فلسفة تربوية من نظرية الگشتالت بصورة آلية •

---

(٨) آثرت ترجمة progressive بكلمة « تجددية » بدلا من « تقدمية » تجنبا للمعنى السياسى الشائع للاخير – المترجم –

ويجب ان يرد على السؤال الثاني بالنفي ، وهو الخاص بأصل هذه التطبيقات كنتيجة لمذهب الگشتالت • ان قيمة التمرين بالتكـــرار كنقيض لقيمة الفهم مشـكلة قديمة : فالعلاقة بين نشاط الجزء الى الكل كانت قد شخصتها مدرسة ديوى فى ايامها الاولى ؛ وكانت حركة اختبارات الذكاء مهتمة بقضية النضوج بقدر ما اهتم بها أى عالم گشتالتى ، ولقـد اجريت تجارب عديدة على نمو الحيوان والانسـان بمعـزل — يكـاد يكون كليا — عن تأثير الگشتالت • وأخيراً ، فان لقضـية غائية الشـخصية واجتهادها تأريخا طويلا فى علم النفس • فقد سمى ماكدوگل نظامه بعلم النفس الهورمى hormic لان الغاية كانت تكون المفهوم الرئيس فيه • وحينما كان وودورث يهاجم ماكدوگل ، قام بتطوير علم النفس الدينمى للدوافع (drives) والتوتر فى نفس القالب الـذى تستعمله حاليا لجنة منبثقة عن رابطة التربية التجددية [٩] • وبصرف النظر عما اذا كان الگشتالت قد فسر هذه المشاكل القديمة ام لا فمن الجلى انه كان هنـاك تطـور دائم انسجم معه الگشتالت ، اكثر من كونه اتخذ اصلا من الگشتالت • ومن تقرير الواقع ان نقول بأن الگشتالت كان اضعف ما عليه فى حقلى التعلم والدافعة ، واقـوى ما عليه فى الحقل الذى يصيبه اليوم اكبر اهمال فى المناقشات التربوية ألا وهو حقل الادراك الحسى •

والسؤال الثالث ، ذو الاهمية بالنسبة للمعلم ، هو الى اى مدى أثر الگشتالت على الابحاث التى جعلت المبادىء الجديدة ذات فائدة للمعلم ؟ وفى هذا الصدد ليس سجل الگشتالت بالسجل القوى • ان نظرية الاستبصار لا تخبرنا كيف نعلم الضرب على الآلة الطابعة بصورة اكثر اقتصادا ؟ ونظـرية النضوج لا تجهزنا بالمفـردات لاستعمالها فى كتب قراءة الصف الرابع مثلا • ان اولئك الذين اسهموا اكثر مـن غيرهم فى هذه المشاكل الجوهرية لا يقرنون بشكل قوى بأية مدرسة معينة • فقضايا النضوج ، كتلك المتضمنة فى الاستعداد للقراءة ، لم تكن لتنتظر مجىء الگشتالت انما كانت تدرس لعدة سنوات خلت • وان تأليف كتب القراءة على اساس عدد المفردات فى كل منها وتدرج صعوبتها لم يكن من تلقين الگشتالت ، والواقع ان اسم ثورندايك

(٩) « العلم فى التعليم العام » تقرير لجنة وظيفة العلم فى التعليم العام ، لجنة منهج المدارس الثانوية ، رابطة التربية التجددية • Progressive Education Assoc. توجد مناقشة موضوع التوتر فى صفحتى ١٧ و ١٩ • ولو ان الاقتباسات مأخوذة عن بودة Bode وديوى فانها متساوقة مع آراء وودورث الاولى •

هو البارز في هذا الميدان • اما مشاكل الدافعة في المدرسة فاننا نعتبرها مشاكل تخص الصحة العقلية • ولم يكن مفهوم الطفل السوى السعيد المتخلص من ايـــة صراعات مقلقة بالمفهوم الذى قدمه الگشتالت • وفى الوقت الذى تنطلق الآن بضع دراســات قيمة من مختبر لفين Lewin الذى يتفرع علم نفسه من الگشتالت ، فانه سيكون اول من يقر بان الهيكل الفكرى لدراساته مدين فى دافعه الداينمى نفرويد اكثر منه للگشتالت •

لا يمكن ان تفسر المناقشة الماضية على انها انتقاد لعلم نفس الگشتالت • فالهدف الذى نسعى اليه هنا ليس سوى وضع الامور فى نصابها فيما له علاقـــة بالتطـورات التربوية • حتى ان النفسانيين الكشتالتيين انفسهم (فرتهايمر Wertheimer وكولر Kohler وكوفكا Koffka) لم يطلقوا ادعاءات مبالغا فيهـــا بخصوص المساهمات التربويـــة لنظرياتهم • على أن هناك رغبة عارمة تعتمل لدى المربين هذه الايام فى ارجاع كـل ما هو حسن فى التطبيقات التربوية التجددية الى هذه المدرسة بالذات ، على الرغـم من ان لهذه التطبيقات تأريخا طويلا ومحترما بمعزل عن مذهب الگشتالت • فهنـــاك فرق بين انطباق هذا التطبيقات مع جانب ما من جوانب الگشتالت وبين الاعلان عنهـا على اساس انها نتاج مذهب الگشتالت ، كما لو ان مدرسة الگشتالت قد ضمنت هذه التطبيقات • فضمانها يجرى اليوم ، كما كان يجرى دائمـا ، عن طريق الاختبـــار التجريبى ، بالنسبة لمقاييس قيمنا الحالية •

فسرعان ما سيفقد الگشتالت ، بهذا الشكل ، هويته • لقد كان هذا مصيـر كافة الحركات السابقة التى تبلورت قبل اوانها • وها قد تجلت علائم الانصهار والتحـــلل فى التغييرات التى قدمها ويلر Wheeler وبركنز Perkins (وفى قوانينهمـــا الاورغانزمية التى لا يقبل بها اى عالم گشتالى آخر) ، وفى الاسماء الجديدة التـــى اطلقت على تطويرات لفين المهمة (علم النفس الطوبولوجى وعلم نفس القوى Vector Psych.) وفى التوفيقات التى عقدت مع المدارس النفسية الاخـــرى ، كتلك التى عقـــدها تولمان Tolman (السلوكية الغائية) •

وسيجتاح تلامذة التربية الذين نشأوا على مذهب الگشتالت ، ذات يوم ، نفس الشعور بالحيرة الذى انتاب زملاءهم الاكبر سنا الذين نشأوا على المذهب السلوكى • وسيقولون لانفسهم : « كيف يمكن لهذا الشىء الجيد والكامل ان يفشل هذا الفشل المطبق ، واين ترانا سنتجه لايجاد ما يدعم تطبيقاتنا التربوية ؟ » •

علم النفس كمساعد
خاص فى التطبيق التربوى

اذن ، ثمة تناقض • فمن الجلى ان التطبيقات التربوية تعدلها التطورات التى تحصل ضمن علم النفس • ومع ذلك ، فليس لنا ، نحن المربين ، ان نجيز لانفسنا اعلان الولاء لأى من المدارس الحالية لكيلا لانجد مراسينا قد جرفها التيار • اذن ، ما الذى يستطيع المربى أن يفعل أزاء علم النفس ؟

من الممكن اعطاء جواب طارىء واحد : تعرفوا على علم النفس ولا تعطوا اهتماما اكثر مما ينبغى الى مدارس علم النفس ! فعلم النفس علم متطور ذو تغييرات مثيرة ، ولكن ليس له من التغييرات الثورية الا القليل • احترسوا من القضايا النفسية التى هى من العموم بحيث تكون تطبيقاتها فى التربية غير واضحة المعالم ، واذا كان ذلك ممكناً فاضغطوا على المماحكات حتى تغدو أجوبة دقيقة على صعيد التطبيق التربوى • فباستطاعة المرء ان يجادل حتى يستحيل لون وجهه أزرق حول أيهما اكثر اهمية ، الطبع ام التطبع ؟ ولن يجد جوابا • ولكنك تستطيع ان تجد جوابا لهذا السؤال : كيف يكون بمقدورنا ان نتبين ما اذا كان تخلف بعض الطلبة عن الآخرين فى القراءة ناتجا عن قلة فى الذكاء أو خطأ فى التمرين ؟ انك لن تجد جوابا حسب ولكنك ستستطيع ان تسهم بشىء فى هذا المجال • قد يجمعك نقاش حاد حول الاساس الحقيقى لتطور المفردات ، ولكنك تستطيع ـ وانت تواجه اطفالا حقيقيين ـ ان تختبر مفرداتهم وتختار مادة القراءة لهم بحيث تكون مفهومة وملذة معا ، وستتعرف على الكلمات التى يفهمها الاطفال بما فيه الكفاية لتعلم لفظها • فحينما يواجه علم النفس مشاكل أصيلة ـ مهمة ، لكنها ممكنة الاجابة ـ يكون أقل قابلية للطعن والتقلب مما تكون عليه حاله حينما يراد منه الجواب على اسئلة اكثر عمومية وفى جو من المماحكات •

ان القول بان افادة علم النفس تأتى على شكل مساعدات معينة للتطبيق التربوى اكثر منها عن طريق القوانين والمبادىء العامة ، لهو اعتراف ضمنى بالوضع الحالى

للعلم ، غير انه ايضا ادراك للدور الشرعي الذي يلعبه العلم في ميدان التكنولوجي .
ولو كانت نظريات علم النفس العامة في وضع أفضل لانبثقت تطبيقات تربوية اكثر عن قوانينه في التعلم والدافعة وما شابه ذلك . ولكن حتى في علم متقدم كعلم الفيزياء فان العديد من تطبيقاته محدودة متخصصة ولا تنحدر من قوانينه العامة . تأملوا ، على سبيل المثال ، في استخدام المهندس للفيزياء اثناء الاستفادة الصناعية اسبيكة جديدة . اذ يتوجب على المرء ان يجري تجارب على السبيكة نفسها بغية ايجاد مقاومتها لسريان الكهربائية وقوة تمددها ومقاومتها للتآكل ومعامل تمددها وما الى ذلك . فان الكثير من هذه المعلومات مسجل في كتيبات يرجع لها المهندسون . فالنقطة المهمة هنا هي ان هذه الحقائق المعينة تخص سبيكة معينة وليست مشتقة من نظريات نيوتن او آينشتاين الا من طرف بعيد جدا . والعديد من المشاكل المدرسية التي تواجه المربي هي على ذات المستوى من التحديد والتخصيص الذي عليه مشكلة السبيكة التي تواجه المهندس فهنا تجد أطفالاً ذوي مفردات لغوية معينة ، ولعل قسماً منهم يتحدث بلغات أجنبية ؟ وهنا تجد الاشياء التي يرغب الاطفال في اللعب بها في عام ١٩٣٩ ، بصرف النظر عما كانوا يلعبون به عام ١٩٠٠ ؛ وثمة المصادر الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المحلي . فهذه المشاكل ينبغي ان تبحث بصورة تخصيصية بوضعها كما هي ، تماما كما ينبغي على المهندس أن يختبر السبيكة بصورة تخصيصية . ان هذا الرأي سيظل قائماً حتى لو غدا علم النفس منظما كعلم الفيزياء .

ان الدرس الذي تقدمه لنا هذه المقارنة مع المهندس هو ان مهمة علم النفس التربوي ستظل قائمة حتى لو تمت مهمة علم النفس العام . فثمة ميدان لعلم النفس التربوي . وهذا يثير السؤال حول علاقة علم النفس التربوي الى علم النفس التجريبي العام .

يحمل بعض الناس مفهوما يتعلق بعلم النفس التطبيقي يفيد بأن هناك علما واحدا فقط يمثل علم النفس ، وليس بالامكان تطبيقه الا بعد تعلمه . وان من اللغو التحدث عن علم النفس التربوي وعلم النفس العدلي وعلم النفس الطبي . فليس هناك الا علم النفس وحسب ، وهو الذي يمكن تطبيقه في التربية والحقوق والطب . وقد يبدو هذا الرأي منطقيا بادىء الامر الا ان اي دارس لتاريخ العلم سيتبين الطبيعة المزيفة لهذا المفهوم ، ذلك لان تقدم العلم التطبيقي لا يمكن ان يلبث منتظرا تقدم العلم الصرف Pure ان علم تصفية المعادن metallurgy لا يمكنه ان ينتظر كيمياء المعادن ، وان مربي

الحيوانات لا ينتظر علم الاجناس ، ولم يكن مخترع الماكنة البخارية فطحلا فى الـ Thyrodynamics اذ ان هناك تلاحما مستديما تطرح خلاله العلوم الطبيعية مشاكل للعلم الصرف ، ويمضى العلم الصرف متلمسا تطبيقات لها • وما كان للتكنولوجى ان ينتظر العلم الصرف ، تماماً كموقف الطبيب الذى يرفض معالجة مرض لا يدرك كنهه •

ان ضرورة حل المشاكل العلمية الملحة تمنح عالم النفس التربوى شيئا من الاستقلال ، ولكن من الخطأ الفادح أن توسع الثغرة القائمة بين علم النفس التربوى وعلم النفس التجريبى العام ، هذه الثغرة التى طالما سمح لها بالتوسع وعلى وجه خاص داخل معاهد التعليم العالى عندنا • فقد يستطيع شخص واحد ان يلعب دور كل من عالم النفس التربوى وعالم النفس العام ، او ان بالمستطاع ان يتعاون المربى وعالم النفس التربوى • اذ الواقع ان الرأى الذى ندافع عنه هو استقلال حقل معين من علم النفس التربوى • فثمة شيء واحد ليس من صلب علم النفس التربوى الا وهو أن علم النفس التربوى ليس محاولة لاستيعاب اكتشافات علم النفس التجريبى العام بغية اعطاء النصائح التربوية ، وما هو عملية تعليق لهذه الاكتشافات على الحائط كتلك الشعارات الكثيرة التى تعلق فى المدارس كى تكون منارا يهدى المربين فى تطبيقاتهم • ذلك لان اية محاولة للقيام بهذا العمل ما لها الى التعود الخاطى على وضع المقارنات بين مدارس علم النفس ، هذا التعود الذى يشيع هذه الايام فى حقل علم النفس اذ ان على علم النفس التربوى ، بدلا من ذلك أن يتفهم علم النفس التجريبى العام لغاية اقرار قواعده فى التطبيق المدرسى ولغاية تحقيق هذه القواعد باسلوب ذى فائدة المعلم(١٠) ويجب ان تحل المشاكل العملية للمدارس وفقا للتعليمات النفسية التى اختبرت على مستوى مقارب لذلك المستوى الذى اجريت فيه التطبيقات • فتجارب الدافعة التى اجريت على الحيوانات لا يمكن ان تستعمل عن طريق المقارنة لتوجيه التطبيقات التربوية مع تلامذة المدارس ، لكننا قد نستطيع أن

---

(١٠) ان فرص التجريب فى المدارس غنية بما فيه الكفاية بحيث يصبح بالامكان استخدام التطبيقات المدرسية نقطة انطلاق لاكتشاف قواعد نفسية عامة ، كما يمكن استخدامها نقطة انطلاق لاقرار تلك القواعد (تمحيصها) • على ان هذا ليس بالمجال الخاص لعالم النفس التربوى ، على الرغم من انه ذو نفع مهم يستطيع ان يزود به علم النفس •

تتعلم أشياء مهمة من تجارب الحيوانات تدفعنا للتقصى والتجريب مع تلامذة المدارس . وقد تبعث تجارب التداخل الرجعي(١١) retroactive inhibition التى اجريت على المقاطع اللفظيـة عديمة المعنى فى المرء وعياً لظـاهرة التداخل الذى يحصـل بين الفعاليات المتعلمة ، ولكن اذا اراد المرء ان يعرف مدى العرقلة التى تقف امام الطفـل المتعلم لغتين بسبب من تداخل نظامى اللغتين فان عليه ان يدرس حالة الطفل الـذى يتكلم لغتين . فعالم النفس التربوى هو الذى يلعب دور المجرب فى المدارس .

قد يبدو هـذا التأكيد على الاجـراءات العملية مقللا من اهمية علـم النفس فى التربية ، وعلى الاخص ما له علاقة بالجوانب الاوسع من السياسة التربويـة . ان هـذا وارد . اذ ان بالامكان القول ، كحد ادنى ، دون ان نخشى الوقوع فى تناقص كبير ان علم النفس سيظل مرشدا مهما لاية فلسفة تربوية خاطئة ، وان تصبح اية فلسفة تربوية شيئا مقبولا متى ما كانت لا تثبت امام الحقائق والقواعد النفسية المقررة . فلدى تكوين أية فلسفة تربوية مقبولة هناك اعتبارات اجتماعية وأخلاقية ليست فى متناول علم النفس . فالنموذج الديمقراطى ، مثلاً ، يتلقى بعض الاسناد من علم النفس ولكن بصورة غير مباشرة وحسب . ولعل الدراسات النفسية تستطيع ان تبين بأن الاجواء الديمقراطية تنتج الانماط التى نحب من الشخصيات غير ان علم النفس بمفرده لا يستطيع ان يؤكد لنا بأن علينا ان نحب ذاك النمط من الشخصيات فهذه قضية حضارية واخلاقية . واذا قدر لعلم النفس ان يأخذ مكانا مهما فى فلسفة التربية فمن الضرورى ان تكون هناك عملية نقد وتمحيص دائمية يضطلع بها علماء نفس مدربون ، يجرون دراساتهم على الاطفال داخل المدارس . فما الحاجة الا هذه . وليست ثمة حاجة الى حواريين يدعون الى نظم نفسية جديدة تثير المماحكات .

---

(١١) ولعل من الافضل ترجمة المصطلح بـ « العرقلة الارتجاعية » ـ المترجم ـ.

ترجمة : أمجد حسين

قاعدة أيلر للاجسام الصلدة متعددة الوجوه(*)

للسيدة رينة سرسم

من قسم الرياضيات

ان متعدد الوجوه هو الجسم الصلد الذى سطحه مكون من عدد محدود من المضلعات • فالمنتظم منه هو ما كانت مضلعاته متطابقة وجميع زواياه متساوية عند الرؤوس كما فى شكل (٣) • اما البسيط فهو الذى لا تخترقه ثقوب ، اى ان سطحه يقترب من سطح الكرة كفاية له كما فى شكل (١) •

شكل (١) متعدد الوجوه البسيط

(*) البحث مترجم عن كتاب What Is Mathamatics لمؤلفيه Herbert Robbins & Richard Cowrant
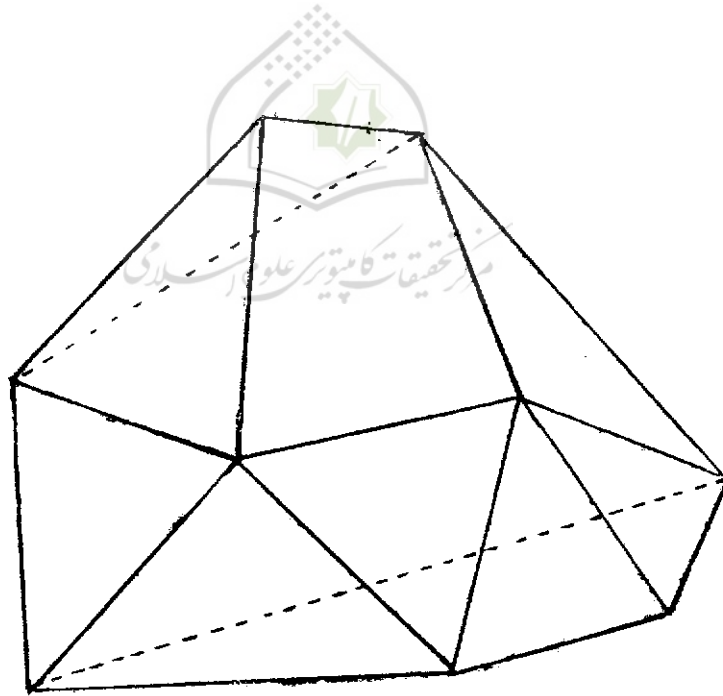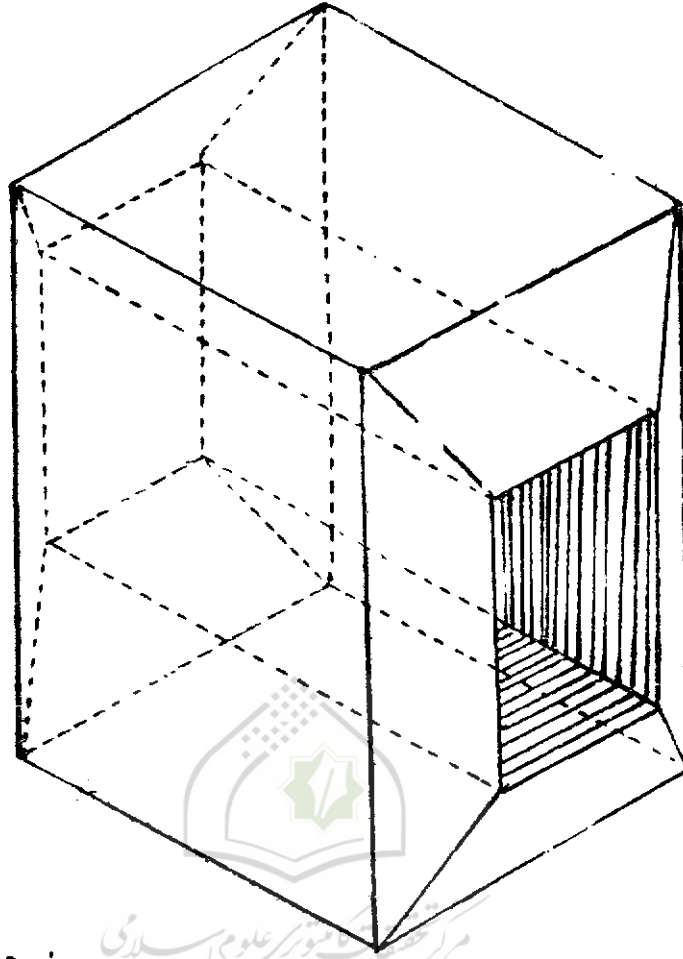
شكل (٢) متعدد الوجوه غير البسيط

شكل (٣) متعدد الوجوه المنتظم

(أ)

(ب)

(جـ)
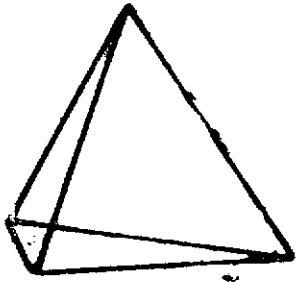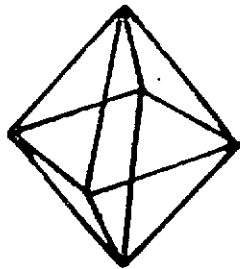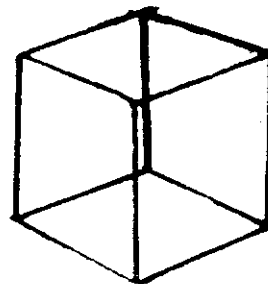
رغم ما بذله الاغريق القدماء من جهود ناجحة فى دراسة خواص مثل هذه الاجسام • فان أيلر وديكارت بعد زمن ليس بالقصير توصلا الى الحقيقة التالية :ـ

فى الجسم الصلد متعدد الوجوه والبسيط ، اذا كانت ر تمثل عدد الرؤوس ، ح تمثل عدد الاحرف ، و تمثل عدد الوجوه ، فانه دائما :ـ

ر - ح + و = ٢ ..... (١)

هذه القاعدة تنطبق على متعدد الوجوه البسيط فقط •

البرهان

اولا ـ تصور ان لدينا جسماً متعدد الوجوه البسيط ، فارغ من الداخل ، وسطحه مكون من طبقة رقيقة من المطاط ، اى انه فى حالة قطع احد وجوهه فان ما تبقى من السطح يمكن سحبه وتحويله الى سطح مستوى • نتيجة لهذا السحب فان مساحة الوجوه سوف تتغير وكذلك الزوايا بين الاحرف • ولكن شبكة الرؤوس والاحرف فى السطح المستوى الجديد سوف يكون لها نفس العدد من الرؤوس والاحرف التى كانت لمتعدد الوجوه قبل قطع ذلك الوجه • اما عدد مضلعات السطح فقد نقص بواحد • ففى الشبكة المستوية تكون العلاقة

ر - ح + و = ١

واذا اضفنا واحد الى عدد الوجوه (الوجه الذى كان قد قطع) ، نحصل على المعادلة :

ر - ح + و = ٢

وهى لمتعدد الوجوه البسيط

ثانيا ـ نقسم الشبكة المستوية الى مثلثات وذلك بوصل اقطار المضلعات المختلفة كما فـي شكل (٤) .
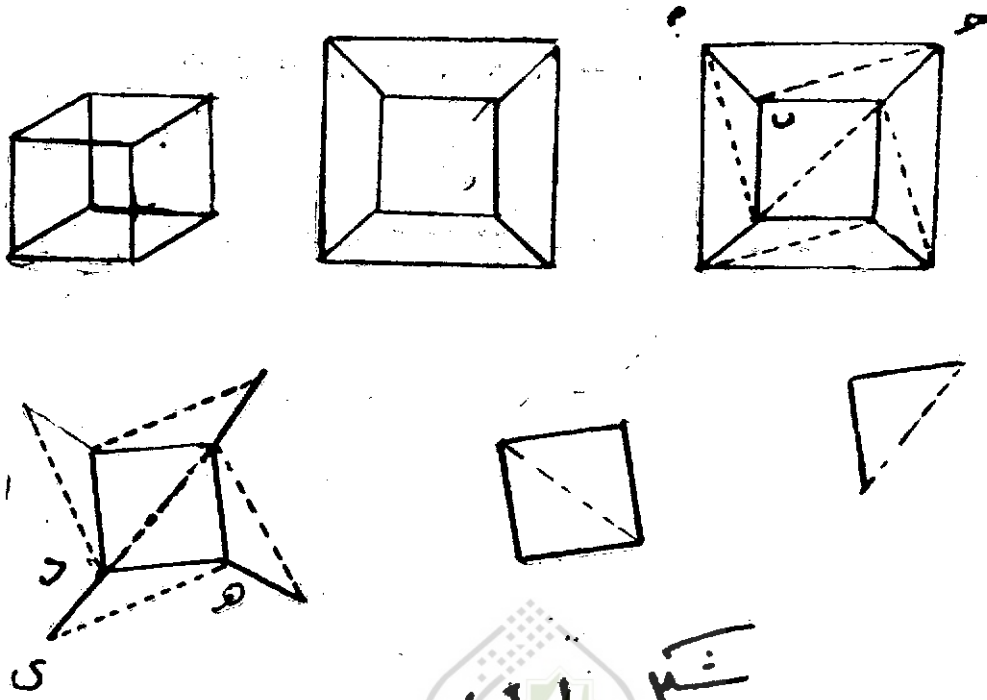
شكل (٤)

كل قطر يرسم يزيد ح بواحد وكذلك و . اى ان المقدار ر - ح + و يبقى محافظا على قيمته .

ان محيط هذه الشبكة المستوية مكون من بعض اضلاع قسم من مثلثاتها . فمنهم مثل △ ا ب حـ له ضلع واحد فقط على المحيط ، بينما آخرون لهم ضلعان على المحيط لنأخذ اى مثلث على المحيط ونرفع اجزاؤه التى لا يشاركه فيها اى مثلث آخر . فمثلا فى △ا ب حـ نرفع الضلع ا حـ وكذلك الوجه ، تاركين الرؤوس ا ، ب ، حـ والضلعان اب وب حـ .بينما من △ د هـ ى نرفع الوجه ، والضلعين دى و ى هـ وكذلك الرأس ى .

فى حالة △ ابجـ فان ح و كذلك ونقصا كل بواحد،بينما ر لم تتغير.اى انالمقدار ر - ح + و حافظ على قيمته .

اما فى حالة △ دهى فان نقص بواحد ، ح نقص بأثنين و و نقص واحد . اى ان المقدار ر - ح + و حافظ على قيمته ايضا .

بمتابعة هذه العملية ، اى رفع المثلثات من على محيط الشبكة المستوية ، بصورة متتالية ، لا يتبقى من الشبكة المستوية سوى مثلث واحد له ثلاث رؤوس وثلاث اضلاع ووجه واحد .

$$ر - ح + و = ٣ - ٣ + ١ = ١$$

اى ان اقتطاع المثلثات بصورة متتالية من على محيط الشبكة المستوية لم يؤثر على قيمة المقدار ر - ح + و ، والتى كانت تساوى ١ لمتعدد الوجوه البسيط المرفوع منه وجه واحد .

$$\therefore \quad ر - ح + و = ٢$$

تكون صحيحة لمتعدد الوجوه البسيط الكامل .

ملاحظة : (لتكملة البرهان)

قد يخطر ببال السائل فيقول :ـ « لماذا لا يكون ما يتبقى من الشبكة المستوية بعد اجراء عملية الحذف المتتالية للمثلثات على المحيط ، مثلثان ليس لهما رؤوس مشتركة ؟؟ »

لضمان عدم حصول مثل هذه النتيجة ، نفرض مبدئيا ان الشبكة المستوية هي موثقة التوصيل ، اى ان اى رأس فيها يمكن توصيله بأى رأس آخر عبر عدد محدود من أحرفها .

لا يوجد اكثر من خمسة انواع مختلفة لمتعدد الوجوه المنتظم

نفرض لدينا متعدد الوجوه المنتظم الذى له و من الاوجه . كل وجه عبارة عن مضلع منتظم ذات ن من الاضلاع . وان ق من الاحرف تلتقى فى كل رأس من رؤوسه .

كل حرف ق ناتج من تلاقي وجهين

$$\therefore \quad ن و = ٢ ح \quad \ldots\ldots (٢)$$

$$و = \frac{٢ ح}{ن}$$

ثم ان كل حرف ق له رأسين

$\therefore$ ن ر = ٢ ح ٠٠٠٠ (٣)

$ر = \frac{٢ ح}{ن}$

من (٢) و (٣) واستنادا على قاعدة أيلر (١) ، نحصل على المعادلة التالية :ـ

$\frac{٢ ح}{ق} + \frac{٢ ح}{ن}$ ٠٠٠٠ (٤)

او $\frac{١}{ق} + \frac{١}{ن} = \frac{١}{٢} + \frac{١}{ح}$

نعلم ان ق $\leq$ ٣ لان المضلع يجب ان تكون له ثلاثة اضلاع على الاقل ٠

وكذلك ن $\leq$ ٣ لانه على الاقل ، ثلاثة احرف يجب ان تلتقى فى كل رأس من رؤوس متعدد الوجوه

ولكن لا يمكن ان يكون كلاهما اكبر من ٣ فى نفس الوقت ، لان هذا يجعل الطرف الايمن فى المعادلة (٤) يتجاوز ال ½ مما يمنع ان تكون الى ح قيمة موجبة ٠ ولهذا فاننا سنبحث اولا عن القيم التى تأخذها ق عندما تكون ن = ٣ ٠ ثم عن القيم التى تأخذها ن عندما تكون ق = ٣

(١) اذا كانت ن = ٣ فان المعادلة (٤) تصبح

$\frac{١}{ن} - \frac{١}{٦} = \frac{١}{ح}$

اى ان ق يمكن ان تساوى ٣ ، ٤ ، أو ٥ ٠ ٦ أو اى قيمة اكبر تجعل ح غير موجبة ٠

$\therefore$ ح = ٦ ، ١٢ أو ٣٠ على التناظر

هذه القيم تمثل على التناظر ال Tetrahedron أو ذو الاربعة أوجه المنتظم [الهرم الثلاثى المنتظم] ، ال Octahedron ثمانى الاوجه المنتظم (مثمن السطوح) وال Icosahedron ذو العشرين وجها ٠

(٢) اذا كانت ق = ٣ فان المعادلة (٤) تصبح

$$\frac{١}{ن} - \frac{١}{٦} = \frac{١}{ح}$$

ان ن يمكن ان تساوى ٣ ، ٤ أو ٥ فقط

ح = ٦ ، ١٢ أو ٣٠ على التناظر

هذه القيم تمثـــل على التناظر ال Tetrahedron أو ذو الاربعـــة اوجه المنتظم [الهرم الثلاثى المنتظم] ، ال Cube المكعب وال Dadecahedron ى ذو الاثنى عشر وجها المنتظم.

وبذا تكون الخمسة انواع هى :-

(١) ذو الاربعة أوجه المنتظم [الهرم الثلاثى المنتظم]

(٢) المكعب

(٣) ثمانى الاوجه المنتظم [مثمن السطوح]

(٤) ذو الاثنى عشر وجها المنتظم

(٥) ذو العشرين وجها .

سيبويه
أثره فى تطور الثقافة العربية ومنهجه فى البحث العلمى
(١)

للاستاذ كمال ابراهيم
عميد كلية التربية ورئيس قسم الآداب الموحد بجامعة بغداد

تمهيد :

كانت البصرة اول مدينة مصرت بعد الاسلام ، واستوطنتها قبائل العرب الفاتحة ، ومن لحق بهذه القبائل بعد ذلك وآثر الاقامة فى العراق ، وقد سبقت بناء الكوفة بستة أشهر على الصحيح وظلت رقعتها تتسع ، وسكانها فى ازدياد ونمو ، حتى ذكروا ان سكانها من رجال فقط بلغوا الى عهد المنصور خمسمائة الف رجل اذ فرق فيهم ألف الف درهم فأصاب كل واحد منهم من ذلك درهمين ، واذا كان هذا النمو المطرد المتلاحق فى سكانها ، يعطينا صورة عن تضخم هذا المجتمع الجديد ، واتساع العمران ، ويدل على المكانة التى تبوأتها البصرة فى العالم الاسلامى حينذاك ، فانه يعكس لنا صورا أخرى من الحياة الحضارية والحركة الثقافية وتطور الفكر العربى الاسلامى فى اول حاضرة من حواضر الاسلام أنشئت بعد فتح العراق •

والحق ان عوامل عدة فعلت فعلها فى ابتعاث هذه الحضارة وتنامى الحركة الثقافية والفكرية بتلك السرعة البالغة ، اذا أنها ما لبثت بعد انشائها بقليل حتى اصبحت مركزا سياسيا وعسكريا واقتصاديا هاما بحكم اطلالها على البحر وطرق البر وقربها من بوادى العرب كما اصبحت مركزا أدبيا بارزا ، ومنارا للثقافة الاسلامية يشع بنوره الساطع على البلاد الاسلامية كلها ••

سكنها فى نشأتها الاولى فريق من الصحابة ؛ ونزل فيها الامام على ابن ابى طالب (ع) واختلف اليها ، ثم سكنها سادات التابعين وعظماء العرب ورؤساء قبائلهم كالاحنف بن قيس سيد تميم البصرة والحكم بن الجارود سيد عبدالقيس ومالك بن مسمع سيد بكر البصرة وقتيبة بن مسلم سيد قيس البصرة ونظراؤهم ونزلها أنس أبن مالك وكان للحسن البصرى وابن سيرين أثر ايما اثر فى الحياة الاسلامية والثقافية الدينية فيها • كما كان للمربد أثره فى الثقافة الادبية واللغوية والنحوية ، اذ كانوا يخرجون اليه ليتناشدوا الاشعار ويلقوا الرواة ويقبسوا اللغة عن فصحاء العرب ، ويأخذ

النحاة ما يستعينون به على تصحيح قواعدهم او استنباط الجديد منها • روى القالى فى الامالى عن الاصمعى قال : « جئت الى أبى عمرو ابن العلاء فقال لى : من اين اقبلت يا أصمعى ؟ قلت : جئت من المربد ؟ قال : هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت فى ألواحى ، فمرت به ستة احرف لم يعرفها ، فخرج يعدو فى الدرجة ، وقال : «شمرت فى الغريب» اى غلبتنى (١) » وقال ياقوت فى معجم الادباء « ان الجاحظ تلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد (٢) »

وبحكم ان البصرة أول مدينة مصرت بعد الاسلام وكانت وسطا بين بلاد العرب وفارس ، فقد سكنها كثير من الفرس وخالطوا أهلها ، فكان ذلك داعية نشوء اللحن وفساد الالسنة وظهور اللغة العامية كما كان فى سواها وبحكم كونها قد غدت مركزا لعلوم الدين ولعلوم العربية اصبحت مرتاد كل طالب علم من ابناء العرب وابناء العجم جميعا ، فاتسعت حلقات العلم فى المساجد وفى غير المساجد ، وزخرت بحركة علمية هائلة ، تنهل من فيضها البلاد الاسلامية قاطبة •

وكانت الثقافة السائدة فى هذه الحلقات والمجالس يكاد يجمعها نوعان من الدراسة هما (١) الثقافة الدينية التى تشمل علوم التفسير والحديث والفقه والكلام والمواريث وما يتصل بهذه العلوم (٢) الثقافة اللغوية والادبية التى تنتظم علوم الادب والرواية والسير والامثال والنحو الصرف واللغة والعروض والقافية وما يتصل بهذه العلوم كالايام والمغازى وقصص العرب •

على ان الاتصال كان جد وثيق بين النوعين من الدراسة فأكثر الدارسين يدرسون هذه العلوم كلها او معظمها حتى اذا غلب على احدهم فى الحذق والضلاعة أحد هذه العلوم ، عرف به اكثر مما يعرف بسواه ، وقد يوغل فى التخصص به والاحاطة بدقائقه حتى يغدو اماما فيه ، فيتصدى للتدريس وعقد الحلقات ، وتقرير الحكم والرأى فى كثير من المسائل العارضة • وعلى هذا الاساس قيل : فلان فقيه وفلان راوية وصاحب أخبار ، وفلان نحوى أو لغوى ، وفلان متكلم ، او من اصحاب الرأى والجدل والقياس وهكذا ، وقل أن تجد فى هذا العصر وما بعده من لم يجمع بين هذه العلوم ويلم بها ، أو يصنف فى انواع منها ، وان غلب عليه احدها • فأبو عمرو بن العلاء جمع ما لم

(١) الامالى ٣ص ١٨٢ • المعجم ج ٦ص ٥

يجمع غيره من شعر العرب وأخبارهم والعلم بالغريب والشواهد وكان من ائمة القراء ، كما كان كذلك في النحو واللغة وكان الخليل بن احمد صاحب علوم جمة تنتظم الشعر والمعرفة بالغريب والنحو والاشتقاق والتصريف واللغة والعروض والموسيقى والنغم فاشتهر على الاكثر بما اخترع وصنف ، وقل مثل ذلك في ابى زيد الانصارى ويونس ابن حبيب وخلف الاحمر وأبى عبيدة والاصمعي وسيبويه والاخفش وغيرهم .. وكانت بداية سيبويه في دراسته هى دراسة الفقه والحديث وعلوم الدين على الغالب ، حتى دفعته لحنة من اللحنات الى ان يقبل على الخليل ليقيم لسانه على الصواب باتقان النحو ، فغلب بعد ذلك عليه واشتهر به .

اصل سيبويه ونشأته :

هكذا كانت البصرة حين غدت مرتاد كل طالب علم ، فاقبل على تلك الحلقات وشيوخها وبخاصة حلقات العربية طوائف من ابناء فارس منهم من كان يستوطن البصرة ، ومنهم من قصد اليها للتعلم ، اذ وجد أن هذه السبيل هى خير السبل الميسورة لامثالهم ، للارتزاق والتكسب عن طريق خدمة الدولة بالكتابة فى دواوينها او طريق التعليم والتأديب ولا سيما اذا بلغ بأحدهم فضله الى أن يكون مؤدب ابناء الخلفاء او الامراء أو سراة الناس ، ولذلك كانت حلقات النحويين واللغويين اكثر الحلقات حفلا بأمثال هؤلاء ، ولانهم من الجهة الاخرى اكثر حاجة الى تقويم ألسنتهم بهذه العلوم من ابناء العرب ، وان تسرب اللحن الى ألسنة هؤلاء كذلك .

وقدم سيبويه البصرة وهو غلام يفعة وضيىء الوجه جميل الطلعة حسن السمت رزين يزينه الوقار بما يبديه اكبر من سنه وديعا سمحا حسن العشرة ، فعرف بلقبه « سيبويه » وهو تركيب فارسى من لفظتى « سيب » و « ويه » اى رائحة التفاح [١] اكثر مما عرف باسمه وهو « عمرو بن عثمان بن قنبر » او بكناه وهى « أبو بشر وابو الحسن وابو عثمان » وأشهرها الاولى .

وكان مقدمه من « البيضاء » من اعمال فارس وهى من كورة اصطخر على ثمانية فراسخ من شيراز سميت هذا الاسم لبياض ظاهرها اذ كان يبين من بعيد ، واتخذها

(١) لقب بذلك قيل لان امه كانت ترقصه وهو طفل فتدعوه به ، وقيل ان من يلقاه كان يشم منه رائحة الطيب او لقب به تشبيها لوجهه بالتفاح الى غير ذلك من التأويلات ، والقول الاول ارجح لان هذا اللقب جاء به معه من فارس ، ويبدو انه منذ الطفولة .

المسلمون معسكرا لهم فى فتح اصطخر وهى بليدة طيبة تامة العمارة وافرة الخصب كثيرة الغلال . جاء فى كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى : « ولد سيبويه بقرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء من عمل فارس ، ثم قدم البصرة ليكتب الحديث » .

اما مولده فى هذه القرية فلم يحدده أحد ، كما لم يكتب من كتب عنه شيئاً ما يتصل بنسبه واسرته خلا اسم ابيه وجده ، اذ لم يكن هذا المولود الناشىء ليؤرخ له وما هو الا من غمار الناس ، ولكنا علمنا انه كان يدين بالولاء لبنى الحارث بن كعب ، على ان نوع هذا الولاء لهذه القبيلة اليمانية لم يكن فى اصله ليعرف أهو ولاء عتق ام ولاء اسلام ؟ كذلك لم يكن ليعرف بالتحديد السن التى قدم فيها البصرة وغشى حلقات دروسها ، وان كانوا قد ذكروا انه قدم اليها وهو غلام ، وقد روى عن أبى زيد الانصارى انه قال « كان سيبويه غلاماً يأتى مجلسى له ذؤابتان » .

مصادر ثقافته :

وجرى سيبويه على الطريقة التى يجرى فيها طالبو العلم حينذاك ، فحضر حلقات عدة ، وكان همه أول أمره دراسة الفقه والحديث وعلوم الدين الاخرى واتخذ من دروس العربية ما يعينه على تفهم حقائق الدين والتفقه فى احكام الشريعة وفهم القرآن الكريم ، قال القفطى (٢) : « كان سيبويه فى اوائل ايامه صحب الفقهاء وأهل الحديث » وكان اكثر من صحب من هؤلاء « حماد بن سلمة » وكان محدثاً فقيها عالما بالعربية فصيحاً بليغاً ، روى له مسلم والاربعة ، ويعد من اشياخ البصرة المقدمين ، وقد لازمه سيبويه طويلا وأخذ عنه كثيراً ، ولم ينقطع عنه حتى بملازمته الخليل بن احمد الا بزمن ، وقد ذكروا أن لحنة لحنها فى مجلس حماد دفعت به الى التزيد فى طلب العربية وملازمة الخليل ، قال صاحب طبقات النحويين : « فبينا هو يستملى على حماد بن سلمة قول النبى صلى الله عليه وسلم : ليس من اصحابى الا من لو شئت لاخذت عليه ليس ابا الدرداء ، فقال سيبويه : ليس ابو الدرداء ، وظنه اسم ليس ، فقال حماد بن سلمة : لحنت يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، انما ليس ههنا استثناء ، فقال سيبويه : لا جرم لاطلبن علماً لاتلحننى فيه ابداً ، ثم لزم الخليل » .

ولا ريب ان تعقيب سيبويه على حماد بالتصحيح على زعمه يشعر انه كان على ثقة بنفسه فى اطلاعه على العربية بما كان له من دراسات سابقة ولا حقة فيها بحيث اراد ان

---

(٢) كتاب انباه الرواة على انباه النحاة ج ٢ ص ٢٥٥

يستدرك على مثل حماد أو يخطئه فيما نطق ، ويروى صاحب الطبقات لحنة اخرى وقعت له في مجلس حماد فيقول : « وقال عبيدالله ابن معاذ العنبرى البصرى : جاء سيبويه الى حماد بن سلمة ، فقال : أحدثك هشام بن عروة عن ابيه في رجل رعف (نطقها بضم العين) في الصلاة ؟ فقال حماد : أخطأت ، انما هو رعف (بالفتح) فانصرف الى الخليل ، فشكا اليه ما لقيه من حماد ، فقال : صدق حماد ، ومثل حماد يقول هذا . ورعف (بالضم) لغة ضعيفة والصحيح رعف (بالفتح) .

ولما لازم سيبويه الخليل كان على قدم ثابتة في علوم الفقه والقراءات والحديث ، وتذكر له الروايات عدة مسائل دقيقة في هذه العلوم كانت تعرض له في حلقته او يستطرد اليها تشعر بدقة فهمه وواسع اطلاعه ، وكان تضلعه في العربية والنحو خاصة قد زاد الى نضجه واكتماله اكتمالا آخر .

تجد لذلك دلائل مما كان يقع له في حلقات دروسه او مما رواه في كتابه ، ذكر محمد بن سلمان قال « كان سيبويه النحوى جالساً في حلقته بالبصرة ، فتذاكرنا شيئاً من حديث قتادة ، فذكر حديثاً غريباً ، وقال : لم يروِ هذا الا سعيد بن أبي العروبة ، فقال بعض ولد جعفر بن سليمان : ما هاتان الزائدتان يا أبا بشر ؟ فقال : هكذا يقال : لان العروبة هي الجمعة ، ومن قال عروبة فقد أخطأ ، قال ابن سلام : فذكرت ذلك ليونس ، فقال : أصاب لله دره ! وفي كتابه اشارات الى طائفة من القراءات ، فيقول : وكان فلان يقرأ هذا الحرف وفلان يقرأ هذا الحرف ، وهذه في قراءة ابن مسعود وأمثال ذلك ما يروى له مما ينم عن مبلغ علمه باللغة ، وقد روى صاحب الطبقات عن ابن عائشة ، قال : « كنا نجلس مع سيبويه النحوى في المسجد ، فبينا نحن عنده ذات يوم اذ هبت ريح أطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقة : انظر اى ريح هي ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فرس من صفر ، فنظر ثم عاد ، فقال : لا يثبت الفرس على شيء ، فقال سيبويه : العرب تقول في مثل هذا تذاءبت الريح ، اى فعلت فعل الذئب ليختل ، فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب » . وقال ابو اسحق الزجاج [١] « اذا تأملت الامثلة في كتاب سيبويه تبينت انه اعلم الناس باللغة » .

فنرى من هذا ان سيبويه كان يمثل في شخصيته العلمية الحياة الثقافية السائدة في البصرة في هذه الفترة ، ويجمع في الحقيقة بين الثقافتين الدينية واللغوية ، وتضلع

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٧٣

منهما على ايدى شيوخ البصرة وأئمتها ، ولكنه عرف بالنحو واشتهر اذ فرغ له في النهاية أكثر من غيره ، وعقد مجلسه عليه ، وصنف فيه ، واستنبط وقاس وعلل وولد ، حتى لقب بسيبويه النحوى ، واصبح فيه حجة الحجج ، وامام البصريين وصاحب مذهبهم فيه • وهو بسبب ما عرف فيه تطرق الرواة لذكر شيوخه ومن اخذ عنهم من النحويين كما عرضوا لتلامذته ، ولم يذكروا شيوخه فى العلوم الاخرى الا عرضاً حين يتصل الخبر بدراسته النحويه تلك •

وذكروا من شيوخه فى العربية الخليل بن أحمد وهو رأس الطبقة الثالثة ، وكان سابق الحلبة فى سائر علوم العربية ، وفى استخراج المسائل النحوية خاصة ، ولو لم يؤلف فى هذا العلم ، فورث سيبويه علمه فيه وزاد عليه ، ومن شيوخه كذلك يونس ابن حبيب النحوى وهو من طبقة الخليل وانقطع للنحو اكثر من غيره ، قال أبو عبيدة ، قيل ليونس بعد موت سيبويه ان سيبويه صنف كتاباً فى الف ورقة من علم الخليل ، فقال : ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ، جيئونى بكتابه ، فلما رآه ، قال يجب ان يكون قد صدق اذ صدق فيما نقل عنى • كما أخذ عن عيسى بن عمر الثقفى وهو من الطبقة الثانية اخذ عنه النحو ، وأخذ اللغة النحو معاً عن أبى الخطاب الاخفش الاكبرو وهو من الطبقة الثانية كذلك ، كما اخذ الرواية والشعر والاخبار عن أبى زيد الانصارى والقراءات عن ابى عبدالله هارون بن موسى البصرى وروى عنه احرفاً فى القراءة فى كتابه ونقل عن أبى جعفر الرؤاسى من الكوفيين •

وهو الى كل ما أخذ عن هؤلاء الائمة الذين بلغوا فى علوم العربية الغاية وأحسنوا استخراج مسائلها وقياسها لم يقف عند هذا الحد ، لا يزيد ، ولا يأتى عليهم بجديد ، بل خرج الى بوادى العرب ، وطوف فى قبائلها وخالط الاعراب ، وشافه الفصحاء وأخذ عنهم وروى وكتب ، واستخرج المسائل وقاس وعلل بما أوتيه من علم جم وبصر نافذ ، وفطنة مدركة فزاد على ما جاء به أسلافه ، وبلغ فى ذلك الغاية ، قال ابن خلكان (١) : « كان اعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ولم يوضع فيه مثل كتابه ، وذكره الجاحظ يوماً فقال : لم يكتب الناس فى النحو كتاباً مثله وجميع كتب الناس عليه عيال » •

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٧٣

ولهذه المنزلة التى بلغ اليها سيبويه فى علوم العربية والنحو خاصة اصبح امامه الذى لا يدافع ، فلا يذكر النحو الا بسيبويه ولا يذكر سيبويه الا به حتى كأنه هو موجده ومخترعه ، وغدا فى اقواله وآرائه شاغل أهل العربية منذ كان الى يوم الناس هذا ، وما دام للعربية ظل على وجه الارض •

كتاب سيبويه :

اشتهر سيبويه بعد عصره خاصة الى اليوم بكتابه المعروف فكان فيه من الخالدين ، وعرف مذهبه النحوى فى شتى المسائل بما ضمنه كتابه هذا ، وكان للكتاب مكانة جليلة لم يبلغ اليها كتاب فى النحو آخر ، حتى غدا موضع عناية ائمة العربية وغاية طلابها ، فقدره الناس حق قدره ، وعرفوا له يده على العربية عامة ، حتى ذكر اكثرهم انه لم يؤلف مثله لا قبله ولا بعده ، وهذا الجاحظ [1] مثلا يقول : لم يكتب الناس فى النحو كتاباً مثله ، وقال : اردت الخروج الى محمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم ففكرت فى شىء اهديه له ، فلم اجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه ، فلما وصلت اليه قلت له : لم اجد شيئاً اهديه لك مثل هذا الكتاب ، وقد اشتريته من ميراث الفراء ، وقال : والله ما اهديت لى شيئاً احب الى منه • ورايت فى بعض التواريخ ان الجاحظ لما وصل الى ابن الزيات بكتاب سيبويه أعلمه به قبل احضاره ، فقال له ابن الزيات : أو ظننت ان خزانتنا خالية من هذا الكتاب ؟ فقال الجاحظ : ما ظننت ذلك ، ولكنها بخط الفراء ومقابلة الكسائى وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ يعنى نفسه ، فقال ابن الزيات : هذه أجل نسخة توجد وأعزها ، فأحضرها اليه ، فسر بها ، ووقعت منه أجمل موقع • »

على أن هذا الكتاب • على ما يعتقد — لم يكن قد ختمه صاحبه او فرغ من تأليفه حين اخترم ، ولم يكن لكثير من اصحاب سيبويه او تلامذته علم به فى حياته فلم يقرأه على احد ولم يقرأه عليه احد ، وجاء ظهوره حدثاً فاجئاً لهم ، فبهرهم بكل ما فيه ، وعكفوا عليه ، وعكف عليه من بعدهم حتى سموه « قرآن النحو » ذلك ان سيبويه فى الحقيقة لم يسمه هذا الاسم « الكتاب » بل كان غفلا من ذلك ، ولم يجر على عادة اهل زمنه فى تسميته المؤلف بأكثر ما فيه أو أهم ما فيه ككتاب الاشتقاق والمقاييس للاخفش

(١) وفيات الاعيان ج٣ص ١٣٣

والعين للخليل ، اذ كان على عزم أن يعود اليه حتى اذا فرغ منه تماماً على ما يرى وضع له عنوانه ، فلم يطل به الاجل الى ذلك ، ونجد لذلك ان الكتاب لا مقدمة له ولا خاتمة كما هي طريقة تأليف الكتب ، فأن أوله : « هذا باب علم ما الكلم في العربية ، وآخره قوله : ومثل هذا قول بعضهم « علماء بنو فلان ، فحذف اللام ، يريدون على الماء بنو فلان ، وهي عربية » .

وتداول الناس هذا الكتاب واستنسخوه واستملوا منه ، فميزوه من سواه بهذا اللفظ الذي اطلقوه عليه ، حتى عرف به وشهر ، وصار اذا اطلق لا يفهم منه غيره .

لقد حظي كتاب سيبويه أجل حظوة عند أهل العربية كافة مما لم يكن لكتاب غيره قبله أو بعده ، فما اسباب ذلك ؟ وما هذه الخصائص التي اختص به دون غيره من الكتب .. ؟ .

نستطيع ان نجمل ذلك بما يأتي :

١ - كان أول كتاب جامع في النحو ، وبهذه الصفة من الاحاطة واستيعاب المسائل ، فلم يغادر من موضوعات النحو والتصريف مسألة قد نظرت من قبل دون أن يعرض لها ، وكان ما ألف قبله من كتب في هذا الغرض قليلة لا تجاوز أبواباً منه ، او اشتاتاً من المسائل ولهذا حين ذكر لابي زيد ان سيبويه قد ألف كتاباً بألف ورقة دهش لذلك ، وظن أنه نحل أو لفق حتى وقف على ما فيه فصدقه .

٢ - معرفة أهل العربية بسيبويه من أنه ثقة صدوق في نقله وروايته فقد كان أميناً على ما حكى عن الخليل في مجالسه وما حكاه عن سواه ، فعدوا كتابه غاية في الصدق ، وحجة قاطعة في الرجوع اليه ، والاخذ عنه .

٣ - جمعه بين ايراد المسائل والامثلة والتفريع عليها ، والاستخراج منها ، والقياس على النظائر والتعليل ، فهو يجمع بين المادة العلمية المنقولة ومبادىء الفلسفة النحوية ، وكثيراً ما يقول : والقياس كذا .. او والقياس يأباه .

٤ - لما كان سيبويه قد آلت اليه امامة اهل البصرة ، كان كتابه مرجع آراء البصريين من النحاة وممثل مذهبهم النحوي ، فغدا الكتاب مرجعاً ثبتاً لهذا المذهب واتضحت فيه خطوطه ومعالمه اذ تقرر رأي رئيسه فيه .

٥ - كثرة ما فيه من الشواهد ، فقد جمع فيه من شواهد الشعر الفاً وخمسين بيتاً ، حققها وصححها واعتمدها ، ونسبها الى قائليها الا خمسين منها ، قال الجرمى : «فى كتاب سيبويه ألف وخمسون بيتاً سألته عنها ، فعرف ألفاً ولم يعرف الخمسين» اذ على الرغم من هذا التثبت الذى عرف به سيبويه فى ايراد الشواهد فقد وقع له شيء جاز عليه ، والغالب انه داخل فى تلك الخمسين ؛ جاء ان سيبويه سأل اللاحقى : هل تحفظ للعرب شاهداً على اعمال (فعل) ؟ ، قال اللاحقى فوضعت له هذا البيت ، وأدخله فى كتابه :

حذر اموراً لاتضير وآمن

ما ليس منجيه من الاعداء

وهو ما استشهد به اكثر النحاة فى كتبهم . كما أن فى الكتاب كثيراً من كلام العرب وأمثالهم .

٦ - لم يكن كتاب سيبويه مجموعة ضوابط نحوية جامدة للالفاظ والنطق بها واستعمالها ، بل كان مجلى من مجالى البيان فى الشعر والبلاغة وفصاحة الكلام ففى الشعر يستطرد الى ما له صلة بتلك الشواهد الشعرية الكثيرة ، فهو معلم أدب ونحو ولغة وبيان ، وهو فى البلاغة يعد الاساس الاول لما وضع بعد ذلك فيها من علوم ، وفيه لمحات بيانية رائعة وخطرات بلاغية مستطرفة ، وبخاصة ما يتصل بعلم المعانى وذكر اساليب التعبير المختلفة بما يقع فيها من ذكر وحذف واظهار واضمار وفصل ووصل ، ومواطن البلاغة فى استعمالاتها المتعددة كما نجد فيه نظرات فى ضروب من المجاز والتشبيه . ومما جاء فى ذلك مثلا « باب استعمال الفعل فى اللفظ والمعنى » والذى منه « ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى : « واسأل القرية التى كنا فيها » انما يريد أهل القرية فاختصر وعمل الفعل فى القرية كما كان عاملا فى الاصل ، ومثله : بل مكر الليل والنهار ، وانما المعنى بل مكركم فى الليل والنهار ، ومثله فى الاتساع قوله عز وجل : ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء » فلم يشبهوا بما ينعق ، وانما شبهوا بالمنعوق به ، وانما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذى لا يسمع . ولكنه جاء على سعة الكلام والايجاز لعلم المخاطب بالمعنى .. ثم يستشهد من قول الخنساء بالبيت :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت　　　فانما هى اقبال وادبار

فيقول فى ذلك : « فجعلها الاقبال والادبار ، فجاز على سعة الكلام كقولك : نهارك صائم وليلك قائم . »

وعلى هذا يصح ان يعد ما جاء فى كتاب سيبويه من نحو بلاغى او بلاغة نحوية البداية لعلوم البلاغة التى ظهرت بعد هذا العصر . وكان الكتاب فوق ان يكون كتاباً فى النحو فقط .

٧ - تصنيفه على اساس الابواب والفصول التى تجمع مسائل كل موضوع فى باب وفصل واستيعابه الا قليلا لكل المسائل النحوية وما يحتاج اليه طالب النحو كالكلم واقسامه والفاعل والمفعول والفعل واحكام المصدر والحال والظرف والجر والبدل والمعرفة والنكرة والمبتدأ والخبر والنسبة والاضافة والتثنية والتصغير وغيرها وهو يختلف كثيراً عما سبق تأليفه من قبل . على انه وان رتب على الابواب فكثيراً ما ترد مسائل فى باب وهى احرى ان تكون فى ابواب أخر كما ان بعض المسائل قد تتكرر فى ابواب عدة .

مصادره :

يمثل الكتاب غاية النضج التى بلغ اليها النحو العربى فى هذا العصر ، وهو يجمع بين المسائل المنقولة والفكرة النحوية ، فان سيبويه لم يقتصر فيه على رواية اقوال العلماء بل كان يوازن ويعلل ويقيس ويولد ، ويرجح رأياً على رأى ، ويستشهد باقوال من أخذ عنهم من العرب الذين يوثق بفصاحتهم ومع ذلك فيمكننا ان نرد مادة الكتاب فى اغلبها الى المصادر التالية :

١ - ما رواه عن الخليل بن احمد فى مجالسه ، وعقده بلفظ الخليل ، ولطول ما لزم الخليل كان ما اخذه عنه اكثر بكثير مما أخذه عن غيره ، ويكاد يكون اكثر مسائل الكتاب ، ويقول فى ذلك قال الخليل او سمعته من الخليل ، او يقول : سألت الخليل عن كذا ..

٢ - ما أخذه عن يونس بن حبيب النحوى ، وقد نقل عنه كثيراً ايضاً ، وقد ينقل عنه ابواباً برمتها ، فمن ذلك انه نقل عنه فصلين فى التصغير ثم قال : « وجميع ما ذكرت لك فى هذا الباب وما اذكر لك فى الباب الذى يليه قول يونس » .

٣ ـ ما رواه عن استاذه ابى الخطاب عبدالحميد بن عبدالمجيد الملقب بالاخفش الاكبر ، وقد تخرج به سيبويه والكسائى .

٤ ـ ما حكاه من اقوال شيخه ابى عمرو بن العلاء ، وقد يوازن بين قوله وقول الخليل ويونس .

٥ ـ ما تحدث به عن أبى زيد الانصارى ، فاذا قال : حدثنى من اثق بعربيته فانما يريد « أبا زيد » .

٦ ـ ما حكاه عن أبى جعفر الرؤاسى عالم أهل الكوفة وهو من اوائل من صنف في العربية ، وكل ما جاء في الكتاب بقوله : « قال الكوفى كذا .. » انما يعنيه به .

٧ ـ ما رواه هو عن العرب ومن شافههم ، فيقول مثلا : ان هذا البيت أنشدناه أعرابى من افصح الناس وزعم انه شعر ابيه ، ويقول : سمعنا ذلك من العرب ، وسمعنا من يوثق به من العرب وهكذا .

فاذا اضفنا الى كل ذلك ما اضافه هو بموازنته وترجيحه وقياسه وتعليله ، ثم ما بين ذلك من عرض المسائل والربط والتفريع والتنسيق ؛ كان الكتاب بذاته من اجل ما ألف في هذه اللغة .

كمال ابراهيم

باب النقـــد

رد على ســـــاطع الحصرى

بقلم الدكتور فاضل حسين
الاستاذ المساعد فى قسم التاريخ

نشر الاستاذ ساطع الحصرى كتابا بعنوان حول القوميـة العربيـة • وفيـه نقـد لكتابي موءتمر لوزان الذي ضم المحاضرات التي القيتها على طلبة قسم الدراسـات التاريخية في معهد الدراسـات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية • وقبل ان ابين تعليقاتي على نقد الاسـتاذ سـاطع لكتابي ابدى هذه الملاحظات :

١ ـ ان الاسـتاذ سـاطع معروف في البلاد العربية بكثرة موءلفاته والوظائف الرسمية التي تولاها في العراق وسـوريا ومصر ولست في صدد تقدير قيمة خدماته بل اترك ذلك لانصاف التاريخ واكتفي بالقول ان الاسـتاذ سـاطع لا تزال صفة المعلم لاصقة به ويعتبر ملايين العـــرب تلامـذة لـه ويخاطبهـم من على منبره بهـــذا الاعتبـــار •

٢ ـ ان اسلوبه في النقد لا يليق بالمثقف العادي بله باستاذ معروف مثله فقد كان في نقده لكتابي متحاملا متجنيا معتديا مستعديا دون وجه حق وخلافاً لاداب النقـــد العلمي •

٣ ـ ذكر الاسـتاذ اسـم معهد الدراسـات العربية العالية ولعل هذا هو سـبب تجنيه واعتدائه واسـتعدائه القراء على الموءلف والمعهد والحقائق العلمية فمن المعروف ان الاسـتاذ سـاطع كان مديرا للمعهد ثم اخرج من منصبـه فاراد التعريض بالمعهد على حساب الموءلف والقراء والحقائق •

تعليقات على المسألة الشرقية :

لست من المختصين بالمسألة الغرقية ، ويجيد الاستاذ اللغة التركية التي اعطته الافضلية في معالجة هذا الموضوع • كانت معلوماتي عن المسألة الشرقية مستقاة من مصادر غربية ولست ادعي لها العصمة ولكن تطرقي الى بحث المسألة الشرقية كان مجرد تمهيد لموضوع مؤتمر لوزان • ليس هناك خلاف حقيقي بيني وبين الاستاذ ساطع حول ما ذكره عن بعض النقاط مثل الجيش الانكشاري وفتح الجزائر والعراق واستقلال بلغاريا وانما هو اختلاف في التعبير • واما قوله عما ذكرته عن تعيين مصطفى كمال مفتشا للقوات المرابطة في ارضروم وسيواس ان ما ذكرته يخرج عن حدود الممكن والمعقول فاختلف معه فقد كان مصطفى كمال من اشد المعارضين للاتحاديين الذين ادخلوا تركيا في الحرب العالمية الاولى وخرجت منها مندحرة واحتل الحلفاء القسطنطينية وخضعت الحكومة للمحتلين فليس من غير المعقول ان يرسل الحلفاء مصطفى كمال الى الاناضول او يجبروا الحكومة العثمانية على ارساله •

مشكلة الموصل :

اقتبس الاستاذ ساطع من الصفحة ٤٧ من كتاب مؤتمر لوزان التعليق الذي كتبته عن مشكلة الموصل ويقول بعد ذلك « اني قرأت هذه العبارات بحيرة عميقة واستغربت صدور هذه الاقوال من قلم استاذ عربي يلقي محاضراته على طلاب معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية » وانابدوري استغربت صدور مثل هذا التعليق من استاذ معروف كساطع الحصري حاول ان يحشر عروبة الاستاذ المحاضر ومعهد الدراسات العربية العالية في بحث تاريخي علمي ، ايريد الاستاذ مني ان احرف الحقائق التاريخية او ابترها لكي تنسجم مع عروبتي ، ثم ماشان معهد الدراسات في تحريف الحقائق واذا كان الاستاذ ساطع موتورا من المعهد فما شأني انا وما شأن الحقائق •

وقبل ان اجيب ما اورد الاستاذ من معلومات اود ان اذكر للقاريء النقاط الاتية:

١ ـ ان ما ورد فى كتاب مؤتمر لوزان عن مشكلة الموصل فى اربع عشرة صفحة

وهو تلخيص لكتاب مشكلة الموصل الذى قدمته كرسالة للدكتوراه وعدد صفحاته (٣٣٦) صفحة . وقد ذكرت في حاشية الصفحة (٢٩) من كتاب مؤتمر لوزان ما يلي « عن مشكلة الموصل انظر كتابي مشكلة الموصل (بغداد ١٩٥٥) . رسالة الدكتوراه » فهل يريد الاستاذ ساطع ان اعيد القاء الكتاب كله بشكل محاضرات لكي تضم جميع الحقائق المذكورة في كتاب مشكلة الموصل والتى يتصور الاستاذ اننى اغفلتها او اجهلها .

٢ ـ كنت قد قدمت للاستاذ ساطع نسخة من كتابى مشكلة الموصل هدية فلماذا لم يرجع اليها حين تناول كتاب مؤتمر لوزان بالنقد غير العادل .

٣ ـ ولفائدة طلبة معهد الدراسات العربية العالية وضعت نسختين من كتاب مشكلة الموصل في مكتبة المعهد وطلبت اليهم مراجعتهما .

والآن اعود الى مناقشة الاستاذ في قضية الموصل . قال كن يجب ان ياخذ حق العرب فيها وجهودهم في سبيل الاحتفاظ بها المكانة الاولى . وجوابي ان كتاب مشكلة الموصل يعطي الجواب الشافي الوافي وكانت غلطة الاستاذ ساطع الكبرى عدم مراجعته لهذا الكتاب . فقد ذكرت في الكتاب جميع الحقائق التي كان في امكاني الاطلاع عليها ويجدها القاريء للكتاب مدونة في حدود البحث العلمي البعيد عن العاطفة والدعاية ، والقاريء الذي يقرأ الكتاب كله يصل الى النتائج التي ذكرتها في تعليقي آنف الذكر المقتبس من الصفحة ٤٧ من كتاب مؤتمر لوزان ، ولا ازال اعتقد بصحته وهو منسجم مع الحقائق التاريخية المدونة في كتاب مشكلة الموصل كل الانسجام ولا يخل بقوميتى ولا بعروبتى بل اعتقد ان الاستاذ ساطع مخطيء كل الخطأ في اعتراضه .

وقال الاستاذ ساطع ان عبارات تعليقى المذكور تنطوى على اغلاط كبيرة في سرد الوقائع وتعليلها وتقصير فضيع في بحث الوقائع الهامة منها ثم ذكر بعض الحقائق . وقد تسرع الاستاذ في اصدار حكمه عن الاغلاط والتقصير المزعومين ، هذا في الوقت الذى يحتوي كتاب مشكلة الموصل على عشرات بل مئات الحقائق المشابهة للحقائق التي اوردها وهي : (١) النقطة الاولى ان لجنة التحقيق الاممية

وجهت الى البعض اسئلة ترمي الي معرفة ما اذا كانوا يرجحون تركيا ام بريطانيا ولما علمت الحكومة العراقية بذلك احتجت بشدة وطلبت ان تكون الاسئلة على اساس التخيير بين تركيا والعراق لابين تركيا وبريطانيا · وللتدليل على اهمية هذه النقطة اورد الحديث الذي جرى بين اللجنة وبين عجيل الياور رئيس عشائر شمر · قال عجيل : « انا مع عشائري – حاربت مع الاتراك ضد الانجليز ، وبقيت احاربهم – بجانب الاتراك – من جنوب العراق حتى شماله ، وعندما استولى الانجليز على الموصل انسحبت – مع عشائرى – الى شمال ديار بكر وبقيت هناك مع الاتراك · ولكنني عندما علمت انه تكون في العراق حكومة وطنية تركت الاتراك ورجعت الى العراق « ثم يقول الاستاذ ساطع » وكلامه هذا – مع منظره الوقور والمهيب – اثر في رئيس اللجنة تأثيرا قويا جدا · (٢) النقطة الثانية حول وجود المؤيدين لتركيا في العراق وعدم انقطاع الاتصال بينهم وبين تركيا وللتدليل على هذه النقطة اورد قصة خروج احد اعضاء اللجنة الاممية الكونت تلكي الهنغاري الى اسواق الموصل وتجمع الناس حوله · (٣) النقطة الثالثة ان جميع دوائر الحكومة العراقية والاستاذ ساطع الحصري معها قدمت تقريرا يبين ما حدث في ولاية الموصل منذ زمن الحكم التركي ·

يؤسفني ان اقول ان الاستاذ ساطع قد وقع في خطأ جسيم بعدم رجوعه الى كتاب مشكلة الموصل فهو يضم هـذه الوقائع وعشرات ومئات غيرها في الصفحات (٥٩ – ١٣١) و (٢٢٠ – ٢٤٢) بصورة خاصة وبضمنها قضية الكونت تلكي (ص٦٢) وقضية موءيدى تركيا فى العراق (صفحات ٢٣٤ – ٢٣٦) والمذكرة التى قدمتها الحكومة العراقية عن طريق الملك فيصل الاول (صفحات ٦٠ – ٦١) ·

اما ادوار الحكومة العراقية الاخرى في عهد وزارات عبدالرحمن الكيلاني وعبدالمحسن السعدون وجعفر العسكري وياسين الهاشمي فاذكر منها ما يلي : – لم تدع الحكومة العراقية لحضور مؤتمر لوزان (١٩٢٢ – ٢٣) بل ارسلت جعفراً العسكري وتوفيق السويدي كمراسلين يوافيانها باخبار المؤتمر وفي مؤتمر القسطنطينية (١٩٢٤) رافق الوفد البريطانى المرحوم طه الهاشمى بصفة مستشار

وقد اخبرني المرحوم طه الهاشمي ان ارساله كان بقصد ابعاده عن العراق في تلك الفترة . وعندما حضرت لجنة التحقيق الاممية الى العراق عينت الحكومة العراقية صبيح نشأت كمرافق لممثل بريطانيا مع اللجنة . ومثل نوري السعيد الحكومة العراقية في التوقيع على المعاهدة العراقية ـ التركية ـ البريطانية لسنة ١٩٢٦ . وقد قامت بريطانيا بالدفاع عن وجهة نظرها ووجهة نظر العراق في موتمر لوزان ومؤتمر القسطنطينية وامام مجلس عصبة الامم وامام لجنة التحقيق الاممية ومحكمة العدل الدولية وفي المفاوضات مع تركيا. كل هذا يوضح دور الحكومة العراقية الضئيل وكانت بوجه عام تنطق بوحي بريطانيا . واما الشعب العراقي فكانت العاطفة الدينية عنده اقوى من الوعي القومي . هذا وقد اغفل الاستاذ ساطع الحصري ذكر حقيقة مهمة وهي ان اكثرية سكان ولاية الموصل (الوية الموصل واربيل والسليمانية وكركوك) من الاكراد وهؤلاء طبعا لايمثلون العروبة ولا التاريخ القومي العربي اما وزراء العهد الملكي البائد المذكورون فقد وقعوا المعاهدات العراقية ـ البريطانية للسنوات **١٩٢٢** و**١٩٢٦** و**١٩٢٧** و**١٩٣٠** وملحقاتها ، ووقع ياسين الهاشمي اتفاقية النفط لسنة ١٩٢٥ .

التاريخ القومي :

يبدو ان الاستاذ ساطع يفهم التاريخ بشكل يختلف عما افهمه ويفهمه المؤرخون فالتاريخ هو تسجيل جميع الحقائق حلوها ومرها واما الاستاذ ساطع فيفهمه على انه تسجيل لبعض الحقائق الحلوة المتعلقة بالامجاد القومية ، وذكر الاستاذ ساطع ان بعض الاساتذة انتقده على تحريفه الاخبار واختلاقه الامجاد وقد حاول فعلا في نقده لكتابي تحريف الاخبار واختلاقه الامجاد . ويقول الاستاذ بوجوب كتابة التاريخ القومي بالدقة التي تتطلبها النظرات العلمية والاعتبارات القومية في وقت واحد . وهذا شيء حسن ولكن الاستاذ لم يذكر رأيه فيما اذا اختلفت النظرات العلمية عن الاعتبارات القومية ايهما يفضل ويقدم واما مفهومه للقومية فيظهر انها قومية عجيل الياور مع عشائره ومنظره الوقور والمهيب وقومية وزراء العهد الملكي ، وقد ولى مفهوم القومية هذا قومية الملوك والوزراء والشيوخ ، قومية انصاف الحقائق

المتورة الحلوة ، قومية الامجاد المبالغ فيها مع امس الدابر • امـا القـومية التى افهمهـا فهي قومية زيد وعبيد من الناس قومية عامة الشعب العربي قومية الحقائق الكاملة المرة والحلوة •

كلمـة اخـيرة :

ذكرت في الفصل الثاني عشر من كتابي مشكلة الموصل (ص ٣٠١) الذي هو بعنوان « النفط العامل الحاسم في مشكلة الموصل » ما يلي : كانت الموصل للعراق مسألة حياة او موت ، ولكن النفط في التحليل الاخير عين موافف تركيا وبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وفي رأي المؤلف ان بريطانيا العظمى لم تقاتل تركيا من اجل الموصل لان التسوية السلمية اقل نفقة ولانها ارادت ان تجعل من مشكلة الموصل تهديدا متواصلا للعراق لكي تضطره على الارتماء في احضانها وتسليم النفط • ومن جهة ثانية حاولت بريطانيا مصالحة تركيا لكى تبعدها عن روسيا السوفيتية • ويرى المؤلف ان بريطانيا رفضت عرض تركيا باعطائها امتياز النفط لان العراق كان تحت انتدابها فكـان اسـهل عليهـا ان تتعامـل معـه • ولم تهتـم بريطانيـا بغير مصالها غير ان الاقدار جعلت مصالحها تنطبق مع مصالح العراق • وقد رفضت بريطانيا دائما ان يكون للنفط علاقة بمشكلة الموصل ، ويعتقد الكاتب ان سبب ذلك محاولتها عبثا التخلص من منافسة الولايات المتحدة • وقد ظهر في التسوية النهائية ان العراق الخاسر الوحيد بين جميع الفرقاء)• قال الاستاذ عباس العزاوي المحامي والمؤرخ العراقي للمؤلف بعد مطالعته كتاب مشكلة الموصل وهذا الفصل الاخير بوجه خاص لو قدم هذا الكتاب الى احدى الجامعات الانكليزية لنيل الدكتوراه لرفض وذلك بسبب الحقائق المرة الفاضحة للاستعمار البريطاني التي احتواها •

وذكرت في كتابي مؤتمر لوزان تحت عنوان «نتائج عامة» (صفحات ٦٦ـ٦٧) في الفقرة الثالثة • «شارك العرب والمسلمون في جميـع اقطارهم بعاطفة الفرح للانتصارات التي احرزتها تركيا الحديثة بزعامة بطلها ومجددها ومصلحها مصطفى كمال ضد اليونان وحلفائهم • ولكن العرب خابت آمالهم في تركيـة الحديثة وفي

بطلها حين طالبت تركيا بولاية الموصل ثم طالبت بلواء الاسكندرونة فقد اقتفت اثار الدول الغربية في حب التوسع . واذا نظرنا الى الامر من وجهة نظر العرب نتخذ موقف الناقد الشديد للموقف التركي . »

وفي الفقرة الرابعة

ويذكرنا موضوع معاهدة لوزان ومؤتمر لوزان بالسياسة الغربية في الامبراطورية العثمانية وبضمنها البلاد العربية وكيف انها كانت استعمارية توسعية وكيف لاقى العرب من سوء نتائج هذه السياسة بعد لوزان في العراق وسوريا ولبنان ومصر وبصورة خاصة فلسطين . وهذه البلاد انفصلت عن الدولة العثمانية وفقا لاحكام معاهدة لوزان . وفي ذلك عبرة وتبصرة للشعب العربي» .

لماذا اغفل الاستاذ ساطع الحصري ذكر هذه الحقائق ؟ لانها مرة المذاق ؟ ام لا تتفق مع التاريخ القومي ؟

جوانب من

النشاط العلمي والثقافي

في الكليـــة

١٩٦١ - ١٩٦٢

في كل عام تشارك كلية التربية ويشارك اساتذتها في اوجه من النشاط العلمي والثقافي داخل العراق وخارجه ويقدمون مساهماتهم في الحركة العلمية على الصعيد العراقي والعربي والعالمي • وفيما يلي عرض لبعض أوجه هذه المساهمات بين عامي ١٩٦١ - ١٩٦٢ •

مع الامـام الغزالي

فى الذكرى المئوية التاسعة لميلاده

كان المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى الجمهورية العربية المتحدة قد دعا الى اقامة مهرجان للامام الغزالى - رحمه الله - وذلك بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لميلاده • واقيم المهرجان في دمشق فى الفترة الواقعة بين ١١ - ١٥ شوال **١٣٨٠** هـ الموافقة للفترة ٢٧ - ٣١ آذار **١٩٦١** م • وقد شارك العراق فى هذا المهرجان مع سبع دول اخرى هى الجمهورية العربية المتحدة وافغانستان وتركيا والهند والسودان والاردن ونيجيريا وغينيا • وكان الوفد العراقى الى المؤتمر يتألف من السادة الدكتور مصطفى جواد الاستاذ فى قسم اللغة العربية فى كلية التربية والدكتور محمد الهاشمى الاستاذ فى قسم التاريخ • وأسهم الدكتور الهاشمى فى فعاليات المهرجان ببحث عن « العلية والاتفاق فى رأى الامام الغزالى » يجده القارىء الكريم منشورا فى غير هذا المكان من هذا المجلد •

أما مساهمة الدكتور مصطفى جواد فى المهرجان فقد جاءت على شكل حديث شامل عن « عصر الامام الغزالى واصطراع المذاهب والمقالات فيه » • وقد بدأ الدكتور جواد حديثه بملاحظة ان مولد الامام الغزالى كان « فى قرية من قرى طوس من كورة خراسان من بلاد العجم المعروفة اليوم بايران فى منتصف القرن الخامس للهجرة على ما هو متعارف عليه وكورة خراسان بحسب خارطة المذاهب الاسلامية التى وقفنا عليها البحث والتقصى كانت من مناطق مذهب الامام الشافعى - رضى الله عنه - وهى تحاد بلاد ما وراء النهر الحنفية المذهب وما وراءها من تركستان ويلتقى المذهبان عند نهر جيحون » •

ثم عرض سيادته بعد ذلك الى ميزة من ميزات العصر الذى عاش فيه الامام الغزالى الا وهى مسألة انتشار التصوف فقال « والتصوف الكامل فى الاسلام ربيب المذهب الشافعى ومن النادر ان نجده عند غيره فان وجد فذلك على سبيل الاضافة او الضيافة ، وكذلك كانت نهاية مطاف الامام حجة الاسلام الصيرورة الى التصوف لقرابته من مذهبه » • ثم تناول بحثه بعد ذاك الفتن المذهبية والخلافات التى مزقت العالم الاسلامى وخصوصاً عاصمته الكبرى بغداد فقال « وكان عصر الامام الغزالى غاصاً باصطراع المذاهب والمقالات والآراء ومن تلك المذاهب ما استغلته السياسة كما هو شأنها فى كل عصر ومصر ، ولاشك فى ان عالماً كبيراً كالغزالى لا مفر له من التأثر بما يدور حوله من أصطراع فى الآراء والمقالات وقد شمل ذلك التأثر عقيدته وسيرته » • وكانت بغداد فى عصر الغزالى مسرحاً من مسارح هذه المأساة ولكن غيرها من حواضر الاسلام كانت مثلها فى البلوى فقد « لجأت الدولة الفاطمية الى احياء الفتوة على نمط مذهبها فارسلت احد دعاة الفتوة الى الحجاز وكان رئيس الفتيان والدعاة فبلغت الدعوة الى العراق واستجاب لها قوم وأسسوا الفتوة حزباً وأحس بهم العباسيون وقبض الوزير عميد الدولة بن جبير التغلبى عن كثير منهم واستصفى اموالهم هو واتباعه وزجهم فى السجن والفتوة الاسلامية مبنية على مكارم الاخلاق والايمان والجهاد والايثار والصبر على المكاره واحتمال انواع الاذى فى مصلحة الاسلام وقد اصابها التطور تارة والتغير تارة اخرى وتلونت الواناً وتنازعها المتصوفة والعيارون والمصلحون والمفسدون حتى ادركها الخليفة الناصر لدين الله العباسى فى القرن السادس للهجرة فجددها ونشرها فى العالم الاسلامى » •

وبعد ان استعرض الدكتور جواد هذا الاصطراع الفكرى والمذهبى فى عصر الامام الغزالى وأثره على تفكير الامام قال « واود ان أختتم هذه اللمعة بانه فى عصر الغزالى تنبهت العروبة من غفلتها واستيقظت من رقودها وقد أتهم فيه الوزير فخر الدين محمد بن جبير التغلبى وزير الخليفة القائم بامر الله بانه يسعى فى احياء دولة العرب وازالة دولة السلجوقيين بما يفعله من مساعدة امراء العرب وقبائلهم وتمهيده لهم الطريق الى الحكم » •

جامعة بغـــداد

فى حلقـــة

« مشكلات التعليم الجامعي فى البلاد العربية »

نظمت الادارة الثقافية فى الامانة العامة لجامعة الدول العربية حلقة ثقافية لدراسة « مشكلات التعليم الجامعى فى البلاد العربية » • وعقدت الحلقة فى مدينة بنغـــازى فى المملكة الليبية المتحدة من ٣ ـ ١٢ مايس ١٩٦١ • وقد شاركت فى الحلقة كل من الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة وليبيا والمملكة السعودية ولبنان والمغرب وتونس والجزائر والاردن • وقد مثل جامعة بغداد فى هـــذه الحلقـة كل من سيادة الدكتور خالد الهاشمى رئيس قسم التربية وعلم النفس فى كلية التربية والدكتور جميل سعيد من كلية الآداب والمنتدب للتدريس فى الجامعة الليبية • وقدم الدكتور الهاشمى الى الحلقة تقريراً عن التعليم الجامعى فى العراق والاهتمام البالغ الذى توليه حكومـة الثورة المجيدة لهذا التعليم • وقد جاء فى هذا التقرير اشـارة الدكتور الهاشمى الى ان جامعة بغداد تتألف « فى الوقت الحاضر من ثلاث عشرة كلية هى :ـ الآداب والعـلوم والحقوق والشريعة والتربية والتجارة والتحرير للبنات والهندسة والزراعة والطـب والصيدلة وطب الاسنان والطب البيطرى • ومن ستة معاهد عالية هى :ـ معهد بحـوث المناطق القاحلة ومعهد اللغات ومعهد الادارة العامة ومعهد التربية البدنية ومعهد الهندسة الصناعية •

ويلاحظ ان جميع المعاهد الاخيرة وكذلك الاقسام الخاصة بهندسة النفط والهندسة الكيمياوية والهندسة الكهربائية والهندسة المعمارية وقسم التربية وعلـم النفس الخاص بكلية التربية لاعداد مدرسين للتربية وعلم النفس لدور المعلمين والمعلمات الابتدائيـة • كلها اضافات جديدة لجامعة بغداد فى العهد الجمهورى •

وبالرغم من ان بعض هذه الكليات قد اسست منذ قرابة نصف قرن ككلية الحقوق وكلية التربية (دار المعلمين العالية سابقا) والكلية الطبية • كما ان كلية الشريعة التـى

ضمت للجامعة مؤخرا والتي تعتبر نفسها امتدادا لكلية الامام ابى حنيفة النعمان بن ثابت مؤسسة منذ القرن الخامس الهجرى هي اقدم كلية بين كليات الجامعة على الاطلاق • فان التشريع بتأسيس جامعة بغداد قد تأخر حتى سنة **١٩٥٦** ولم ينفذ الا سنة **١٩٥٧** أما القانون الحالى رقم **٢٨** لسنة **١٩٥٨** المعمول به في الوقت الحاضر فقد شرع في العهد الجمهورى الزاهر وفى اعقاب ثورة ١٤ تموز المجيدة •

ويستدل من دليل جامعة بغداد لسنة **١٩٦٠** ومن بعض المعلومات الاحصائية اللاحقة به •••• ان جامعة بغداد اصبحت تضم حوالى اثنى عشر الف طالب وطالبة والفا وتسعاً وستين عضوا فى هيئاتها التدريسية بين استاذ واستاذ مساعد ومدرس ومعيد ومحاضر • وقد بلغت ميزانيتها المخصصة للعام الجديد **١٩٦٢/٩٦١** (مليونان وثمنمائة وخمسين الف دينار) • والجامعة تحظى بتعضيد وتأييد قويين من حكومة الثورة فقد خصصت لها فى الخطة الاقتصادية البعيدة المدى مبلغا ضخما يزيد عن خمسة وعشرين مليون دينار عراقى وذلك لتشييد جامعة جديدة فى احدى ضواحى بغداد مما سيعيد لبغداد امجاد جامعاتها الشهيرة القديمة كدار الحكمة والنظامية والمستنصرية •• ونشير فيما يأتى الى بعض مواد قانون جامعة بغداد التى تلخص الاتجاهات والاسس العامة التى ينطوى عليها هذا القانون •

١ ـ فقد نصت المادة الثالثة منه على الاغراض التى تهدف الجامعة الى تحقيقها فذكرت « انها تختص بكل ما يتصل بالتعليم العالى والدراسات العليا وتشجيع البحث العلمى والعمل على رقى الآداب وتقدم العلوم والفنون وبعث الحضارة العربية الاسلامية ورعاية القيم الاخلاقية وعلى العموم بكل ما يخدم المجتمع والاغراض القومية » ••

٢ ـ ونصت المادة السابعة « على ان اللغة العربية هى لغة التعليم فى الجامعة مالم يعتمد مجلس الجامعة فى احوال خاصة تدريس بعض المواد والموضوعات بلغة اخرى •

٣ ـ وفيما يتعلق بحرية الجامعة فقد نصت المادة الثانية منه « على ان الجامعة حرم آمن »•

٤ ـ وفيما يتعلق باستقلال الجامعة المالى والادارى فقد ضمنت المواد :ـ التاسعة والعاشرة والحادية عشرة والثالثة عشرة ذلك وكذلك المادة الخامسة والعشرين التى خولت لمجلس الجامعة صلاحيات بالاشراف على السياسة التعليمية والمالية والادارية والانضباطية للجامعة » •

٥ - اما فيما يتعلق بارتباط الجامعة وصلاحياتها فقد نصت المادة الثامنة على ان وزير التربية والتعليم يمثل الجامعة فى مجلس الوزراء ومجلس الامة •

٦ - كما جاء فى الفقرة (جـ) من المادة الحادية والعشرين « لرئيس الجامعة سلطة الوزير المنصوص عليها فى القوانين والانظمة فى كل ما يتعلق بادارة شؤون الجامعة وموظفيها ومستخدميها » ••

ويجوز ان يدعى رئيس الجامعة لحضور جلسات مجلس الوزراء او مجلس الامة فى اثناء مناقشة شؤون الجامعة ونظرا للكيانات السابقة المستقلة للكليات ولمجالسها وعماداتها التى كانت قائمة ولا تزال كذلك حتى بعد ضمها الى الجامعة ولتمتعها باستقلال ذاتى كبير فى الاشراف على شؤونها الادارية والمالية والتعليمية فان التنظيم الادارى للجامعة يقوم فى الوقت الحاضر على اساس الكلية كوحدة وليس القسم ••

واما الاقسام العلمية الموحدة للكليات الجامعية المختلفة التى كان المفروض فيها ان تتخطى الحدود الضيقة للكلية الواحدة وان تشرف بصورة عامة على سياسة التدريس والمستويات العلمية وتعيين الاساتذة للاقسام المتشابهة فى مختلف الكليات ضمانا لتوحيد مستوياتها فانها لم تستطع هدم الحواجز القائمة التى تفصل بين كلية واخرى لذلك فقد اتجهت النية فى مسودة قانون جامعة بغداد الاجد (والذى لا يزال تحت البحث) على التحول تدريجيا لجعل التنظيم الجامعى يقوم على اساس الاقسام العلمية الموحدة بدلا من الكليات المستقلة • كذلك اتجهت النية لاضافة مجلس علمى للمجلس الادارى الحالى يتألف من رؤساء الاقسام العلمية فى الجامعة كافة وبالامكان تقسيمه الى اقسام صغرى للتسهيل تكون مهمته الاشراف على الشؤون التعليمية وبكل ما يتصل بتوحيد المستويات العلمية والامتحانات والنظر فى التعيينات وتعادل الشهادات ومنح الدرجات العلمية وغيرها •

وجامعة بغداد بعد هذه الالمامة القصيرة العجلى فى استعراض شؤونها ونظامها لاتزال فى ربيع حياتها اذ لم يمض على تأسيسها الا زمن قصير جدا لا يتجاوز الخمس سنوات وهى بالرغم من الصعوبات التى جابهتها بالنسبة لدور التأسيس ومشكلاتها الرامية الى تحسين شروط الانتقاء والقبول فيها تعزيزا للنوعية ولرفع مستوياتها العلمية واستقرار الانظمة الادارية فيها وضمان الجو الجامعى الملائم لنمو اساتذتها فى المهنة وتوفير

المستويات الرصينة لطلبتها فأنها طموحة وتواقة لشق طريقها نحو التقدم والتطور بخطى ثابتة ولها من ايمانها بقدسية الرسالة التى تضطلع بها فى تربية الجيل العراقى الصاعد تربية صالحة تتفق وحاجات العراق والبلاد العربية ومن تعاون ومؤازرة اخواتها من الجامعات العربية الاخرى المثمرة والتى هذه الحلقة باكورة من ثماره ومن الآمال والامانى القومية العربية المشتركة ما تعزز ذلك وتضمن لها تذليل الصعوبات وتحقيق الامانى والمستقبل الناجح والله ولى التوفيق » •

وقد تناولت فعاليات الحلقة ثلاث قضايا اساسية من قضايا التعليم الجامعى فى البلاد العربية هى (١) تنسيق التعاون بين الجامعات فى الدول العربية كتبادل اعضاء الهيئات التدريسية وتبادل الطلبة وتعادل الشهادات الدراسية وتبادل الرحلات الثقافية والرياضية وانشاء بيوت الطلبة وتنسيق التعاون العلمى والاشتراك فى البحوث العلمية والتعاون على ترجمة المصطلحات واحياء ذكرى العلماء العرب وتبادل انشاء الكراسى والمنح الدراسية والابحاث والكتب العلمية وعناوين الرسائل الجامعية (الاطروحات) (٢) تدريس العلوم فى اللغة العربية (٣) تكوين اتحاد للجامعات العربية •

مع المؤتمر الدولى للتربية والتعليم

في بلغراد ومن٢٣/١٠/١٩٦١ الى ٢٨/١٠/١٩٦١ عقد « المؤتمر الدولي للتربيه والتعليم » الذي كانت نقابة المعلمين اليوغوسلافية قد دعت اليه واقترحت أن يكون مدار البحث فيه ••• التعاون بين المدرسة والبيئة الاجتماعية • وشارك فى هذا المؤتمر نقابات معلمي خمس عشرة دولة هى الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة والسودان واليابان وغينيا وبولندا وجيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة الاميركية وفرانسا وايطاليا والمانيا الاتحادية وهولندا والدانمارك وسويسرا والنمسا •

وقد انتدبت نقابة المعلمين فى الجمهورية العراقية سيادة الدكتور عبدالعزيز البسام استاذ علم النفس فى كلية التربية لتمثيلها فى المؤتمر • والقى الدكتور البسام فى المؤتمر خطابا حيا فيه المؤتمر وتمنى له النجاح بأسم المعلمين العراقيين ثم أستعرض تطور الحركة التعليمية فى العراق من حيث صلتها بالموضوع الرئيس لاعمال المؤتمر • وقد ناقش فى هذا الصدد خمس قضايا كبرى هى :

١ – مبدأ تكافؤ الفرص وتطور تطبيقه فى العراق وقيام الحكومة بالاضطلاع بالعبء الاكبر من مسؤوليات التعليم العام المالية والفنية وتحقيق مجانية التعليم على مختلف المستويات وتوفير الكتب واللوازم المدرسية والتغذية للمحتاجين وما صاحب ذلك من اقبال الشعب على التعليم ومطالبته بتوفيره وما يمكن ان يؤدى كل ذلك اليه من احتمال فى التحول الاجتماعى والاقلال من الفوارق الطبقية •

٢ – المدرسة العراقية من حيث هى ملتقى للطبقات كافة وما ترتب على ذلك من انعدام الازدواج التربوي ومعاونة المدرسة على التخفيف من التناقض الطبقي وتكوين روح اجتماعية موحدة •

٣ – الوجهة القومية فى التربية • وقد اكد المندوب العراقى على المحتوى الانسانى والثقافي للقومية وأهمية ذلك المحتوى فى العملية التربوية (وما يؤدى اليه من انفساخ طاقات الامة للخلق والتجديد ، وظهور شخصيتها القومية بارزة واضحة ، ذات ثقافة متميزة تساهم فى رفد الثقافة الانسانية وغناها مع السعى للحياة الانتاجية الوفيرة ، فضلاً عن وحدة الأمة السياسية • وبهذه الصورة ، التى تستثمر فيها القومية مبادىء الاشتراكية ، والتحرر السياسى ، يؤكد المربون العراقيون على غرس الروح القومية فى الناشئة العراقية ، ويرون ضرورة اضطلاع المدرسة بهذه المسؤولية) •

٤ – ثم خلص من الأمور المتقدمة الى القول بأن ما تقدم من خصائص قد جعل المدرسة العراقية اداة من ادوات الاصلاح الاجتماعى اذ هى لا تتصف بالمحافظة والجمود بل بالانطلاق والتجديد ، وهى لا تتخلف عن البيئة الاجتماعية حولها بل تعمل على توجيهها وهدايتها والتأثير فيها تأثيرا بناءا ينزع الى الشمول والتغيير •

٥ – وأخيرا لاحظ المندوب العراقي ان احدى نقاط الضعف الكبرى التى كانت المدرسة العراقية وما تزال تعانى منها هى تأكيدها على النواحي النظرية دون النواحي العملية على ان خطط التنمية الاقتصادية والمشاريع الصناعية الحديثة وحركة الاصلاح الزراعى التى اقدمت عليها الجمهورية العراقية بعد الثورة المباركة كفيلة بأصلاح هذا النقص فى النظام التعليمى ، وقد تكشفت بالفعل بعض آثار تلك الاتجاهات الحديثة فى توسيع التعليم المهني فى السنوات الأخيرة •

وفى التقرير الذى قدمه الدكتور البسام الى النقابة بعد عودته من المؤتمر أثبت المسائل الرئيسة التى تناولها المؤتمر فى مناقشاته فكانت :

١ - التطور الهائل الذى حققته الانسانية فى مجال العلم والصناعة وضرورة مسارعة المدارس للحاق بتيارات ذلك التطور واستيعاب الفتوحات والاستكشافات العلمية المتتالية ذات الاثر فى المجتمعات المعاصرة •

٢ - نزعة الشعوب المتخلفة الى الخلاص من الاستعمار وتحقيق استقلالها وتطوير أنظمتها الاجتماعية والاقتصادية واللحاق بركب الامم المتقدمة ، ودور المدرسة فى هذا المضمار •

٣ - نزعة الشعوب عامة لتحقيق التعايش السلمي والتعاون بين الامم على أسس المساواة واحترام السيادة وتجنيب الانسانية ويلات الحروب ودور المدرسة فى التبشير بهذه المبادىء الانسانية وترسيخها •

٤ - دور المدرسة فى التعرف على التطور الاجتماعى والاقتصادى الحاصل فى بيئتها وتعيين الحاجات الناشئة عن ذلك واعداد الناشئة للمساهمة فى هذا التطوروالتأكيد على الكفاية الانتاجية لديهم والتأثير على الكبار تأثيراً يزيد كفايتهم الانتاجية ومشاركتهم فى تطور بيئاتهم •

٥ - دور المدرسة فى تحقيق التوازن بين الخصائص المحلية فى الثقافة والعادات وبين المطالب القومية للامة وتحقيق وحدتها وابراز شخصيتها •

٦ - أستثمار البيئة المحلية فى مواد الدراسة واساليبها والصور المختلفة التى يمكن ان يتخذها ذلك الاستثمار •

٧ - دور المنظمات الطلابية والنقابية فى تطوير الحركات الثقافية والرياضية والفنية ومساهمتها فى تحقيق التعاون بين المدرسة والمجتمع •

محاضرة
فى اصول دراسة اللغة الانكليزية
كلغة أجنبية

فى مساء اليوم الرابع والعشرين من شباط ١٩٦٢ القى اللغوى البريطانى المعروف المستر ستانارد الن محاضرة فى قاعة كلية التربية عن « اساليب دراسة اللغة الانكليزية كلغة اجنبية » • وقد بدأ المستر الن محاضرته بالحديث عن مكانة اللغة الانكليزية كلغة عالمية وبين ان سبب المكانة التى تتمتع بها هذه اللغة يعود الى أمرين اولهما انتشار الانكليز فى العالم خلال القرنين الاخيرين وثانيهما سهولة هذه اللغة وخلوها من التعقيد • ثم تحدث عن بعض الطرق المعروفة فى تعلم اللغة الانكليزية فذكر « طريقة الترجمة » التى اهملت الآن و « الطريقة المباشرة » التى ما تزال قيد الاستعمال واحد معايبها انها لا تمكن الفرد من تعلمها انفرادياً • ثم تطرق الى ان الصعوبات العظمى فى تعلم الانكليزية هى عدم التطابق بين الاصوات اللغوية وكتابتها على اورق وضرب بعض الامثلة على ذلك •

ثم أختتم حديثه عن اهم الوسائل المساعدة فى تعلم اللغة الانكليزية وذكر الات التسجيل الصوتى والافلام السينمائية والراديو •

من الانجازات العلمية
فى قسم الكيمياء فى الكلية

تميز قسم الكيمياء فى كلية التربية بنشاط علمى وانشائى واسع هذا العام • وفى مقدمة الانجازات أعادة بناء مختبرات القسم وتوسيعها واضافة مختبرات جديدة اليها • وقد انجز العمل مع نهاية العطلة الربيعية من هذا العام الدراسى والقسم يمتلك اليوم خمسة من احدث واكبر المختبرات فى الجامعة وفى الامكان أشعال مائتين وعشرين مصباحاً من مصابيح بنزن فى آن واحد وتشغيل مائتى تلميذ فى اليوم على وجبتين صباحية ومسائية • وزودت هذه المختبرات بارسالية ضخمة من المواد والمعدات المختبرية بلغت كلفتها اكثر من ١٢٠٠٠ ديناراً •

كذلك أنجزت رئاسة الدائرة الهندسية فى جامعة بغداد تصاميم مختبر جديد لقسم الكيمياء يتألف من عشر مختبرات صغيرة وستكرس هــذه البناية الجــديدة للبحث العلمى فقط •

أما فى مجال البحث العلمى فهذه بعض منجزات اساتذة القسم :-

الدكتورو جابر الشكرى - رئيس القسم

— فرغ من تحضير مادة من الثيازول وقد ارسلت هذه المادة الجديدة الى اوربا لاجراء التحليل الكمى عليها تمهيداً لنشرها فى احدى المجلات العلمية العالمية •

— تمكن من عزل مادة يظن أنها من نوع القلويدات النباتية وقد أستخلصها من نوع من العفص الذى ينبت فى شمال العراق ، ويستعمل هذا النوع من العفص فــى معالجة امراض الرحم حسب الطب القديم •

— ينهمك بوضع قاموس كيماوى موسع لجميع النباتات المستعملة فى الكيمياء قديماً وحديثاً ويقوم هذا المشروع على تنسيق اسماء هذه النباتات فى اللغات المختلفــة واوجه أستعمالها ثم تحديد التسمية المحلية لها • وقد أنجز لحد الآن دراسة(٥٠٠) خمسمائة نبته من أصل (٢٥٠٠) نبتة التى تؤلف مشروعه كله •

الدكتور عبدالعزيز كاظم - الاستاذ المساعد فى القسم

— يقوم الآن بتنظيم دراسة فى موضوع الكوموتوكرافى وقد استطاع عزل والكشف عن اكثر من آيونين بهذه الطريقة الحديثة •

الدكتور فهد على - مدرس الكيمياء العضوية فى القسم

— أنجز ترجمة وطبع (على الرونيو) كتابين فى الكيمياء احدهما فى التحليل العضوى والآخر فى الكيمياء العضوية العامة •

سكرتير التحرير

TABLE OF CONTENTS

EDITORIAL COMMITTEE

THE PROFESSOR

AN ACADEMIC REVIEW

ISSUED BY

THE COLLEGE OF EDUCATION
UNIVERSITY OF BAGHDAD

TWO ISSUES

VOL. X

1962 / 1381

Covernment Press—Baghdad